

AMERICAN UNIV IN CAIRO LIBRARY

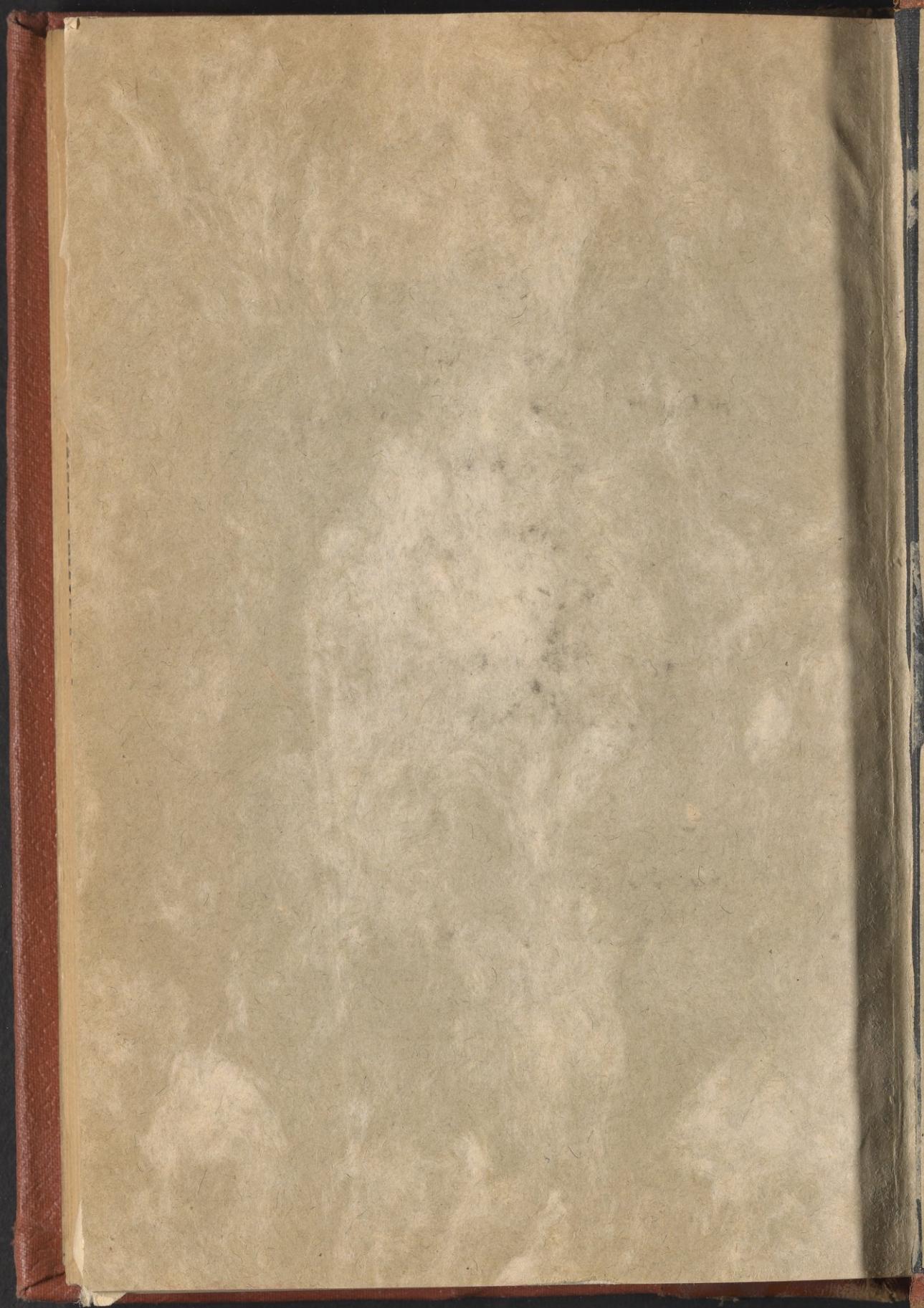


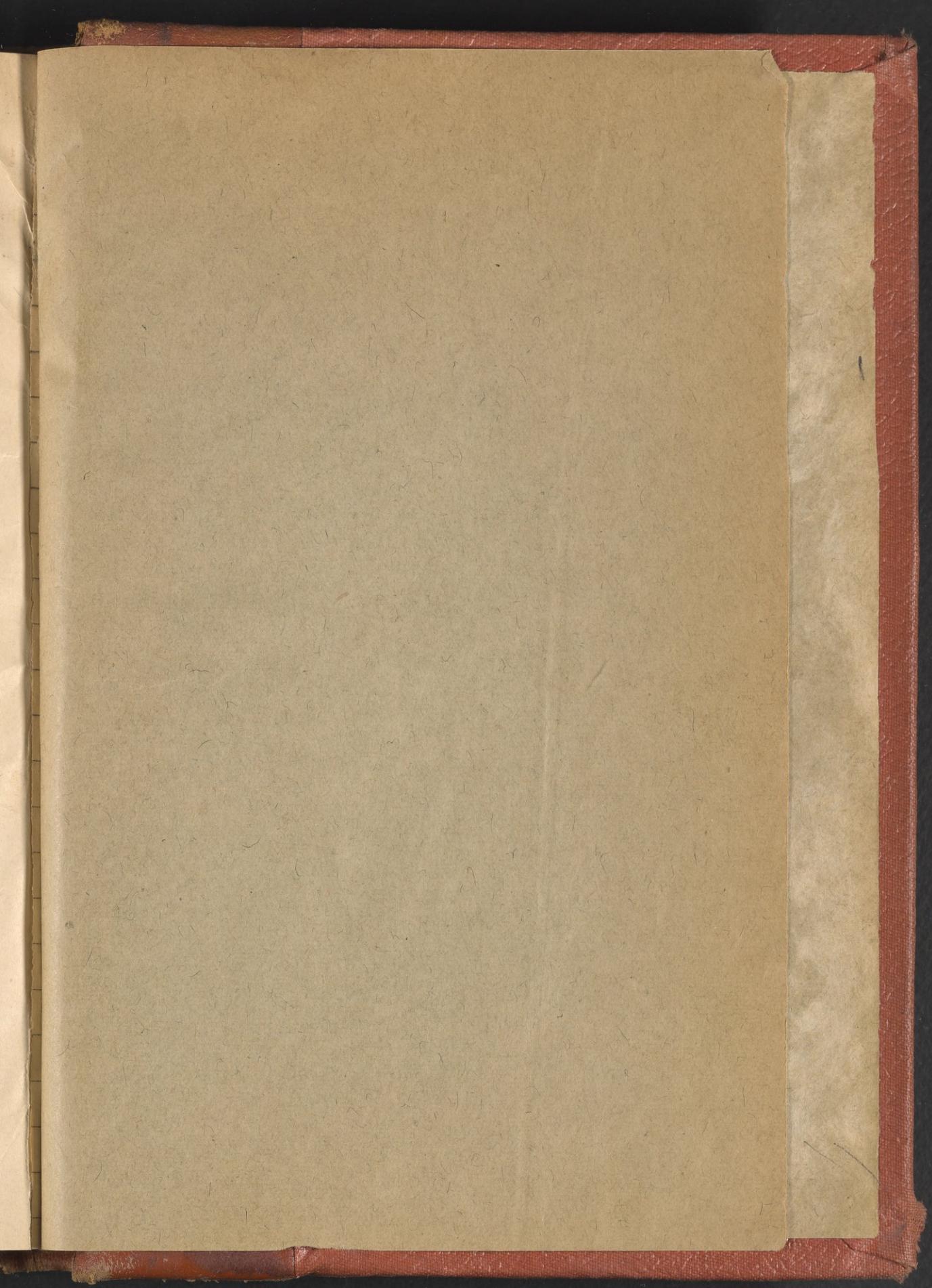
3 8534 00976 8783

11
A2
1
C

Library of
The American University
at Cairo







تراجم

مصرية وغربية

EGYPTIAN AND FOREIGN TRAVERSALS

٠٠-٢٥٥٣
pw ٢٧-٦-٠٠

للمؤلف

زينب — مناظر وأخلاق ريفية

جان جاك روسو حياته وكتبه ظهر جزءان

في أوقات الفراغ

عشرة أيام في السودان

دين مصر العام — رسالة بالفرنسية

DT
107.2

Haykal, Muhammad Husayn

A2

Tarājim misriyah wa-

H3

Gharbiyah

1929

C. I.

رَاجِمُ

مِصْرَيْهُ وَغَرْبَيْهُ

كليوباترة — اسماعيل باشا — توفيق باشا

محمد قدرى باشا — بطرس غالى باشا — مصطفى كامل باشا

قاسم أمين بك — اسماعيل صبرى باشا — محمود سليمان باشا

عبد الخالق ثروت باشا

بهوفن — قين — شكسبير — شلى

تأليف

الدكتور محمد هبته سيد بلك

مطبعة السياسة والسياسة الأسبوعية

923-1
C59h
c.2
gen

9c-
c. 29
CN

كافة الحقوق محفوظة

27388

الهداء الكتاب

إلى صديقي

الدكتور حافظ عفيفي باشا

تقديرأً لما كان الصداقته من فضل في اقدامي على كتابة كثيرة

من فصول هذا الكتاب

هيكل

last. D. 1.

Aug. 1.

Wine & water

Eng. & water & wine & water & water
Eng. & water & water

end

مقدمة

يحتوى هذا المجلد كتابين من الترجمات . فأما أولها فيتناول ترجمة مصرية لرجال هذا العصر الاخير منذ ولاية الخديو اسماعيل باشا الحكم الى وقتنا الحاضر ، خلا ترجمة لكليوباترة كتبت قبل أن تكتب هذه الترجمة جميعاً . أما سائر الترجمات المصرية فنشرت في السياسة الاسبوعية حين كانت تنشر فيها فصول رجال التاريخ الحديث في مصر ، اللهم إلا ترجمة محمود سليمان باشا فقد كتبت لمناسبة وفاته ، وترجمة عبد الخالق ثروت باشا فقد كتبت ولم تنشر في غير هذا الكتاب . وربما كانت الترجمة لرجل كثروت باشا عاش بين ظهرنا وكان له دور في حياة مصر أثناء وجودنا ، مما يتعدى اداؤه بما تقضى به الدقة التاريخية وما توجبه من تحميص ونقد . وكنت أنا شاعراً كل الشعور بهذه الدقة أثناء كتابتي هذه الترجمة . لكنني إنما تخطيت هذه الاعتبارات لأنني أردت أن أضع أمام القارئ صورة ، ولو

تقريبية ، لحياة مصر السياسية في هذا العصر الاخير . وما دامت قد بدأت هذه الصورة منذ عصر اسماعيل باشا الخديو ، فقد رأيت واجبها اقامها إلى آخر عصرنا الحاضر . ثم ما دامت بذلك بترجمة بعض من كان لهم في حياة مصر السياسية أثر ظاهر فمن حق ثروت باشا أن يكون بختام هذه السلسلة من عظماء الرجال الذين (تناولوا) على أنني ذريت أن أتفق في ترجمته عند أو قائم لما تمت وآتى التجربة

المغامرة في الفروض والظنون، حتى لا يتعرض ما أنتب عنه لنقد
يفسده وان أمكن أن يظهر فيه نقاص كثير .

فاما الكتاب الثاني فيتناول ترجمة بهوفن، وتين، وشكسبير، وشلي،
من كبار رجال الغرب . وهؤلاء إنما ترجمت لهم لمناسبات خاصة ،
ولأنني أحبيتهم منذ زمان طويل جيًّا : فلما كانت مناسبات
كمرون مائة عام على موت بهوفن أو على مولد تين أو نحوها من
المناسبات، رأيت واجبًا على هذا الحب الذي أضمر لا ولئك الرجال ،
جيًّا يعادل ما أفت من آثارهم وما حققت لي من معانٍ السرور
بها والطرب لها، وأن أثبت صورة هذا الحب بأثبات صورة من
حياتهم هي الصورة الممتدة بها نفسى منهم .

ولم يكن الاسم الذى وضعته للكتاب هو الذى دار من أول
الأمر بخاطرى . فان كلمة « ترجم » تقتضى تناول جوانب حياة
المترجم له بتدقيق وتوسيع أكثر مما عالجت أنا في هذه الرسائل .
فأنا لم أتناول، أغلب الأمر، إلا ما اعتقاده الناحية الغالبة في حياة
الشخص والتى كان لها فيه الاثر البالغ . وأنا قد تناولت هذه
الناحية في ايجاز جعلنى أختار في نفسى اسم الكتاب تؤديه الكلماتان
الانكليزيتان (Biographical Sketches) . على انى بعد البحث

مع أصحابي لم أهتد لعبارة عربية سائفة لأن تكون عنوانا للكتاب
تؤدى هاتين الكلمتين أداء دقيقاً . وفكرت وقتاً في أن أجعل
عنوانه (من صحف التاريخ) . وأشار على صديق بأن أجعل العنوان
(ملامح) . ثم انتهيت الى هذا العنوان الذى ظهر الكتاب به .
فإذا كان فيه شيء من الادعاء فليس الذنب في ذلك ذنبي وإنما هو

العجز عن أن أجده أثواب الصالح للصورة المضبوطة التي تعبر تعبيراً صادقاً عمما في الكتاب.

وكم وددت لو أني استطعت أن أحجم الكتاب كله ترجم مصرية صرفة ، بل لو استطعت أن أظهره في عدة أجزاء تصل الترجم فيهما بين عصور مصر المختلفة منذ عهد الفراعنة إلى وقتنا الحاضر . فما أشك في أن كتاباً كهذا يكشف من تاريخ مصر عن صلة عصورها بعضها البعض وعن جهود أئمييين المتصلة منذ أول التاريخ إلى عصرنا الحاضر في سبيل الحق والحرية والعرفان . على أني أعترف بأن عملاً كهذا مما لا يطيقه شخص وحده ، وما لا أطيق أنا بنوع خاص . فاني لم أشخص في التاريخ ولم تقل بي حياتي العملية نحوه إلا بعذر . ثم إن تاريخ مصر في مختلف عصورها ما يزال مبعثراً في أطوال الكتب القديمة ، لم يعن أحد ، ولم تعن الجماعة المصرية نفسها ، بالكشف عنه كشفاً علمياً صحيحاً ويتدوينه على طريقة تجعله عذباً سائغ المورد لمن يشاء أن يصل إلى الحقائق فيه من غير أن تصده الطريقة السيءة أو اللغة المضطربة أو القصد السوء . وإذا كنت قد وقفت على تاريخ مصر بشيء من الدقة في العصور الأخيرة فذلك حين كتابة رسالتى للدكتوراه في القانون عن « دين مصر العام ». فقد اضطرني ذلك إلى الانقطاع لدراسة التاريخ الحديث منذ عهد والى مصر سعيد باشا والاكتاب على هذه الدراسة شهوراً متواالية وتدوين الملاحظات والوقوف عند الاشخاص الذين كان لهم في حياة مصر السياسية أثناء هذا العصر الأخير دور خاص . وما يزال كثير مما وقفت عليه أثناء مطالعاتى ثم لم تقتض حاجة

رسالتى تدوينه بها عالقاً بذهنى مثلاً أمام خيالى صورة مصر منذ أيام محمد على وصور الكثيرين من لعبوا دوراً خاصاً في حياتها. فأما قاسم أمين فقد عنى بقراءة كتبه وكل ما كتب عنه منذ كنت في دراسة الحقوق بمصر، فتكونت في نفسي منه فكرة أحس بها دقيقة غاية الدقة. وأناح لي اشتغالى بشؤون مصر السياسية في السنوات الأخيرة أن أضبط صور من ترجمت لهم من هؤلاء جهد ما واتتني به الطاقة.

وإن كتاباً كالذى أشرت إليه حاوياً ترجم أكابر رجال مصر في عصورها المختلفة منذ الفراعنة إلى اليوم، يكون لاريب جليل الآخر في تكوين صورة تاريخية لهذا الوادى الجميل الذى نعيش فيه، صورة تظهر اتصال الحياة على ضفاف نهر المبارك منذ أقدم الأزمان إلى وقتنا الحاضر. ثم إن مثل هذا الكتاب ليدل دلالة كبيرة على بطلان الصورة الزائفة التي يضمنها مؤرخو الغرب لتاريخ مصر. فالواقع أن تاريخ بلادنا لم يضعه حتى اليوم مؤرخ منصف على طريقة علمية صحيحة، اللهيم إلا ما تعلق ببعض جوانب العصر الفرعوني من عصوره. فاما ما بعد ذلك من عصور فقد شوهه الساسة الاجانب لما ربهم الخاصة منذ القدم: شووه العرب الذين خلفوا الرومان في مصر، كما شووه نابليون حين قدومه بالحملة الفرنسية في آخر القرن الثامن عشر، ثم كان لكتاب الـ *كتاب* بعد ذلك التصيير الاولى من تشويهه تشويهاً قائماً على ذلك الأساس الاعتقادي من أن شليجل مصر قديمة ملكوها ما ينتهي تابعى شعوبها الفرعونية بأهميتها الجليلة بغير مصر، يقالونا، فهم اليونان،

ثم الرومان، ثم العرب، ثم الترك، ثم الانكليز. وشعب هذا شأنه، فيما يدعون، لا يعرف لنفسه عليه كرامة يضحي في سبيلها ولا يقدر للعزّة القوميّة معنى يثور من أجل تحقيقه. وما يزال هذا التاريخ هو ، مع الكثير من الأسف ، التاريخ الرسمي الذي درس لنا ويدرس اليوم لا بنائنا. هذا ، على أن التاريخ الصحيح والتراجم الحقة تناولت بکذب هذه الصورة من حياة مصر على تعاقب الأزمان وببطلامها .

ولست واثقاً من أن تمكنني الفرصة من الرجوع إلى تواريخ هذه العصور القديمة والى تراجم الرجال الذين عاشوا فيها لأنّ ثبت حينئذ في شيءٍ من التفصيل أن تاريخ مصر جدير بأن يفخر المصريون به أكثر مما يفخر غيرهم من أبناء أيّة أمّة أخرى بتاريخها . لذلك أسرع فأتمّت فرصة نشر هذا الكتاب المشتمل على تراجم بعض رجال مصر في العصر الآخر وعلى ترجمة كلية باترة خاصة عهد البطالسة في مصر، لأن زيف تلك الصورة التي يصورها الساسة الاستعماريون، ولا ظهر القارئ في كلام موجزة كيف دل ماتداول على مصر من ألوان الحكم على أن شعبها أعرق الشعوب حرضاً على قوميته وأكثرها تضحية في سبيل الحق والحرية والعرفان .

على أيّ قبل أن أعالج هذا البيان أود أن أثبت للاحقيقة أن بعض الذين أرثروا مصر من أهل الأمم المختلفة كانوا حسني النيّة ولكلّهم خدعوا بتمويه السياسة . وما أشك في أنهم متى اطّلعوا على هذه المقدمة الوجيزه سيعودون إلى الحق يقررونه وسيعرفون

لما في ذلك من التأريخية السامية .

ولعل ما خدع به هو لاء المؤرخون الحسنون النيه هو ما تو اضع عليه الكتاب من تبويب تاريخ مصر عصوراً أطلقت عليها أسماء أمم غير مصرية . فن بعد العصر الفرعوني يذكرون عصر الفرس ، ثم العصر اليوناني ، ثم العصر الروماني ، ثم العصر الإسلامي أو عصر العرب ، ثم عصر الترك ، ثم العصر الأخير عصر الاحتلال الانكليزي . وتبويب التاريخ على هذه الصورة من شأنه أن يدعو إلى الخطأ وسوء التقدير من جانب من لا يكفون أنفسهم مؤونة البحث في التفاصيل بشيء من الدقة . والواقع أن هذا التبويب خاطئ في أكثر مناحيه . وإذا كان صحيحاً أن الحكماء الذين تولوا أمر مصر في عصور مختلفة لم يكونوا من أصل مصرى صميم فلن يغير ذلك من خطأ المؤرخين وادعائهم خضوع مصر لأمم أجنبية عنها ، الا اذا اعتبرنا قيام ملوك كملك الانكليز على رأس أكبر امبراطورية في الوقت الحاضر ، مع أنه من أصل غير إنكليزي ، دليلاً على أن انكلترا وامبراطورية البريطانية كلها خاضعة للأمة التي يرجع إليها دم ملوكها . وهذه لغو من القول ، كما أن ادعاء خضوع مصر لأمم أجنبية عنها هي التي يرجع إليها أصل حكامها لغوا مثله . وليس هذا المثل الذي ضربنا بالمثل "الفرد ، فنابليون" امبراطور فرنسا كان من كورسيكا ، أى كان أقرب للايطالية منه لفرنسية . وأكثر الملوك الباقيين على عروش أوروبا اليوم من دماء غير دماء الشعوب التي ملكتهم عليها . وليست هذه الشعوب بذلك أقل حرية واستقلالاً وعظمة مما كانت مصر في أكثر العصور التي تعاقبت عليها . ولنعد الآن الى تاريخ مصر نفسه . فالكل يعترف لمصر الفراعنة

بأنها كانت أمة عزيزة الجائب مضيئه الحضارة على نحو لا يمكن أن
تسرب اليه الشبهة مع قيام الآثار القديمة شاهدة به محدثة عنه
بأقوى عباره وأفصح لهجهة . مع هذا فقد منيت مصر الفراعنة
بغزو الرعاة الهكسوس إياها مدة استمرت نحو تسعين سنة حتى
استرد المصريون تاج بلادهم سنة ١٥٨٠ قبل الميلاد . وظلت مصر من
بعد ذلك متحكمة في البلاد المجاورة لها ممتدة السلطان على حوض
البحر الأبيض المتوسط ، وفيه روما واليونان ، إلى أوائل القرن السادس
قبل الميلاد . هناك كانت الحضارة الإنسانية على ضفتي النيل قد
بلغت من الرق والترف ما تشهد به الآثار التي تشهد أعيننا شيئاً
منه . وهنا لما بدأ أشور ، ومن بعدها فارس ، تفكير في غزو مصر .
ومع غلبهما إياها ودخولهم عاصمة ملكها غير مرأة فأنهم لم يستطعوا ا
الاستقرار بها وتولى الحكم فيها الافتراض قصيرة انتهت في سنة ٣٣٢
قبل الميلاد .

قبيل هذا التاريخ نشأ في شمال اليونان فليب المقدوني وخلفه من
بعده الاسكندر الأكبر . وكانت الطبيعة قد وهبتهما ، وهبت ابن
بنوع خاص ، من المقدرة في القيادة الحربية ما يدخل في باب المعجزات .
وحيث يظهر في الناس لصف إله في الحرب أو في الدين أو في السياسة
ترى العالم كله يتطلع معجباً مسحوراً . وقد دوخ الاسكندر روما
وأشور والفرس ووصل إلى الهند ، ولم تكن أمة من الأمم تستطيع
مقاومته . أما أمم أوروبا الغربية والشمالية فكانت في تلك الأيام في حال
من الهمجية أشبه بحال أواسط إفريقيا اليوم مما يجعلها نكرة على التاريخ
ولا يجعل لاية مقارنة بينها وبين غيرها محل . وجاء الاسكندر إلى

الشام ففتحت أمامه مصر أبوابها في سنة ٣٣٢ التي أشرنا إليها ، لأنها رأت فيه مدوخ الفرس ، وكانت بينها وبين الفرس عداوة أشد العداوة . وبقيت مصر في حكم الاسكندر ، وإن شئت في حكم اليونان تسع سنوات ، إذمات الاسكندر في سنة ٣٢٣ق.م. ثم اختلف قواده من بعده فيما بينهم ، وكان بطليموس بن لا جوس من أقدرهم ومن أعرفهم مصر وأشدتهم حبًا لها . وإذا كانت مصر يومئذ بحاجة إلى رجل ذي مواهب حربية ممتازة يستطيع أن يصد بقوتها عدوان من يحاول الاعتداء عليها فقد اطاعت إلى بقاء بطليموس فيها مسدة فلا يهابها مستقلة هي به . وحدث ما أراد المصريون من ذلك . فأن هذا البطل من قواد الاسكندر جعل الاسكندرية قاعدة له ومنها حرب الاشوريين والفرس وحارب اليونان أنفسهم ووطد مصر سلطاناً أعاد لها ولحضارتها عز الفراعنة الذي اضطرب وتزعزع خلال القرون الثلاثة التي سبقت ولايته عرش ايزيس وأوزوريس . ومع أن بطليموس الأول هذا كان أشد حرصاً على طقوس الديانة اليونانية التي نشأ فيها فأن ابنه بطليموس الثاني كان مصرياً في دينه مصرياً في عاداته مصرياً في دمه . ولا عجب ، فمصر ، بعزلتها عن العالم لما يحيط بها من البحر في شمالها والصحراء في سائر جهاتها ، هي عالم وحده تخلق الناس فيها خلقاً وتسكب في عروقهم دماء تجري فيها روح النيل وقوة سلطانه . ولذلك كان كل الدين أقاموا بمصر إما تمثلتهم مصر فأصبحوا مصريين ، أو لفظتهم فلم يطيقوا ولم يطق أحلافهم من بعدهم بها مقاماً . وبلغ من حب بطليموس الثاني مصر وحب مصر إيه أن أصبحت الاسكندرية عاصمة العالم كله حضارة وعلمًا وإيماناً وأن اجتمعت

فيها فلسفة اليونان المادية بفلسفة مصر الروحية، ثم نشأت منها فلسفة مصرية خاصة هي فلسفة مدرسة الاسكندرية. وكانت مصر هي سيدة البحار في ذلك العصر، فكانت سياستها موضع النظر والتأويل في روما واليونان وأشور والفرس وسائر بلاد العالم المعروف حينئذ. وتعاقب البطالسة حتى كليوباترة في حكم مصر ثلاثة قرون متوالياً. تعاقب البطالسة على عرش مصر بارادة شعب مصر مسلمة لمن به مسلمة لا هو بهم قائمين باسمه ناشرين على ربوع العالم المعروف يومئذ لواءه. فهل يكون نعمت هذا العصر من تاريخ مصر بالعصر اليوناني معناه خضوع الشعب المصري لامة أخرى؟ أو يكون ذلك التصوير باطلأ البطلان كله لأن شعوب العالم ومنها الشعب اليوناني هو الذي خضم مصر في كل تلك القرون الثلاثة وكان يرى في الاسكندرية عاصمة الدنيا كلها؟

وفي أواخر عهد البطالسة بدأ نجم روما يعلو في سماء السياسة العالمية، وبدأت روما تطمع في التغلب على مصر بعد أن كانت تحظى ودها وتحشى غضبها. وكما وهبت القدر الاسكندر اقدونى المقدرة الحربية التي استطاع بها أن يتغاب على كل شعوب العالم المعروف يومئذ، كذلك وهبت هذه القدر مثل تلك المقدرة يوليوس قيصر صاحب عرش روما. فلقد ظهرت جيوش قيصر بالشعوب كلها ورفت راية روما على اليونان والشام وامتدت غزوتها في ناحية آشور ثم سارت شمالاً وغرباً فأخضعت السكسون في المانيا والفرنسيين في بلاد(الجول) وأخضعت أهل الجزيرة البريطانية لحكم قيصر فإذا كانت هذه القدر قد عصفت بمصر فلم تكن مصر بذلك متفردة

بالخضوع دون غيرها من أمم العالم. وصحيح أن حكم روما لمصر عن طريق حاكم تبعث به إليها ظل مقتبلاً قرونا عدة. لكن الصحيح كذلك أن هذا الحاكم كان يجد أثراً لامرأة أشد العنت في حكم البلاد وكان يتعرض للثورات المتأولية ققوم عليه وتضطر روما معها للإحتماء بالاسكندرية أحياناً قاركة داخلية البلاد يحكمها أهلها وتتمكن أحياناً أخرى من قمع هذه الثورات والتغلب عليها وأخضاع مصر لنير روما قهراً عنها.

والمؤرخون جمياً متفقون تمام الاتفاق على أن السكينة والامن لم يسودا مصر طول هذا الذي يسمونه العهد الروماني. فان روما كانت، كما كانت بيزانس من بعدها، دائمة الوجل من ناحية مصر من خشية أن ينقطع عنها مدد الغلال التي كانت مصر تبعث بها غذاء لأهل عاصمة العالم في ذلك الحين. ولم تكن أسباب الاضطراب يومئذ مقصورة على الناحية السياسية. بل خلق المصريون منها في سائر النواحي ما ارتباكت روما معه وما أضطررت بسببه لارتباك الفظائع التي ما يزال تاريخها ملطخاً بها. من هذه الأسباب السبب الديني. فقد كان الدين المصري القديم بعد احتلاله بالتعاليم اليونانية قد قصر عن أن يلهم الشعب ما يلهم كل دين من طهارة النفس وسعادة الأمل. وكانت المسيحية الوليدة في روما قد بدأت تنتقل إلى مصر رويداً رويداً. وكان الطبيعي أن يلقى الدين الجديد في مصر قبولًا حسناً. فقد كان اليهود في مصر كثیر العدد جداً، وكانت الديانة اليهودية تتصل في كثير بالديانة الفرعونية القديمة أن كان موسى مصر يا تلقى الطقوس أيام شبابه على كهنة إيزيس. وكان الاضطهاد الروماني مما

جعل الناس أشد إقبالا على دين يدعوا إلى الاخاء والسلام والتسامح
ويعد الجنة المحروم والبائس والمظلوم . على أن خلافا في الرأى الديني
ما لبث أن نشأ في مصر بين المتشبعين من قبل بتعاليم الفلسفة
اليونانية والآخذين بروحية الديانة المصرية القديمة . وكم آثار هذا
الانقسام الديني من خلاف ! وكم التخذ سببا خفيا للثورة على روما
ومحاربتها والتغلب في بعض الأحيان على ولايتها وحكمها واستقلال
أهل مصر بالحكم في مختلف ولاياتها .

وكذلك نرى أن مصر قد تمثلت البطالسة وهضمتهم طبيعتها
فأصبحوا مصريين كسائر المصريين وإن كانوا من أصل يوناني .
فأما الرومانيون الذين أرادوا الاحتفاظ برومانيتهم وحكم مصر على
غير إرادة أهلها فقد ظلوا تناهضهم عناصر الحياة في مصر حتى
انجلوا عنها كارهين . وكذلك كانت دورات التاريخ في مصر داعماً
فن خضع حكم الطبيعة المصرية القوية في تمثيلها من ينزل ربوعها
كان له أن يطمع في نعيمها وأن يستريح إلى خيرها ورخائها . ومن
حاول محاربة هذه الطبيعة المصرية كانت عليه حرباً عواناً . لكنها
لا تلجم في حربها إلى العواصف الاجتماعية التي تثور بجأة مرّة بعد
آخرى . كلا ! بل هي تلجم في الناحية السياسية والاجتماعية إلى مثل
ما تلجم إليه الطبيعة المصرية من شمس وهواء ونهر وأرض ورمال .
هذه الطبيعة لا تعصف بشيء أجنبي عنها ولكنها تظل حتى
تبليه وتقنيه .

وانهى حكم الرومان وعقبه العصر الإسلامي لتكتب مصر

خلاله صيف مجد في تاريخها كأمة مستقلة ناهضة باعباء الحضارة
في العالم على نحو ما كانت مصر الفرعونية، تاركة من آثار ذلك مثل ما
تركوا مما لا يزال شهيداً على العظمة والجلال وتقدير المدنية وارتقاء
آثارها من علم وفن إلى أبعد حدود الارتقاء . فقد هض العرب
منذ أوائل القرن السابع الميلادي هضرة روحية بفضل الإسلام أعقبتها
هضبة حرية قوية متاثرة بها لا تقبل في اندفاعها اكتساحاً لغيرها من
الآمم عن هضبة الاسكندر في اليونان وقيصر في روما . ولم تقف
مصر في وجه تيار هذه الهضبة لأن شامت في الدين الجديد جدة روحية
كانت تشعر بالحاجة إليها شعوراً عميقاً . فان المسيحية، على أنها دين
فضل وجمال، قد خالطت طقوسها صور من الزهد والتقطش والانقطاع
بما لا يتفق مع طبيعة وادي النيل الدائم الصفو الدائم الابتسام . وهذا
التنافر بين ابتسام الوادي وعبوس التقطش، جعل دعاء المسيحية في مصر
يبالغون في ميلهم إلى جانب الانقطاع والزهد ويفضلون العيش في صوامع
خشنة فوق رمال الصحراء الحرقـة وذلك لشرط خوفهم من زخرف
الوادي وغضارة نعيمه . وبالرغم من قيام طائفة من المصريين المسيحيين
تحاول التوفيق بين تعاليم دين عيسى وفيض النيل ببركاته فان دعاء
الزهد والتقطش كانوا أصحاب الغلب . فلما أذن مؤذن المسلمين بأن
التقرب إلى الله لا يصد عن المتعاب الدنيا ولنعميمها ، دخل المصريون في
دين الله أفراجاً وأوت مصر من العرب، حملة هذا الدين وحماته، كل من
 تستطيع أن تؤويه . ولم يكن ذلك عجباً في أرض الأنبياء ولا هو كان
عجبـاً في عصر لم تكن الفكرة القومية فيه قد نمت التنو الذي نعرف
اليوم . فالـأ ما كان المقدسة في مكة والمدينة كانت معتبرة في نظر المسلمين

جُمِيعاً حاصمة المملكة الإسلامية كـما كان الخلفاء الراشدون، ثم أصرّوا
المؤمنين من بعد، معتبرين كلة الله على الأرض تحب لهم على كل
مسلم الطاعة المطلقة، لكن غريزة القومية كانت قوية في مصر بسبب
عزلة مصر عما جاورها، يفصل بينها وبين كل جار من البحار أو
الصحراء مالا يسهل اجتيازه. لذلك لم تثبت خلافة الراشدين أن
انتهت وأن قـام يـزـيدـ بنـ مـعاـوـيـةـ أمـيرـاًـ لـالمـؤـمـنـينـ خـلـفـاًـ لـأـيـهـ،ـ حتىـ
بدأت نـذـرـ الـاتـقـاضـ عـلـىـ السـلـطـةـ المـرـكـزـيـةـ تـبـدوـ فـيـ مـصـرـ بـرـغـمـ أـنـهـاـ
كانـتـ حـلـقـةـ وـسـطـيـ فـيـ سـلـسـلـةـ الفـتوـحـانـ الـاسـلـامـيـةـ الـمـسـتـمـرـةـ الـمـتـوـالـيـةـ
ذاـهـبـةـ إـلـىـ الـغـرـبـ حـتـىـ تـصـلـ إـلـىـ مـرـاـكـشـ كـيـ يـغـزوـ مـوـسـىـ بـنـ نـصـيرـ الـانـدـلـاسـ
مـنـهـاـ مـتـخـطـيـاـ جـبـلـ طـارـقـ.ـ وـلـمـ يـكـدـ حـكـمـ بـغـدـادـ وـسـلـطـانـ الدـوـلـةـ
الـعـبـاسـيـةـ يـسـتـقـرـ وـيـطـمـئـنـ حـتـىـ بـدـأـتـ مـصـرـ تـقـومـ مـسـتـقـلـةـ اـسـتـقـلاـلـاـ
نـاجـزاـ صـحـيـحاـ:ـ اـسـتـقـلـتـ أـوـلـ أـمـرـهـ حـينـ قـامـتـ اـسـرـةـ الـطـوـلـوـنـيـةـ
بـالـحـكـمـ فـيـهـاـ.ـ وـنـازـعـ الـأـخـشـيـدـيـوـنـ الـطـوـلـوـنـيـيـنـ وـغـلـبـوـهـمـ وـاستـقـلـوـاـ
بـعـرـشـ مـصـرـ.ـ ثـمـ جـاءـ الـفـاطـمـيـوـنـ مـنـ نـاحـيـةـ الـمـغـرـبـ فـأـجـلـوـ الـأـخـشـيـدـيـيـنـ
وـأـسـسـوـاـ بـعـصـرـ دـوـلـهـ بـفـضـلـ قـائـدـهـمـ جـوـهـرـ الصـقـلـيـ الـذـيـ أـنـشـأـ
الـقـاهـرـةـ.ـ وـاعـتـلـىـ الـأـيـوـبـيـوـنـ الـعـرـشـ مـنـ بـعـدـ الـفـاطـمـيـيـنـ.ـ وـفـيـ هـذـهـ
الـقـرـونـ الـمـتـوـالـيـةـ كـانـتـ مـصـرـ مـسـتـقـلـةـ بـشـوـرـهـاـ بـالـغـةـ فـيـ أـحـيـانـ كـثـيرـةـ
الـمـكـانـةـ الـأـوـلـىـ بـيـنـ الـأـمـمـ الـإـسـلـامـيـةـ صـاحـبـةـ الـغـلـبـ عـلـىـ أـمـمـ الـعـالـمـ جـمـيعـاـ.
وـلـنـ يـنـسـيـ أـحـدـ مـنـ ذـلـكـ فـضـلـهـ الـعـظـيمـ فـيـ النـاحـيـةـ الـعـلـمـيـةـ وـالـادـيـةـ.
فـقـدـ كـانـ الـجـامـعـ الـأـزـهـرـ مـنـذـ أـنـشـأـهـ الـفـاطـمـيـوـنـ الـجـامـعـ الـإـسـلـامـيـةـ
الـأـوـلـىـ سـوـاءـ كـانـ ذـلـكـ فـيـ أـوـلـ عـهـدـ الـفـاطـمـيـيـنـ حـينـ كـانـتـ الـهـمـ الـأـكـبـرـ
الـشـيـعـيـةـ تـلـقـيـتـ فـوـقـ مـنـابـرـهـ،ـ أـوـ كـانـ فـيـ الـعـهـدـ السـنـيـ الـذـيـ جـعـلـ الـهـ حـتـىـ

عصرنا الحاضر المقام الاول بين الجامعات الدينية الاسلامية. ثم ان
ينسى أحد كذلك ما كان لمصر من مجد ونخارق الحروب الصليبية حين
تألبت اوربا تزيد أن تغلب المسلمين على أمرهم في الا ما كان المقدسة
بفلسطين وتضع يدها عليها باسم الصليب. فقد كانت الجيوش المصرية
المظفرة هي التي صدت أكب الغارات وأشد هاهولا. باسم صلاح الدين
الآيوبي باق على الزمان بقاء الرمان كلاماً كرت تلك الحروب. وهزيمة لويس
الثاسع في المنصورة وسجنه بها باق. كذلك شهيد على مجيد فعال
وصر في صد الغارة الصليبية . وكان هذا كله والدولة العباسية
بغداد ما تزال باقية وما يزال لها اسم دولة الخلافة مما أدى بطائفه
من المؤرخين للوقوع في الخطأ واعتبارهم هذه القرون المتواية على
مصر، وهي متمتعة باستقلالها مقيدة من صروح الحضارة والعلم ما
طلق كل ماعرفت بغداد ، بعض ما توالى على مصر من ظلم وما ناء به
أهلها من وحشة وذل .

وليس بي حاجة الى العود للقول بأن قيام أفراد من دم غير
مصري على عرش مصر لا يدل على أن مصر كانت تابعة لامة أخرى .
فالمملوك في أكثر الأمم وفي مختلف عصور التاريخ لم يكونوا أكثر
الأمم من أهل تلك الأمم اذا أنت تقتصي أصل مولدهم . لكنهم
وقد عظموا بها كما عظم بمصر ملوك مصر فقد نسبوا اليها على حين
يصر المؤرخون على نسبة ملوك مصر بلاد غير مصر، والغلو في ذلك
الى حد القول بأن مصر وملوكها كانوا تابعين لدولة أخرى . وهم
يقولون : ألم يتول أحمد بن طولون أمير مصر من قبل العباسيين
وإن استقل من بعد بها ؟ إذا فصر ولادة عباسية . والحقيقة أن

الخلافة الإسلامية في تلك العصور كانت قد انحلت عنها الصبغة الزمنية وبقيت لها السلطة الروحية وحدها . فكانت تبعية كثير من الدول الإسلامية لها شبيهة كل الشبه بتبعية الدول المسيحية لبابا روما . واستقلال الأئم وسياقتها لأشأنها بالسلطان الروحي ، وإنما مرجع أمرها إلى السلطان الرمزي . فما دام في عاصمة مملكته من الملك كل أمر هذه المملكة الزمني فليكن لها من الاتصال الروحي بعكة أو بدمشق أو بيروت أو بروما ماتشاع ، فمن يغير ذلك قليلاً ولا كثيراً من أنها أمّة كاملة الاستقلال . والامر الذي لا ريبة فيه أن الخلافة الإسلامية انحلت عنها السلطة الزمنية انحلاً فعلياً من بعد خلافة المؤمن ومنذ بدأ المعتصم يضطرب في حكم الدولة العربية وحدها . هذا إلى أن أولئك الذين حكموا مصر من طولونيين وإخشيديين وفاطميين وأيوبيين كان شأنهم شأن طوائف ماقاثلهم في أكثر بلاد أوروبا حضارة ورقياً ، طوائف جاءت إلى إنكلترا وفرنسا وألمانيا وغير هذه من الدول من بلاد أخرى في بعض الغزوات ، وكانت في ركب الغازى ثم اندمجت من بعد ذلك في الشعب ، وظل لها مع ذلك من قارئها ما يحفظ لها في نظام الطوائف أقرب مكان من العرش ، فهي أبداً تتطلع إلى مقامه وكثيراً ما تصل إلى ارقاءه .

واستمر حكم الدول الطولونية والاخشيدية والفاطمية والآيوية مصر من سنة ٨٦٨ إلى سنة ١٢٥٠ . ومن بعد هذا التاريخ ازداد انحلال السلطان الروحي للخلافة وزالت الدولة العباسية نفسها من بغداد واستولى التتار على أكثر ممتلكاتها الآسيوية . أما مصر فقد استمرت تخطو إلى الإمام خطوات واسعة في سبيل التقدم

والحضارة، وكان المهاليك هم الذين حلو محل الدولة الايوبية في الحكم .
والمهاليك هم بعض هذه الطوائف التي أشرنا إليها والتي تجبيء في ركاب
الغزاة ، ثم تصل في كثير من الأحيان إلى عرش البلاد باقرار أهل
البلاد أنفسهم . و هو لاء المهاليك كانوا قد جاءوا إلى مصر في بلاط حكامها
الذين سبقوهم والايوبيين منهم بنوع خاص . اشتراهم هؤلاء الحكام
ليكونوا في حاشياتهم وفي جيوبهم ول يكون لهم من نسائهم
الجميلات سراري وموالي . ومن شأن هؤلاء أن يكونوا أكثر
من كل الناس وقوفا على أسرار ذوى العرش ومعرفة ببواطن أمورهم
وأسباب قوتهم وضعفهم . فكان طبيعياً بعد إذ كثروا في مصر
كثرة جمعات منهم جيشاً جراراً لأن يختلفوا الايوبيين في ملوكهم . لكنهم ،
كالايوبيين وأكثر من الايوبيين ، كانوا مستقلين بمصر وكانت مصر
مستقلة بهم تمام الاستقلال غير خاضعة لحكم أيّة دولة أخرى . بل لقد
كانت في عهدهم عزيزة الجذاب مرهوبة الجانب من كل دول البحر المتوسط
التي كانت وحدتها المعتبرة ذات حضارة معترف بها في العالم كله .
وبلغت من ذلك أن أصبحت القاهرة مقر الخلافة الاسلامية ممثلة
في العباسين الذين انقضوا ملوكاً ، فلم يبق لخلافة منهم إلا شبح
ذابل أراد الظاهر بيبرس أن يخانع عليه رواء من قوة مصر و مجدها
بأن يسكن الخليفة العباسى في عاصمة مملكته . ولم يكن الظاهر في
هذا دعياً ولا مغروراً . فقد باغت مصر في عهد المهاليك البحرية
والبرجية من الرقة شأواً أعظمها حتى كانت صاحبة الاملاع على السياسة
الدولية في ذلك العصر . ولم يقف أمرها في عظمتها عند السلطان
المربي ، بل كان لها أكثر منه سلطان علمي وأدبى معترف به ، كما

كانت مركز الدائرة من حركة التجارة العالمية . وكمثل من سلطان مصر الادبي أضع تحت نظر القارىء الفقرة الآتية من كتاب الاستاذ عبد الرحمن بك الرافعي « تاريخ الحركة القومية وتطور نظام الحكم في مصر » قال :

« ظلت الأداب العربية الى عهد السلاطين البحريه والبرجيه الشرا كسه حافظة مكانها التي كانت لها من قبل ، واليهم يرجع الفضل في إقاذ آداب العربية من غزوات المغول التي كادت تقضي على العلوم والأداب العربية في الشرق . فكانت مصر ملجاً للناطقيين بالاضاد من فروا امام التتار في العراق وفارس وسوريا وخراسان ، وبقيت لغة حكومتها عربية في عهده تينك الدولتين ، واستطلت العلوم والأداب العربية بجهادية الملوک والسلطين في مصر ، ونبغ فيها طائفة من فطاحل الشعراء والأدباء والعلماء ، كالبصیری صاحب البردة ، والسراج الوراق ، وابن نباتة المصري ، والقلقشندی صاحب صبح الاعشی ، وال بشیهی صاحب المستطرف ، وابن منظور صاحب لسان العرب ، وابن هشام النحوی العظيم الذي يقال فيه إنه أنحى من سليبویه ، وابن عبد الظاهر ، والنواجی — نسبة الى نواج احدى قرى مديرية الغربية — صاحب حلبة الکمیت ، والقسطلانی الحدث المشهور ، وشمس الدین السخاوى صاحب الضوء اللامع ، وابن خلستان المؤرخ المشهور صاحب وفيات الاعیان ، والصفدی صاحب الواقی ، وابن حجر المؤرخ امام الحفاظ والحدثن في زمانه ، والعيینی المؤرخ والحدث ، وابن وصیف شاه ، وابن دقاق ، والمقریزی صاحب المخطط ، والمسکین بن العمید ، وأبو الفداء المؤرخ الجغرافي المشهور

صاحب تقويم البلدان ، والذهبي ، والنويiri صاحب نهاية الارب
في فنون الادب ، وابن فضل الله العمرى صاحب مسائل الابصار
في ممالك الامصار ، وابن عقيل ، وابن تغري بردى صاحب النجوم
ال Zahra ، وجلال الدين السيوطي صاحب التاكييف الشهير في التفسير
والعلوم الشرعية والتاريخ والادب واللغة وهو آخر من ظهر في ذلك
العصر من كبار العلماء بمصر ، والدميري صاحب حياة الحيوان ،
وابن إياس المؤرخ الذي أدرك الفتح العثماني . وقد استضافت مصر
في ذلك العصر جماعة من أئمة العلوم والفلسفة في الشرق ، كالأمام
ابن تيمية وابن القيم الجوزية ، وفيلسوف المؤرخين ابن خلدون «
ونضع كذلك تحت نظر القارىء هذه العبارة من كتاب «صفحات
في تاريخ مصر» للأستاذ توفيق حامد المرعشلى ، ليرى منها مبلغ ما وصلت
إليه مصر أيام المماليك من نظمه في نواحي حياتها الاقتصادية
والسياسية ، قال: « إن عصر المماليك يعد من عصور الرخاء والنشاط
التجارى والاقتصادى بمصر . فكانت الصلة بين مصر ودول أوروبا
موطدة الدعائم . عقدت المعاهدات مع فرنسا وجمهوريات ايطاليا
لهمایة التجارة الأجانب وترغيمهم في الاقامة بمصر ، فراجحت الاسواق
التجارية وصارت مصر الملتقي التجارى بين الشرق والغرب سواء
أكان بمرور التجارة من مصر فالبحر الاحمر الى الهند أو من الشام
الى العراق فالخليج الفارسي الى بلاد العجم والهند وبالعكس من
الطريقين ، بما يعادل على المماليك وخزانتهم وعلى المصريين ضممتنا بالاموال
الطائلة التي كانت تجبي من المكوس والحركة التجارية » . فأمام درقى
الفنون ، وفن العماره منها بنوع خاص ، فتشهد به الآثار الكثيرة

الموجودة بمصر ومنها المساجد والمنازل الاثرية بعشر بياراتها وابهائها
البديعة التنسيق الرائعة اجمالاً .

وليس الانسان يقرأ هذا الذي بلغت اليه مصر في عصر المماليك
من سؤدد وعلم وحضاره الا يقف ذاهلاً : ألم يكن الاثر الباقي في
نقوسنا لما تعلمنا عن قاربنا من مصر في هذه الفترة أنها تعتبر عصراً
مظلماً في تاريخ مصر ؟ فكيف يذر العصر المظلم كل هذه الآثار المضيئة !
قد نفهم القول بأن حكومات مصر في ذلك الزمان كانت حكومات
استبدادية وان الفكرة الديموقرطية كانت معروفة يومئذ، وإنما
كان يقوم نظام الطوائف مقامها . لكن هذا لا يعني شيئاً ولا يخفي
ما في تاريخ مصر اثناء عصر المماليك من سوء ساطع . هو لا يعني
شيئاً لأن أمم العالم كلها كانت يومئذ ملوكه على نظام استبدادي
قؤيده الطوائف المزورة رياستها الى مقام الحكم بما يجعلها ذات
مشورة ، ان لم تكن ذات رأى في تصريف الشؤون العامة . ومادام
هذا النظام قد أثبتت كل تلك الثرات اليائعة التي تفخر بها مصر
وتصفعها في الغرة من تاريخها ، فذلك الدليل على انه كان النظام الصالح
في العصر الذي قام فيه . فليس نظام الحكم يحمد لذاته أو يندم
لذاته ، ولكن يحمد أو يندم بقدر ما يؤدي من صالح الثرات أو من
سيئها . وبقي هذا النصر الزاهر في تاريخ مصر من سنة ١٢٥٠
إلى سنة ١٥٦٧ .

وكما اكتسح الاسكندر الاكبر العالم فعنلت له امه ثم فتحت
مصر له آخر الاصناف ابوابها ، وكما اماحت الاعداء ليوليوس قيصر اذ
يضع بالعالم صنيع الاسكندر من قبل ، مما جعل مصر تذعن لسلطان

روما مع مداومتها الثورة عليه ، كذلك اكتسح الاتراك العالم في القرن الخامس عشر وقضوا على الدولة البيزنطية باستيلائهم على القسطنطينية في سنة ١٤٥٣ وأوغلو بعد ذلك في أوربا حتى وصلوا إلى أسوار فيينا . وقد بقيت مصر مرهوبة من عبودة الجناب عندهم برغم ما كان من كل تلك القوة لهم حتى سنة ١٥١٧ حين تزلاها السلطان العثماني سليم بعد حرب تم له فيها النصر على السلطان الغوري في موقعة بالشام على مقربة من حلب وعلى طومان باي الذي كان قائماً مقامه بالقاهرة .

وحكم الاتراك مصر على الطريقة التي حكمتها بها روما . وكان أول ما صنعوا أن أخذوا الخليفة العباسى إلى الاستانة حيث جعله السلطان سليم يتزل عن الخلافة التي أصبحت من يومئذ في آل عثمان حتى قضى مصطفى كمال عليها في سنة ١٩٢٣ ، ثم جعلوا يوفدون إلى مصر واليها حرصوا على ألا تطول مدة مصر من خشية أن ينظم جيشها شم يقهر الاتراك به ويعيد إلى مصر استقلالها على نحو ما حدث في عهد البطالسة . وأوقفوا ما كان بمصر من مظاهر الحضارة بأن أخذوا إلى عاصمتهم كل رجال العلم والفن والصناعة في مصر ، ولم يعوضوها شيئاً . وظل الحال على ذلك إلى آخر القرن السابع عشر حين بدأت نذر الانهيار يدب ديبها إلى تركيا . حينذاك بدأ الماليك ، الذين ظلوا طوال مدة ولاية تركيا حكام الأقاليم ، يفكرون في استعادة السلطة والاستقلال بمصر . وكان هؤلاء الماليك قد أصبحوا ، كما أصبح اليونان والعرب من قبل ، مصريين ، فكانوا يقفون متكاففين مع شعب مصر في وجه الوالي الذي تبعته الاستانة كما

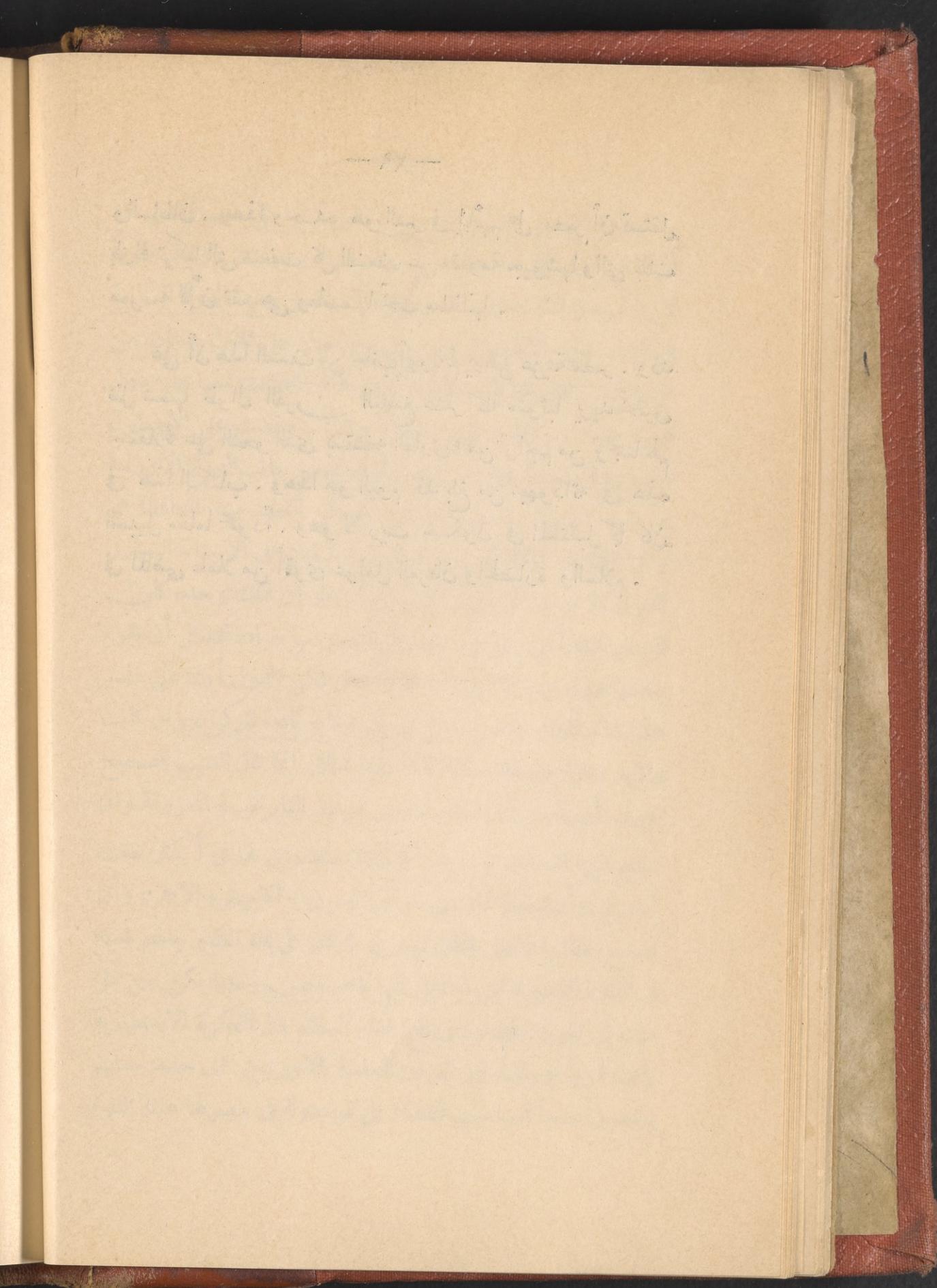
كان أسلافهم من قبل يقفون في وجه الحاكم العسكري الذي تبعه روما . وكان هذا الوالي التركي الذي لم يندمج في مصر ولم يتمثل روحها يظل سجينا في قلعة القاهرة لا سلطان له على أحد ولا على شيء فيها . وكان الماليك والشيوخ الذين يمثلون الطبقة المتعلمة إذا رأوه على غير ما يريدون ، بعثوا إليه رسول لا يطلق عليه اسم الاوده باشي يدخل عليه ويطأطئ الرأس احتراماً له ثم يلمس طرف السجادة ويطويها ويقول مناديا للوالى : « أنزل يا باشا » ، ويكون هذا أمراً للوالى صادرأ له من المصريين لا يستطيع له مقاومة ولا تستطيع تركياله تقضى . وبلغ الضعف بالوالى التركي أن كان طوال القرن الثامن عشر واليا بالاسم لا ساطة له ولا عمل أكثر من ارسال المراج إلى تركيا . ودفع هذا الضعف على بك الكبير إلى التفكير في الاستقلال بمصر وتم له من ذلك ما أراد ، وظل ثلاث سنوات تلقب فيها بسلطان مصر وخاقان البحرين . على ان سوء سياسة الحكم في تركيا وما كان من تدميرها كل أسباب الحضارة في مصر أثناء القرن الاول من استبدادها بها ، فضح على هؤلاء الماليك بفعلهم ليسرون مع الشعب أسوأ ما يسير مستبد جائز ، مما شوه اسم أسلافهم الماليك الذين ارتفع اسم مصر في عهدهم إلى مكان من العزة لا ينال .

وجاءت الحملة الفرنسية إلى مصر سنة ١٧٩٨ فقاومها المصريون أشد المقاومة حتى انتهت بالجلاء عن البلاد بعد ما نقلت إليها أفكار الثورة الفرنسية وأسباب الحضارة الغربية . وبعد ان فتحت عيون المصريين على حياة جديدة هي التي يدأبون اليوم لتوطيدها واتخاذها وسيلة لعود مصر إلى مجدها وقوتها .

وجاء محمد على باشا والياً من قبل تركيا على مصر فقضى على الملك، ثم استمال اليه علماء مصر وأعيانها ووجهاءها، وفكر طوعاً لارادتهم، في الاستقلال بها. وأعلن ذلك بالفعل وغزا الدولة العثمانية في الشام وفي الاناضول ووصل حتى صار على ثلاثة ساعات من الاستانة. وكان مخضعاً سلطاناً قرطرياً ولو لا أن تحالفت معها عليه دول أوروبا جماعة، ووافت في وجهه براً وبحراً، وقضت على الاسطول المصري في معركة نافارين. وهذا الوقوف من جانب الدول الأوروبية في وجه الجيوش المصرية الظافرة لم يكن القصد منه المحافظة على تركيا الضعيفة خلافة أن يهدد وجود حاكم قوى في الاستانة التوازن الدولي كما اعتقاد المؤرخون أن يقولوا. فلو أن ذلك وحده كان السبب لكان أقل ما تجزى به مصر على انتصارتها بقيادة محمد على أن تقوم بنفسها دولة مستقلة غير خاضعة لأحد. لكن الدول أبت على مصر هذا الاستقلال وأصرت على أن تظل ولاية تابعة لتركيا، وإن كانت ولاية ممتازة مستقلة استقلالاً داخلياً كاملاً. إنما كان السبب الصحيح تخوف أوروبا من أن تستعيد مصر قومها التاريخية المعروفة وإن تنضم إليها فلسطين وسوريا كما كانتا منضمتين لها في أكثر حقب التاريخ، وأن تتحكم بذلك في حوض البحرين: أبيض والاحمر، وأن يصبح سلطانها بالفعل خاقان البحرين كما كان على يد الكبير يدعوه نفسه في الفترة القصيرة التي استقل فيها بأمر مصر. ومهمها يكن من أثر ذلك في تقوية الحضارة ورفع منار السلام فإن الفكرة الاستعمارية كانت قوية يومئذ في نفوس الساسة الأوروبيين إلى حد جعلهم يضعون أساساً لسياساتهم القضاء على قيام دولة في مصر لها هاته القوة.

والسلطان . وهذا وحده هو السر في إباءهم على مصر أن تستقل
بازاء تركياً التي ضعفت كل الضعف عن مقاومة جيوشها والتي كانت
معرضة لأن تقع هي وعاصمتها تحت سلطانها .

على أن هذا العسف من جانب أو ربما يوهن عزيمة مصر . وقد
ظل شعبها طوال القرن التاسع عشر كله متوبعاً يريد تحقيق
استقلاله على النحو الذي يستشفه القارئ من ترجم من ترجمنا لهم
في هذا الكتاب . وهذا هو اليوم قد بلغ من مجدهاته في هذه
السبيل مقاماً محموداً . وهو لا ريب سيكون في المستقبل كما كان
في الماضي عاملاً من أقوى عوامل العرفان والحضارة والسلام .



الكتاب الاول

ترجمة مصرية

١٢٦

الآن

كليه و باطره



صورة تمثال هناف متحف الفن الحديث بروما

كاميوباطرة ! ام ساحر خالع عليه التاريخ وخلعت عليه الاساطير
من ألوان الفتنة براء باهراً تضاءلت الى جانبها أسماء الزهرة وافروديت
وسميراميس وسائل آلهة الجمال، وهاتسو ونيفترت وسائل الملائكة ،
بل تضاءلت الى جانبه أسماء الملك ، والشعراء ، والكتاب . فبهي
ليست جميلة وكفى ، ولن يستهان بها كميكه وكفى ، ولن يستهان بها الحديث
وكفى ، ولن يستهان بها ذكية وكفى ، ولن يستهان بها أدبية وكفى ، بل هي ذلك
كله وهي أكثر من ذلك كله ، هي الفتنة والسحر والذكاء والأدب
والنشاط وقوة الارادة في أسمى ما تصوّره معانى هذه العبارات .
وهي مع ذلك آخر البطالسة الذين حكموا مصر عصوراً طويلاً كانت
مصر فيها مهبط وحي الحكمة والشجر والجمال . لذلك لم يفت مؤرخ
ولا قصاص ولا شاعر أن يتحدث عن كاميوباطرة وأن يتغنى بحياتها
وأن يصور هذه الحياة على النحو الذي يجب أن تكون . ولذلك
كان ما أرق من مداد وما سود من صحف في الكلام عن هذه
الملائكة أكثر من مثله مما يمكن لأية الاهة أو ملكة أخرى
أن تفخر به .

وكان حظ كاميوباطرة أن ولدت بالاسكندرية في مصر بلغ فيه
نجم روما غاية سموه ، وبدأت مصر فيه دور الترف الذي إسبقاً
الانحلال . وكانت الاسكندرية في ذلك الحين عاصمة الدنيا ومستقر

كل ما في الحياة من دماء ونسمة . فكان الناس يتکامون فيها كل الملغات المعروفة ، كما كانت الفلسفة فيها ناضرة مستقرة بكل نظرياتها المتضاربة استقرار جوار حسن ليس فيه شئ من الکفاح أو القسوة . فالى جانب الا يیقورية النظارة للحياة نظرة مرور بها وحرص عليهما واستمتاع بكل ما فيها ، المبتسمة سخراً منها وازدراء لها وآشقاها على أدتها ، كاز الرواقيون ينادون بالزهد في الحياة والأخذ بأسباب التقشف واحتقار عرض الدنيا الزائل ، وبلغ بعضهم من ذلك حد الدعوة الى تعذيب الجسد اطهارة الروح . والى جانب مكتبة الاسكندرية العاصرة المعاوية ثمانمائة الف مجلد فيها ما شئت من ألوان الحكمة والعلم والتفكير والفن ، كانت تتوّم اثراً قص والملاهي يهرع الناس اليها لينسوا أنفسهم في لهوها وليمتهنوا في ملذاتها ولم يمتعوا أبداً بآصارهم بجمال ساحراتها المراقصات والمعنيات .

و كانت هذه الحياة المتهجّرة بين أيام الحكمة واللهو جميعاً توج في سميط باع كالعبارة التي قامت خلال ثلاثة عشر سنة كانت من إنشاء الاسكندر الأكبر المدينة عام ثلاثة وثلاثين وثلاثمائة قبل الميلاد سنتي نشاط وعظمة مصر وفاسقها وعمارتها . فقد اتصل ما بين هذا الشغر البديع المواقع في امتداده على شاطئ بحر الروم وجزيرة فاروس القائمة وسط البحر ترقب غداوته وروحانه بحسب هفتا البالغ غاية العظمة والجمال والنوى التي انتهت بالجزيرة الى أن أصبحت جزءاً من المدينة . و اتصل بالنيل بقناة كانوب (ترعة محمودية الحضر) التي لم تكن مجرد مجرى للماء والتجارة ، بل كانت كذلك مجرى للمسيرة والنعيم بما أحاط بها على مدى طولها من حدائق وأنهاب وتخيل

قامت أثناءها مذازل الله ودور المتعال تحيط بها جنات في حياء
جعٰت كل أسباب النعمـة من زهر عطر وفاكهـة نـسـرة . فـأـمـاـ أـهـلـ
هـذـهـ الـمـدـيـرـةـ فـكـانـواـ أـهـلـ ذـكـاءـ وـظـرـفـ وـكـانـواـ حـرـاصـاـ عـلـىـ المـتـاعـ بـكـلـ
مـاـ فـيـ حـيـاةـ مـدـيـنـهـ الـراـهـرـةـ دـيـنـاـ عـرـيـضـاـ ، يـهـالـكـونـ فـذـلـكـ عـلـىـ
الـلـهـ وـعـلـىـ الـمـسـرـةـ فـخـلـصـتـ صـورـهـاـ وـأـلـوـانـهـاـ . فـكـانـتـ
فـرـاعـنـهـ تـقـنـتـ فـيـ التـرـفـ بـعـدـ خـيـالـ كـلـ مـتـرـفـ فـعـصـرـنـاـ الـحـاضـرـ
كـانـ الشـعـبـ ذـرـ جـالـ وـنـسـاءـ ، مـنـغـمـسـاـ فـجـاهـ الـلـذـائـذـ الـدـنـيـاـ مـسـلـماـ نـفـسـهـ
إـلـيـهـ ماـ اـسـتـطـاعـ إـلـىـ ذـلـكـ سـبـيلـاـ . لـكـنـمـ كـانـواـ مـعـ ذـلـكـ أـمـيـلـ
لـلـاسـتـخـفـافـ بـالـحـيـاةـ وـمـاـ فـيـهـاـ وـلـوـ بـلـغـواـ عـلـىـ الـحـيـاةـ أـعـظـمـ مـكـانـ . وـأـيـ
استـخـفـافـ أـشـدـ مـنـ اـسـتـخـفـافـهـ بـالـفـرـاعـنـهـ الـأـلـهـةـ حـتـىـ لـقـدـ دـعـواـ جـدـ
كـلـيـوـبـاتـرـةـ الـبـطـيـنـ وـدـعـواـ أـبـاهـاـ بـطـلـيـمـوسـ اوـلـيـتـاـ أـيـ الـعـاـزـفـ بـالـنـايـ .
وـكـانـتـ كـلـيـوـبـاطـرـةـ شـدـيـدـةـ الـولـعـ مـنـذـ صـبـاـهـاـ بـالـتـجـولـ فـأـنـحـاءـ
الـاسـكـنـدـرـيـةـ وـالـوقـوفـ عـلـىـ كـلـ مـاـ فـيـ هـذـاـ عـالـمـ الـعـاصـرـ بـكـلـ مـاـ فـيـ
الـعـالـمـ مـنـ حـيـاةـ وـحـضـارـةـ . وـفـيـ تـجـوـلـهـاـ هـذـاـ عـرـفـ وـتـعـلـمـتـ كـثـيرـاـ .
عـرـفـتـ كـلـ مـاـ وـقـعـتـ عـلـيـهـ عـيـنـاهـاـ الـوـاسـعـتـانـ الـجـذـابـ دـعـجـهـمـاـ السـاحـرـ
وـكـلـ مـاـ أـحـاطـ بـهـ ذـهـنـهـ الـحـادـ . وـتـعـلـمـتـ الـلـغـاتـ وـالـآـدـابـ وـطـرـائقـ
الـتـعـبـيرـ الـعـزـيزـةـ عـلـىـ مـدـرـسـةـ الـاسـكـنـدـرـيـةـ يـوـمـئـذـ وـالـتـىـ تـمـازـبـاـتـوـرـيـةـ
وـرـقـةـ وـقـوـةـ . وـكـانـ لـهـاـ بـالـكـتـبـ وـلـعـ وـغـرـامـ لـيـسـ مـثـاـهـمـاـ وـلـعـ
وـلـاغـرـامـ . وـكـانـتـ أـمـيـلـ لـلـشـعـرـ وـأـشـدـ لـذـلـكـ تـفـضـيـلـاـ لـلـاـ وـدـيـسـىـ عـلـىـ
الـتـورـاـةـ وـعـلـىـ كـثـيرـ مـنـ كـتـبـ الـحـكـمـةـ .
وـفـيـ هـذـاـ الصـبـاـ النـاعـمـ عـرـفـتـ وـارـثـةـ عـرـشـ بـطـلـيـمـوسـ الثـانـىـ عـشـرـ
مـنـ أـلـوـانـ التـرـفـ وـتـذـوقـتـ مـنـ صـورـهـ مـاـ لـمـ يـعـرـفـهـ وـلـمـ يـنـذـوقـهـ غـيـرـهـاـ

ممن لم يؤت ذكاءها ولا علمها باللغات والاداب . فقد كان أبوها الفرعون العازف بالنار المستغرق في ملاذ الحياة بما استحق معه لقب الله الحمر ديونيزوس يدللها بكل ما يأبهه ملك هترف معجب بابنته ليس لها في بنات حواء مثال . فكان يطوف واياها مدائن مصر ويركب واياها النيل من الاسكندرية الى طيبة ذات الابواب المائلة يفقان عند ما يخلو لها الوقوف عنده من المدائن العاصمة باثار مصر القديمة . فإذا ترکا طيبة الى أنس الوجود أقام فيه من الحفلات ما يجعل عن الوصف ، وما ليس له مثال إلا فيما أقامته كليوباترة من امداد لأنطونيو حين غرامه بها ودتها عليه .

على أن الصبية لم تبق في هذا النعيم الماكي طويلا ، وان كانت لم تحرم منه إلا لتعود اليه فتكون به أكثر متاعا . ذلك ان أباها طرد من مصر فالتجأ الى سوريا حتى عاد مع جند الرومان الذين أوفدتهم بومبي . وكان أنطونيو على رأس فرقه من هذا الجند تحت قيادة جاليوس . فذهب مع بطليموس الطريد حتى دخل وأياه الاسكندرية دخول الظافر .

وكانت كليوباترة يومئذ في الرابعة عشرة من عمرها . ذلما أيقنت بانهصار أبيها وبعودته الى مدينة النعيم اجترأت على اختلاس شارة الملك من برنيس زوج اركاليوس خصم أبيها وجلست مع خدمتها في ثرفة القصر وقد ارتدت ثوبا رقيقاً أبيض بدا فيه جمالها الساحر أشد سحرآً رغم ان كان في بدأ تعرّعه . ولما أقبل أبوها بعد دخول أنطونيو على رأس الجند الى القصر أمامه شقت هي وسط الجمجم طريقاً وأندفعت تعانق أباها باكية من شدة التأثر .

وكانـت هذه أـول مـرة رأـت فيها عـين الروـماني الفـاتح الطـوـيل القـامة
الـعـريـض الاـكتـاف الشـرـه إـلـى كـلـ هـوـ وـمـسـرـة تـلـكـ الفتـاة الطـفـلـة
ماـتـزالـ، وـالـتـي بـرـعـت بـرـغـمـ ذـلـكـ كـلـ قـرـيـنـاـتـهاـ مـوـنـ فـيـتـاتـ الـقـصـرـ
وـنـسـائـهـ . وـلـمـ تـنـسـ كـلـيـوـ باـطـرـةـ فـيـ دـهـاـوـتـيـهـاـ أـنـ تـوـجـهـ إـلـيـهـ نـظـرـةـ حـلـوةـ
فيـهـاـ أـكـثـرـ مـنـ مـعـنـيـ الـاعـتـرـافـ بـالـجـمـيلـ لـرـدـهـ أـبـاـهـ إـلـيـهـ وـالـهـ مـلـكـهـ .
وـعـادـ اـنـطـوـنيـوـ إـلـىـ روـمـاـ وـعـادـ بـطـلـيمـوـسـ إـلـىـ الـحـكـمـ وـالـهـوـ
يـسـتـمـرـيـ صـرـعـاهـ وـيـعـنـ فـيـهـ بـعـدـ ماـ حـرـمـ زـمـنـاـ مـنـهـ . وـكـانـتـ اـبـنـتـهـ
تـطـوـفـ وـأـيـاهـ أـنـجـاءـ الـبـلـادـ يـنـزـلـانـ فـيـ المـدـائـنـ الـعـاصـرـةـ وـيـقـمـانـ فـيـهـاـ
مـنـ أـسـبـابـ الـلـذـةـ مـاـ لـاـ يـبـاحـ لـهـتـاـةـ أـنـ تـعـرـفـهـ . وـظـلـاـ عـلـىـ ذـلـكـ ثـلـاثـ
سـنـوـاتـ تـبـاعـاـ اـنـتـهـتـ بـجـوـتـ الـأـبـ بـعـدـ مـاـ أـوـصـىـ بـالـمـلـكـ لـكـلـيـوـ باـطـرـةـ
وـلـاخـيـهـ بـطـلـيمـوـسـ الـطـفـلـ الذـىـ لـمـ يـكـنـ يـزـيدـ يـوـمـئـدـ عـلـىـ أـثـيـ عشرـةـ
سـنـةـ عـلـىـ شـرـيـطـةـ أـنـ يـتـرـوـجـ مـنـ أـخـتـهـ . وـكـانـ زـوـاجـ الـأـخـ مـنـ
أـخـتـهـ مـتـعـارـفـ فـيـ الـإـسـرـاتـ الـمـلـكـيـةـ يـوـمـئـدـ لـحـرـصـهـاـ عـلـىـ أـنـ لـاـ يـخـتـلطـ
دـمـهـاـ الـفـرـعـونـيـ الـمـسـتـمـدـ مـنـ الشـمـسـ كـبـيرـةـ الـأـلـهـ بـدـمـ الـرـعـاـيـاـ . وـاـذـ
كـانـ هـذـاـ الـأـخـ قـاـصـراـ عـيـنـ لـهـ قـوـامـ ثـلـاثـةـ اـشـتـرـكـتـ الـمـلـكـةـ مـعـهـمـ فـيـ
الـحـكـمـ وـاـنـ اـسـتـأـثـرـتـ بـهـ دـوـرـهـ إـلـىـ حـدـ نـظـيمـ .

وـقـدـ مـاـكـتـ قـلـبـ اـنـصـرـيـنـ فـيـ الـفـتـرـةـ الـأـوـلـىـ مـنـ قـرـاتـ حـكـمـهـاـ
بـمـاـ كـانـتـ تـغـدـقـهـ عـلـيـهـمـ مـنـ صـنـوـفـ الـمـقـاتـعـ وـبـسـحـرـهـاـ اـيـاـهـ بـفـقـةـ جـمـاـهـاـ
حـتـىـ دـعـيـتـ اـذـذـاكـ جـبـيـةـ الـشـعـبـ وـمـلـكـةـ كـلـ نـعـيمـ . لـكـنـ عـهـدـهـاـ
بـذـلـكـ لـمـ يـطـلـ . فـقـدـ بـعـثـ مـنـيـلـوـسـ يـطـلـبـ إـلـيـهـاـ اـرـجـاعـ الـجـنـدـ الـرـوـمـانـيـنـ
الـذـيـنـ ظـلـواـ عـنـهـاـ . وـاـذـ كـانـ هـؤـلـاءـ الـجـنـدـ قدـ اـسـتـوـ طـنـواـ الـاسـكـنـدرـيـةـ
وـزـوـجـواـ فـيـهـاـ وـمـتـعـوـاـ بـنـعـيمـهـاـ فـقـدـ أـبـواـ مـغـادـرـةـ مـصـرـ وـاـسـتـغـاثـواـ

باليه . ثم جاء من بعد ذلك ابن بومي لنفس القصد . وكان لا يه على أيها فضل اعادته الى ملوكه مما اجلسها على العرش بعده . لذلك رأت واجباً عليها ان تحسن وفاته . وقابلته فرأته فيه غير أخيها الطفل الذي فرضه الملك زوجاً لها ، فقبلته ضيفاً في قصرها واجابته الى ما طلب ان كان ابوه يومئذ في حرب مع قيسر . وقد غاظ ذلك اخاها منها فانضم الى المؤترين بها وعاون على انتهاض الشعب عليها ومحاولته قتلها . واذ كانت لا تملك الفرار من طريق البحر فرت في ذهبية الى الصعيد كسيرة القلب ان لم يفعل بمحالها في اوئك السكندرية فعله . وزلت طيبة على صورة لم تمهدها أيام زيارتها المدينة الخلدة مع ايها المترف المترافق . وبدلاً من أن تجعل مقامها في طيبة الاحياء جعلت مقابر الملك ووضع نجواها كما كانت تريد أن ترقد بينهم تنتظر البعث و ايام آملة في الآخرة . كما اتى من ملك مصر ثباتاً . لكن اصواتاً انبعثت اليها من جوف مقابر هؤلاء الفراعنة العظام تناجيها : أن لا ملك بغير اقدم ولا جلاله من غير كرياء ولا حكم لهن لم تملك نفسه شهوة الفتح . وأيأسهم دعوه ااصحرين من أن تجد منهم أي عون أو مدد . ففرت الى سوريا وهي في مقدورتها على سحر أهلها أكبر أملأ وفي فتنهم بمحالها أشدّه . ولم يخنه احد سهراً . فما كادت تستقر في ربوع الشام حتى سحرت أهلها بمحالها وبالغتها وقادها فالتفوا حولها واجتمع منهم جيش سار في على رأسه ممتطية جوادها . لكن المصريين بعثوا لهم الآخرين بجيوب شهم ورابطاً على حدود ما بين مصر والشام ووقف الجيشان وجهاً لوجه لا يلتقيان وفي هذه الاثناء هزم قيسر بومي في موقعة فرسالاً وفر

المهزوم الى مصر ، عله يجد موئلا في بلد له عليه وعلى القائم على عرشه
فضل سابق . لكن أوصياء بطليموس الطفل علموا أن قيصر يطارد
غريمه ، وخشوا ان هم جموا هذا الغريم أو الجاوه أن يصب عليهم
قيصر جام غضبه ، فقتلوا اللائذ به . فلما نزل قيصر عليهم وعلم ما فعلوا
ركبه لهم وحزن غاية الحزن وأمر أن تقام لبومبي آخر طقوس الجنائزه
وعرفت كليوباترة أمر ذلك كله ، وعرفت أكثر منه أن قيصر

لما علم بما بينها وبين أخيها من حرب نصب نفسه حكما بينهما عملا
بوصيه أيها أن تحمى روما ملك ابناه من الشتات والدمار . هنالك
فكرت في أن تلجأ الى هذا الحكم ترفع اليه ظلمتها غير جاهلة
ما قد يحمله لها من ضغف أن حمت ابن خصمها وأن مدت بومبي
بالرجال والذخيرة . لكنها كانت واثقة من سحرها مطمئنة الى
قدرها وفتنتها مؤمنة بأن لا نجاح من غير اقادام . وزادها طمأنينة
ما كان من بكاء قيصر حين علم بقتل بومبي . فترك الجندي واستصحبت
مؤدبها الأمين ابو لودور ، واجتازا طريق البحر حتى وصلوا أمام
الاسكندرية . بقى أن تدبر الوسيلة للمثول في حضرة قيصر .

وكليوباترة نحيفة القوام بضة لينة الممس . فليس يعجز ابو لوردور
أن يحملها وإن يزعم أنها بعض المتعان وانه من رجال روما يريد اتصال
ما يحمله لقيصر . فالتفت الصبية الفاتنة في بعض أسمال واردية من
غير أن تبدل شيئاً من زينتها الملكية وعطرها ، وحملها مؤدبها على
كتفه وزعم حين سأله الحراس عن غايته انه موصل ما يحمل الى
بعض ضباط قيصر . واجتاز معسكر الرومان حتى أنزل جمله في
رفق أمام الغافر على عاهل روما ، الباقي عليه حين وفاته

وكان هذه هي الساعة التاريخية التي أتجه فيها الزه من غير وجهته.

الساعة التي وقف ازاعها القصاص والمؤرخون أذلهم الهر وسحرتهم
الفتنة كما أذلا قيسرو سحراه . نضت الملكة الصبية ما التفت به
من أطمار وأسماء وبدت في زينة الملكة وعطرها وجلاها . وكانت
طويلة أم دصيرة ؟ أكان انفها كبيراً أم صغيراً ؟ لم يعرف قيسرو في
هذه اللحظة من ذلك شيئاً ، واختلف المؤرخون فيه خلافاً كبيراً .
وكأنما كان جمال هذه الفتنة من الروعة ما لا شعة الشمس من قوة
تحول دون التحديق بها . وكأنما بقي هذا الجمال في قوة سحره بعد ما
صر على صاحبته من عصور وقرنون فكل يختلف في صورته وفي
قسماته . على أن كاميوباترة لم تحاول فتنة قيسرو بجمالها . بل ارمت
عند قدميه ضارعة مستغفرة ، وجعلت تتكلم وتشكى وتستعطف ،
وكان صوتها أفعى سحراً من سهامها ، وكانت عبارتها أشد إلى
القلب من صوتها إلى شغاف المؤرخين ومن جمالها الذاهب باللب .
جعلت تتكلّم وتشكى وجعل قيسرو ينصت ويصفي ، ثم صار لا يسمع
دفاعاً ولا شكوى بل أنفاما دونها صوت البابل وعزف النساء .
وانتهى بكاميوباترة وبهالامر أن وقفت وجثاها على قدميها ضارعاً
مستغفراً ثم حملها على كتفه كما حملها إليه ابوالدور وذهب بها إلى
مضجعه .

وكان قيسرو رغم تجاوزه الخامسة والخمسين ميلاً للنساء ، كما كان
مثار اعجابهن بقوامه ونظرته وبروحه المذهب الرقيق وعزمته الصادقة
القوية . لذلك اتصل بينه وبين كاميوباترة منذ هذه المقابلة الاولى
بما سحره عن كثير مما كان اعتزم لمحده ومجد روما . وجلست هي

الى جانبه في قصرها المنيف تعجب به وثير اعجابه . وملكته حتى
لم تبق في شك من حكمته بينها وبين أخيها . ودعا هو أخاهما الطفل
ليصلح بينهما ، فلما دخل عليهما قرأ في عيونهما ماهاج الدم في عروقه
الضعيفة ، وما دعا له ليقوى التاج عن رأسه وليخرج صاحبًا في الشعب
وفي جند روما داعيا إلى الثورة على أخيه وعلى قيصر لعهر كليوباترة
وخيانته صاحبها . ولم يرد قيصر أن يقاتل لقلة جنده وحرصه على
استبقاء هذا الطفل مغمضًا عينه على ما يفعل الحبيبان ، فاسترضاه
وصاحبه على تنفيذ وصية أبيه باشراف روما . ورضي الغلام أملا
أن يطمئن له الأمر فيصير ملكاً وفرعوناً وإلها . وظل هو وكليوباترة
يرتشفان من كأس الحب وينهلان أعناب موارد الهوى بما يتفق
وروحيهما المهديين . ولقد كانا بذلك سعيدين كل السعادة . ولم يكن ورد
سعادهما قاصرًا على اتصال الغرام بين ابنة الملك العازف المدنة
القوام ، الموسقيية الصوت والنفس ، الرطبة الأخلاق ، الندية النظرية
الرشيقية رشاقة الراقصة ، وبين قيصر الساحر الحلو الحديث . بل
كان ورد سعادتها الحق هو الحب . كيل كل واحد منها صاحبها
باغلال هذه العاطفة القاسية السامة في قسوتها فسعد كل باغلاله .
وكانت كليوباترة أكثر سعادة لأنها استرتدت مع هذا الحب ملك
مصر ووضعت يدها على تاج روما وصرفت قاهر السكون والجرمان
وسائر دول أوربا عن حربه في سبيل الجمهورية ليحارب في سبيلها
وليقهر أوصياء أخيها وليثبت لها أركان عرشهما بعدما ثبتت في قلبه .
وظل كذلك ستة أشهر لا يعرف من أمر روما شيئاً ولا يبعث إلى روما
بنخبر ، وإن عرفت روما من أمره مع ملكة مصر كثيراً . وزادت

به ارتياطًا وازداد لها عبادة حين حملت منه . اذ ذاك لجأ في أسباب المسرة يلتمسانها في كل مكان ويرتجيان النعمة من كل الآلهة . فأقاما أعياداً عند الاهرام وأبي الهول ، وفي ابيdos عند قبر ايزيس وأوزوريس ، وفي دندرة حيث معبد هاتور آلهة النسل الخصب وفي طيبة ذات الأبواب المائة ، وفي أنس الوجود ، وفي كل معبد وعند كل آله

ووضعوا كليوباترة غلاماً دعته قيصر وخلعوه عليه كل ألقاب الفراعنة آلهة مصر وعواهل روما وحكامها . ثم أبحر قيصر إلى روما ولحقت هي به في أيام الملكوجلاله ، وفي حاشية ليس للروماني بها عهد . وقيصر ظافر والشعوب عباد من ظفر . وقد أقام لمناسبة عودته أعياداً أشرف خلا لها فيها خلعة على الشعب من أعطيات ونعم زادت الشعب له عبادة وأنسنته ما كان من انصراف قيصر عنه إلى كليوباترة عاماً كاملاً . لكن هذا الشعب لم يعجب من كليوباترة بجمالها الرائع المترفع ، لأن زعماً وقادته جعلوا يستعطفونه على كالبورينا زوجة قيصر .

ولم يعن قيصر من ذلك بشيء . بل أقام لابنة بطليموس قصراً على هر التبر جمع فيه من ألوان النعيم ما أبدعه خيال الملكة ، وجعل يزورها فيه فتقيم له من المرافق وصنوف الألهي ما ينسنه كل هموم الحكم ومتاعبه . ثم جعل يستقبل أصحابه في قصر التبر ، ولا يخفى عليهم من صلته بكليوباترة شيئاً . وبالغ في الحفاوة بها حتى أقام لها هيكلانصب فيه مثاثلها على صورة الزهرة آلهة الجمال والحب . ودار في خاطره أن يتزوج منها رغم وجود كالبورينا زوجته وبطليموس

الطفل زوجها . و مع أن مجلس الشيوخ لم يكن ينظر إلى هذا الزواج
بعين الرضا فقد فكر في أن يعدل قوانين روما بما يبيح للرجل أن
يعدد زوجاته مدام لاعقب له . ولقد كان فاعلاً وكان قيسرون
يصبح يومئذ وارثه على عرش روما ويغير وجه التاريخ وتبقى مصر
مقرًا للحضارة كما كانت لو لا أن دبرت المؤامرة لقيصر وأن قتلته
أصحابه يوم أعياد المريخ في العام الرابع والأربعين قبل الميلاد
بكنته كليوباترة ثم عادت إلى مصر مع حاشيتها وأبنائها وتركت
أخاه الملك زوجها فنسيه التاريخ ولم يعرف أحد عنه بعد ذلك
خبرًا ، وأقامت بالاسكندرية متوجسة خيفة أن يوقيع بها خصوم
قيصر وقتله . لكن الحروب التي قامت بين أصدقائه وقتلاته انتهت
بانتصار أنطونيو وأصحابه في موقعة فيلييب . ولم يزل ذلك وجلاها
وطلت في خشية من أن ينزل أكتاف ابن أخت قيصر مصر وهو
لابنها من قيصر ألد عدو . لكن نجمها كان ما يزال نجم سعادة .
فتقاسم المنتصرون ملك روما ووقع الشرق لأنطونيو . وأنطونيو
صديق قيصر ومحبه . وأنطونيو رجل شهادة لا صبر له أمام امرأة .
 وأنطونيو معجب بجمال كليوباترة منذ سنين ، عابد إياها مذ كان
يزور قيصر في قصر التبر . مع ذلك لم تر كليوباترة أن تبعث إليه
وفوداً تزئنه بالملك كما بعثت سائر ممالك الشرق التي وقعت في حكمه .
وهي لم تتردد في حروبه مع قتلة قيصر بمدده من مال أو رجال . فغاظ
ذلك أنطونيو وبعث اليه رسولًا أن تخضر بنفسها لتدافع عن ذنبها .
وظل الرسول في قصرها أيامًا عاد بعدها مسحوراً بها آخذًا نفسه
بالدفاع عنها حتى تخضر أجابة لطاب سيده . وبنتيته هي زمناً تعذر

عن عدم مسارعهم لاجتياز البحر بشتى الاعذار . وبقي رسول أنطونيو خلال ذلك يحده عن فنتها بما أذهب صبره . ثم بعثت هى أنها آتية اليه في تاريسيس وذكرت موعد وصوها . نسف الحاكم إلى المدينة يلتفظ بها وأقبل أسطولها يشق عباب البحر حول سفينتها السالحة تدفعه أشرعة من خز ، ويحمل متنه الرفيع تمثال آلهة البحر ، وتبعد في وسطه مقاصير زينة بأنخر الرياش . وقد ذهب بالشعب لما رأى كل هذا الجمال والجلال فصاح : « هذه افروديت بل هذه الزهرة أتت تزور إله هونا المحبوب » .

وبعث أنطونيو برسوله يدعوه للعشاء عنده ، فاعتذر بأنها متعبة ودعته إلى سفينتها . فلم يغضب ولم يتردد بل طار إليها وقضى شطراً من الليل في حضرتها نسى فيه الذنوب ونسى العقاب ونسى كل شيء غيرها . ثم دعوه في الليلة التالية إلى ولية عشاء في قصرها ودعت بهم جماعة من الأمراء وأرباب الدولة . وما كان أشد بهرهم حينما رأوا الليل ينقلب في ذلك القصر نهاراً ورأوا فيه من التمايل والآنية والطنافس والخدم وألوان الطعام يتناولونها وتطرفهم أنغام الموسيقى تطير في الجو مع ريح العطر والزهر وترجع مع أنغام أجسام الراقصات المدته بعالم يخطبه خيال أحد منهم من قبل . وكل يوم بطرة وسط هذا الجمال الساحر أروع فتنه وأشد سحرًا . وبابدى أنطونيو دهشته متى نظمت الملكة هذا القصر وما فيه . فابتسمت قائلة : انه رسوها الذي بعثت به من أساسيع ثلاثة هو الذي صنع هذا بأمرها .

ودعاها أنطونيو إلى قصره ودعا معها الأمراء وحاول أن يجاريها في البذخ والنعمة ثم ابتسم آخر الوليمة أن رأى محاواته عيناً .

ودعه وامراه الى ولية ثانية قالت انها سكلفها ثلاثة ملايين درهم.
فانكر انطونيو ذلك عليها، وراحته انها فاعلة. وكيف هو أحد
الامراء أن يحصى التكاليف. ولما رأى ان لم تزد الملكة شيئاً على
ما فعلت في الوليمة الاولى أبدى لها أنه قرها. فاستعملته وخلعت
من اذنها قرطاً فيه جوهرة منقطعة النظير كان الاسكندر أهداها
لبعض أسد لافها وألقت بها في كوب به خل فذابت وشربت هي
الكوب وما فيه وقررت انطونيو. وظللت فعلتها هذه يقصها
المورخون على أنها بعض العجائب.

وأسرع انطونيو بالنظر فيما لديه من شؤون الملك وعاد
وكامي باطرة الى مصر واندفعا في سبيل الغرام ترجم ماء مصر في
نفسهما ما انطوت عليه من حب المذات واستراحة كل أوانها
والافتتان فيها. على ان انطونيو لم يكن بهذه كقيصر، بل كان
جندياً خشنًا فوج الدهن لا يعرف الرقة ولا يحيط من الادب أو اللغات
بشئ. وإنما حبيه الى الجند ورفعه الى مقام قيصر سهولة في العبارة
التي كان يخطبهم بها وزنول منه الى مشاركتهم في تذوق المذات
الذئعة السافلة التي كانوا يتذوقونها. فلم يكن حتى من أحيا الدعاارة
في روما أو بغي من بغايتها لا يعرفه. وكان من أسباب خره ان اعقب
من الاولاد حيتاً ذهب مالا عدده له. ولقد احب كامي باطرة بهذه
الروح الحيوانية المتميزة المتأرجحة الضرامة، فأنفت فيه حياة بهيمية
قوية لم تسكن في قيصر، ولكنها لم تجد فيه حياة العاطفة الانسانية التي
تغدو القلب وان قصرت عن اهاب الدماء. على ان هذا الخلاف
يبينها اضطر انطونيو الى ان يتعلم ويحضر من الدروس ما يختلف من

شعوره بأنه دون كليوباترة، ودفعها إلى التنzel عن التقى في رقة
المقابع إلى هذه الهريمية الثائرة. وقد اتفت ذلك في بادئ الأمر حين
كان حرصها على أنطونيو راجعاً إلى حاجتها السياسية له. لكنها
تذوقته بعد ذلك وباغت من تذوقه أن لم تكن تطبيق مقارقة
صاحبها حين جولاته في أحياء الدعاارة واللهو، ولم تألف أن تدفع
بكتفيها أيها من رجال تلك الأحياء وزمامها على طريقتهم. وبقيا
غارقين في نعيمهما حتى حملت. وخيل إليها أن سيربط الحبل بينها

وبين صاحبها كما ربط بينها وبين يوليوس من قبل. لكنه رآها
تقلت حركتها وخد شعاع روحها، فعاد يفكر فيما كان غافلاً عنه من
شؤون الدولة، ورأى أن لا مفر له من العودة إلى روما ليصالح
اكتافاً بعد ما حزبت عليه فلقيا زوج أنطونيو وهبت لحاربه،
وليس متعدديه على أهل فنيقيا والشام الذين انقضوا على روما وخلعوا
نيرها. ولم تجد توسلاً كليوباترة إليه كي يبقى ولو إلى حين وضعها.
فلم يقبل فلقيا في اليونان أزل عليهم من سخطه ما كسر قلبها، وغادرها
إلى روما فمات قبل وصوله إليها. وأصلح موتها بيده وبين اكتاف
وزوج من أخته أكتافيا برضى مجلس الشيوخ. وكانت أكتافيا
عدل كليوباترة في سهامها وجهها وكانت أم طفلين من زواجهما الأول
محبة لحياة العائلة ونظمها بما يسر لها أن تسير زوجها وفق رأيه.
فأنطونيو ككل رجل له مثل هذه الطبيعة الحيوانية يهون على كل
امرأة أن تقوده. ولقد ذهب معه إلى اليونان وظللت معه زهاء ثلاثة
أعوام أعقبت له أثناءها ابني شغلت بهما وأولادها الآخرين وبأولاد
أنطونيو من فلقيا. فأخرج ذلك صدر أنطونيو منها وجعل يراها

أَمَا لَا يَعْنِيهَا مِنْهُ إِلَّا أَبُو تِه لَابْنَاهَا ، مِنْ غَيْرِ أَنْ تَعْبِرْ مَجْدَه وَلَا عَظَمَتْهُ
إِهْمَاء ، مَا كَالَذِي كَانَتْ تَبْدِيهِ كَلِيمَوْ بَاطِرَةً إِذْ كَانَتْ تَدْعُوهُ انْطُونِيوُ الْأَكْبَرِ .
وَبَلْغَ مِنْ حَرْجِ صَدْرِهِ أَنْ اتَّهَمَهَا بِأَنَّهَا أَحْنَ عَلَى أَخْوَتِهَا لَا كَتَافَ
مِنْهَا عَلَى زَوْجِيْهَا لَهُ ثُمَّ بَعْثَبَهَا إِلَى رُومَا وَأَنْطَلَقَ هُوَ إِلَى سُورِيَا يَجْنِي
ثَمَارَ النَّصْرِ الَّذِي أَحْرَزَهُ بَعْضُ قَوَادِهِ .

فِي هَذِهِ السَّنَوَاتِ الْمُلْتَسِمَاتِ كَانَتْ كَلِيمَوْ بَاتِرَا تَعْانِي مِنْ الْهَمِّ وَالْأَلَمِ
أَشَدَّهَا تَبِيرِيَّا وَلَدُنَّا . عَامَتْ بِمَا كَانَ مِنْ زَوْاجِ انْطُونِيوِ وَأَكْتَافِيَا
عَلَى أَثْرِ وَضْعِهِـا تَوَأْمِينَ دَعَتْ أَحَدَهَا الشَّمْسَ وَالْأُخْرَى الْقَمَرَ ،
فَاضْطَرَبَتْ لِلْخَبَرِ وَمَا كَانَتْ مِنْ قَبْلِ تَضَطَّرِبَ مِنْ خَشْيَةِ امْرَأَةٍ .
وَزَادَ فِي مُخَاوِفَهَا مَا قَدْ يُؤْدِي هَذَا الزَّوْاجُ إِلَيْهِ مِنَ الْقَضَاءِ عَلَى آمَالِهَا
فِي قِيمِ قِيَصِرَوْنَ مَقَامِ ابِيهِ . هَذَا لَكَ غَادِرَتْ الْأَسْكَنْدَرِيَّةَ إِلَى دَنْدَرَةِ
وَشَغَلَتْ نَفْسَهَا بِأَنْ أَقْمَتْ لَهَا تُورَ مَعْبِدًا . ثُمَّ اتَّقَبَضَتْ نَفْسَهَا هَذِهِ
الْوَحْدَةُ الَّتِي احْاطَتْ بِهَا فَعَادَتْ إِلَى عَاصِمَتِهَا وَشَغَلَتْ نَفْسَهَا مِنْ جَدِيدٍ
بِبَنَاءِ قَبْرِهَا . وَكَانَ أَكْبَرُ جَهَادِهَا أَنْ تَنْسَى انْطُونِيوَ باسْتِدَامَةِ الْعَوْدِ
إِلَى تَذْكُرِ قِيَصِرِ . وَنَجَحتْ فِي ذَلِكَ نِجَاحًا سَرِّهَا . لَكِنْ هَذِهِ الْذَّكْرِيَّةِ وَذَلِكَ
الْاشْتَغَالُ بِمَا بَعْدِ الْمَوْتِ لَمْ يَكُونْ فَالْيَتَقْفَأُ مَعَ مَا يَتَحْرِكُ بِهِ الشَّبَابُ فِي
جَسِيدِ اعْتِدَادِ مَلَذَاتِ النَّعِيمِ ثُمَّ قَسَرَ عَلَى عَفَةِ قَاسِيَّةِ . فَعَادَتْ إِلَى مَثَلِ مَا
عَوْدَهَا انْطُونِيوَ مِنَ الْمَرْحِ فِي الْأَنْجَاءِ الَّتِي يَلْهُو الشَّعْبُ فِيهَا . لَكِنْ
ذَلِكَ لَمْ يَطْفُئْ مِنْ رَغْبَاتِهَا مَا كَانَ كَامِنًا .

وَمَا أَعْدَ انْطُونِيوَ إِلَى الشَّامِ بَعْثَ إِلَيْهَا رَسُولًا يَسْتَقْدِمُهَا إِلَيْهِ
بِانْطَاكِيَّةِ . وَيَلِ لَهُ مِنْ جَرِيَّةِ ؟ أَيْضَنْ أَنْ مَلَكَةَ الْمُلُوكِ تَطْيِيرَ إِلَيْهِ
بَعْدَ أَنْ نَسِيَتْهُ ، بَلْ بَعْدَ أَنْ بَغَضَتْهُ وَبَعْدَ أَنْ هَجَرَهَا إِلَى احْضَانِ امْرَأَةٍ

غيرها قضى معها أكثر مما قضى مع كل يوم باطره؟ لكن لا! تضاءل ذلك كله أمام دعوته ايها فطارت تعد عدتها للسفر واجتازت البحر اليه لائمة عاتية. وكفاحا ان أقسم لها ان قلبه لم يعرف غيرها ولم يتعلق بسواها لتعود وإياها سيرتها الاولى: وانطلاقية كانت ثلاثة مدارن بحر الروم بعد روما والاسكندرية فكان لهم فيها من مسارح الله ما يسد كل شهوتهم. ولكن تومن بمحبها ايها عقد عايهما زواجه منها وخلع عليها ثلاث ولايات بدل ثلاث السنوات التي غابها عنها وبعد زمن نهلا فيه ما طاب لهم من ورد النعيم جهز لحاربة خصوم رومانيا وراء الفرات، ورفض مشيختها ان تصحبه لما في ذلك عليهما من مشقة. لكنه عاد الى سوريا محظيا جيشه. بخاءت اليه من خير مصر مالا ورجلا بما أنساه هزيمته. واقامت معه فائسته فتنتها كل متاعبه. ثم تلقى رسالة من زوجه اكتافيا أنها آتية اليه من روما في عدة وعديد. فثار حين رأها تقابل صده لها وجفونه ايها بهذا الكرم والاخلاص والحب. لكن كل يوم بارة وقفت في سبيل مأمت اكتافيا فيه. ورفض أنطونيو أن يرى أخت عاهل روما أو أن يقبل منها مددًا فعادت الى المدينة الخالدة ذات التلال السبعة مقهورة آسفة.

وعذ الرومانيون هذه الفعلة على أنطونيو. فلما استرد قواه عاد خارب خصوم روما وانتصر عليهم. لكنه بدلا من أن يحتفل بانتصاره في روما ذهب يحتفل به في الاسكندرية ويعتبرها عاصمة تعادل روما. وذلك ملاطـــقة للرومانيين باحتماله. فأثار اكتاف

الروماني عليه . وابتهم جت كاليوباطرة لذلك وجهزت أسطول مصر الضخم
وسارت وأنطونيو إلى أثينا في انتظار ما ستتم مخض عنه الحوادث
راجحة الانتصار على أكتاف حتى تجاس قيصر ون على عرش أبيه .
لكن نجمها كان قد بدأ ينحدر نحو المغيب . فقد التقى الأسطولان
في (أكسيم) وكانت الملكة في سفينتها « الأنطونيات » في مؤخرة
الأسطول المصري ترقبه . وبذات المعركة يحكي وطيسها وشعرت الملكة
بأن حلمها أن تحكم روما وأن تقيم ابن قيصر مقام أبيه على عرش
العاشر أكتاف يتلاشى . عند ذلك طار صوابها وتولاها الذهول . فلما
أفاقت أفتلت الرحيم تهب نحو مصر فأمرت رجالها بالعوده وما يزال الأمل
في النصر مضطرباً بين العسكريين . والتقطت أنطونيو من سفينته
وأخذته معها في « الأنطونيات » وعادا إلى مصر وقد توّلاه الآسى
ان رأى نجمه يأفل وعظمته تذوي وتذبل .

فاما كاليوباطرة فلم تقل الهزيمة من غرب عزمها ، بل نقلت
أسطولها براً من البحر الأبيض إلى البحر الأحمر راجحة أن تغزو
المهد على نحو ما كانت تفكّر مع قيصر . لكن هيرود عدوها في
سوريا لم يمهلها أن قتل رجالها وأحرق سفنها . هناك تحطم كل
آمالها الامبراطورية واضطررت أن تقف كل حياتها ونشاطها على
الدفاع عن مصر .

وأسلم أنطونيو نفسه للشراب أيله ونماره آملاً أن ينسيه الشراب
هم انكساره . وظل في شرابه حتى علم أن أكتاف آت من طريق
سوريا لغزو مصر وأكبرهمه ان يطفئ حياة ابن قيصر وكانت مشابهته
لا يه أكبر شهيد على اغتصاب ابن عمّه عرش روما . وأخذ

أنطونيو قيادة جيوش مصر . لكن الحظ اذا عثر لج به العشار . فانهزم أنطونيو فعاد الى قصر كليوباترة وأمر أحد عبيده أن يقتله . فأمسك العبد الخنجر وتظاهر بطعن سيده ثم طعن نفسه فهوى . فاصغر ذلك أنطونيو في عين نفسه فقضى عليه بأذن القى بنفسه على النصل وذهب يعالج آلام الاحتضار يسلكه سبيلاً لراحتة الموت ، وقضى بين ذراعى محبوبته الفاتنة فبكـته أخر بكاء ثم دفنته في القبر الذى شادته حين هجرها وبالغت فى الحزن عليه لما أحسـت من سوءـما أعد لهاـالقدر من مصير بعده .

ودخل أكتاف الاسكندرية ظافراً وكل همه أن يقضى على ابن عمـه الذى ثـر من وجهـه . وحاـولـتـ كـلـيـوـبـاطـرـةـ أـنـ تـلـعـبـ بـهـ كـمـاـ لـعـبـتـ منـ قـبـلـهـ بـقـيـصـرـ وـبـأـنـطـوـنـيـوـ . وـفـيـ سـبـيلـ أـبـنـاهـ وـفـيـ سـبـيلـ مـلـكـ قـيـصـرـوـنـ لـمـ تـكـنـ لـتـعـنـىـ بـشـئـ وـأـتـوـرـعـ عـنـ شـئـ . وـبـرـغـمـ حـزـنـهاـ عـلـىـ أـنـطـوـنـيـوـ وـجـزـعـهـ عـلـىـ مـصـيرـهـاـ وـمـصـيرـأـبـنـاهـ اوـلـزـوـمـهـاـ الـقـبـرـ تـقـضـيـ فـيـهـ وـقـهـاـ بـأـكـيـةـ مـكـتـبـةـ فـقـدـظـفـرـأـ كـتـافـهـمـاـ بـاسـاعـاتـ حـدـيـثـ شـهـىـ . وـكـانـ كـلـ هـمـهـ أـنـ يـاخـذـهـاـ إـلـىـ رـوـمـاـ وـأـنـ تـسـيرـ فـيـ حـفـلـاتـ نـصـرـهـ لـيـرـضـىـ بـذـلـكـ شـهـوـةـ اـتـقـامـهـ وـاتـقـامـ اـخـتـهـ مـنـهـاـ وـلـيـقـدـمـ لـلـشـعـبـ الرـوـمـانـيـ مـنـظـرـاـ تـبـرـجـ لـهـ قـلـوبـ الشـعـوبـ : مـنـظـرـ ذـلـ العـزـيزـ . وـعـرـفـتـ هـىـ هـذـاـ فـشـارـتـ فـيـ عـرـوـقـهـ كـلـ دـمـاءـ الـبـطـالـسـةـ فـرـاعـنـةـ مـصـرـ الـاعـظـمـينـ . لـكـنـهـاـ لمـ تـكـنـ قـادـرـةـ إـلـىـ تـقـسـهـاـ . وـكـانـتـ قـدـرـتـ هـذـاـ مـصـيرـ وـوـطـنـتـ عـلـيـهـ تـقـسـهـاـ وـأـوـصـتـ خـادـمـاـ مـنـ اـتـبـاعـهـاـ أـنـ يـحـضـرـهـاـ ثـعبـانـاـ فـاـكـهـةـ طـعـامـهـاـ يـوـمـ تـشـيرـ لـهـ إـلـىـ جـيـنـهـاـ . وـأـشـارـتـ إـلـىـ هـذـاـ الجـيـنـ المـصـقـولـ يـوـمـ أـيـقـنـتـ إـذـ أـكـتـافـ غـرـيمـهـاـ يـرـيدـ أـنـ يـذـلـهـاـ . وـزـعـتـ التـيـنـ وـاحـدـةـ بـعـدـ وـاحـدـةـ

ثم أمسكت الثعبان فوضعت فه في ثديها ليبعث إليها الموت من خلاله، وكم بعث هذا الندى الحياة إلى أبناءها وإلى الذين أنعمت عليهم الآلهة بالمنتعة بها.

وكان معها خادمتها إيراس وشارميون فشاركتها مصيرها بعد ما حلتها بكل حلٍّ منكها الذي تحطم، والذي حاربت حتى المقادير في سبيل عزه ورفعته من ذ مولدها إلى مماتها (من سنة ٦٩ إلى سنة ٣٠ قبل الميلاد).

ويومئذ ذهبت إلى بارئه أرواح كثيرين من عشاق فاتنة التاريخ. ويومئذ انطفأ نجم كان منيراً في سماء الجمال والذكاء والقدرة وانشاط وأنطلاعاً معه سراح أميرة البطالسة كما انطفأ من مجد مصر حظ عظيم.

الخديوي الاول اسماعيل باشا



لئن صح ان كان لولاية محمد على حكم مصر أثر مباشر في تاريخها
الحاديـث ، وصح ان كان لشق قناة السويس أثر مباشر كذلك في
توجيه هذا التاريخ وجهة خاصة ، فالذى لا ريب فيه أن اكبر الاثر
الذى خضعت وما تزال تخضع له مصر حتى الان اثنا ترتيب على حكم
اسماويل باشا . فـأـكـبـرـ مـظـاهـرـ الـحـضـارـةـ الـتـىـ تـرـاـهـ الـيـوـمـ فيـ مـصـرـ
يرجع اليـهـ : اليـهـ يـرجـعـ فـضـلـ النـشـاءـ السـكـكـ الـحـدـيدـيـةـ وـقـنـاطـيـنـ الـبـرـبـدـ ،
ولـهـ الـفـضـلـ الـأـوـلـ فـيـ الـنـظـامـ الـقـضـائـيـ الـقـائـمـ فـيـ مـصـرـ حـتـىـ الـيـوـمـ ، وـلـهـ أـكـثـرـ
مـنـ ذـلـكـ كـاـهـ الـفـضـلـ الـأـكـبـرـ فـيـ شـعـورـ الـأـمـةـ الـمـصـرـيـةـ بـقـوـمـيـتـهـاـ
وـبـكـيـانـهـاـ . ثـمـ إـنـ عـلـيـهـ تـبـعـةـ الـأـرـتـبـاـكـ الـسـيـاـسـيـ الـذـىـ لـاـ تـزـالـ مـصـرـ تـجـاهـدـ
بـكـلـ قـوـاـهـاـ لـلـخـرـوـجـ مـنـهـ ، وـتـبـعـةـ الـأـضـطـرـابـ الـمـالـىـ الـذـىـ شـلـ حـرـكـةـ
الـبـلـادـ سـنـوـاتـ طـوـيـلـةـ وـهـوـ مـاـ يـرـازـ إـلـىـ الـيـوـمـ بـاقـيـ الـأـثـرـ ، وـعـلـيـهـ
أـكـثـرـ مـنـ ذـلـكـ كـلـهـ تـبـعـةـ تـسـلـيمـ الـبـلـادـ مـالـىـ وـاقـتـصـاـيـاـ وـسـيـاسـيـاـ إـلـىـ
أـيـدـىـ الـأـجـانـبـ . فـهـذـهـ السـتـةـ عـشـرـ عـامـاـ الـتـىـ رـأـيـهـ عـلـىـ عـرـشـ مـصـرـ
(من سـنةـ ١٨٦٣ـ إـلـىـ سـنةـ ١٨٧٩ـ) وـالـنـىـ شـهـدـتـ مـنـ مـظـاهـرـ النـشـاطـ
انـعـمـرـ ، وـمـنـ فـضـائـحـ الـظـلـمـ الـخـرـبـ ، وـمـنـ الـبـذـخـ وـالـإـسـرـافـ الـلـذـينـ
لـاـ يـعـرـفـ التـارـيخـ وـلـاـ تـعـرـفـ الـأـقـاصـيـصـ لـهـاـ نـظـيرـاـ ، وـالـتـىـ اـنـتـهـتـ
بـسـقـوـطـ عـادـلـ مـصـرـ الـعـظـيمـ بـعـدـ أـنـ جـاهـدـهـ فـأـجـهـدـهـاـ ، وـبـعـدـ أـنـ جـاهـدـ
أـورـبـاـ فـأـخـضـعـهـاـ ، وـبـعـدـانـ جـاهـدـ الـقـدـرـ فـهـوـ بـعـنـ عـرـشـهـ وـأـخـرـجـهـ مـنـ
مـصـرـ حـسـيـرـاـ يـنـظـرـ إـلـىـ شـوـاطـئـهـ بـتـبـعـدـهـ بـعـيـنـ دـامـعـةـ وـقـلـبـ كـسـيرـ ، هـذـهـ

الستة عشر عاماً التي جرت الى مصر مظاهر الحضارة الاوربية وهي التي جرت على مصر الخراب، وهي التي أيقظت في شعب مصر الروح الاستقلالية التي لم ينسها يوماً من الايام ، وهي التي أوجبت في تفوس المصريين نيران كراهيّة الاستعباد والظلم والحرص على الحرية والعدل.

ولم يكن عجيباً أن تترك هذه الاعوام ستة عشر في مصر كل هذا الضرر واسماعيل باشا كان حاكماً مصر المطلق. فقد كان بشخصه بطل من أبطال الاقصيين، وكانت أيام حكمه أسطورة لا يسلم العقل بها لو رواها التاريخ عن عصر قديم. كان اسماعيل ساحراً اعظم السحر ذكياً أشد الذكاء وسیم المطلع حاد النّظرة ماضي العزيمة جداً بما لكل من اتصل به . وكان مع ذلك قصير النظر شرعاً في كل مطامعه وشهواته معاصرًا في سبيلها مجازفاً بجازفة لا يرون منها أى حذر . وكان فيه من دم محمد على اقدام لا يعرف التردد وبطش لا هوادة فيه وقسوة لا يتسرّب اليها أهل في رجمة . وكانت هذه الصفات كلها بالغة منه فوق ما تبلغه من أذكياء الناس والباطشين منهم . ثم انه كان مولعاً أشد ولع بالظاهر الاجتماعية للحضارة الاوربية وان غاب عنه الجانب المعنوي منها ، وهو الجانب الذي يحرّكها ويدفعها بكل ما فيه امن وقوة . لذلك سخر ذلك كاءه وقادمه ليجعل لعرش مصر مظاهر العروش الاوربية وليكون قصره كقصر لويس الرابع عشر ان لم يكن أبهى منه وأزهر ، وليقول عن مصر انها أصبحت قطعة من اوربا . وفي سبيل ذلك الشيء كثيراً وخرّب كثيراً وأقتل كاهل مصر بدين ماتزال تنوء الى اليوم به وما زال تحتمل بسببه نقاصاً في سيادتها وذبولها في استقلالها وعزّتها .

ولد اسماعيل بن ابراهيم بن محمد على بمصر في ٣١ ديسمبر سنة ١٨٣٠ وتربي في المدرسة التي انشأها جده محمد على باشا بالقصر العالى ثم أوفده جده لما بلغ السادسة عشرة من عمره مع طائفة من الشبان الى باريس حيث التحق فيها بادرسة أركان حرب L'ecole de l'état ثم عاد الى مصر بعد أن أتم بها دراسته major.

وكان عباس الاول والي مصر يومئذ . وقد حدث خلاف بينه وبين أفراد العائلة ومن بينهم سعيد باشا على اقتسام التركه . فذهبوا الى الاستانة يحتكرون الى جلالة السلطان . وفض جلالته الزراع باز أوفد اثنين من رجاله الى مصر سوياً الخلاف . وعاد افراد العائلة العلوية خلا اسماعيل الذى ظل بالاستانة وعين فيهما عضواً بمجلس أحكام الدولة العلية .

وفي سنة ١٨٥٤ تولى سعيد باشا أريكة مصر خلفاً لعباس الاول . فاستقدم اسماعيل وجعله على رئاسة مجلس أحكام مصر في مثل وظيفته التي كان يشغلها بالاستانة . ولم يكن اسماعيل يومئذ ولیاً للعهد لأن كان أخاه أحمد أكابر رجال العائلة وكان بذلك صاحب عرشها بعد سعيد . لكن احمد توفي وألت ولاية العهد لاسماعيل . من يومئذ جعل سعيد يخشى وجوده على مقربة منه فجعل يوفده في مهام خاصة الى البابا و الى نابليون الثالث و الى الباب العالى بالاستانة . وفي سنة ١٨٦١ نشببت فتنة بالسودان فبعث به على رأس أربعين شاعر مقاتل لقمعها . ونجح اسماعيل في ذلك وعاد وله في أعين الشعب مقام أريم . ولما توفي أخوه احمد وألت اليه ولاية العهد ساعت العلاقة بينه وبين عممه الوالى الى حد أنه لما توفي سعيد باشافى

١٨ يناير سنة ١٨٦٣ ونودى به واليا مكانه حدد للتشريفات بالقاهرة نفس الساعة التي كانت محددة لسير جنازة سعيد بالاسكندرية، فلم يحتفل بالدفن احتفالا رسميا ولم يحفل بالمشهد أحد.

وقد انتعشت النفوس بأكبر الامال لأول ولاية اسماعيل ياشا الحكم، لأن الناس في سعة بسبب انتظام جبائية الضرائب أيام سعيد وارتفاع أسعار القطن ارتفاعا عظيما ترتب على حروب الانفصال بين شمال الولايات المتحدة وجنبها، وأن ابدي اسماعيل من الحرص على حضارة مصر واصلاحها ما جعل الرجاء في المستقبل عظيما. وكان أول ماصنعه اسماعيل مما استراحة له النفوس أن نشر في الناس على أثر ارتقاءه العرش بناججا خلابا كله المبادئ الحرة والوعود المغربية بخير الامل والاصلاحات الواسعة على أحدث النظم الاوربية. وفي هذا البرنامج وعد بالغاء السخرة والرقيق والانجذاب به وبإصدار قوانين خاصة بالتعليم وتحديد مخصصات وإلى مصر. وتوقع الناس أن ينفذ هذا البرنامج وأن تخotto مصر الخطي الواسعة التي تترقب حتما على تنفيذه لما بدا على اسماعيل بعد عوده من دراسته بأوربا ومن سياحاته الكثيرة فيها من الحرص على تنمية ثروته الخاصة. وزاد الناس رجاء في ذلك ما كانت عليه حال البلاد اجمالا من الانتظام والطاعة.

لكن اسماعيل حرص، إلى جانب نشر هذا البرنامج، على نشر حالة الخزانة المالية وبخاصة فيما يتعلق بالديون التي خلفها سلفه سعيد ياشا. ومع أن هذه الديون لم تكن تزيد في التقديرات الرسمية التي عرفت إلى حين موت سعيد على أربعة ملايين من الجنيهات فقد

ظهرت في البيان الذي نشرته حكومة اسماعيل باشا أحد عشر مليونا و مائة و ستيون الفا من الجنierات . والسبب في نشر هذا البيان ليس مجرد الحرص على تحديد ما للدولة وما عليها ، فمثل هذا الحرص لم يكن معروفا في ذلك الوقت . وأنا السبب أن اسماعيل باشا كان يرى ملحة تضليل تنفيذ برنامجه العظيم من طائل النفقات مما لا سبيل إلى الحصول عليه من غير طريق الاقتراض . لذلك أراد أن يبين للناس وللأوريين خاصة أن سلفه الذي لم يصنع شيئاً لحضارة مصر أكثر من هذا الجيش الذي اختاره من طوال القamat ، والذي كان يصحبه أني ذهب ، هو الذي بدأ سنة الاقتراض وهو الذي اقرض هذا المبلغ العظيم من غيرفائدة للبلاد .

والواقع أن مطامع اسماعيل كانت عظيمة تتواء بها موارد مصر . فقد أراد أن يصل إلى ما رمى إليه جده محمد على من استقلال البلاد . لكنه كان يعلم أن تحقيق ذلك بالسيف غير ميسور ، وأنه على كل حال عرضة لأن يصطدم من معارضة أوربا بما اصطبمت به انتصارات مصر أيام جده . وكان يعلم كذلك ما للرسوة من أثر في وزراء الباب العالي ، فإذا هو سخا بيده استطاع أن يحصل على هذا الاستقلال شيئاً فشيئاً . ثم إنه رأى من جهة ثالثة أن لا سبيل للحصول على المال اللازم لهذه الغاية ولسداد أطاعه وشهواه إلا أن يظهر أمام أوربا كأغربياً يريد الاصلاح بالفعل . فنشر البرنامج المشار إليه ونشر قائمة بديون سعيد وأبدى من مظاهر العطف الانساني على رعاياه ماجلب اليه أنظار أوربا . من ذلك أنه لم يوافق على الاستمرار في تنفيذ اتفاقية قناة السويس التي عقدت في عهد

سلفه سعيد باشا بينه وبين المسيو فردينان دلسبس لأنّه رأى
شروطها قاسية بالنسبة لمصر وبالنسبة للعمال المصريين الذين كانوا يرهقون
في حفر القناة أشد أرهاق، يسامون الخسف ويضربون بالكريبيج
ويطعمون الزقوم ويقادون لا يقتضون عن عملهم أجراً. ولما استحر
الخلاف بين اسماعيل وشركة القناة ارتضى الظرفان تحكيم نابليون
الثالث. ولسنا نستطيع أن نفهم هذا التحكيم الا على أنه نوع من الكبriاء
والغرور. فنابليون الثالث أمبراطور فرنسا، وشركة القناة على صفتها
الدولية كانت ماتزال في كل مظاهرها شركه فرنسيه تعنى أمبراطور
فرنسا حمايتها. فتحكيمه مع ذلك نوع من الكبriاء والغرور معناه
انه لا يجوز لغير رأس من أكبر الرؤوس المتوجة أن تنظر في خلاف
بين اسماعيل والشركة الدولية العالمية. وانتهى التحكيم بازام مصر
بان تدفع للشركة تعويضاً من عدم تنفيذ شروط الاتفاق أربعة
وثلاثين مليونا من الفرنكـات، أى ثلاثة ملايين وثلاثمائة وستين
ألفاً من الجنيهـات. فإذا أضيفت تفقات الدعوى وما قامت به الحكومة
الأصرـية من أعمال النشر والإذاعة وما كان يتـقادـاه القائمون بهذه
الاعمال من باهـظ النفـقات لم يكن غلوـاـتقـديرـ ما خـسرـته مصرـ في هـذهـ
الـحـرـكةـ بـارـبـعـةـ مـلاـيـنـ منـ الجـنـيهـاتـ .

وبعد زمان وجيز من ولاتهـ الحـكـمـ جاءـ جـلـالـةـ السـلـطـانـ

عبد العـزيـزـ إـلـيـ مـصـرـ وـمـعـهـ الصـدرـ الـاعـظـمـ فـؤـادـ باـشاـ. فـكـانـ هـذـهـ
أـولـ فـرـصـةـ عـرـضـتـ لـاسمـاعـيلـ كـيـ يـنـفـذـ مـاجـالـ بـخـاطـرـهـ كـوـسـيـلـةـ لـبـلـوغـ
الـغـاـيـةـ الـتـيـ صـبـاـ إـلـيـهـ مـنـ قـبـلـ جـدـهـ مـحـمـدـ عـلـيـ. وـلـمـ يـكـفـهـ مـاـ أـقـامـهـ جـلـالـةـ.
الـسـلـطـانـ مـنـ أـعـيـادـ فـاقـتـ فـيـ الـفـخـامـةـ كـلـ مـاـ يـتـصـورـهـ خـيـالـ السـلـطـانـ.

الشرق . بل نفع الصدر الاعظم ببلغ زهيد مقابل الخدم التي أداها أو يمكن أن يؤديها لبقاء علاقات المودة والصفاء بين والي مصر وجلالة السلطان . هذا المبلغ الزهيد هو ستون ألفاً من الجنيهات . على أن تباشير الخير التي جعلت المصريين يستقبلون ارتقاء اسماعيل إلى العرش بالبشر والتهليل لم تدم طويلاً . فقد انہت حرب الانفصال بين شمال الولايات المتحدة وجنوبها وعادت أسعار القطن فانحدرت من ستة عشر جنيهاً للقنطار إلى ثلاثة جنيهات أو ثلاثة جنيهات ونصف الجنيه . وفتكت بالزراعة المصرية آفات انقضت من دخل الفضية العقارية واضطربت الحكومة معها لشراء الماشية والغلال لتزيين الاهالي مما خسرت معه ما يزيد على مائة وعشرين ألفاً من الجنيهات . ثم ان اسماعيل كان مغرماً أشد الغرام بتملك الاطيان حتى لقد بلغت مساحة « دوائر » العائلة المالكة في سنة ١٨٦٥ ما يزيد على خمس الاطيان المزرعة في مصر الوسطى وفي الوجه البحري .

ذلك كله مضافاً إلى حاجات الميزانية العادلة وما احتجت إليه الاصلاحات العامة التي بدأ اسماعيل باشا بالقيام بها تنفيذاً ل برنامجه جعل الالتجاء إلى الاقراض أمراً لا مفر منه . وقد بدأ اسماعيل فعلاً بالاقتراض منذ ولـي الحكم . فلما انقضت على ولايته سنة وبعض السنة كان الالتجاء إلى المراين في مصر غير كاف لحالاته ، وكان لا بد من الاقتراض من بيوتات مالية كبيرة في أوربا . ولم يجد اسماعيل عنقافي استصدار تصريح بالاقتراض من الأستانة . وبذلك استطاع في ٨ سبتمبر سنة ١٨٦٤ عقد أول قروضه وقدره ٤٠٠٠ ر ٥٧٠ جنية .
كيف صور اسماعيل لنفسه برنامـج الاصـلاحـاتـ العامـةـ ،ـ وماـهـيـ

الطريقة التي أراد أن ينتمي بها مصر من بلد شرقى بعيد عن مظاهر الحضارة الأوروبية الا القليل الذى جاء مع نابليون والبعثة الفرنسية والذى دخل إلى مصر سداً حاجات محمد على الخربية؟ هي صورة غاية في البساطة . يجب أن نقيم مدننا أوروبية النظام في طرقها وفي عمارتها وفي بساتينها فما يثبت المتيهون بها أن يصطفيوا بالحضارة الأوروبية . ويجب أن ندخل أحدث الابتكارات والنظم كالسكك الحديدية والبريد والتلغراف فما يثبت الناس أن يفهموا هذه الابتكارات والنظم وأن يصيروا أاصحابها . ويجب أن نعلم جماعة من النساء ليكونوا واسطة احتفاظ بظاهر الحضارة هذه . أما الشعب فلم يكن اسماعيل يأبه له كثيراً لائنه كان كغيره من الحكماء الشرقيين إلى يومئذ ، وكثير من الحكماء الغربيين إلى زمان غير بعيد قبله ، يعتبر مصر كما اعتبرها جده من قبل مزرعة له ، مركز الشعب فيها مركز العبد أو الخادم . وقد أراد اسماعيل أن يصل لتحقيق فكرته من الحضارة والصلاح في سنوات مما لم تصل أوروبا لتحقيقه إلا في قرون . فبدأ تنظيم القاهرة على نظام باريس وغير باريس من مدائن أوربا الكبرى يخطط فيها الشوارع ويقيم القصور وينشئ الدوالين ودور الحكومة ويندرس البساتين ، وحمل من جانبه يعيش عيشة بذخ لم يتميأ خيال شاعر ولا قصاص من قبل . وطبعى أن اقتضى القيام بذلك كله من النفقات ما تلاشى معه قرض سنة ١٨٦٤ أسرع التلاشى وما كثرت معه الديون السائرة التي كان يقتضى من المراين الاجانب المقيمين بمصر كثرة اضطرره للتفكير من جديد في الاتجاه إلى أوربا كى يعقد قرضاً آخر .

ولم يكفل قرض واحد ، بل كان وزيره نوبار باشا يتفاوض له مع كل البيوتات المالية وعقد له في ثلاثة سنوات ثلاثة قروض .
قرض سنة ١٨٦٥ وقدره ٣٨٧٠٠٠ جنيهًا وقرض سنة ١٨٦٦
وقدره ثلاثة ملايين من الجنيهات ، وقرض سنة ١٨٦٧ وقدره ٤٠٨٠٠٠ جنيهًا . لكن هذه الملايين كلها لم تكن شيئاً مذكوراً
إلى جانب النفقات الباهظة التي كان يقوم بها اسماعيل باشا .

وماذا تريد من رجل أقل أطعاءه أن يصل ليكون ملكاً على
بلاد مستقلة استقلالاً داخلياً على الأقل ! وكم كلفه ذلك من باهظ
الرسوة يدفعها للكثيرين من رجال الباب العالي بالاستانة ! ولقد
كانت أول خطوة خططاها في هذا السبيل أن حصل في سنة ١٨٦٦
على فرمان من جلاله السلطان يجعل الوراثة في ابنائه بدلاً من جعلها
في أكبر العائلة كما كانت من قبل . ثم حصل كذلك على ضم سواكن
ومصوع مصر بعد ماسلحها عنها من بعد حكم محمد على

ثم إنه من بعد أن حكم نابليون الثالث امبراطور فرنسا في
الخلاف بينه وبين شركة قناة السويس أصبح صديقاً جميماً لشركة
وأصبح ينتظر اليوم الذي يعلن فيه افتتاح القناة ليدعوه العالم كله
كي بشهد هذا التحويل البديع لنظام الطبيعة تحويلاً من شأنه أن
يغير سير الوجود الاقتصادي والتجاري تغييراً خطيراً . وكانت
سنة ١٨٦٩ هي السنة التي حددت لهذا الافتتاح . وكانت قروض
السنوات الثلاث السالفة الذكر قد تقدت كلها وتزايد الدين السائر
مع ذلك تزايداً جعل اسماعيل يفكر في الحصول على المال لظهور

بالمظهر اللازم في حفلة الافتتاح تقكيراً جدياً استغرق كل موهبه وكل ذكائه.

وفي هذا السبيل سافر في سنة ١٨٦٧ إلى أوروبا وزار باريس ولندره واستضافه نابليون الثالث والملكة فكتوريا. وكان معه في هذه السياحة وزيره نوبار باشا المطاع على دخائل مفاوضات البيوئات المالية والتدير بدهائه وخبائه على القيام بأعمال في السياسة جسام. وفي هذه الزيارة بدء الحديث في مسألة تعديل نظام الامتيازات الأجنبية. فقد كان إلى يومئذ كما كان إلى يوم الغائه في تركيا قائماً على القاعدة القانونية التي تقرر أن المدعى يقاضي المدعى عليه أمام قضااته. وكان من أثر ذلك أن شعر الأجانب أنفسهم بالارتباك في مقاضاة بعضهم بعضاً. فاستقر رأي اسماعيل ووزيره على إقامة نظام المحاكم المتاطفة القائم اليوم في مصر، على أن يشمل اختصاص هذه المحاكم الشؤون الجنائية كذلك. ومنذ هذه الزيارة التي قام بها اسماعيل لاوربا في سنة ١٨٦٧ فتحت مسألة تعديل النظام القضائي في شأن الأجانب، وظلت المفاوضات فيها مستمرة بعد ذلك ثالثي سنوات حتى كللت بالنجاح في سنة ١٨٧٥. لكن هذه المسألة لم تكن الجوهرية يومئذ. إنما المسألة الجوهرية كانت الحصول على المال لسداد الديون السائرة فيما أعلنه اسماعيل باشا المفتش وزير مالية اسماعيل وتحضير حفلة افتتاح القناة في رأي المستر كيف الذي حقق أسباب ديون اسماعيل في سنة ١٨٧٠ كما سترى، وقد نجح اسماعيل في عقد قرض تم توقيعه سنة ١٨٦٨ قيمة الاسمية مبلغ ٢٠٠٠٠٠ ر. جنيه والمحصل الحقيقي منه

مبلغ ٤٣٣٤ ل. جنيه . وقد قبل اسماعيل ضمن شروط هذا القرض أن يمتنع عن الاستدامة لمدة خمس سنوات مقبلة مما يدل على انه كان في أشد الحاجة الى المال . و كان افتتاح القناة في ذلك الظرف هو شاغل اسماعيل الا ^{كبير} .

فان قد حرص على أن يدعوا الى هذه الحفلة كل الرؤوس المتوجة في أوربا وأكبر عدد من ذوى المقام والمكانة في العالم . وكان اكبر همه من هذا أن يشهد هؤلاء جميعاً كيف نقل مصر من بلاد شرقية افريقية بفعل منها بلاد أغريقية متحضره . وفي الحق انه أعد لهذا المظاهر خير عده . فقد بنى في القاهرة قصوراً تضارع انجم قصور المدائن الاوربية العظمى . بنى قصر الجيزة الذى انقلب في العهد الاخير حديقة للحيوانات ووصل بينه وبين القاهرة بكوبرى قصر النيل . وبنى قصر الجزيرة الذى آل أخيراً الى الامراء آل لطف الله . وبنى غير هذين من القصور الشاهقة ومن دوالين الحكومة مالتعزز به مدائن أوربا . ثم أعد مسرح الاوبرا وكاف الموسيقى الايطالي الكبير فردى فوضع اوبرا عائدة تمثل أثناء حفلات الافتتاح . وأنشأ حديقة الاذبانية في وسط القاهرة أسوة بالحدائق العامة في العواصم الكبرى ، وأيتى سير للزائرين وبخاصمة الامبراطورة او جيني زوج نابليون الثالث زيارة آثار الفراعنة اختطف طريق الاهرام في أشهر معدودة . هذا الى ما مدد من خطوط السكة الحديدية ، والى ما شيد من مدينة اسماعيلية على ضفة القناة ، كما أنه كان قد انشأ في مختلف أنحاء القاهرة كثيراً من المدارس الجديدة كما أعاد المدارس التي كانت قد انشئت في عهد جده محمد على باشا

واضـهـ حـلـتـ مـنـ بـعـدـهـ فـأـشـأـمـ دـارـسـ الـمـبـتـدـيـانـ وـالـتـجـهـيزـيـةـ وـالـمـهـنـدـسـخـانـةـ
وـالـمـسـاحـةـ وـالـأـلسـنـ وـالـعـلـمـيـاتـ وـالـادـارـةـ وـالـلـسـانـ الـقـدـيمـ وـالـتـجـارـةـ
وـمـدـرـسـةـ لـلـبـنـاتـ وـمـدـارـسـ كـثـيرـةـ أـخـرىـ فـىـ الـقـاهـرـةـ وـالـاسـكـنـدـرـيـةـ
وـالـأـرـيـافـ وـكـذـلـكـ كـانـ مـنـ حـتـهـ أـنـ يـفـخـرـ بـهـذـهـ الـمـنـشـآـتـ الـعـظـيـمـةـ وـانـ
يـرـيمـاـ الـمـلـوـكـ أـورـبـاـ لـيـعـلـمـوـاـ أـنـهـ أـكـثـرـ حـضـارـةـ مـنـ مـتـبـوعـهـ الـأـعـظـمـ
سـلـطـانـ تـرـكـيـاـ ، وـانـهـ اـذـ طـابـ يـوـمـاـ أـنـ يـسـتـقـلـ بـحـكـمـ مـصـرـ فـطـلـيـهـ
لـاـ شـىـءـ مـنـ الـمـبـالـغـةـ فـيـهـ .

وـسـافـرـ مـنـ جـدـيدـاـلـىـ أـورـبـاـ سـنـةـ ١٨٦٩ـ وـعـادـ بـعـدـ مـادـعـاـ كـلـ الرـؤـوسـ
الـمـتـوـجـةـ إـلـىـ حـضـورـ الـاحـتـفالـ بـافتـتاحـ الـقـنـاءـ . وـقـدـ أـجـابـ الدـعـوـةـ
مـنـهـمـ عـدـدـ غـيرـ قـلـيلـ . مـمـ تـمـ اـفـتـتاحـ الـقـنـاءـ فـىـ خـمـسـةـ أـيـامـ فـيـ ١٦ـ نـوـفـبـرـ
سـنـةـ ١٨٦٩ـ رـكـبـ الـمـدـعـوـنـ بـوـاـخـرـهـمـ وـعـدـدـهـاـ ثـمـانـ وـسـتـوـنـ تـرـفـرـفـ
فـوـقـهـاـ أـعـلـامـ مـخـتـلـفـةـ وـيـتـقـدـمـهـاـ (ـالـنـسـرـ)ـ سـفـينـ الـإـمـبرـاطـورـةـ أـوـجـيـنـيـ
زـوـجـ نـابـلـيـونـ الثـالـثـ الـتـيـ جـاءـتـ بـالـنـيـاـبـةـ عـنـ زـوـجـهـاـ وـقـطـعـوـاـ الـمـسـافـةـ
مـنـ بـورـ سـعـيدـ إـلـىـ الـإـسـمـاعـيـلـيـةـ فـىـ ذـلـكـ الـيـوـمـ . وـبـعـدـ أـنـ أـقـيمـتـ فـيـ
الـإـسـمـاعـيـلـيـةـ أـعـيـادـ اـسـتـمـرـتـ يـوـمـىـ ١٧ـ وـ١٨ـ نـوـفـبـرـ رـكـبـ الـمـدـعـوـنـ مـنـ
جـدـيدـ بـوـاـخـرـهـمـ يـوـمـ ١٩ـ وـبـلـغـوـاـ السـوـيـسـ يـوـمـ ٢٠ـ نـوـفـبـرـ . وـلـمـ يـكـتـفـ
إـسـمـاعـيـلـ بـهـذـاـ بـلـ طـافـ بـضـيـوـفـهـ الـعـظـامـ الـخـاءـ مـصـرـ يـظـهـرـهـ عـلـىـ مـاجـدـ
فـيـهـاـ مـنـ حـضـارـةـ تـضـارـعـ حـضـارـةـ أـورـبـاـ . وـقـدـ كـلـفـتـهـ هـذـهـ الـأـعـيـادـ الـبـاهـرـةـ،
حـسـبـ التـقـدـيرـاتـ الرـسـمـيـةـ ، اـرـبـعـةـ مـلـاـيـنـ مـنـ الـجـنـيـهـاتـ .

وـأـنـتـهـتـ الـأـعـيـادـ وـأـضـرـأـوـهـاـ الـبـاهـرـةـ وـابـتـسـامـاتـهـاـ الـخـلـابـةـ وـأـجـالـ
إـسـمـاعـيـلـ بـصـرـهـ يـرـيدـ مـتـابـعـةـ أـعـمـالـهـ فـاـذـ خـازـانـةـ الـدـوـلـةـ قـفـرـ ، وـاـذـ هوـ

في اشد الحاجة الى المال . ولم يكن يستطيع أن يقترض وهو مقيد في عقد سنة ١٨٦٨ بأن لا يعتد قرضاً جديداً قبل مضي سنوات خمس . فاجأ الى المراين من جديد ولجأ الى وسيلة تشبه ما يسميه الفلاحون اليوم : البيع على الوجه . فكان يبيع آلاف الارادب من الغلال قبل زراعتها ويقبض ثمنها ، فإذا جاء موعد التسلیم أعطى ما يجبي من الضرائب غللا ثم اشتري الباقي بأسعار أعلى بكثير من الاسعار التي باع بها . ولجأ الى غير ذلك من الوسائل المخربة حتى اضطر جلاة سلطان تركيا رغم ما أصاب وزراؤه من أموال اسماعيل أن يبعث له يحظر عليه الاقتراض بغير تصريح سابق منه .

لكن ذلك كله لم يوهن من عزيمة اسماعيل الصلب ولم يثن من ارادته . يجب أن يوجد المال للقيام بمشروعاته ولضمانة هذا البذخ الذي كان يعيش فيه والذي اضطره لنثر الذهب من الابواب والنوافذ ثراً . وهل تراه يرضى أن يقول لرجل من اتباعه الدين يتولون تسليته أو لجارية من مئات الجواري الالاتي كانت تترنم باصواتهن قصورة : إن سيدكم قد غرف أخيراً كلية المستحبيل . كلا ! ليس هذا من خلق اسماعيل . فليعقد اذن قرضاً خاصاً في سنة ١٨٧٠ قيمته الاسمية لسداده . وعقد بالفعل قرضاً خاصاً في سنة ١٨٧٠ قيمته الاسمية ١٤٢٠ جنيه والمبلغ المتحصل منه بالفعل خمسة ملايين جنيه .

ومن سنة ١٨٧٠ بدأ يرمي بنظره الى التوسيع الاستعماري . ولقد أصاب من ذلك حظاً من النجاح غير قليل . ففيما بين هذه السنة وسنة ١٨٧٥ استصحب مصر كل الشواطئ الشرقية من السويس الى رأس غردفوي وحاصر ببر وزياع . وفي سنة ١٨٧٤

ضم دارفور الى مصر واحتل هرر . وقد أدى احتلال هرر الى حروب مع الحبشة قتل فيها ابنه ، ولم يكن النصر فيها حليف جيوشه . على ان ذلك لم يتصد لها عن التوغل جنوبا الى حدود الاوغندة . وكان من اكبر رجال اسماعيل المسؤولين في السودان صمويل بيكر والكولونيل جوردون . ولعل ذلك كان أول ما دعا انكشارا لتفكير في هذا القطر النائي ، وكان السبب في السياسة التي رسمتها لنفسها فيه والتي أدت الى مركز السودان الحاضر .

وكانت هذه الاعمال ، وكان اسراف الحكومة في مصر ، وكانت نفقات اسماعيل ومن حوله، تجعل كل مبلغ ضئيلا لا يقوى على سدادها . لكن اسماعيل باشا بدأ يرى هول الديون التي استدانها وبدأ يشعر بأن من الواجب التفكير في السعي للتخفيض منها . ولعله كان مخلصاً في سعيه وان كانت كل الوسائل التي ابتدعت لجلب المال لم تنجح في أكثر من ان زادت الخديوي مطامع وسرفا . وأول ما أبدع من الوسائل قانون المقابلة . وخلاصته: ان ديون مصر الى يومئذ كانت تبلغ ستة أمثال الضريبة العقارية . فاذا دفع الملاك ضعف الضريبة ست سنوات أمكن سداد الدين . ومقابل هذه الضريبة المضاعفة يعفى الملاك أبداً من نصف الضريبة التي عليهم . وقد دفع كثير من كبار الملاك والباشوات الضريبة المضاعفة بطلب ولي الامر . وب بدأت الحكومة فعلاً تسدد الدين السائر . لكنها لم تمض عليها سنة واحدة حتى كانت قد استدانت من جديد بسندات أصدرت هامدة فولة بضريبة اتفاقية اتفقا على شرط مليونا من الجنيهات . ولما كان موعد الجتس السنوات المحددة في عقد قرض سنة ١٨٦٨

قارب الانتهاء رأى اسماعيل أن يستأذن الباب العالى فى قرض جديد يوحد به ديونه . واتفق فعلاً مع بيت او بنيم الذى أصدر قرض سنة ١٨٦٨ على أن يصدر قرضاً جديداً قيمته اثنان وثلاثون مليوناً من الجنيهات لهذا التوحيد . على أن كل ما حصلته الحكومة المصرية من هذا المبلغ كان ٢٠٨٤٠٧٧ رجبياً . وكان الدين السائر وحده قد بلغ يومئذ عمانية وعشرين مليوناً .

ثم إن الخديو كان قد اضطر إلى اتفاق مبلغ ضخم في الاستانة للحصول على فرمان سنة ١٨٧٣ الذى وطد الوراثة في بكر البناء على نحو ما صدر به فرمان سنة ١٨٦٦ والذى أتم لصالحة الداخلى حتى لم يبق لتركيا إلا أن تسلك العملة باسم سلطانها وتقاضى الجزية آخر كل سنة . وزاد هذا المبلغ في مقدار الديون السائرة زيادة جعلتها تتجاوز مقدار القرض الجديد بما يوازي نصفه . لذلك لم يفلح القرض في سداد الدين السار . واستمر اسماعيل على طريقته ليصدر سندات جديدة أسماءها في هذه المرة سندات الرزنامة . وقد حصلت الحكومة من هذه السندات ٣٣٧٢١٠ ر ٣ جنيه فلم تكف هى الأخرى مضافة إلى الدين الجديد لسداد الديون السائرة ولم يبق أمام اسماعيل إلا بيع أسهم الحكومة في قنال السويس . ولقد عرضها للبيع في السوق العالمي . لكن انكلترا جعلت المسألة ماسة بسياستها ووقفت في وجه فرنسا واشترت الاسهم من اسماعيل ببلغ أربعة ملايين من الجنيهات وتمت الصفقة في ١٨٧٥ . وفي هذا العام الذى أطل فيه الخراب محدقاً بعينيه البشعتين في وجه اسماعيل تم تنظيم المحاكم المختلطة بعد معارضه غير قليلة من

جانب فرنسا ، وافتتحها اسماعيل وهو مايزال يأمل في أن اعمال
الحضارة التي قام ويقوم بها في مصر تسمح له أبداً لأن يجد من الدائنين من
يحق به ، ناسياً أنه كان قد رهن كل إيرادات الدولة وكل أملاكه
الخاصة وأن الثقة به ترتعزت في كل مكان . لذلك ما بزغت شمس
سنة ١٨٧٦ حتى كان وقت الحساب قد آن ، وحتى أطفئت أنوار
هذه الأعياد الدائمة وهذا النشاط العجيب الذي نشره اسماعيل لا
في مصر وحدها بل في أرجاء كثيرة قريبة من مصر ونائية عنها —
في السودان وفي تركيا وفي فرنسا وفي إنكلترا وفي كل بلد حلـت
به رحاله أو كان له دائنوـن فيه .

سنة ١٧٨٦ ! نعم هي السنة العصيبة في حياة اسماعيل لأنها السنة
التي بدأ فيها الصراع العنيف بينه وبين أوربا مجتمعة . والعجيب أنه
واصل هذا الصراع ومايزال واتقاً من نفسه ومن حيلته . لذلك كان
إذا اضطر إلى الاعذان يوماً لم يكن ذلك منه حرضاً على الوفاء ولكن
انتظار الفرصة النكث والأخذ بالثار . لكن خصومه كانوا أقوى
منه أضعافاً برغم أنه كان في داره . وعلى الرغم من كل الوسائل التي
جاء إليها فقد انتهـى آخر الامر فاستسلم نفسه للمقادير التي قضـت بخلعه
وابعاده عن بلاده بقية حياته .

ومن عجيب سخر القدر من الناس أن اسماعيل هو الذي الذي
لأوربا بأول فكرة للتدخل في شئونه وشنـون مصر تدخلـاً ينتهي
في أمره هو إلى الخـام ، وفي أمر مصر إلى الخـصـوع لنـير أورـبا أو لاـ
وانـكلـاتـرا أخـيراً . ذلك بأنه لما تـقلـ حـملـه وأـيقـنـ أنـ لاـ وـسـيـةـ إلىـ
الاقتراضـ منـ جـديـدـ الـأـنـ تـقـيـهـ أـورـباـ أـجـالـ نـظـرـهـ صـوبـ صـدـيقـتهـ

الصادق فرنسا فألقاها ما تزال مهيضة الجناح من أثر هزيمتها
سنة ١٨٧٠ . عند ذلك فكر في مصادقة انكلترا وانهز فرصة مرور
ولى عهدها بعصر فطلب اليه أن يعين انكليزي مستشاراً للنفالية
المصرية . وكان جواب ولی العهد أن ذلك من شأن القنصل الانكليزي .
فبعث القنصل بخطاب الى حكومته كطلب اسماعيل . واهملت انكلترا
الخطاب حتى اشتربت أسمهم القناة . يومئذ ذكرت الخطاب من جديد
فأرسلت الى مصر بعثة لفحص شؤونها المالية وعلى رأسها المستر
ستيفن كيف .

ولم يترك اسماعيل باشا وسيلة لاسترضاء المستر كيف ولجمته
الا بذها . وقدمت اللجنة تقريرها الى الحكومة الانجليزية فامتنعت
عن نشره بحجة أن النشر يزيد مركز الخديوي حرجاً . ولقد نشر
التقرير من بعد فترين أنه لا يزيد المركز سوءاً وأنه على العكس من
ذلك يبين للناس أن ما اقترضته مصر إنما أتفق أكثره في أعمال مشمرة
ان لم تظهر تماحها بعد فهى على كل حال ضمان يعكر . أن يعتمد
الدائون عليه . على أن التقرير استظهر درجة حال مصر وأشار بأن لا بد
من توحيد دينها على قاعدة جعل الفائدة لها جميعاً ٧ في المائة .
ولم يعجب اسماعيل هذا الرأي وأراد المقاومة بتأخيل الدفع ولو
كان من نتيجة ذلك اشمار افلاسه أسوة بخاتمه الاعظم سلطان
تركيا . لكن سرعان ما أدرك خطر ما اندفع اليه فـ تلاه
أصدر قانوناً في ٢ و ٧ مايو سنة ١٨٧٦ بتوحيد الدين وبإنشاء
صناديق خاص بعملياته . وصندوق الدين تعين الحكومة المصرية
أعضاءه من الأجانب بالاتفاق مع دولهم . وهذه أول خطوة من

خطى التسليم والخضوع لاوربا ولتدخلها في شئون مصر الداخلية.
على أن الدائنين لم ير تضوا القواعد التي بني عليها توحيد الديون
فضجوا بالشكوى وطابوا تعين لجنة جديدة لفحص حالة مصر المالية.
فذهب المستر جوشن والمسيرو جوير مندوين عن الدائنين لإجراء
هذا الفحص . وكان من أثر فحصهم أن صدر ذكريتوا ١٨ نوفمبر
سنة ١٨٧٦ يفرق بين ديون الحكومة المصرية وديون اسماعيل
الخاصة ويزيد في اختصاص صندوق الدين وينشئ منصب المراقبين
العامين أحدهما انكليزي والأخر فرنسي يراقب أحدهما كل ايرادات
الدولة ويراقب الآخر كل مصروفاتها ، وينشأ كذلك ادارة للسكة
الم diligieة مكونة من انكليزيين ومصريين وفرنسي واحد ، على أن
يكون الرئيس انكليزيا . وبهذا الذكريتوا أصبحت الحكومة
المصرية في يد صندوق الدين والمراقبين الا جانب وأصبح
اسماعيل صورة لا يطلب منها الا أن تكشف عن الاذى .
وبناءً هذه النظم الجديدة بالعمل وببدأ اسماعيل يشعر بتلاشيته
وانحدار سلطانه المطلق الى هاوية الفناء .

أين كان الشعب المصري في أثناء ذلك كله ؟ لم يكن في نظر
اسماعيل شيئاً الا أنه العبد المطيع الذي يفعل ما يؤمر به والبقرة الحلوة
التي تدر الرضائب لاقامة الميزانية . ولم تكن للحكومة ميزانية معروفة
وانما كانت ميزانيتها ماتتطلبه شهوات عاهمه الذي القاسي . ولتحصيل
هذه الميزانية غير المحدودة كان يكفي اذ يقول اسماعيل : «أريد» لتحررك
كل الحكومة كى تنفذ ارادته . والناس على دين ملوكهم . فكان
كل موظف في الحكومة كاسماعيل شهوة وقسوة . وكان ما يطلبه

اسماويل يجبي من الناس اضعافاً مضاعفة سداً لشهواته وشهوات هؤلاء
الحياة الجناة . والناس يجب أن يدفعوا أو يكوى الكرباج والسوط
جلودهم ويدمغ جيابهم . ويجب أن يدفعوا أو يلق بهم في غيابات
السجن يذوقون فيها أشد العذاب ، ولم لا ؟ أليس عزيز مصر ولو
أمرها يريد . (وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم) .
فمن عصى فعاليه الملعنة قوله العذاب . وأى عذاب وأية لعنة ! كان
رجال الحكم يومئذ من غير المصريين الا قليلاً . فلم تكن بينهم
ويبن مصر وشيبة رحم أو عاطفة مودة أو قربى تحرك في نقوسهم
بازاء المصريين المساكين معنى من الرحمة أو الإنسانية ، بل كانوا من
الا كراد والجركس والارمن والا لبانيين . وكانوا قساة القلوب غلاظ
الا كبار على عقوتهم أقفالها ، لا يعصون اسماويل ما أمرهم ويفعلون
ما يؤمرون .

لذلك كان طبيعياً أن لا يتحرك الشعب لتدخل الاجنبي في
شؤونه . ولماذا يتحرك ؟ أليس حكامه هؤلاء أجانب عنه كالذين تدخلوا
في شأن الحكم سواء بسواء ؟ واختلاف العقيدة لا يكفى ليقوم
شعب هذه الظلم وأضعف نفسه لينصر ظالمه على مخالفه في العقيدة ،
وبخاصة اذا انتظر من هذا المخالف رفع الحيف ووقف الظلم والأذى .
وببدأ اسماويل يشعر بهذا ويحسه في أعماق نفسه . جلس حسيراً
في قصره مغلولة يده يشهد بعيني رأسه ماجر اليه بذنه واسرافه من
خراب وسمح لاذنه أن تسمع لاول مرة ما يضج به الناس من ألم
وشكوى . وماذا يعني الناس من قصور تجادل وحدائق تغرس
وجسور تتد فوق النهر وألحان تعزفها الحسان اذا كان ذلك كله يشاد

من دماءهم ويمد على أكتافهم ؟ وزاد اسماعيل شعوراً بالكارثة ان استندت اقساط الدين كل الضرائب التي جمعت على النحو الذي كانت تجمع به من قبل من وسائل الارهاق ، ولم يبق منها شيء يدفع للموظفين ولا للجيش .

ورأى الدائنون بأعينهم هذه الحال البشعة فاتفق الرأي على تعين لجنة جديدة لفحص جديد . وفي سنة ١٨٧٨ تعينت لجنة الفحص العلمياً أنشأها ذكريتو ٢٧ يناير من تلك السنة . وفي ٣٠ مارس صدر ذكريتو آخر يجعل لاجنة أوسع السلطة . وتشكلت من مسيو دلسبيس رئيساً ومن مسؤول ريفرس ولسن نائب رئيس ، ومن أعضاء صندوق الدين الاربعة . وبذلت اللجنة خصها تحركها فسكرة أساسية هي وضع قرار اتهام اسماعيل . وبعد اتهامها من الفحص قدمت تقريراً مبدئياً كانت الفكرة السائدة فيه وجوب تحديد سطة الخديو واعتباره مسؤولاً عن حرج مركز مصر ، واقتصرت لذلك اجراء اصلاحات في التشريع المالي بالنسبة للضرائب وأن تخصص ايرادات أملاك الخديو كلها ومساحتها ٩١٧٠٠٠ فدان لسداد ما يكون من عجز في الميزانية .

تردد اسماعيل بادئ الرأي في قبول هذه المطالبة ، لكنه رأى تردد لا يفيد شيئاً بعد أن أصبح الامر كله لمراقبين ولصندوق الدين ، وانه اذا قبل ما اقترح عليه فقد يفتح ذلك أمامه باباً جديداً للاقتراض من جهة ، ويترك له الوقت من الجهة الأخرى في تدبیر وسيلة للخلاص من هذه المراقبة التي غلت يده . وتحت ضغط نوبار باشا أذعن الى المستر ريفرس ولسن في يوم ٤٣ أغسطس

سنة ١٨٧٨ قبوله اقرارات اللجنة . وفي ٢٨ أغسطس أصدر الامر العالى المشهور بانشاء وزارة (يحكم هو معها وبواسطتها وتكون متضامنة في مسؤوليتها) وشكل نوبار باشا هذه الوزارة واستعان فيها بالمستر ريفرس ولسن .

ومنذ طلب نوبار باشا الى المستر ريفرس ولسن معاونته في الوزارة قام الاخير باتفاقية لعقد قرض جديد تسد منه الديون السائرة ويسلد عجز الميزانية . وقبل أن يوقع عقد القرض أصدر اسماعيل دكريتو ١٢٦ أكتوبر سنة ١٨٧٨ تنزل أعضاء العائلة الخديوية للحكومة بموجبه عن املاكهم العقارية وقدرها ٤٢٥٧٣٩ فدان خلا العقارات ، واعتبرت هذه الاملاك ضامنة لمقرض الجديد الذى دعى باسم قرض الدومن أو قرض روتشيلد .

وفي شهر اكتوبر أصبح المستر ولسن وزيراً للمالية والمسيو دبلنير وزيراً للاشغال العمومية والغيت بذلك المراقبة الثنائية على ايرادات الدولة ومصروفات على أن تعود اذا عزل هذان الوزيران الاوريبيان من منصبيهما من غير موافقة انكلترا وفرنسا . وجعلت هذه الوزارة المختلطة جل هممها أن تسد الديون وأن تتلافى عجز الميزانية . والواقع أن الديون السائرة بلغت مبلغًا ضاق دونه القرض الجديد على الرغم من أنه بلغ ثمانية ملايين . وكذلك وقفت الوزارة المختلطة بعد ثلاث سنوات من المراقبة المالية موقف الحكومات التي سبقتها وعجزت أن تواجه حرج الركز بخير مما واجهته غيرها من قبل ولجأت إلى الضغط والاضطهاد اللذين لجأت اليهما أشد الحكومات عسفاً واستبداداً . وزاد الموقف حرجاً أن رأى وزير

المالية الانكليزى الاستغناء عن الفين وخمسمائة ضابط من غير أن.
يدفع لهم متأخرات رواتبهم لا كثراً من سنة كاملة. هنالك هاجروا
وقاموا ومن بينهم أحمد عرابى في ١٨ فبراير سنة ١٨٧٩ بظاهرة
خطيرة وأحاطوا بنوباز وولسن وأهانوها وأوسعوها ضرباً. ولما
نى الخبر إلى اسماعيل جاءه بنفسه. فلما رأه الضباط وأمرهم
بالانصراف لم يعص أمره منهم أحد مما دل على أن له في تدبير هذه
الفتنة يداً. وقد ثبت بعد ذلك أنه كان المدير لها بالفعل
بأن أوزع إلى أكثر الضباط أقداماً وجراة بالقيام بها.

وكان من الضباط الذين قاموا بهذه المظاهرة ومن الذين استغنى
عنهم ريفرس ولسون عدد غير قليل من المصريين الصميمين. ولعل
ذلك هو الذي أدى إلى استمرار الحركة في المستقبل والذي كان نواة
الثورة العرابية. فإن الموظفين والضباط من الشركس والتركمان والازمن
وغيرهم — من كان يخدم الامر فكانوا يسومون المصريين
الخسف وسوء العذاب — شعروا بفشلهم وبعجزهم إذا بقيت الخصومة
بينهم وبين المصريين قائمة. ثم ان ريفرس ولسون تقدم بسبب آخر
أدى إلى تحرك العناصر القومية الصميمية في البلاد. فقد طلب إلى
الحكومة أن تعان أن مصر مفلسة كي تعامل معاملة المفلس في
شأن ديونها. هنالك اجتمع نواب البلاد وأعيانها ورؤوا
موظفوها الدينيون والمدنيون والحربيون وقدمو المخدود برنامجاً
مالياً يخالف برنامج ولسون متعجل على التوقيع بأفلاس مصر. ولم تكن
يد اسماعيل بعيدة عن وضع هذا البرنامج. ثم لم يكتفى النواب
برنامجهم الذي تقدموا به، بل تقدموا كذلك بعرض للخدودي يدينون

فيه استياءٌ من الوزارة لعدم اكتراثها بأرائهم وانضم الخديو
لهذه الحركة وعضدها، لأنه رأى فيها الوسيلة الوحيدة لعود بعض
سلطته إليه بعد أن تخلص ظلها وانتقلت إلى أيدي الأجانب. وبلغ من
تضييقه إليها أن رفض النواب الارضاض لما جاء رياض باشا وزير
الداخلية يعلن اليهم انتهاء الدورة. وكذلك أصبح هذا المجلس الذي
خلقه اسماعيل في سنة ١٨٨٦ صورة يوم بها الدول الأوروبية أن مصر
أصبحت بالفعل جزءاً من أوروبا وقد شعر بوجوده وقدر مكانته.
فقد احتاج في ٢٩ مارس سنة ١٨٧٥ على الوزارة المختلطة لأنها لم
تكن تعرف بوجوده وبمسئوليتها أمامه. وفي ٥ أبريل طلب إلى
الخديو تعديل قانون الانتخاب وأعلان مسئولية الحكومة أمام مجلس
النواب. ولم يقف عند ذلك بل احتاج علىبقاء الوزارة المختلطة وبالتالي على
وجود دولسن ودبليهير فيها. ولم يثبت اسماعيل أن ابلاغ هذا الاحتجاج حتى
عزل الوزارة وعهد إلى شريف باشا بتأليف الوزارة الجديدة. وفي الشهور
الثلاثة التي انقضت بين توقيتها وخلع اسماعيل بدأت بوضع قانون للانتخاب
كمانشرت في ٤ يونيو لائحة مجلس شورى النواب الأساسية وفيها تقرر
المصانة البرلمانية وتحدد عدد النواب وتنص على المسئولية الوزارية.
ومع أن هذه الوزارة كانت جادة في عملها وعم إنها سبقت هذا
التشريع النبإ بتشريع مالي صدر به ذكره بتاريخ ٢٣ أبريل
سنة ١٨٧٩ يكفل للأجانب حقوقهم ويقر المراقبة الثنائية وصندوق
الدين في اختصاصهما الواسع فان اوربا بدأت تشعر بأن مصر على
وشك انتقال خطير ليس من العسير تقدير مدى تناقضه، وأن
خيراً للمصالح الأوروبية الوقوف في سبيله. فبدأت المانيا والتمسا

بالاحتجاج في ١٨ مايو على دكريتو ٢٢ ابريل بدعوى انه مخالف لتعهدات مصر الدولية وألقتا مسئولية هذه الخالفة على الخديو. وفي ٨ يونيو احتذت وزارتا باريس ولندره مثلmania والمسا. وقد حاول اسماعيل القضاء على هذه الحركة الدولية فطلب موافقة الدول على الامر ، لكن حركته هذه لم تنجح.

وكانت الدول قد سميت هذا الصراع الطويل مع اسماعيل. ولعلها كذلك خشيت بعد اضمامه للامة واظهاره العطف كل العطف على مطالبها، أن تقوى الحركة القومية المصرية وأن يصبح اسماعيل مثلما كان جده محمد على مكانة وقوة سلطان . لذلك رأت أفضل السياسات أن ينزل عن العرش . لكن اسماعيل لم ينظر الى المسألة بهذه النظرة وأراد أن يلجم إلى جلالة سلطان تركياً أملاً أن يكون لما قدمه له من طائل الأموال وعظيم التضحيات بعض الأثر . وهنا خاب فأله . فقد بعث الباب العالي في ٢٦ يونيو تلغرافاً بعزل اسماعيل عن العرش وبرفع ولده توفيق مكانه . وعلى أثر ذلك أقلع اسماعيل من الاسكندرية قاصداً ايطاليا وقلبه خافق وعيونه هامية بالدموع . وأقام في ايطاليا زمناً ثم انتقل إلى الاستانة اذ أقام بها في قصر « أمر جيان » على شواطئ البوسفور حتى جاء أجله في ٢ مارس سنة ١٨٩٥

وكم دار بخاطره في هذه السنوات الأربع عشرة التي انقضت بين عزله وأجله أن يعود إلى نضال يسترد به عرشه . وكان أول ماصنعت من ذلك أن بعث إلى السلطان بالاستانة على أثر وصوله إلى نابولي رسالته حارة يذكره فيها مأجراً من عظيم الاصلاح في وادي النيل وما قام

به من فتح السودان الى خط الاستواء حيث خفقت الرایة العثمانية
من تلك الانحاء في ربع لم تتحقق من قبل قط عليها . لكن السلطان
لم يعبأ بخطابه ولا أجابه عنه . بل نسى كل ماضي اسماعيل وما أغدقه
على الاستانة ورجالها من مال وأنعم . وما باله يعبأ به وقد أصبح
لإمك لنفسه نفعاً ولا ضراً ولا إمك لمتابعة العظيم رشوة ولا هدية .
وأصحاب العروش لا يعنون إلا لصاحب القوة ما داموا يهابون قوته
ويطمعون في خيره ومونته . ونال ذلك من نفس اسماعيل ولكنها
حملها على الصبر حتى كانت الثورة العربية في مصر . هناك حز
الألم في نفسه وادرك أنه لم يفكر في مقاومة كالي قاومها اليوم
هؤلاء المصريون الابطال . ولو أنه قاوم فربما كان له من القدر
عون يستبقي نجمه عالياً . أما ولم يفعل فليس له ان يرجو من القدر
مداداً وهي لا تهدى الضعيف أو الخائف وأما تحارب في صف الشجاع
المقدام .

ومنذ دخل الانكليز مصر محتلين خيم اليأس على كل آماله في
استعادة ملوكه . فظل في ايطاليا حتى انتقل الى الاستانة ليلقى فيها
منيته وليكون فيها أسير عطف الاتراك الذين طالما تذمروا بما أغدقه
عليهم من مدد ومال أيام ولايته .

الخديوى توفيق باشا



ARAB
SER

ثلاثة عشر عاماً تولى فيها توفيق أمر مصر كان خلاها في زهرة
شبابه بين السابعة والعشرين والاربعين . لكنه كان فيها كذلك بين
عواهيل لا يستطيع مدافعتها والتغلب عليها إلا باغتة محنته . كان
فيها بين تركيا الناقمة لضعف سلطانها في مصر ، وانكشار الطاحنة الى
بسط نفوذها هائياً على وادي النيل ، وفرنسا المكتئبة لتقلص مكانها
رويداً رويداً من أرض الفراعنة ، والامة المصرية اشقة بدورها
اسعاعيل باشا وظلم حكامها والمتاجحة نفوس أهلها بالثورة طمعاً في
الاستقلال والدستور . وهو بين هذه الــ عواهيل رجل يــ شــعر بــ ضــعــة
أمــمــته وبــ حــقــدــ أــهــلــهــ عــلــيــهــ ، ويــوــدــ لــوــ آــهــ كــاـنــ فــيــ مــكــانــهــ أــيــهــ بــطــشاــ
وــســلــطاــناــ ، وــيــخــضــعــ لــلــاــقــدــارــ الــتــىــ لــمــ يــهــ بــ مــنــ ســعــةــ الذــكــاءــ مــاــ وــهــ بــغــيرــهــ ،
ولــتــرــيــتــهــ الشــرــقــيــةــ الــبــحــتــةــ الــتــىــ اــقــضــتــ أــنــ لــاــ يــغــادــرــ مــصــرــ وــأــنــ لــاــ يــتــصلــ
بــالــمــدــنــيــةــ الــأــوــرــيــةــ اــتــصــالــ أــخــوــةــ ، وــلــلــظــرــوفــ الــتــىــ جــعــلــتــ تــقــادــفــهــ
مــنــذــ اــرــتــقــىــ عــرــشــ أــيــهــ فــتــصــدــمــ بــكــلــ وــاحــدــ مــنــ الــعــوــاــمــ الــحــيــطــةــ بــهــ ،
لــيــتــهــ بــ الــاــمــرــ إــلــىــ أــنــ يــكــوــنــ فــيــ تــارــيــخــ مــصــرــ صــورــةــ غــيرــ مــحــبــةــ ،
وــلــاــ مــقــوــةــ ، صــورــةــ مــرــتــ فــيــ هــذــاــ التــارــيــخــ فــكــانــ أــثــرــهــ فــيــهــ ســلــيــماــ
هــوــ أــثــرــ الــعــاجــزــ عــنــ أــنــ يــقــومــ لــبــلــادــهــ أــوــ لــنــفــســهــ بــخــيــرــ . وــلــيــوــدــعــ الــعــالــمــ
فــيــ الــارــبعــينــ مــنــ عــمــرــهــ فــيــاــقــيــ بــعــصــائــرــ مــصــرــ بــيــنــ يــدــىــ وــلــىــ عــهــدــهــ الــفــقــىــ
عــبــاســ وــمــاــ يــزــالــ فــيــ الثــامــنــةــ عــشــرــ مــنــ عــمــرــهــ .

ولد توفيق باشا في ١٥ نوفمبر سنة ١٨٥٢ ثمرة لبرهة هوى من اسماعيل مع احدي جواريه التي لم تقل منه إلا حظوة قصيرة ولم تكن له زوجا . ولم يكن اسماعيل يومئذ وارثاً لعرش سعيد ان كان احمد أكبر العائلة ما يزال حياً . لذلك لم يلتفت مولد توفيق نظر أحد إلا ما كان من زراعة أميرات العائلة المالكة لامه . فلما حصل اسماعيل على فرمان وراثة العرش للأولد الأكبر انقلبت الزراعة الام حقداً على ابن . وشارك اسماعيل أهله في عدم عطفهم على توفيق وان لم يبلغ ذلك من نفسه مبلغ حقده على حليم باشا وارث عرشه على النظام القديم . وثبتت عدم عطفه على توفيق وعدم رعايته اياه في عزمه على أن يكون عرشه لحسين من بعده . وقد كان يستطيع ذلك اعتماداً على أمة توفيق أو بالشخص منه كما كان يفعل ملوك ذلك العصر في تركيا ، لكنه لم يكن يتوجه النظر في أمر لم يكن في حسبانه وقوعه قبل زمان طویل . وكفاه وجود توفيق بمعزل عنه في قصر له متصرأً على ادارة أراضيه .

على ان عزله توفيق وعدم اغداده أبيه أسباب الرضا عليه جعله ينظر الى ما صنع أبوه من استدانته ومن ارهاق المزارعين وال فلاحين ومن بطش بالناس جميعاً لنظره مصرى لانظرة ولـى عهـدـهـ . لذلك اتصل بطائفة من الناقين على الحال التي آلت مصر اليها ، أمثال السيد جمال الدين الافغاني واللقاني والشيخ محمد عبده ومن كان يلوده ٢٣٧٣ من أمثال عربي ، وانخرط في سلك المسؤولية الذى انخرطوا فيه . فلما اضطر اسماعيل تحت ضغط الدائنين الى أن يعين نوبـارـ باشاـ رئيسـاً

للوظيفة المسئولة الأولى وأن يضم إليه مستر ريفرس ونسن مسيو دبلينير، الأول وزيرًا للمالية والثاني وزيرًا للأشغال، ثم مارأى أن الحال المالية في البلاد تزداد كل يوم سوءاً ب رغم ما تنزل عنه من سلطته ومن أملائه، ورأى الشعور العام ضد التدخل الاجنبي يزداد في البلاد كالماء، خلع نوبار من الوزارة واتفق مع فرنسا وأنجلترا على تعين ولـى عهده توفيق باشا رئيساً للحكومة. على أن ولـى العهد كان يعلم دقة الموقف كما يعلم بنوع خاص تـهـيـجـ الشـعـورـ العـامـ باـزـاءـ ما كان يعتزمـهـ السـيـرـ رـيـفـرسـ وـنـسـنـ كـعـضـوـ فـيـ جـمـيـعـ التـحـقـيقـ الدـولـيـةـ من اعلان افلاس مصر. لذلك لم يجد الوزير ان الاوريـانـ من رئيس الوزارة الجديدة مؤيداً قوياً لها. وعلى أثر اعلان وزير المالية تـأـجـيلـ دـفـمـ الفـوـائـدـ المـسـتـحـقـةـ لـلـدـائـنـينـ فـيـ شـهـرـ اـبـرـيلـ تـقدـمتـ عـرـيـضـةـ مـوـنـ العـلـمـاءـ وـالـوـجـاهـاءـ وـالـنـوـابـ وـرـجـالـ الجـيشـ يـحـتـجـ فـيـهاـ مـقـدـمـوـهاـ عـلـىـ هـذـاـ التـصـرـفـ وـيـطـلـبـونـ إـلـىـ الـخـديـوـ أـنـ يـلـجـأـ إـلـىـ نـوـابـهـ لـلـخـروـجـ مـنـ المـأـزـقـ، وـعـلـىـ ذـلـكـ اـسـتـاتـالـتـ وـزـارـةـ توـفـيقـ مـنـ غـيـرـ أـنـ تـقـعـلـ شـيـئـاـ. وـكـافـ اـسـمـاعـيلـ شـرـيفـ باـشاـ بـتأـليفـ وزارة تكون مسئولة حقيقة أمام برلمان تنظم حقوقه وطرق الانتخاب له بحيث يستطيع أن يقوم بما تقتضيه الأحوال وأن يتحقق الأمان القومي.

وكان ذلك هو الانقلاب الحكومي الذي أريد به القضاء على سلطة المراقبين وعلى تدخل الاجانب في الادارة المصرية، والذي انتهى بتركيا الى عزل اسماعيل باشا في ٢٦ يونيو سنة ١٨٧٩ وإرسال برقية في اليوم نفسه الى توفيق باشا تبيان فيها اسناد منصب

الخديوية المصرية الى جنابه ويختتمها وزير تركيا بقوله « والأمر والفرمان في كل حال لمن له الامر أفندهم ». .

كانت هذه الفربة الحاسمة غير المتطرفة من جانب تركيا من نبرة لكل من يعنهم أمر مصر وكل من لهم مصالح فيها لكي يقفوا على حذر . ومع أن توفيق باشا فوجي بالخبر وفزع له حتى لقد قابل موظف قصره الذي أبلغه اليه أسوأ مقاولة بأن صفعه ، فإنه شعر من ذلك الحين بأن التركية التي آلت إليه ابعاؤها تركية مبهضة مخوفة .

ترى ماذا عساه يصنع بازاء أبيه ، وبازاء تركيا ، وبازاء الدول وتدخلها في شؤون مصر ، وبازاء الامة المصرية المתוيبة للحركة بل للثورة ؟

أما اسماعيل فأیقنت أن لا مفر له من الاختباء لعاصفة لم يكن يستطيع مواجهتها وإن لم ينقطع رجاؤه في العود يوماما إلى هذا العرش الذي انتزع منه اغتصابا . لذلك قابل الصدمة بكل ما يستطيع رجل في عظمته وفي قوته أن يواجهها به ، وأظهر من العطف على

ولي عهده ما لم يكن له من قبل به عهد . وفي الأيام التي انقضت ما دين تسوء توفيق عرش أبيه وسفر اسماعيل من بلاد عزيزة عليه كانت عواطف الابوة والبنوة بينهما كخير ما يمكن أن تكون في مثل هذا الظرف العصيب .

اطمأن توفيق إذن من هذه الناحية . ولقد أظهر من عواطف البنوة ما دفعه للتأنزل عن عشرين ألف جنيه من مرتباته السنوية لا يليه كي تبلغ مرتباته خمسين ألف جنيه . ول المناسبة رفع مرتبات البيت الخديوي إليه أراد في نفس الوقت أن يظهر للامة حرصه على

مصالحتها ومشاركته إياها في متابعتها المالية فأمر بالغاء الراتب المعين
لوالدته وحرمه وقدرها خمسة وخمسون ألف جنيه.

بعد إرتقاء توفيق العرش جعلت تركيا تفكير في الاستفادة
من الانقلاب بأن تسترد ما كسبته مصر بفرمان سنة ١٨٧٣ الذي
جعلها مستقلة استقلالاً داخلياً تماماً فبعاداً سك العملة ودفع الجزية.
وقد أثار هذا الخبر في مصر قلقاً غير قليل . على أن فرنسا وإنكلترا
عارضتا الباب العالى فيما أظهره من عزمه وأنباءً تمثيلهما في مصر
بأنهما معترضان فيما إذا لم يقرر السلطان أحکام فرمان سنة ١٨٧٣
في الترمياني يوجهه إلى الخديو توفيق أن طالباً الاستقلال التام
لمصر . وقد اختلف في الأسباب التي دعت تركيا إلى هذا التصرف:
أهى كانت تريد بالفعل الغاء الحقوق والامتيازات التي حصلت
عليها مصر أثناء ولاية اسماعيل باشا أم هي كانت تتذرع بالبطلان
والتسوييف للحصول على مبلغ من المال بدليل أنها قطعت في ذلك
الوقت حالة على مصر أثبتت الحكومة المصرية قبولاً لها بسبب ارتباكها
المالي ، على أن هذا التسويف طوع لفرنسا وإنكلترا أن تتدخلان
وأن طالباً الباب العالى بابلاغها فرمان قولية الخديو كوثيقة دولية
وأن ثبتتا بذلك حقوقها في التدخل في شؤون مصر للمحافظة على
حقوقها بازاء تركيا استناداً على ما كان من تدخلها للمحافظة على
مصالح رعاياها الدائنين للحكومة المصرية . وكان من أثر ذلك أن
شعر توفيق بما للدولتين من فضل عليه بسبب محافظتهما على حقوقه
وحقوق البلاد التي ولّى عرشه .

ولم يصل انفرمان بتولية الخديو الجديد الا بعد شهرين من
ارتفاعه عرش أبيه . أى في ١٤ أغسطس سنة ١٨٧٩

خلال هذين الشهرين كانت خطة توفيق غامضة مازالت . فهو
حين ارتقى العرش كان في زمرة الماسون الذين يناصرون الحرية
والعدالة . لذلك وجه خطابه إلى شريف باشا لتشكيل الوزارة
الأولى في عهده مقدراً للأمة معتمداً عليها ذاكراً «أني عظيم
الميل لبلادى شديد الرغبة في تحقيق آمال الأمة التي أظهرت السرور
بوليتي عازم عزماً كيداً على التحسّن أحسن . الوسائل لازالت
الاختلال المفسد لكثير من المصالح ... إلا أن ادراكى لهذه الغاية
التي هي موضوع آمالى يتوقف على مساعدة الأمة بجملتها» .
وتحقيقاً لهذه السياسة تألفت لجان من الأوروبيين غيرها تقليديم
العرائض إلى قناصلهم يتمسون بها من دولهم منع تدخل الآجانب
في أحوال مصر وقصر النظر فيما على الوطنيين . ثم ان توفيق باشا
تحدى في ذلك الظرف إلى مكاتب التيميس ق وأشار بادئ ذي بدء
إلى أنه لا يبرح مقيد اليدي في العمل حتى يرد الفرمان بتعيينه . لكنه
مع ذلك صرخ للكاتب بأنه لا يريد الرجوع إلى تعيين وزراء
أوروبيين بل ينبغي أن تكون الوزارة مصرية وطنية يصح أن
يحاونها رجال من الأوروبيين في الإدارات على أن يكونوا موظفين
مصريين لا أكثر . أما سير ريفرس ولسن ومسيو دانمير شخصياً
فقد صرخ توفيق بأنه يعارض أشد المعارض في رجوعهما أيما
كانت صفاتهما ، لأن رجوعهما يكون مخالفًا لمصلحة مصر على خط
مستقيم . وطلب الخديو إلى الدول في حديثه هذا أن تمهله بضعة

أعوام «فنحن في مقام الامتحان فلا يحسن بأوربا أن عمسك على
وعلى مصر طريق النجاح»

وكان من أثر هذه المخطة وتلك التصریحات ان هدأت أغصاب
المصريين التي كانت متواترة في الأيام الأخيرة من عهد اسماعيل:
فعلى الرغم من عزل الحكومة عشرة آلاف من الجنود المحتمعين
تحت السلاح وانتهاص الجيش العامل الى اثنى عشر الفاً وتأخير
صرف مبرقيات الكثيرين ، أمسك الرجاء بالناس عن أن ياجروا
للهيأج . لكن نيات توفيق باشا الديعوقراطية لم تلبث الى أكثر
من وصول الفرمان بتنصيبه على عرشه . في مساء اليوم الذي عاد
فيه مندوب السلطان الذي كان يحمل هذا الفرمان قافلا الى تركيا
بعد حفلة تلاوته أقيمت وزارة شريف باشا والـف توفيق باشا
وزارة تحت رئاسته مباشرة . والحقيقة التي روجت تبريراً لهذا
التصرف أنها هي ارادة الخديو تعجـيل الاصـلاح . أما الحقيقة
فعدم رضا توفيق عن ميل شريف باشا الدستورية ، في المخطاب
الذى أرسل به الخديو الى كل من وزرائه المجدد معنى قصده العودة
إلى حكومة الفرد . فيه تكليف لكل من النظار أن يحضر أوراق
شؤون وزارته ومعلوماتها عند حضوره الى المجلس لعرضها . على
أن توفيق كان يشعر بأن الأمة لا يمكن أن ترضى عن هذه الحال .
لذلك بعث بتلغراف الى رياض باشا الذي كان متغيباً هو ونوبار باشا ،
أو قبل منفيين في أوربا ، يستقدمه اليه لعلمه بعدم ميل هذا الوزير
إلى حياة الشورى . فلما حضر في أوائل سبتمبر عهد إليه بتشكيل
الوزارة وقطع على نفسه العهد باحترام ارادة ٢٨ أغسطس

سنة ١٨٧٩ التي قررت مبدأ مسؤولية الوزارة وتفاهمها . وبعد ثلاثة أشهر من استقرار هذه الوزارة في مناصبها زار توفيق، جريا على سنة أسلافه ، أخاء ملوكه في الوجهين القبلي والبحري وقضى فيهما أشهراً وعاد منها في أوائل مايو سنة ١٨٨٠

وكان الهدوء شاملاً أخاء مصر في هذه الفترة . لكنه كان هدوء تراص وانتظار . ذلك بأن المسألة الشائكة التي انتهت بعزل اسماعيل كانت تحت البحث منذ أول ولاية توفيق وكانت لا تؤذن بخير كثير . فعل الرغم مما أعلنه الخديو لملئي التيمس من المعارضة في عودة ولسن دبلوماسي بعد فشل سياستهما المالية في مصر لم تر الحكومة الفرنسية بعد اتفاقها مع حكومة مصر على إعادة المراقيين أن يعين أحد غير مسيو دبلوماسي . أما الحكومة البريطانية فأشارت بتعيين السير بارنج (لورد كرومر) . وتم تعيين المراقيين في سبتمبر سنة ١٨٧٩ وبشر اعْمَلُيهما وانتهيا بتقديم تقرير إلى الخديو في أواخر عام تعيينهما يقتربان فيه تعيين لجنة تصفيية الدين المصري كله . وبعد محادثات بين الدول صاحبات الشأن تعيينت اللجنة في ٣١ مارس برئاسة السير ديفرس ولسن وتعهدت الدول بقبول قراراتها . وإن فقد رأي توفيق نفسه بازاء حالة كان يراها أول جاؤسه على العرش مختلفة لمصالحة مصر على خط مستقيم من غير أن يستطيع لها تقاضاً . وقدمت لجنة التصفية تقريرها في ١٧ يونيو سنة ١٨٨٠ فأصدره الخديو فوراً وأطلق عليه اسم قانون التصفية . وعلى موجب هذا القانون بلغ دين مصر ٩٣٠٧٤٨٩ جنيهاً . وقد روحت في هذا القانون ، كما روحيت في كل تصرفات تمثل الدول الأجنبية

صالح الدائنين الا جانب على حساب نظام الحكم في مصر. وبالرغم
مما كان يعلمه المراقبون وغير المراقبين من أن أكثر من نصف هذا
الدين لم يدفع إلى مصر لم يفكر أحد في إلزام الدائنين بالتنزيل
عن شيء من الديون الاسمية التي كانوا يقتضونها من مال المصريين
ومن دمائهم . ولما كان تدخل الاجانب مثيراً لعواطف المصريين
في عهد اسماعيل فقد بدأت هذه العواطف تثور من جديد بعد
هذا الترخيص وببدأت العاصفة تتکور في الجو المؤذن بالانفجار
عما قريب .

وبدأت نذر الانفجار بما كان من تبرم رجال الجيش قبل ما سببه
امتهان العنصر المصري فيه مصلحة الاجانب من الاتراك والجراسة .
فلما سرح اسماعيل باشا في أواخر أيامه ألفين وخمسمائة من الضباط
أكثريهم مصريون كان اخوانهم يشعرون بالألم من أجلهم ويخشون
أن يصبح لهم مثل نصيبيهم . على أن ارتقاء توفيق إلى العرش واستئزاره
شرف باشا لهذا الحالة زماناً . فقد ظن الناس انهم حاصلون على هيئة
نيابية خير من شورى النواب القديم تراقب الحكومة وتحمّل تدخل
الاجانب وتعيد العدل إلى نصابه . فلما دين رياض باشا وعين معه
في وزارة الحربية شركسي قح هو عثمان رفقى ، يمقت المصريين
ويتهمهم ، ولما تكشفت نيات الخديو ووزارته عن العدول عن
الحكم النيابي بل عن شورى النواب نفسه ، ثم لما بدأ بتنفيذ
قانون التصنيفية وتبين أن حال مصر المالية لم تقدر منه خيراً — لما
حدث ذلك كله كان المدنيون وكان رجال الجيش تغلى في صدورهم
سر اجل الحقد وتأجيج نفوسهم بنيران الثورة .

وَعَجِيبٌ أَنْ يَحْدُثَ ذَلِكَ كَهْ بِأَعْيُنِ تَوْفِيقٍ فَلَا يَرَاهُ وَلَا يَقْدِرُ
مَدَاهُ، بَلْ يَنْدِفعُ فِي التَّيَارِ الْعَجِيبِ الَّذِي اندْفَعَ فِيهِ مُخَالَفًا بِذَلِكَ
كُلَّ مَا أَظْهَرَهُ مِنْ الْمَيْوَلِ أَوْلَ جَلْوَسِهِ عَلَى عَرْشِ أُبْيَهُ . فَهَذَا الْمَيْلُ
الشَّدِيدُ لِتَحْقِيقِ آمَالِ الْأَمَةِ وَهَذَا الْاعْتِمَادُ عَلَى مَعَاوِنِهِ قَدْ اتَّقْلَبَ
جَهَةُ عَقْبٍ وَصَوْلَ الْفَرْمَانِ إِلَى اِعْدَادِ حُكْمَةِ الْفَرْدَمِ إِلَى اِسْنَادِ
الْوَزَارَةِ لِتَصْيِيرِ قَوْيٍ مِنْ أَنْصَارِ النَّظَامِ الْمَطَاقِ . وَهَذَا الْحَرْصُ عَلَى
مَعَارِضَةِ عُودَةِ وَلَسْنِ وَدِبْلِيُورِ وَعَلَى أَنْ تَكُونَ الْوَزَارَةُ مَصْرِيَّةً وَطَنِيَّةً
وَهَذِهِ الدُّعْوَةُ لَا تَنْتَظَارُ أَوْرَبَا نَجَاحِ السِّيَاسَةِ الْوَطَنِيَّةِ الْجَدِيدَةِ قَدْ اتَّقْلَبَ
جَهَةُ الْقِبْلَةِ هَذِينَ الشَّخْصَيْنِ وَغَيْرَهُمَا مِنَ الْأَشْيَاصِ وَإِلَى تَرْكِ التَّدْخِلِ
الْأَجْنَى يَتَوَغَّلُ فِي اِدَارَةِ الْبَلَادِ . وَهَذِهِ السِّيَاسَةُ الْمَالِيَّةُ الَّتِي فَشَلَتْ عَلَى يَدِ
وَلَسْنِ قَدْ اتَّقْلَبَتْ جَهَةُ سِيَاسَةِ الْحُكْمَةِ الْمَصْرِيَّةِ لِيُصَدَّرَ عَلَى مَوْجِهِهَا
قَانُونُ التَّصْصِيفِيَّةِ . وَهَذِهِ الْاِنْقِلَابَاتُ كُلُّهَا قَبْلَهَا تَوْفِيقٌ رَاضِيُّ النَّفْسِ
مَطْمَئِنًا . عَلَى أَنْ هَذَا الْعَجِيبُ فِي نَظَرِنَا تَقْسِيرَهُ الْواضِحُ : فَتَوْفِيقٌ
الْضَّعِيفُ قَدْ رَأَى مَا حَلَّ بِأَبْيَهِ حِينَ عَارَضَ اِنْكَلَتْرَا وَفَرْنَسَا فَيَجِبُ
أَلَا يَعْارِضُهُمَا . وَانْكَلَتْرَا وَفَرْنَسَا تَرِيدانَ هَذَا النَّظَامِ فَيَجِبُ أَنْ يُوَيْدَهُ .
لِيَتَمَّ خَضُّ ذَلِكَ كَهْ عَنِ الْنَّفْجَارِ أَوْ عَنِ ثُورَةِ أَوْعَمَا يُعْكِنُ أَنْ يَتَمَّ خَضُّ
عَنْهُ ، فَلَيْسَ تَوْفِيقُ الْضَّعِيفِ هُوَ الَّذِي يَطَالِبُ بِالْتَّفَكِيرِ فِي هَذَا .
وَيَكْفِيهِ أَنْ يَعْتَمِدَ فِي بَقَائِهِ فِي عَرْشِهِ عَلَى سَنَدِ الدُّولَتَيْنِ الَّتِيْنِ
اسْتَخَلَصَتَا لَهُ مِنْ تَرْكِيَا فَرْمَانُ تَوْلِيَتِهِ .

وَكَانَ يَسِيرًا أَنْ يَرِي تَوْفِيقٌ نَذَرَ الْنَّفْجَارَ آتِيَةً مِنْ زَاحِيَةِ رِجَالِ
الْجَيْشِ . ذَلِكَ بِأَنَّهُ فَضَلًا عَنْ تَسْرِيَحِ أَنْوَافِ مِنَ الْجَنْدِ وَمِئَاتِ مِنَ الضَّيَاطِ
فِي أَخْرِ دَهْدَهِ إِسْمَاعِيلِ وَبِالْغَمْ منْ تَسْرِيَحِ عَشْرَةِ آلَافِ جَنْدِيِّ أَوْلَى

ولايته ، فان تجفيف قانون التصفيية أسفـر عن عجز الميزانية الـازمة
لـنفقات الدولة في سنة ١٨٨١ عـجزاً بـلغ مـقداره ٦١٦١ جـنيه يـعنـا
كان متوفـراً في صندوق الدين بعد دفع الفـواتـير بمـبلغ ١٣٠٠٠ جـنيـه
أـنـفـقـتـ في اسـتمـلاـكـ السـنـدـاتـ بـدـلاـ منـ أـنـ يـسـدـدـ مـنـهاـ ذـلـكـ العـجزـ .
وـقـدـ تـرـقـبـ عـلـىـ هـذـاـ أـنـ بـقـيـ كـثـيرـونـ مـنـ الـمـوـظـفـينـ وـمـنـ يـنـهمـ رـجـالـ
الـجـيـشـ لـاـ يـتـقـاضـونـ مـرـتـبـاتـهـمـ .ـ أـضـفـ إـلـىـ هـذـاـ أـنـ رـفـقـيـ باـشاـ نـاظـرـ
الـحـرـيـةـ أـصـدـرـ لـأـنـجـةـ مـقـضـاـهـاـ عـدـمـ تـرـقـيـةـ الـمـصـرـيـنـ إـلـىـ الـدـرـجـاتـ الـتـيـ
يـسـتـحـقـونـهـاـ يـبـنـاـ يـرـقـيـ الـجـرـاـكـسـةـ إـلـىـ أـكـثـرـ مـاـ يـسـتـحـقـونـ .ـ وـلـاـ كـانـ
لـاضـبـاطـ الـمـصـرـيـنـ جـمـاعـةـ سـرـيـةـ بـيـنـ أـعـضـائـهـ اـحـمـدـ عـرـابـيـ وـعـلـىـ فـهـيـ
وـعـبـدـ الـعـالـىـ حـلـىـ وـكـانـواـ قـدـ قـدـمـوـ الـرـيـاضـ باـشاـ طـلـبـاتـ بـالـصـلـاحـ
مـنـذـ شـهـرـ ماـيـوـ سـنـةـ ١٨٨١ـ لـمـ تـنـظـرـ الـحـكـوـمـةـ فـيـهـاـ ،ـ فـقـدـ قـرـرـهـؤـلـاءـ
دـفـعـ آـلـاـيـاتـ الـجـيـشـ لـلـاحـتـجـاجـ عـلـىـ تـصـرـفـاتـ رـفـقـيـ باـشاـ وـعـلـىـ الـطـلـبـةـ
بـعـزـلـهـ .ـ وـرـفـعـتـ بـالـفـعـلـ عـرـيـضـةـ لـلـخـدـيـوـ مـقـضـمـهـ هـذـاـ الـاحـتـجـاجـ .

وـكـانـ جـمـودـ باـشاـ سـامـيـ الـبـارـوـدـيـ وزـيـرـ الـأـوـقـافـ فيـ وزـارـةـ
رـيـاضـ عـلـىـ اـتـصـالـ بـهـؤـلـاءـ الضـبـاطـ .ـ لـذـلـكـ تـيـسـرـ لـهـ أـنـ عـلـمـواـ بـعـدـ
اـحـتـجـاجـ الـجـيـشـ أـنـ الـحـكـوـمـةـ تـرـيدـ حـاكـمـةـ الـثـلـاثـةـ الـدـنـيـنـ ذـكـرـنـاؤـسـاءـهـمـ
وـأـنـهـمـ أـمـرـهـمـ بـالـذـهـابـ إـلـىـ قـشـلـاـقـاتـ قـصـرـ النـيـلـ فـيـ أـوـلـ فـيـرـاـيـ سـنـةـ ١٨٨١ـ
لـتـقـبـضـ بـعـدـ ذـلـكـ عـلـيـهـمـ .ـ فـاـ كـادـواـ يـذـهـبـونـ وـمـاـ كـادـ يـقـبـضـ عـلـيـهـمـ
وـيـجـرـدـوـنـ مـنـ رـتـبـهـمـ وـيـسـجـنـوـنـ حـتـىـ كـانـتـ آـلـاـيـاتـهـمـ قـدـ حـضـرـتـ
وـأـنـقـذـهـمـ مـنـ سـجـنـهـمـ بـقـوـةـ السـلاحـ .

وـسـارـ الضـبـاطـ الـثـلـاثـةـ عـلـىـ رـأـسـ آـلـاـيـاتـهـمـ مـنـ قـصـرـ النـيـلـ إـلـىـ عـابـدـينـ .
وـهـنـاكـ وـقـفـ عـرـابـيـ بـيـنـ الـجـنـدـ خـطـيـبـاـ فـشـكـرـهـمـ عـلـىـ اـخـلـاصـهـمـ لـهـ

وانتقادهم إياه. ثم تقدم إلى الخديو يطلب العفو عنه وعن زملائه، وخلع عثمان رفقى من نظارة الحرية، وأردف عبارته هذه بقوله: أئم لا يربون إلا بذيل بغتهم. ولما كان توفيق قد رأى كل الأوصار التي أصدرها إلى ضباط الجندي لا تنفذ ورأى نفسه في مأزق لا يعرف سبيلاً إلى النجاة منه سارع إلى اجابة طلب العصابة وأقل عثمان رفقى من الحرية وعن مكانه صديق الضباط المتقاضين محمود سامي البارودى.

لو أن توفيقاً كانت له سياسة معينة ورمد لما وقع حادث قصر النيل. لكنه كان مضطرب الرأى والسياسة جيحاً لا أنه كان يشعر وكما قدمنا، بأن سبب الآخر ليس تركياً وليس الأمة المصرية مadam حليم باشا وارث العرش على النظام القديم مقيماً في الاست跫ة يدس لاغفاء وراثة ابن ويعاونه أنصار من الساسة والاميرات، ومدام هو لا يريد أن يعتمد على الأمة أو ينبلجها شيئاً من الحقوق التي تشعرها بكيمانها. على أن حادث قصر النيل لم يكف توفيقاً درساً في وجوب تحديد سياسة يسير عليها لكيلا يكون دائماً معرضاً للتصادم مع القوى المختلفة المحاطة به. فمع شعوره بأن أباه اضطر للاستعانت بالآمة ولو استعانت صورية ممثلة في مجلس شورى النواب فقد ظل حفيظاً على ميدان الحكومة المطلقة. ثم أنه إلى جانب هذا كان قد بدأ يتغوف رياضاً لقوته وشدة سلطانه على الرغم من مشاركة رياض إيه في تأييد النظام المطلق. لذلك بدأت الوزارة تتضعف شيئاً فشيئاً على حين بدء المتمردون من رجال الجيش يزدادون قوة على أثر انتصار يوم قصر النيل وينضم إليهم كثيرون من غير العسكريين ويجاهرون جميعاً

بضرورة تشكيل مجلس النواب . وكان سامي البارودى من أصحاب هذا الرأى ومن أقوى الحركين لعرابى ومن معه ، بل كان هو روح الحركة ومحورها .

وبرغم ضعف الوزارة وشعور الخديو بمعارضة عنصر قوى في البلاد لها فإنه أراد أن يقاوم هذه المعارضة بالشدة . لذلك عمد إلى عزل سامي البارودى من وزارة الحربية وإلى تعين صهره داود باشا يكن مكانه . وأراد داود باشا قمع الحركة فأصر على إغلاق اجتماع الضباط وبث عليهم الأرصاد والعيون . ولما عاد الخديو من الاسكندرية أمر الوزير الجديد بأجراء تنقلات بين الألaiات شعر بها عرابى وأصحابه بأن المراد تشتيتهم لتفكيكهم بذلك ، فرفضوا تنفيذ الأمر وأبغوا الخديو بان الجيش سيحضر بهم إلى عابدين لابداء اقتراحات تتعلق بنظام الحكم في البلاد وبشؤون الجيش وتحسين حاله .

ترى ماذا يفعل توفيق بازاء هذه الحركة وهى حركة مدرسلى
صريح . أتراه يترك الأمر لوزارته فيصرح أن عليها حفظ النظام
والآمن ؟ أتراه يدعو إليه كبار رجال الدولة وأعيانها في مجلس عام
لينظر في الأمر ؟ أتراه يأمر بتجريد المتمردين من رتبهم وألقابهم
لكيلا يكون لوزارته ولا لغيرها من رجال البلاد عليه فضل ويقف
صلباً ينتظر النتائج كائنة ما تكون ؟ كلا ! فهذه كانت حلول تحتاج
إلى عزيمة وإلى قوة جنان وإلى شعور بالمسؤولية واستعداد لتحملها
الخطر وجهاً لوجه . وتوفيق الضعيف لا يملك شيئاً من هذا . لذلك
عمد إلى وسيلة عجيبة لا يعتمد إليها سياسى . أخذ وزراءه ونوابه
إلى حيث تعسكر الألaiات المتمردة يتحقق معهم ويسقطونهم .

ذهب بنفسه الى القلعة حيث ألاى عرابي ليرجوه أن لا يفعل ما اعترض فعله. لكنه وجد عرابي قد سبقه الى عابدين فعاد هو الآخر ادراجه اليها.

وهناك في ٩ سبتمبر سنة ١٨٨١ قام عرابي على رأس الجيش ممتطيا جواده مستولا سيفه ووقف توفيق في شرفة عابدين يحيط به وزراءه وقناصل الدول.

وبأمر توفيق أغمد عرابي سيفه وتقدم بخطابه، وهي اسقاط الوزارة وتشكيل مجلس النواب وزيادة عدد الجيش والتصديق على قانون العسكرية الجديد وعزل شيخ الاسلام. وربما كان التصديق على قانون العسكرية أهيّم مطالب الجندي. وربما أكتفوا به لو أن الخديرو أجاهم فوراً إليه وأصرّهم بالانصراف لكي تنظر حكومته فيما عدا ذلك من المطالب. لكن الخديرو اضطرّ ل ساعته ورفض الطلبات جمِيعاً مواجهاً خطر النداء بعزله واعلان الجمهورية في مصر على نحو ما كان يدور برأس عرابي وأصحابه. لكن وزراءه وقناصل الدول أشاروا على الخديرو بالعود إلى داخل السراي خشية أن تعجل مواجهة مأذن الرجلين الحوادث. وصار مستتر كولفن القائم بعمل المراقب الانكليزي وقنصل إنجلترا والنمسا رسلاً بين الخديرو وعرابي. وتصلب عرابي التصلب كلّه وأشار بعض الحاضرين على الخديرو، ومن بينهم مستر كلفن، أن يتثبت بالرفض. مؤكدين أن لن يصل رجال الجيش الى أكثر من انتظاره التي قاموا بها. لكن الخديرو أوصله ضعفه وعدم احتياطه الى التسلّم فسقطت وزارة رياض لساعتهما. ووعد الخديرو

بنفيذ باق المطالب بالتدريج ، ودعا إليه شريف باشا كي يشكل
الوزارة الجديدة . ورفض شريف بسبب ما أمهه من المصاعب
وأخصها تمرد الجيش وعدم طاعته الأوامر . فلما ظهر عربي
استعداده ورجاله للامتثال وللطاعة ، ولما جاء محمد إبراهيم فكفلوا
عربي فيما قاله ، ثم لما استشار شريف حكومة تركيا وحكومات
إنجلترا وفرنسا وكفل معاونتهم جميعاً ، بعد كل هذا شكل الوزارة
وأمر الضباط الثلاثة بأن يتفرقوا في أنحاء مختلفة من القطر وبعث
بعربى إلى رأس الوادى وبasher الحكم في حزم وآناء كانت البلاد
يومئذ بحاجة أشد الحاجة اليهما .

وأنس توفيق نفسه في عزلة بعد ما أذعن إلى الأستانة بشريف
الذى كان قد أقصاه عن الحكم يوم طمع في الحكم المطلق على آخر
وصول الفرمان بتثبيته فى عرشه . وأحس به هذه المرة كان يود أن
تطول عزلته وأن تظل الحكومة عاملة والامن مستتبًا وأن تجرى
الأشياء فى نصابها فلا تزعجه العسكرية ولا غير العسكرية مرة أخرى .
لكنه لم يلبث إلا قليلا حتى علم أن الباب العالى أرسى وفداً برؤاسة
على نظامى باشا . ترى ما هي مهمته الوفد ؟ الخديو لا يعلم ، وفرنسا
وانجلترا لاتعلمان ، والوزارة العثمانية نفسها لا تعلم . لقد أرسله
أمير المؤمنين بارادة شاهانية ، فماذا عسى أن تكون هذه الإرادة ؟
ونزل الوفد مصر فى ١٠ آكتوبر سنة ١٨٨١ بعد ما احتجت إنجلترا
وفرنسا على تركيا لارسالها إياه من غير اتفاق معهم ولا مجرد
اخطار لها . وجاء الوفد واحتفل الخديو به وأقام بمصر سبعة عشر
يوماً وعاد ادراجه ، وكان كل ما فعل أن أكمل للخديو ثقة المتبع

الاعظم به وان أك للجيش المصرى في حدث دار بين نظامي
باشا وطلبة عصمت بسم من الجندي أن حكومة الباب العالى لا
تلوم الجندي على ما فعلوا وإنها ترى مصر في طمأنينة وسکينة .

بازاء تصرف الوafd شعر توفيق كأن الدسائس التي كانت تحاك
له خيوطها على صفاف البسفور بمعرفة حليم باشا تعاونه الاميرات
قد آتت ثمارتها ، وانه لولا تأييد انكلترا وفرنسا إياه لكان معرضًا
لمثل ما تعرض له أبوه من قبل . ومن يدرى؟ فقد يكون حليم باشا
قبل ان تسترد تركيا في فرمان توليته ما شاعت ان تسترد من
الحقوق المكسوبة مصر . فليزدد توفيق اذن اعتماداً على فرنسا
وعلى انكلترا ، وليخش في نفس الوقت تدخلهما ، وليضطرب
لذلك بين مختلف العوامل ، وليترك وزارته تجاهد وحدها لخلاص
من حرج الموقف

ودعت الوزارة لانتخاب مجلس شوري النواب كى تعرض عليه
القانون النظماى لمجلس النواب ، وافتتحه توفيق بخطاب عرش ألقى
في ٢٦ ديسمبر سنة ١٨٨١ ورد عليه سلطان باشا رئيس المجلس ،
وعرضت الوزارة القانون النظماى فاختلف المجلس معها فى أمر نظر
الميزانية . ذلك ان الحكومة كانت ترى احتراماً للاقتاقات التي
يمت بين الحكومة المصرية والدول الأجنبية ان يكون الأمر
الأخير فى الميزانية لوزارة مع مراعاة اراده النواب قدر المستطاع
فى حدود هذه الاقتاقات . أما النواب ف كانوا يريدون ان يكون
رأيهم الأخير أو يسار على القاعدة الدستورية من حل المجلس أو
سقوط الوزارة . ولم يمكن التوفيق بين الرأيين ، ف كان ذلك سبباً

في استقالة وزارة شريف باشا بتاريخ ٤ فبراير سنة ١٨٨٢ وحلول
وزارة محمود باشا سامي البارودي محلها مع تعيين عرابي باشا
وزيراً للجربية فيها

وفي أثناء قيام الخلاف بين وزارة شريف باشا ومجلس شورى
النواب أرسلت الحكومة الفرنسية والإنكليزية مذكرة مشتركة
إلى الخديو توافق باشا توقيده فيها في الخديوية وفقاً لفرمانات
وتعنان سكينة مصر مما يعنيهما لمصالحة رعاياها وتلعنان استعدادها
لدفع ما يطرأ على الحكومة الخديوية من لاحظار . وكان متظراً
أن تحدث هذه المذكرة من الأثر ما يضعف ترد المتمردين . على
أن تركيا احتجت على الدولتين لتخطيمهما إياها ومخاطبتهما الخديو
مباشرة كما علم العرابيون أن انكلترا أبلغت فرنسا أنها برغم هذه
المذكرة تعتبر نفسها حرة في الخطوة التي تتخذها تنفيذاً لمقاصدها .
وقوى ذلك من ساعدهم وجعلهم أقل اكتئاناً للحوادث وتقديرها
لنتائجها . والواقع أن فكرة الثورة التي بدأها الجيش كانت قد
انتشرت في أنحاء البلاد جميعاً وان قمع تيار هذه الروح كان قد
أصبح متعدراً . وبخاصة مع وجود رئيس للدولة ضعيف ضعف
توافق .

واستمر مجلس النواب ينعقد إلى ٢٦ مارس سنة ١٨٨٢ حين

صدر الامر بانقضاض دوره العادى

وفي أعقاب انقضاض المجلس نظر عرابي إلى ما حوله موجساً
خيفة مما يدبر خصومه له . ولم تك إلا أيام حتى صدرت أوامر
الحكومة بالقبض على عشرات الجراكسة ومن بينهم عثمان باشارفقي

تهمة اتهامهم به وبزملائه وبالنظام الذى أقاموه ومحاسنهم
أمام مجلس حربى والحكم عليهم بالنفي إلى أقصى السودان . وكان
عربى ومن معه مقتنيين بأن الخديو هو المحرض على هذه المؤامرة .
وزادهم اقتناعا رفض الخديو التصديق على حكم المجلس الحربى .
وعلى ذلك استعر الخلاف بين الخديو والوزارة . يصر الوزراء
على تنفيذ حكم المجلس ويعترضه رئيس الدولة . وأدى ذلك إلى
نحو فرنسا وانكلترا على الرعایا الاجانب في مصر، فقرروا ارسال
بوارج إلى المياه المصرية للمحافظة على حيائهم ومصالحهم . واعلنت
فرنسا والإنجليز جميعاً حرصها على تأييد الخديو في مركزه . وفي ذلك
إشارة إلى ما كانتا تتوقعانه من وصول عربى وأصحابه إلى استصدار
قرار من النواب بعزله .

ولما اشتد الخلاف بين الوزارة والخديو دعت الوزارة الهيئة
النيلية للإجماع وتوسيط سلطان باشا رئيس المجلس وجماعة من
كبار النواب معه يريدون الوصول إلى حل لهذا الخلاف . وكان
من الحلول التي قبلها الخديو أن يقال سامي البارودى من رئاسة
الوزارة وأن يحل محله مصطفى باشا فهمى . لكن مصطفى باشا أبي .
وبينما المحادثات دائرة بين النواب والخديو والوزارة كانت البوارج
الإنكليزية والفرنسية قد وصلت إلى المياه المصرية وأعقبتها الدولتان
ببلاغ وجهه قنصلاهما في ٢٥ مايو إلى الخديو يطلبان فيه سقوط
الوزارة بتأميمها وخروج عربى من القطر المصرى مع ضمان الدولتين
رتبه ومرتباته ونياشينه واقامة على فهمى عبد العال حلمى في

الارياف واصدار الخديو بعد ذلك عفوًا عاماً عن جميع من كانت
لهم يد في الإسالة .

وأبلغ الخديو وزرائه هذا الانذار، فرفضوه بحجة أن ليس للدول
شأن في مخابرة مصر الأعنوان طريق الاستانة . على أن الخديو
أظهر رضاه عن الانذار فاستقالت الوزارة متحجحة وقبل
الخديو استقالتها ودعا شريف باشا لتشكيل وزارة
جديدة . لكن شريف باشا رأى الموقف لا يطاق فأعتذر كما اعتذر
عمر باشا لطفي . وفي هذه الأثناء أوفد الباب العالي درويش باشا
معتمداً سلطانياً لينظر في الخلاف بين الخديو ووزرائه بل والعربيين
جميعاً ، فان هؤلاء كانوا قد انتهوا إلى ضرورة خلع الخديو وتولية
البرنس حليم مكانه . وكانوا يطمعون في نجاح هذه السياسة لعلمهم
أن تركياً تؤيدوها .

وفي انتظار حل المشاكل وتعيين وزارة جديدة وطنية تفاصم
الخطب واضطرب بحبل الأمن فاضطر الخديو إلى أن يعين عربي
وحده ناظراً للحربيه ليتولى أمر الأمن في البلاد .

ولم يشعر الخديو من جانب المعتمد السلطاني بما يدل على استعداد
تركياً إذا اقتضت الحال للتدخل المسلح ولتأييده في مصر كله برغم
العربين . لذلك قبل أوقف كاهو وعين وزارة اسماعيل راغب باشا
على أن يظل عربياً وزيراً للحربيه . وظل توفيق ووزراء في العاصمة
وظملت أساطيل الدول في مياه الاسكندرية . وظل الناس يتهدرون
فيما يمكن أن تؤول إليه الأمور في زمن قريب . وكان أعجب
الواقف يومئذ هو قف تركياً . فقد اقررت انكلترا وفرنسا أن

ينعقد بالاستانة مؤتمر دولي للنظر في حالة مصر واقرارها على صورة من الصور . لكن تركياد رفضت رفضاً باتاً بدعوى أن الحال في مصر عادية وأن النظام القائم لا خوف عليه . وفيما الحديث بين الدول في أمر المؤتمر والعقاده دُئر وقت فتنـة الاسكندرية في ١١ يونيو سنة ١٨٨٢ .

وليس يسيراً معرفة الأسباب الحقيقية التي أدت إلى هذه الفتنة . أهي كانت حركة خيالية نتيجة تكملـس هذا التغير بالسكان وتزايد الواقدين عليه بسبب الحال غير الطبيعية التي نشأت عن وجود البوارج في مياهه ؟ أم هي كانت بتقدير سابق من عرابي وأنصاره كما يزعم بعض الكتاب الانكليز مؤيدـين زعمـهم بأن الحكومة تباطأـت في قمع الذين أثاروا الفتنة وبكثرة عدد قتلى الاجانب على قتل المصريين زيادة محسوـسة ؟ أم هي كانت على العكس من ذلك مدبرة من جانب الانكليز على ما يذهب اليه عرابي وأنصاره مؤيدـين رأـيـهم بأن أمير الاسطـول الانكليـزـي كان دـامـودـاً بالمحافظة على أرواح الرعايا البريطانيـين ومصالـحـهم على خـلـافـ أمـيرـ الاسـطـولـ الفرنسيـيـ الذي كان مـكـلـفـاًـ بما ظـاهـرـةـ الـبـحـرـيةـ لـتأـيـيدـ سـلـطةـ الـخـديـوـ . ومهـماـ يكنـ من هـنـهـ الفـروـضـ فقدـ وقـعـتـ مـذـاجـ ١١ـ يـونـيوـ وـحـكـومـةـ الـخـديـوـ بـالـقـاهـرـةـ . تـخفـ توـفـيقـ وـعـرابـيـ وـالـوزـراءـ فـالـيـومـ نـفـسـهـ وـعـقـدـواـ مـجاـسـاـ عـسـكـريـاـ لـتـحـقـيقـ أـسـبـابـ الفتـنـةـ وـجـمـعـواـ عـلـىـ رـأـسـهـ عـمـرـ باـشاـ الطـفـيـ مـحـافـظـ الاسـكـنـدـرـيـةـ الـذـيـ اـتـمـهـ الانـكـلـيـزـ بـالـتـهـاـونـ فـتـقـعـهـاـ ، وـبـلـغـواـ مـنـ اـتـهـامـهـ أـنـ اـنـسـحبـ الـحـامـيـ الـانـكـلـيـزـ الـذـيـ حـضـرـ تـحـقـيقـ المـجـاـسـ عـسـكـريـ بـأـمـرـ القـنـصـلـيـةـ الـبـرـيطـانـيـةـ .

وبقي الخديو وحكومته بالاسكندرية ي يريدون اعادة الامن الى
لصا به . وكان توفيق يومئذ في مركز لا يحسد عليه : فهو لم يكن
يأمن جانب تركيا ، وكان يعتقد اعتقاداً جازماً أنها تعارضه و تؤيد
المتمردين عليه رجاء الوصول يوماً من الأيام الى خلعه و اقامة حليم
باشا مكانه ، وهو لم يكن يأمن العرابيين لما كان يعتقد من بغضهم
إيه و اتفاقهم مع السياسة التركية في التخلص منه ، وهو مع اعتماده
على تأييد فرنسا و انكلترا كان يخشى أن لا يتخطى أمرها التأييد
المعنوي فإذا فوجئا بالامر الواقع من عزله لم يقوموا بعمل لتشبيهه في
عرشه . ثم هو لم يكن يتحقق حتى بالجرأة من وزرائه ، لانه شعر
بالقوة المصرية تتغلب على كل شيء في البلاد و تبتلعه .

وتجسم الشعور بهذه القوة القومية في رأس عربي وأعوانه
حتى دفعهم الى قوية حصنون الاسكندرية استعداداً لدفع الغارة
البحرية عليها . ومع ان الدول كانت قد تدخلت معارضته تركيا في عقد
مؤتمر الاستانة حل المسألة المصرية والعقد المؤتمري في العاصمة التركية
فعلا برئاسة لورد درفرين سفير انكلترا لدى الباب العالى وكان طبيعياً
أن يكفل الجميع عن تعقيد المسائل في مصر حتى يصدر المؤتمري قراره
فإن تحصين قلاع الاسكندرية استمر ، كما ان الاميرال سيمور الانكليزي
أبلغ الخديو بأنه مضططر اذا لم تقف التحصينات الى ضرب قلاع
الاسكندرية بالمدافع . وعلى الرغم من احتجاج مثل الدول على بلاغ
الاميرال ومن انكار طيبة عصمت الاستمار في التحصينات ومن
أن تسوية المسألة كانت ممكنة لو أن فرنسا شاركت في الضغط المعنوى
على الحكومة المصرية كي تقتصر قرار مؤتمر الاستانة فان الاميرال سيمور

أصر على قراره وقررت وزارة فريسييه إنسحاب الأسطول الفرنسي
إلى بور سعيد.

ماذا يفعل توفيق ومقامه بسرى رأس التين يجعله معرضًا
لقتا بل مدافع البوارج؟ لقد طلب إليه المستر كافن أن ينتقل إلى بارجة
أمير البحر الانكليزي لأن غرض الأسطول الانكليزي تأييدهم.
لكن توفيق كان يعلم أن التجاءه وهو أمير هذه البلاد التي تطلق
النار عليها إلى أستانيل مهاجمتها يعرضه لعزل تنفرد انكلترا
بالاعتراض عليه بينما تشارك فرنسا والدول الأخرى مع تركيا في
تأييده لها، كان لفرنسا من ضلع ظاهر مع العرابيين ومع حليم باشا.
لذلك رأى الاستسلام للمقادير وقال المستر كافن ما مؤداته

«أني لا أربح مكافى ولو وقعت الواقعه وأطلقت المدافع على
الاسكندرية، فإن لي من رعيتي قوماً أمناء لم يخونوني بالخدمني
بأمانته وصداقة فلا يصح أن أتركهم أو أن الشدة لا تنجو بنفسى،
ولا يليق بي كذلك أن أترك البلاد في وقت الحرب فإن في ذلك عاراً
عظياً» واكتفى بالانتقال هو ودرويش باشا إلى قصر الرمل بعيداً
عن مرمى المدافع.

وفي صباح ١١ يوليو سنة ١٨٨٢ أطلقت البوارج الانكليزية
مدافعها على حصنون الاسكندرية بخواوب الحصنون باطلاق مدفعها.
على أن الموقعة لم تدم لاكثر من الساعة الحادية عشرة قبل الظهر
إذ صمت نيران الحصنون ودك بعضها دكاً وشغر العرابيون بأن
ما توهّوه من قوتهم على مقاومة البوارج الانكليزية لم يكن إلا
وهما. على أن ذلك لم يفت في عضدهم ولم يوهن من عزيمتهم

اذ اعتقدوا انهم يستطيعون أن يعسّروا في نصر الدوار ليعودوا بعد زمن الى مهاجمة الاسكندرية . وعلى ذلك قرر عرابي ومن معه الانسحاب من الشغر بعد أن أيقنوا من أن الخديو الذي رفض الاتجاء الى بوارج الانكليز قد سر لانتصارهم وأنه لذلك قد صار خصماً ظاهراً للثائرين عليهم . وفيما كانت المدينة تحترق بفعل الجماهير الشائرة والعساكر المقيمة مع عرابي عاد الخديو من سراي الرمل حيث كان سجينًا تحت أمر رجال عرابي الى سراي رأس التين حيث استقبله الجندي الانكليزي على باهراً وحيث استقبله الاميرال سيمور وعدد من رجاله داخلها .

وكان في الوقت متسع ما يزال لا يخمد نار القتنة في مصر لو أن تركياً لم تكن متأثرة بسياسة فرنسا حريصة على تأييد الثائرين . فقد طلب اليها لورددوفرين ، بناء على تعليمات حكومته ، أن تعلن أن عرابي عاص وتأييد سلطة الخديوي واستعداده لارسال قوة لقمع العصيان واعادة النظام . لكن تركياً أبى أن تخطط بهذه الخطوة . وطلبت انكلترا الى فرنسا أن تشارك معها في الدفاع عن قناة السويس ، فأعلن الساسة الفرنسيون أن قanal السويس بآمن من أن يهدده مهدد . والواقع أن عرابي ومن معه لم يفكر أحد منهم في تحصين بناحية القناة اعتماداً منهم على حياده وعلى تأييد المسيو دلسبيس بأن أية قوة محاربة لن تستطيع خرق حياده . ورأى انكلترا بازاء ذلك كله أن الفرصة سانحة لأن تخطو خطوة جديدة في وادي النيل بعد خطوتها الاولى التي أتمها ذرائي في سنة ١٨٧٥ بشرى أسميه القناة التي كانت مملوكة لاسماعيل فقررت التدخل المسلح منفردة . ولم تعبأ بحيدة القناة

بل ذهبت أساطيلها المقلة للاجيش الذاهب إلى مصر قاصدة بور سعيد والاسماعيلية فاحتلتما من غير آلية مقاومة ولا آلية احتجاج . وعسكرت القوة الانكليزية يوم ٢٢ أغسطس في الاسماعيلية . وفي هذا الظرف وبعد فوات الفرصة أعلنت ترکيا عصيان عراقي وأيدت توفيقاً في عرشه . لكن توفيقاً كان قد انضم إلى السياسة الانكليزية وعزل عراقي من نظارة الحربية واعتبره ثائراً . وقامت في مصر إذ ذاك حكومتان : حكومة توفيق يؤيدها فريق من المصريين وتوئيدها انكلترا ، وحكومة الثورة تخضع لها البلاد كلها . لكن هذه الحكومة الثانية لم يطل أمرها . فقد انهزم عراقي وجنته في موقعة التل الكبير يوم ١٢ سبتمبر ودخل الانكليز القاهرة في الخامس عشر من هذا الشهير نفسه .

وعاد توفيق إلى عاصمة مملكته في ٢٥ سبتمبر سنة ١٨٨٢ يصحبه الدوق أوف كنوت والجنزال ولسلي والسير أدورت مالات . وكان توسيع يظن أن قضاء انكلترا على الثورة باسم تأييد مركزه معناه عوده للحكم وتولى أمور البلاد على ما تحييزه الفرمانات . ولعله لم يخطر بباله أن انتصار انكلترا في التل الكبير ودخول الجيوش الانكليزية إلى عاصمة مملكته قد قدر له أن يكون معناه القضاء على سلطته ، بنقلها من يده إلى يد هؤلاء الذين ثبتوه في عرشه . ولعله لم يخطر بباله أن عوده إلى مقر سلطانه محاطاً بالأمير وبالقائد وبقنصل انكلترا سينتهي لاريب إلى أن تكون الحوادث العرابية آخر مأخذ القدر لتوفيق من نشاط . ولئن كان عراقي

سيحاكم وسينفي الى سيلان فان ولی عرش مصر لن يكون اعظم من عرابي سلطاناً ب رغم مقامه في قصوره وسط عاصمة ملکه .
فبرغم تبليغ الموردو فين الباب العالى عقب موقعة التل الكبير أن
الحكومة البريطانية تفك فى سحب جنودها من مصر مادام النظام
قد استتب فيها فان حكومة جلالة الملك رأت عقب انتصارها على
الثوار أن يكون مصير الثوار بيدها لا يهدى حكومة الخديو . أليست
هي التي تغلبت عليهم وقهراهم ؟ واذا كان الخديو وأنصاره يرون
طبعياً أن يقضى على عرابي وكل من معه بالاعدام جزاء فشلهم في
ثورتهم ، فان انكلترا تنظر للامر نظرة أخرى . ولذلك أبلغ القنصل
الإنكليزي الخديو أن لا يتصرف في أمر الثنائرين قبل حضور الموردو
دوفرين الى مصر ، وكانت حكومته قد انتدبته «لينصح الى حكومة
الخديو بالوسائل الواجب اتباعها لاعادة سلطة سموه ». وكان
أول ما صنعه لورد دوفرين أن طلب الافراج عن المئات الذين
اكتظت بهم السجون باعتبارهم ثائرين عدا خمسة هم عرابي وطلبه
ومحود سامي ومحود فهمي وعلى فهمي . ومع أن القوانين التركية
للمجالس العسكرية لم تكن تبيح حضور محام عن المتهمين فقد جاء
محاميان انكليزيان هما مستر ناير ومستر برودل . وبعد صدور
الحكم بالاعدام استبدل الخديو عملاً بنصيحة قنصل انكلترا —
ونصيحته عند توفيق أمر محترم — بالنفي المؤبد
وكان لابد لانسحاب الجنود الانكليزية من أن تستريح انكلترا
إلى انتظام الجيش المصرى انتظاماً تطمئن معه إلى عدم تهديد الأمن
مرة أخرى ، وأن تطمئن إلى شيء آخر هو أن لا تتعرض مصر

لغزو دولة أخرى إليها غزواً يعرض قناة السويس إلى الخطر .
وغيره مرة أعلنت إنكلترا استعدادها لاجلاء عن مصر وسحب
جنودها منها متى أطاعت إلى هذه الغايات . وهذه ثمان وأربعون
سنة مضت منذ الاحتلال ولما تهدى الحكومة البريطانية — على
الاقل — إلى ما يطمئنها على أن لا تغزو مصر دولة أخرى أو أن
تتعرض قناة السويس الدولية للخطر .

على أنها رأت في ذلك التاريخ وبعد مشورة اللورد دفرين أن
تنظيم الحكم في البلاد على قاعدة العدل هو أقرب الوسائل لتحقيق
الاغراض التي تزيد أن تتحقق لتجلو عن وادي النيل . فاصرت ،
استغفر الله ، فنصحت أن يلغى توافق قانون مجلس النواب
ويستبدل به قانون مجلس الشورى والجمعية العمومية وأخذت
بيدها مقاييد مالية البلاد ونحت فرنسا قدر المستطاع عنها ودعت
إلى عقد مؤتمر لاستبدال نظام التصفيه بنظام آخر ، وجعلت تتغلغل
في شؤون الحكم شيئاً فشيئاً حتى وضعت يدها على كل شيء وعلى
توافق من يين ما وضعت يدها عليه .

وسر توافق بهذه الحال الجديدة واطمأن أشد الاطمئنان لها .
بل لقد باع من اخلاصه إنكلترا أن كان لا يكتم على مثاثها سراً
من أسرار وزارته . روى أحد الذين حضروا ذلك العصر أن
رياض باشا اتفق مع زملائه مرة على أن يعقدوا مجلس وزارة
للاجتماع المرافق الإنكليزي كلما أرادوا النظر في شؤون تعنى مصر
وحدها . وأبلغ رئيس الوزارة توافقاً هذا الخبر . ثم لم يكن بأكثـر

من دهشة رياض حين نبهه قنصل انكلترا العام الى أنه كان يعتقد
فيه الصراحة ، وروى له ما أخبر هو به الخديو من قبل .
ولم يكن يدور بخاطر توفيق شىء من أمر جلاء الجنود البريطانية
عن مصر رغم اذاج السياسة الفرنسية فيه بعد اذ رأت تفوتها في
وادى النيل يتقلص . وكيف تريد توفيقاً أن يؤيد السياسة الفرنسية
وقد كانت منضمة للعرايين ضدّه في ظروف كثيرة ، وكانت تعطف
على فكرة تعيين حليم باشا في منصب الخديوية ؟ : واذن فليصنف
الانكليز لتنظيم أمر البلاد ما يشاءون . ليقرروا ثلاثة ملايين من
الجنيهات تعويضاً لمن أصحابهم ضرر من جراء فتنة الاسكندرية ،
وليوطدوا نظام الحكم الذي يرون توطيداً في مصر ، وليوعدوا
إلى اسودان ما يشاءون من الجيوش لقمع ثورة المهدى ، وليرروا
الانسحاب من السودان واحلاءه فيأبى رئيس وزارته شريف باشا
ويقبل نوبار الوزارة والانسحاب — ليصنعوا بامصر ما شاؤا وليعينوا
من الوزراء من شاؤا فلن ينسى توفيق لهم فضل تثبيته على عرشه
ولن يكون لهم الا اخاص المخلصين .

واعل ما كتبه لورد كروم عن توفيق وخلقـه خـير ما يوضـح
لـنا مـبلغ اطمـئنانـ توـفـيقـ لـلحـالـةـ الجـديـدةـ ،ـ حـالـةـ الـاحتـلالـ الانـكـليـزـىـ
قال جـنـابـهـ مـامـؤـدـاهـ :

«ما الحسب خـيرـ أـصدـقاءـ توـفـيقـ يـذـهـبـونـ إـلـىـ أـنـهـ كـانـ رـجـلـاءـ ظـيـماـ
أـوـ خـدـيـوـيـاـ مـثـلاـ .ـ فـالـوـاقـعـ أـنـهـ لـمـ يـكـنـ مـنـ العـظـمـةـ فـيـ شـىـءـ .ـ وـلـقـدـ كـانـ
مـكـتـفـيـاـ بـزـوـجـ وـاحـدـةـ فـضـرـبـ بـذـلـكـ مـثـلاـ صـاحـباـ لـأـهـلـ بـلـادـهـ .ـ
وـكـانـ أـبـاـ الحـائـرـ أـنـشـيـطاـ مـعـنـيـاـ بـحـسـنـ تـرـبـيـةـ أـوـلـادـهـ .ـ وـقـدـ اـشـهـرـ

بالتقوى ولكنـه كان خلـاً من أـية ظـاهرة للـتعصب مـا يـصطبـغ بـه
أـتقـيـاء «الـمـسـلمـين». وـوصلـت تـقوـاه بـيـنـه وـبيـنـ رـعـيـاـهـ المـسـلمـينـ وـكانـتـ
لـذـلـكـ عـامـلاـ سـيـاسـياـ لـهـ بـعـضـ الـخـطـرـ. وـكانـ بـالـقـيـاسـ إـلـىـ مـنـ حـولـهـ
مـسـتـقـيـماـ وـفـيـماـ. وـكانـ كـأـثـرـ أـهـلـ بـلـادـهـ يـخـافـ المسـؤـولـيـةـ وـيـجـمـدـ
مـاـ اـسـطـاعـ لـيـلـقـيـ كـلـ ماـ يـقـدـرـ عـلـىـ القـائـمـهـ مـنـهـ عـلـىـ اـكـتـافـ الـآـخـرـينـ.
فـكـانـ يـشـكـوـ مـنـ كـثـرـ عـدـدـ الـأـورـبـيـنـ فـيـ الـحـكـومـةـ الـمـصـرـيـةـ فـاـذاـ
قـصـدـ إـلـيـهـ اوـرـبـيـ يـلـتـمـسـ مـنـصـبـاـ اـجـابـهـ بـأـنـ يـكـونـ سـعـيـداـ لـاجـابـةـ
الـطـلـبـ وـلـكـنـ سـلـاطـةـ بـرـيـطـانـيـةـ تـنـعـهـ مـنـ السـيرـ بـمـاـ يـعـلـيـهـ عـلـيـهـ قـلـبـهـ. وـكانـ
عـدـيمـ النـشـاطـ يـعـوـزـ الـابـتكـارـ، وـلـكـنـهـ كـانـ اـذـاـ اـضـطـرـ إـلـىـ أـنـ يـقـرـ قـرـارـاـ
أـبـدـيـ فـيـ غـيـرـ قـلـيلـ مـنـ الـاحـيـاـنـ مـاـ يـدـلـ عـلـىـ الـكـرـامـةـ وـحـسـنـ التـقـدـيرـ
وـبـعـدـ النـظـرـ. وـكانـ طـيـبـ الـقـلـبـ حـتـىـ يـكـادـ فـيـ بـعـضـ الـاحـيـاـنـ يـيـدىـ
مـنـ الـاعـتـرـافـ بـالـجـمـيـلـ عـمـاـ قـدـمـ إـلـيـهـ مـنـ خـدـمـةـ مـاـيـنـدـرـ أـنـ يـكـونـ
مـنـ صـفـاتـ حـاـكـمـ شـرـقـ. وـكانـ يـظـهـرـ أـعـمـقـ الـمـقـتـ لـكـلـ أـنـوـاعـ
الـتـحـكـمـ وـالـارـهـاـقـ وـالـقـسـوـةـ. وـلمـ يـكـنـ أـبـدـاـ مـسـئـوـ وـلـاـ شـخـصـيـاـعـنـ عـمـلـ
مـنـ هـذـهـ الـاعـمـالـ، وـانـ كـانـ تـبـاطـؤـهـ وـاهـمـالـهـ قـدـ أـتـاحـ اـرـتـكـابـ كـثـيرـ
مـنـ الـظـلـامـاتـ باـسـمـهـ. وـلمـ يـكـنـ مـتـعـلـماـ تـعـلـيـاـ عـالـيـاـ. وـقـلـ اـنـ قـرـأـ كـتـابـاـ.
وـلـكـنـهـ كـانـ يـطـلـعـ عـلـىـ الصـحـيفـ وـيـتـحـدـثـ مـعـ رـجـالـ مـنـ كـلـ طـرـازـ وـمـكـانـةـ.
وـكـانـ مـتـوـسـطاـ فـيـ اـدـرـاكـ الـحـوـادـثـ التـىـ تـلـقـيـ إـلـيـهـ وـفـيـ تـبـيـعـ الـمـنـاقـشـةـ التـىـ
تـحـدـثـ أـمـامـهـ. أـمـاـ مـنـ حـدـةـ الـذـكـاءـ فـرـبـاـ كـانـ فـوقـ مـتـوـسـطـ أـهـلـ
بـلـادـهـ

«وـاـذاـ لمـ يـكـنـ عـظـيـماـ فـيـ الرـجـالـ فـهـوـ مـمـاـ يـكـنـ خـدـيـوـيـاـ مـثـلاـ. فـلـوـانـهـ
كـانـ رـجـلاـ قـوـيـاـ الـارـادـةـ سـامـيـ الـخـلـقـ حـادـ الـذـكـاءـ نـوـصـعـ تـفـسـهـ عـلـىـ رـأـسـ

حركة الاصلاح في مصر، ولاظهرت سلطنته، ولما تقد غيره من

الانكليز الذين كانوا موظفين في حكومته . على أنه مع ذلك كانت له
له الفضيلة السليمية أنه لم يكن ملوثاً برذائل الحاكم الشرقي . وهو اذا
لم يكن قد قام بالفعل بشيء في حركة اصلاح فلكان انه كان مغتبطا
لقيام آخرين بدلبه بهذه الحركة . وهو اذا لم يكن قد ساق غيره في سبيل الخير
فلكان انه اتبع الغير في هذا السبيل . وأشهد أني اقتنعت برأيه في
أحياناً أكثر من التي اقتنع هو فيها برأيي عند وجود خلاف بيننا»

وهذا الحكم يبين للقاريء السبب في ان لم نقف بعد جوادث
الثورة العرابية عند شيء من حياة توفيق، فقد كانت حياة عادية لا
تتحملها الحوادث لانه لم يكن لها في الحوادث يد ولا تصريف، وبقي
كذلك الى ان توفي في سنة ١٨٩٣ غير محمود ولا مذموم

والآن فهل على توفيق تبعه في الحوادث الجسمان التي حدثت أول
أيام حكمه والتي أدت بصير الى موقفها الحاضر؟ هذا ما لا يصعب الجواب
عليه . فعلى توفيق التبعه اذا كانت على انسان تبعه ضعف نفسه
واضطرابه بين قوى لا سلطان له عليهما . انما التبعه اكبر التبعه على
الحوادث التي احاطت بتوفيق فكان لضعفه لا يملك تحويتها بما يتحقق
ومصلحة بلده . انما التبعه على تركيا ، وعلى فرنسا ، وعلى إنكلترا ، وعلى
عربي . وماذا يستطيع ضعيف قصير النظر كـ توفيق أن يصنع حين
هذه القوى جميعاً الا أن يترك نفسه يتقادفه موج الحوادث ليصل
عاسكه وبالده الى ما وصل اليه

محمد قدری باشا



(نقلت هذه الصورة عن مجلة المقتطف الغراء)

من الكتب ما ينبعه ذكره ويُعْظَمُ أثْرُه بعتقدِه يُجْبِي عَلَى ذِكْرِ
المؤلف حتَّى ليكاد يُعْقِبُ خبره . من هذَا الطَّرَازِ كُتُبٌ ثَلَاثَةٌ مَا يَغْيِبُ إِلَيْهِ
وَاحِدٌ مِّنْهَا عَنْ ذَا كَرْتَةِ مَحَامٍ وَلا قَاضٍ وَلا طَالِبٍ حَقَوقٍ وَلا رَجُلٍ
مِّنْ رِجَالِ الشَّرْعِ الْإِسْلَامِيِّ . هَذِهِ الْكِتَبُ الْثَلَاثَةُ هِيَ: مَرْشِدُ الْحِيرَانِ
إِلَى مَعْرِفَةِ أَحْوَالِ الْإِنْسَانِ فِي الْمَعَامِلَاتِ الشَّرْعِيَّةِ عَلَى مَذَهَبِ الْأَمَامِ
الْأَعْظَمِ أَبِي حَنِيفَةِ النَّعْمَانِ ، وَكِتَابُ الْأَحْكَامِ الشَّرْعِيَّةِ فِي الْأَحْوَالِ
الشَّخْصِيَّةِ ، وَكِتَابُ قَانُونِ الْعُدْلِ وَالْإِنْصَافِ لِلْقَضَاءِ فِي مَشَكَّلَاتِ
الْأَوْقَافِ . بِلْ أَنْ مَعْرِفَةَ هَذِهِ الْكِتَبِ لَا تَقْفَى عِنْدِ رِجَالِ الْقَانُونِ
وَالشَّرْعِ ، بِلْ تَمْتَدُ كَذَلِكَ إِلَى عَدْدٍ عَظِيمٍ مِّنْ سُوَادِ النَّاسِ . فَقَدْ
نَظَّمَتْ ثَلَاثَتُهَا أَحْكَامُ الشَّرْعِيَّةِ عَلَى مَذَهَبِ أَبِي حَنِيفَةَ فِي تَقْنِينِ ذَي
مَوَادِيْنِ بِحَاجَةِ كُلِّ مَنْ يَرْجِمُهُ الْوَقْوفُ عَلَى هَذِهِ الْأَحْكَامِ إِذْ يَجِدُهَا
مُبْوَبَةً مِرْتَبَةً مَدْقُوقَةً فِي اخْتِيَارِ الْفَاظِهَا حَتَّى تَعْنِي مَدْلُولَاتُهَا عَلَى صُورَةِ
مِنَ التَّحْدِيدِ الدِّقِيقِ الَّذِي يَقْضِي بِهِ فِنُ الْفَقَهِ الْقَانُونِيِّ . وَهَذِهِ
الْكِتَبُ الْثَلَاثَةُ هِيَ الْأُولَى وَالْآخِرَةُ فِي بَابِهَا وَلَذَلِكَ نَبَهُ ذِكْرُهَا
وَعَظِيمُ أَثْرُهَا وَتَنَاوُلُ النَّاسِ مَا فِيهَا بِالدِّرَاسَةِ ، فَإِذَا سُئِلْتُ أَكْثَرَهُمْ
عَنْ وَاضْعُفِهَا قِيلَ إِلَيْكَ هُوَ قَدْرُكَ بَاشَا . لَكِنْ أَكْثَرُ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ
مِنْ أَمْرِ قَدْرِكَ بَاشَا إِلَّا أَسْمَهُ ، وَالْأَكْثَرُهُ وَاضْعُفُ هَذِهِ الْكِتَبُ الْثَلَاثَةِ ،
وَقَدْ يَكُونُ ذَلِكَ كَافِيًّا لِتَارِيَخِهِ . فَهَذِهِ الْكِتَبُ الْثَلَاثَةُ هِيَ فِي الْحَقِّ
أَثْرٌ كَافٍ لِتَحْمِيدِ وَاضْعُفِهِ . وَإِذَا كَانَ نَابِيَّوْنَ قَدْ جَعَلُوا مِنْ قَانُونِهِ

المدنى عنوان مجدہ واعتبر ما الى جانب ذلك من مجد النصر والظفر
وحكمة العالم ثانويا ، فكتب قدرى باشا في تقنين أحكام الشرع
في المعاملات والأوقاف والأحوال الشخصية عنوان مجد باق
على الزمان .

لكن ، من كان قدرى باشا ؟ وماذا كان تاريخ حياته ؟ لا بد
انه كان فقيهاً عظيماً من علماء الازهر معهد دراسة الشريعة الإسلامية
وموضع العناية بها . فالرجل الفذ الذى يقنن شريعة من الشرائع
يجب أن يكون من أساطين رجال هذه الشريعة . فليس طبيعياً أن
يخرج هذا المعهد الاولى من العلماء والفقهاء ثم يكون من يقنن
الشرع غيرهم ! غير ان الواقع أن قدرى باشا لم يكن منهم ولم ينخرط
في سلكهم ، ولم ينضم الى زمرتهم . وكتبه الفقهية هذه ليست
كل تواصيفه وإن كانت أبقاها وأخلدها . فقد كانت تربيتها ودراسته
مدنية بحتة . وكانت الوظائف التي تقلدتها بعيدة عن أن تمس الازهر
الشريف أى مساس .

وقد ولد بلوى حوالي سنة ١٨٢١ من أب أناضولي هو قدرى
أغا الذى كان من أعيان بلد وزير كوبولى . وحين جاء إلى مصر
اقطعه والي مصر بعض العرب بركرز ملوى على طريقة الاترام التى
كانت معروفة يومئذ . فتزوج من مصرية أولدها ولده محمد وأدخله
مدرسة صغيرة بلوى ، حتى اذا أتم الدراسة بها يبعث به إلى القاهرة
في مدرسة الألسن حيث أتم بها دراسته وعين فيها مترجماً مساعدًا
وكانت مدرسة الألسن هي المعهد الذى أسس لبث الثقافة
المسيحية في مصر . فقد أدرك أهل ذلك العصر ادراكاً قاماً ان

المدنية الغربية قوية التيار جارفته وان الحضارة الاسلامية التي يمثلها الازهر أصبحت غير قادرة على الوقوف في وجه هذا التيار ، كما انها كانت قد جمدت على تعاليم لا تقبل أن تطعم بالتعاليم الحديثة فلا يمكن معالجة التوفيق بين المذهبين . وكانت اللغات — أو اللسن على ما كانوا يسعونها يومئذ — هي موضع عناية مدرسة الاسن الكبرى . فكانت تدرس فيها اللغات التركية والفارسية والفرنسية والاطالية والانكليزية . وكانت العناية فيها باللغة العربية عنابة فائفة يدل عليها ما وضعه الذين تخرجوا منها وما ترجموه من كتب ومؤلفات كثيرة . قال قدرى باشا صاحب هذه الترجمة في كتابه (معلومات جغرافية) الذى نشر في سنة ١٨٦٩ : « وقد ترجم تلاميذ هذه المدرسة أكثراً من ألف مجلد » واتى بأسماء كثيرة من ترجموا والفنون التى ترجموا كتبها الغربية . وكانقصد من تعلم هذه (اللسن) والقيام من بعد ذلك بترجمة الكتب في مختلف الفنون نقل الحضارة الغالية الى مصر ليتمكن أهلها من السير سيرة أهل أوربا . ولعل أكثر مترجم أثار ترجم عن اللغة الفرنسية . فقد تأثرت مصر بالثورة الفرنسية الكبرى ، كما تأثرت بهadol أوربا المختلفة . وكان من أثر ذلك أن قام المغفور له محمد على باشا فيها بحر كه تشبه البحر كه الذى قام بهما نابليون في فرنسا ، وكان مرجواً أن تؤتى خير الثرات لولا أن تألفت أوربا على مصر وحربتها يومئذ ثرات الظفر ، كما وقفت بعد ذلك عائقاً في سبيل تقدمها تقدماً يرفعها الى الصاف الذى يجب أن تشغله بين أرقى أمم الأرض وأقواها

عين قدرى باشا اذن مترجمًا مساعدًا بمدرسة الالسن على أثر
 تمام دراسته بها . وكان له ميل خاص لدراسة علوم الفقه ولمقارنته
 الشريعة الإسلامية بالقوانين الوربية . فكان لذلك يحضر بعض
 دروس الفقه بالازهر وكان مكتبا على مطالعة كتب الشرع منذ حادثة
سنة . لكن آثاره في ذلك لم تظهر الا بعد سنتين طولية . وبقيت
 الترجمة عمله الرئيسي الذي كان يتقنه أيام اتقان . ولذلك نقل من
 مدرسة الالسن الى نظارة المالية مترجمًا لمساعد مترجم .

وإذا احتل ابراهيم باشا الشام عين شريف باشا واليا لها .
 فأخذ هذا الاخير قدرى باشا (وكان مایزال قدرى أفندي)
 سكريراً له ، ثم سافرا الى الاستانة وعادا بعد ذلك الى مصر وظلا
 متلازمين حتى عين قدرى باشا استاذًا للغتين العربية والتركية
 في مدرسة الامير مصطفى فاضل باشا . ثم اختاره الخديوي مرسيناً لولي
 العهد . ثم عين بالمعية فالمعارف في مجلس التجار بالاسكندرية فرئيساً
 لقلم ترجمة المخاجية .

وأثناء اشتغاله بالتدريس وضع عدة كتب في موضوعات مختلفة .
 لكن أكثرها كان في اللغة العربية وأجر ورميتها ومفراداتها ، وكان
 معاجم عربية - فرنسية . من ذلك الدر النفيس في لغتي العرب والفرنسيين
 ويقع في سبعينات صفحة ، والدر المنتخب من لغات الفرنسيين
 والعثمانيين والعرب ، وأجر ورمية في اللغة العربية ، ومحضر الاجر ورمية
 الفرنساوية مترجمة الى العربية ، والمرادفات باللغة العربية والفرنساوية .
 هذا عدا بعض كتب في التاريخ والجغرافيا ككتاب (معلومات)

جغرافية مصحوبة ببعض نبذة تاريخية لا يُحمد ذكر جمعت وترجمت
بالعربية لفائدة الشبيبة المصرية). وهذا الكتاب تم طبعه في

سنة ١٨٦٩

يدل كثير من هذه الكتب على مبالغ تصلع قدرى باشاف المغترين
العربية والفرنسية وعلى مقدرتها الفادحة في الترجمة. لذلك كان طبيعياً
أن يدعى للاشتراك في التمهيد للعمل التشريعى العظيم الذى كانت
الحكومة المصرية تفك فى فيه والذى كان مقدمة لانتشار المحاكم
المختلطة والمحاكم الاهلية. فقد كان القضاء المصرى في ذلك العهد
منوطاً بالجالس المفارة التي كانت تحكم بالعرف وكانت تجتمع من الرجال
من قلت درايتهم بقواعد العدالة. واذ كانت مبادئ الثورة الفرنسية
قد تسربت إلى مصر من طريق الجملة الفرنسية في سنة ١٧٩٨
ومن طريق الشبان المصريين الذين أوفدوا إلى فرنسا ثم عادوا إلى
مصر، فقد تجدهم الفكرة إلى تعریف القوانین الفرنسية التي
وضعت أيام نابليون، وعهدت الحكومة إلى جماعة من أفضل
المترجمين المصريين بهذه المهمة. فعرب القانون المدني الفرنسي رفاعة
بك رافع وعبد الله بك رئيس قلم الترجمة وأحمد افندي حامى
وعبد السلام افندي احمد. أما قانون المرافعات فعربه ابو السعود
افندي وحسن افندي فهمي أحد مترجمي وزارة الخارجية، وعرب
قدري باشا قانون العقوبات، وعرب صالح مجدى بك قانون تحقيق
الجنایات. وجمعت هذه القوانین كلها وطبعت بالمطبعة الاميرية في

سنة ١٢٨٣ هـ

واذ كان ميل قدرى باشا للفقه والتشريع يرجع إلى أيام

الدراسة ، على ما قادمنا ، فقد صادف ذلك العمل هذا الميل ودفع
بصاحبها إلى التفكير في تقيين أحكام الشريعة الإسلامية . وزاده
إمعاناً في هذا التفكير أن عهد إليه بالاشتراك في ترجمة قوانين المحاكم
المختلطة إلى اللغة العربية مع اللجنة التي أنشئت في وزارة الحقانية
للقىام بهذا العمل تمهيداً لوضع تشريع جديد للمحاكم الأهلية التي
أزعم الشاورها من يومئذ . ولما كان التشريع للمصريين يقتضي
التوافق بين أحكام القانون المختلط الجديد الذي أخذ عن القانون
الفرنسي وبين أحكام الشريعة الإسلامية التي كان عليها القضاء إلى
يومئذ ، فقد اشتغل قدرى باشا بهذه المقارنات ، فوضع كتاباً لم ينشر
بعد وما تزال نسخته المخطوطة في دار السكتب المصرية عن (تطبيق
ما وجد في القانون المدني - الفرنسي - موافقاً لذهب أبي حنيفة).
و جاء في مقدمته أنه (بيان المسائل الشرعية التي وجدت في القانون
المدنى مناسبة وموافقة لذهب الأمام الأعظم أبي حنيفة النعمان)

هذه الترجمة للقانون العقوبات الفرنسي ولقوانين المحاكم المختلطة
و هذه البحوث المتصلة في المقارنات بين أحكام الشرع والقانون
المدنى الفرنسي مضافة إلى ميله الأصيل ، جعل من قدرى باشا فقيها في
القانون . ولقد نقل من رياسته قلم ترجمة الخارجية مستشاراً بمحكمة
الاستئناف المختلطة ، وظل في منصبه هذا إلى أن عين وزيراً للحقانية في
أول عهد المغفور له محمد توفيق باشا ، ثم استقال مع الوزارة وعاد
بعد ذلك وزيراً للمعارف ، ثم انتقل وزيراً للحقانية من جديد .
و عمل في منصبه هذا على وضع القوانين للمحاكم الأهلية التي أريد
الشاورها ، و اشتراك بنفسه في وضع القانون المدني وقانون تحقيق

الجنابات والقانون التجارى . وفيما كان لا يزال ماظراً للحقانية صدرت لائحة ترتيب المحاكم الاهلية ، ثم أحيل إلى المعاش ، وصدرت القوانين التي اشتغل في وضعها أيام كان خفرى باشا ناظراً للحقانية . كان طبيعياً إذاً أن ينصرف قدرى باشا في الشطر الثاني من حياته عن الاشتغال بما شغل به في الشطر الأول - من ترجمة ونحو وصرف - إلى العمل في القانون والتشريع . وكان قدرى باشا من طراز الذين يتوفرون بكل قوتهم على العمل ولا يملونه . ولذلك وجه كل همه إلى تcenين مذهب أبي حنيفة بوضع الكتب الثلاثة التي ما يزال اسمه مقروراً بها : مرشد الحيران في المعاملات ، والأحكام الشرعية في الأحوال الشخصية ، وقانون العدل والانصاف في القضاء على مشكلات الأوقاف . وقد ظلت هذه الكتب كلها مخطوططة إلى حين وفاته في ٢٠ فبراير سنة ١٨٨٦ ولم تطبع إلا بعد الوفاة بست سنوات طولية . وهي مع ذلك التي خلدت ذكره وما تزال سبب مجده ، هي هذا الجهد العظيم الذي لم يضططع به من رجال الشرع الإسلامي أحد فاضططع هو به وأدأه على خير وجوهه . واقتران اسمه بها دليل على إنها أثر خالد حقاً .

فلقد كان في أعماله الأخرى ما يكفي ليجعل منه واحداً من رجالات مصر وفي مقدمتهم . كان يكفي اقتران اسمه بلائحة ترتيب المحاكم الاهلية وصدورها . وكان يكفي أنه تقلد الوزارة ثلاثة مرات في حياته . وكانت تكفي كتبه الأخرى . لكن مناصب الحكومة واقتران الذكر بقانون من القوانين أو عمل عام ناب فيه صاحب الذكر عن الحكومة لا يخلد اسم صاحب المنصب إلا على أنه اسم

لاإ كثراً، اسم من هذه الاسماء التي قد تصل الى المناصب بالرياء أو الخديعة أو غير هذين من الاسباب الكثيرة والضئيلة التي يعتبرها بعض الناس حلية لهم وسلماً يوتون به درجات الحياة، اسم مكون من حروف هجائة لا من اعمال جليلة، اسم جف على لفائص الحياة يلاشيهما الموت ولا نصيب لهم من خير يبقى على الحياة أثره. فأمام هذه الكتب الثلاثة التي لم تظهر الا بعد موتها فقد أعادت اسمه الى الحياة متألقاً شديداً الاشراق سقطت من حوله حياة المادة وضعيتها وبيقيت له حياة الروح المتصلة بالكون من أزله الى أبدده.

ويقول الذين عرفاً قدرى باشا أيام حياته انه مع إكتباته على العمل أشد الاكتاب لم يكن من المتوجهين للحياة العابسين في وجهها، بل كان ظريفاً غاية الظرف، وكان يتقن الضرب على العود، وكان لا يأبى ان يجلس من اخوانه خريجي مدرسة الالسن في حفلة طرب يسمعهم من أنقام عوده ما يهون على النفس أعباء العمل. وانك لتجد أولاً وآخراً الذين وهبتهم الطبيعة من قدرتها ما يجعلهم قوة عاملة ذات أثر خالد في العالم اخرص الناس على أن ينالوا من جوانب الطبيعة الباسمة حظاً يعينهم على أداء الواجب العظيم الذي فرض الوجود عليهم أداءه،

والذى يقتضيهم من الجهد ما ينوعون به لو لا هذا الحظ القليل.

وما كان لاحدأن يأخذهم بذلك، وهو، أيا كان لونه، ليس الارياضة لنفسهم وأعصابهم أن يبهظها الجهد أو يأقى عليها الملل. وإذا بهحظ الجهد قوى الاخذ اذا الذين يقيمون العالم وحضارته فقد آن للملائين الذين يعيشون في كنف موهاب هؤلاء وينعمون بعملهم أن تتحطم سعادتهم وأن تهدم حضارتهم.

وكان من قسوة القدر على قدرى باشا أن كف إصره وأن انطفأ نور عينيه، وكانتا قبل ذلك ذواتي جمال وحدة. وقد سافر إلى النساء أملا في معالجة نفسه من هذا المرض، ولم يمنعه عدم نجاحه في هذا من متابعة عمله الذي أخرج للناس في تقويم الفقه الشرعى كتبه الثلاثة. وتوفي، فأحدثت وفاته فراغا في عالم النهضة القومية. ولتكن هذه النهضة كانت حين وفاته في منحدر أدى بها إلى وقوف تيار النشاط العظيم الذى قام به هو وزملاؤه. فمن قبل سنة ١٨٨٦ كانت مصر قد أصيّبت في مطامعها في الحوية بضررها لا تقل قسوة عما أصيّبت به على أثر انتصارات محمد على باشا على تركيا. وكانت أوربا هي صاحبة الضربة الأولى وصاحبة الضربة الثانية.

ولن تزال كتب قدرى باشا الثلاثة عنوان مجد لا يقل عظمة عن قانون نابليون. ولئن ينس الناس من حياة قدرى باشا كل شيء فإن ينسوا هذه الكتب الثلاثة وهي كافية لتقديم مجد رجال لامجد رجال واحد.

- ۱۹ -

اطرس باشا غالى



لهمك إن طلبت مثلاً أعلىَ بينَ بلاد العالم لشعبٍ وديعٍ هادئٍ
لاترى خيراً من مصر محققةً لهذا المثلِ. ثم لعلك ان طلبت مثلاً أعلىَ
لشعبٍ طموحٍ لا تقتتاً أحشاؤه تضطربُ بأسباب الثورة على الحاضرِ
تطلعاً إلى السُّكال والى العظمة والجُهد، لاترى خيراً من شعبٍ مصرٍ
محققاً لهذا المثلِ. فقلْ أنْ عرفت مصر وسائل العنف في السعي إلى
أغراضها. ولم يقعْ أنْ ذات مصر واستكانت وينسٍت من تحقيقِ
هذه الأغراضِ. ولهذا الظاهر من التناقض في صورة الحياة المصريةِ
أثرٌ كبيرٌ في قدر رجال مصر والآخرين بها لتحقيقِ مطامعها . فهـى
أبداً في نضالٍ مع أممٍ غيرها ت يريد قهرها وأذلاها . وهـى أبداً لاتنزلُ
لـقاهرٍ وإن كانت ظروفها وكان تاريخها قد أجهـأها إلى ستر ثورتها
المـائمة تحت ظاهر من المـدوء والـسـكينة . ولذلك كانـ حـتمـاً بـحـكمـ
هـذه الـظـروفـ أنـ يـنـشـأـ فـيـهاـ الرـجـلـ الـمـحرـكـ لـالـعـوـاـطـفـ يـسـتـهـضـبـهاـ وـلـلـهـمـمـ
يـحـفـزـهـاـ ،ـ وـلـنـشـاطـ الـجـاهـيـرـ يـدـفعـهـ إـلـىـ الغـايـةـ السـامـيـةـ الـتـيـ تـطـعـمـ مصرـ
بـحـقـ فـيـهاـ ،ـ وـأـنـ يـنـشـأـ إـلـىـ جـانـبـ هـذـاـ الرـجـلـ رـجـلـ آـخـرـ هوـ السـيـاسـيـ
الـذـىـ يـعـملـ لـتـلـافـ الـاصـطـدامـ بـيـنـ اـنـدـفـاعـاتـ الشـعـبـ وـبـيـنـ القـوـىـ الغـالـبـةـ
فـيـ مـصـرـ اـصـطـدـاماـ عـبـزـ الـكـلـ حـتـىـ الـيـوـمـ عنـ تـقـدـيرـ نـتـائـجـهـ :ـ أـهـوـ يـنـتهـىـ
إـلـىـ تـحـطـمـ قـوـةـ الـغـالـيـنـ وـقـيـامـ مـصـرـ إـلـىـ جـانـبـهـ قـوـيـةـ الـيدـ كـاـنـهـاـ
قـوـيـةـ النـفـسـ ،ـ أـمـ هـوـ يـنـتهـىـ إـلـىـ تـحـطـمـ أـمـلـ النـفـسـ الـمـصـرـيـةـ فـيـ بـلـوغـ
الـمـكـانـةـ الـتـيـ تـطـعـمـ فـيـهـاـ ؟ـ وـاـذـ تـحـطـمـ أـمـلـ أـمـةـ فـتـرـتـ أـجيـالـ بـعـدـ أـجيـالـ

عن بعثه واستعادته، حتى يكون ظرف جديد يعين على هذا البعث
ويدفع إلى نفس الأمة الأمل حارقاً ويا ينبعش به قلبه شم يندفع
ثورة قوية تخلع النير وتحطم القيود.

وكان هذان الرجالان ، رجل الدعوة إلى المثل الأعلى ورجل
السياسة والسلم ، خصمين في أكثر الظروف. وكانت الجماهير بطبيعتها
نصيرة أبداً للمثل الأعلى لأنَّه غذاؤها في الحياة بل هو حيَاة بالذات.
أما السياسي الذي يزن القوى ويضاها ويعمل للوصول إلى خير
ما يمكن أن تصل إليه بلاده فالحوادث اللاحقة هي التي تحكم عليه
أوله. ولقد كان بطرس باشا غالى سياسياً، وكان من أكثر المصريين
اتصالاً بحوادث عصره من ناحيتها السياسية . فلنجعل للحوادث
وحدها الحكم عليه ، ولتكن كلمة التاريخ كلمة حق وإنصاف .

ولد بطرس غالى بالقاهرة في ١٢ مايو سنة ١٨٤٦ وتلقى دراسته
الأولى في مدرسة حارة السقاين التي أنشأها الانبا كيرلس الرابع
الملقب عند الاقباط بأبي الاصلاح . وبعد ثمان سنوات أمضاهاف
هذه المدرسة انتقل إلى مدرسة مصطفى فاضل باشا، وكان له من الصلة بها
أن والده غالى بك نيروز كان يشتغل في دائرة مصطفى فاضل . فلما
تخرج منها اشتغل مدرساً بمدرسة حارة السقاين وظل مع ذلك يتلقى
علوم الترجمة في مدرسة الترجمة التي أنشأها المرحوم رفاعة باشا
وكان في أثناء دراسته مثلاً للذكاء ولقوة الذاكرة المقطعة
الظاهر : كان يكفيه أن يقرأ ما يدرس له مرتين أو ثلاث مرات
ليستظره استظهراً تماماً . ويسرت له قوة ذاكرته العلم باللغات

المختلفة . فقد أتقن العربية والفرنسية والتركية والفارسية . وهاتان اللغتان الاخيرتان أتقنهما على أحد تجار خان الخليلي ، اذ كان يتلقى عليه مقابل دفع (شبرقته) له . ثم انه تعلم اللغة القبطية بعد الثلاثين من سنّه لمناسبة تدل ، الى جانب قوه الذاكرة ، على قوّة في الارادة امتاز بها . ذلك انه سافر الى انكلترا فقابلها أحد العلماء العارفين باللغة القبطية . ولما علم انه قبطي كلّه بها فلم يحبه ، ولكنّه لم يلبث بعد ان عاد الى مصر أن أكب على دراستها . فلم تمض ستة أشهر حتى كتب لصاحب العالم الانكليزي خطاباً بها .

وأعاشه في الحياة الى جانب ذكائه وقرة ذاكرته ومضاء ارادته صحّة متينة كان يدل عليها طول قامته وعضله المفتول ؛ كما كان بريق عينيه بريقاً عجيناً يدل على ذكائه وحياته . لذلك لم يكدر يتخطى أوليات الشباب حتى عرفه ولو الامر يومئذ وعهدوا إليه بأعمال ذات خطر ومسؤولية . فقد دخل في مسابقة حين كان مدرساً بمدرسة حارة السقاين انتقل بها الى وظيفة كاتب مجلس تجارت الاسكندرية الذي حلّت المحكمة المختططة بعد ذلك محله . وجعل يرتقي من وظيفته هذه حتى صار رئيس مجلس الذي حكم سنة ١٨٧٣ في قضية ضد مصلحة أحد المحسوين على اسم اعميل باشا المفتش . واذ كان مجلس التجار تابعاً لناظرة الداخلية ، فقد أوصل المفتش الامر الى ناظرها شريف باشا فأبلغه أن بطرس غالى كان صاحب اليد في اصدار ذلك الحكم الجائر . فدعى الناظر بطرس اليه فأعجبته مناقشته كما أعجب بمعروفة اللغات ، ولذلك نقله من عملة وعينه رئيس الكتاب ناظرة الحقانية التي كلف شريف باشائها استعداداً للتطبيق نظام الاصلاح القضائي الجديد

وكان سنة ١٨٧٤ سنة نشاط كبير في الحقانية بسبب التحضير لإنشاء المحاكم المختلطة. وكان المغفور له محمد قدرى باشا مشتغلًا بترجمة قوانين هذه المحاكم إلى اللغة العربية. فاضم اليه بطرس وعنى واياه بتعريف التشريع الذي ما زال أكثره ساريا في مصر إلى الوقت الحاضر.

وأتاح له الاشتغال في التحضير للمحاكم المختلطة التعرف إلى رئيس النظار نوبار باشا، فكان اتصاله بهذا أثر كبير في تكوينه السياسي. ومما فتىء هذا الاتصال بينهما وثيقاً مستمراً داعياً إلى ثقة نوبار بباشكاتب الحقانية، حتى كان هو أول من اختاره ليكون ناظراً للخارجية في وزارته التي ألقها سنة ١٨٩٥ بعد أن اختاره رياض باشا قبل ذلك ومنذ سنة ١٨٩٣ ليكون ناظراً للمالية.

ويرجع اختيار رياض باشا أيام لوزارة المالية، إلى سبب خاص: ذلك أنه لما انتمت الحكومة المصرية من إنشاء المحاكم المختلطة في سنة ١٨٧٥ كانت على أبواب الصancery المالية التي جرتها إليها الاستدانتة الفادحة منذ أول حكم المغفور له اسماعيل باشا في سنة ١٨٦٣. ففي سنة ١٨٧٦ صدر القانون بتأليف صندوق الدين وتعيين المرافقين الماليين. لكن هذا القانون لم يخفف من وطأة الديون شيئاً ولم يرفع من الضغط على دافعي الضرائب وارهاقهم بأقصى وسائل الارهاق وأبعدها عن كل معانى الإنسانية، ثم استيلاء صندوق الدين على كل ما كان يحصل، حتى اضطرت الحكومة إلى عدم دفع مرتبات الموظفين بما جعل أحد الانكليز الموظفين فيما يومئذ يكتب في مذكراته أنه قضى يومين لم يدخل فيه طعام لاعواذه إلى كل ما يسلبه رمقه.

وإذ كان الدائنون الاجانب مع ذلك مصرین على اقتضاء مصر كل
التعهدات ولی نعمتها، فقد انتهوا الى الاتفاق على تشکيل لجنة للفحص
ثم لتصفيه ديون مصر . وعین ریاض باشا نائباً عن الحكومة الامصرية
في اللجنة المذكورة وعین بطرس بك غالى السكرتير العام لنظرارة
الحقانية مساعدأ له . ثم عین ریاض رئيساً للجنة، وعهد الى بطرس بالنيابة
عن الحكومة . وفي ذلك الظرف الدقيق اضطر الى أن يدرس من
مباحث اللجنة ومن الشؤون المالية ما مكنته من أن يضع تقريراً عن
نظام الضرائب في مصر كان بعد ذلك مرجعاً ينقل عنه وحجة يعتمد
عليها .

ولما انتهت الحوادث التي تلى تقرير لجنة المالية الى اقصاء المغفور
الله اسماعيل باشا عن العرش خلفه توفيق فيه كانت الحكومة قد
بدأت تفك في الغاء المجالس القضائية القديمة وفي انشاء نظام قضائي
جديد هو النظام القائم الان . واذ كان بطرس من عملوا في التشريع
للقضاء المحتلظ فكان طبيعياً أن يكون على رأس الذين يعملون للتشريع
القضاء الاهلي . لذلك عين في سنة ١٨٨١ وكيلاً للحقانية وألقى عليه
عبد تنفيذ النظام القضائي الجديد .

والى يومئذ كانت مناصب الحكم في أعمال الدولة لا يایها الا
المسلمون . فأما الاقباط ف كانوا يلون وظائف انجاز أعمال الحكومة .
فكانوا المنصب الكتبية وما اليها مفتوحة وحدها أمامهم . فأما
القضاء وادارة الاعمال العامة ف كانت وقفاً على أبناء الأغلبية الدينية
في البلاد . ويسيطر تفسير هذا التقسيم في ذلك الظرف الذي كان الحكم
فيه للاتراك والذى كان الحاكم فيه تابعاً لدولة الخلافة الاسلامية .

على أن بطرس غالى رأى في ذلك منافاة لروح الزمن ، وبخاصة في عصر بدأت مصر تنقل فيه النظم الاوربية بانشاء المحاكم المختلطة . وبخضوع المصريين لقضاء جماعة لا يختلفون عنهم في الدين فقط ، بل في الجنسية وفي اللغة أيضا . لهذا عين حين وجوده في الحقانية عددا من الأقباط في وظائف القضاء . ولعل هذا التصرف وما إليه من مثله هو مادعا جماعة من الذين خاصموه أثناء حياته لاتهامه بالتحيز لاهل طائفته .

وبقى في وكالة الحقانية حتى عين ناظراً للمالية في سنة ١٨٩٣ . على أن أحوال مصر السياسية تغيرت في هذه الفترة تغيراً كبيراً كان لبطرس بك غالى رأى فيه معروف . ذلك انه لما حادثت الثورة العرابية وانتهت الى تدخل الانكليز وهزيمة العرابيين في التل الكبير وتشاورهم في الامر كان من رأى بطرس أن يتتمسوا عفو الخديو وأن يرکنوا اليه . وقد أوفده القوم يومئذ بعريضة الى الخديو توقيق فيها هذا المعنى . ومع أنه لم يظهر له عمل مباشر في الثورة ، مما يدل على أنه لم يكن من المطمعين فيها ، فان التجاء العرابيين اليه يدل على انه كان موضع عنایة الخديو توقيق وعطشه كما يدل من جهة أخرى على أن ذكاءه وفطنته السياسية كانا موضع تقدير الذين التجأوا اليه ورأوا فيه خير واسطة للتتفاهم بينهم وبين الحكم الذي ثاروا عليه .

وحياة بطرس باشا كانت كلها بعد ذلك حياة وساطة سياسية لم تكن الحاجة اليها ماسة أيام حكم توقيق لما كان يبنه وبين الانكليز من تمام التفاهم ، ولكلها كانت ضرورية وكانت

منتجة أيام حكم الخديو عباس الذى كان يثق به ويطمئن اليه في
حل الخلاف الكبير المدوث بينه وبين لورد كرومر قنصل
إنجلترا الجنرال في مصر .

ولعل الحوادث التي صرت بمصر وشهادها بطرس باشا قبل أن
يصل إلى منصب الوزارة كانت ذات أثر كبير في توجيه سياسته
وزيراً . فقد حضر نائباً عن الحكومة المصرية في لجنة التصفيية
ووقف على ميل الاجانب وعلى أطعامهم ، ثم رأى جهود اسماعيل
للوقوف في وجه تدخلهم باسم مصلحة الدائنين تنتهي إلى اقصائه
عن العرش . ثم أنه حضر وشهد تطورات الثورة العرابية وما
آلت اليه من تشتيت الشوارد والحكم على زعمائهم بالاعدام
واستبدال ذلك الحكم بالنفي . وكان بعد ذلك على اتصال بالمؤتمرات
والمحادثات التي حصلت بقصد جلاء الجيش الانجليزي عن مصر ،
وما كان من وعد الانجليز في ذلك وتدخلهم برغم هذه الوعود
في الشؤون المصرية ووضعهم يدهم على الادارة المصرية . ثم كانت
بعد ذلك حادثة فرمان الخديو عباس ووقف انجلترا في وجه تركيا
باسم الدفاع عن حقوق مصر ، كما كانت حادثة الحدود واعتذار
الخديو عباس رغم اعتراضه بذلك الشاب للقائد كتشنر . وبطرس باشا
كان على ذيائه وقوه ارادته وسعة حيلته رجل سلم وعمل مطمئن ،
 مما جعله بعيداً عن الحركة العرابية الى أن جاء دور السلم والوساطة ،
كما كان من طائفه الاقلية الدينية في وقت كانت النعرة الدينية فيه متعابه
على كل نعرة أخرى . أضف إلى هذا كله اتصاله بنوبار وتكوين عقله
تكتوينياً سياسياً لا تكتوين زعامة شعبية مقصور غرضها على الدعاوة

للمثل الاعلى . هذه الظروف كلها تقسر لك سياسته ونـ بعد ارتقاءه الى منصب وزارة المالية في سنة ١٨٩٣ وانتقاله الى وزارة الخارجية بعد ذلك وبقاءه فيها حتى مع تقلده رئاسة الوزارة في سنة ١٩٠٨ برغم ماجرت به سنة الوزارات المصرية من تقلد رئيس الوزراء لوزارة الداخلية .

وتشهد ظروف تقلده الوزارة بأنه كان ، برغم ماقدمنا من هيله للسلم واللحيلة ، موضع ثقة الخديو الشاب عباس . فلقد كانت أول وزارة اختير بطرس لها وزارة خفرى باشا التي أحلها عباس محل وزارة مصطفى فهمي في سنة ١٨٩٣ رغم لورد كرومر والتي لم تبق لذلك في مناصب الحكم غير يوم واحد . ثم انه حل بعد ذلك محل ثقته أن رأى فيه خير وسيط يحل المشكلات التي كانت كثيرة الحدوث بينه وبين لورد كرومر . على أن عمله في وزارة المالية وفي وزارة الخارجية ظل عمل موظف أمين كفاء حريص على بقاء المساواة في المعاملة بين المصريين جميعاً من غير تمييز بينهم بسبب الجنس أو الدين من غير أن يبرز ليكون محلاً لحكم التاريخ حتى كانت سنة ١٨٩٩ اذ وقع مع انكلترا في ١٩ يناير اتفاقية السودان التي كانت بعض ما حاربه به خصوصه في حياته وبعض ما اتخذه قاتله ابراهيم ناصف الورداي حجة له في اقدماته على ارتكاب جريمة القتل السياسي ، والتي مازال موضع حنق المصريين عليها ونظر كثيرين منهم لها على أنها عمل من أعمال خيانة الوطن .

وقد نعجب اذ نرى بطرس غالى ولم يكن في سنة ١٨٩٩ الا ناظراً للخارجية متضامناً مع سائر زملائه النظار في سياسة الدولة

العامة يحمل وحده وزر هذه الاتفاقية . فاختلاء السودان في سنة ١٨٨٤ بأمر إنكلترا واستعادة فتحه بعد ذلك بأمر إنكلترا أيضاً لم يكن من عمل نظارة الخارجية وحدها ، بل كان من عمل مجلس النظار كله . وقد كان بطرس وزير المالية في سنة ١٨٩٣ مع نخري ثم مع رياض باشا الذي ألف الوزارة حلا للاشكال بين الخديوي ولورد كروم ، ثم انتقل وزيرًا للخارجية لما شكل نobar الوزارة في سنة ١٨٩٤ وظل في منصبه بعد استقالة نobar وحين شكل مصطفى باشا فهمي الوزارة من جديد . وفي هذه الائتمان كانت الاعمال لاستعادة السودان جارية حتى سقطت الخرطوم وأمدرمان وتمت استعادة السودان في سنة ١٨٩٨ ، فهل يسأل وزير الخارجية وحده إذا هو وقع بعد ذلك اتفاقاً باسم حكومته !

كان خصومه يقولون : ولكن المُسْئُولُ الْأَوَّلُ والمباشر ، فهو الذي وقع باسمه وبيته . ثم انه فضلاً عن ذلك كان أكثر من كل الوزراء الذين معه مسؤولية لأنك كان أقوام وأذكاء وأقدرهم . بل لعله هو الذي أقنعهم بالقبول . وماذا تريد من مصطفى فهمي والذين كانوا معه وهم كانوا مثل الاستثناء والضعف . لقد كان بطرس هو العنصر القوى الوحيدة فيهم ، فهو لذلك مسؤول دونهم . ثم لنقل الحق أيضاً أن بطرس قبطي وكان للأقباط زعيماً ، والأقباط كانوا يومئذ وفي نظر دعاة الحرثة الوطنية المصرية متهمن بحملة الانكليز على بلادهم . فبطرس إذن قد وقع اتفاقية السودان مملاً للأنكليز وتقريرطاً في حقوق بلاده .

كذلك كان يقول خصوم بطرس . وكذلك مايزال البعض

يحسب، ولو في دخيلة نفسه، حرصاً على وحدة الامة المقدسة في الايام الحاضرة . لكن للتاريخ حكما آخر تجحب المجاهرة به احراقاً للحق . فمصر يوم اتفاقية السودان كانت تابعة لتركيا وكانت لا تستطيع أن تمضى اتفاقاً تنتقص به من سلطتها أو سيادتها على أي جزء من الاجزاء التابعة لها أو التي كانت تابعة لها وعادت اليها . وقد أبلغت الحكومة المصرية حكومة الباب العالى ان انكلترا تريد أن تتفق مع مصر اتفاقاً مقصوراً على ادارة السودان ، لتتمكن بذلك من الغاء الامتيازات الاجنبية فيه ولتنسطيط عما تبيحه لها الشركه فى الادارة أن تسهر على أملاكها الافريقية من غير أن يضر ذلك حقوق مصر في السودان باعتباره ولاية منها تابعة لحكم الخديوى . وبالرغم من تكرار الكتابة في هذا الامر الى الحكومة التركية فانها لم تحرك ساكناً ولم تشر بنصيحة ولم تظهر مجرد استعدادها لتعضيد مصر اذا هي وقفت بازاء انكلترا موفقاً خاصاً . وعلى ذلك أفت مصر نفسها وحيدة بازاء انكلترا مضطورة أن تحل معها هذه العقدة بعد أن كانت فرنسا قد ضربت قبيل ذلك في حادثة فاشودة بما قطع كل رجاء في مداخلتها كما انقطع الرجاء في مداخلة غيرها من الدول . مع هذا لم يخرج اتفاق يناير سنة ١٨٩٦ السودان من ولاية صاحب عرش مصر ولم يجعل انكلترا شريكه فيه . بل هو اتفاق متصور على ادارة السودان بنصه وبنفسه لورد كرومتر وغير لورد كرومتر من كتاب الانكليز وسا هم إيه وبتنفيذ فى المدة التي تلت عقدته . فقد كان حكم السودان العام ، رغم أنه

حاكم عسكري في بلاد خاضعة للحكم العرفي ، لا ينفذ أمرًا ولا ينشر قانونا إلا بعد أن يبعث به إلى مجلس النظار في القاهرة وبعد أن يرد المجلس إليه الأمر أو القانون أو الارادة السنوية كما هي أو منقحة بما تراه الوزارة المصرية . فإذا كان قد حدث بعد ذلك أن استفادت السلطة الانكليزية من ضعف الوزارات التي وليت الحكم في مصر وأن مدت ادعاءاتها إلى أكثر مما يبيحه اتفاق سنة ١٨٩٩ ، فليس الذي وقع الاتفاق المذكور في الظروف التي أشرنا إليها مسؤولا عن شيء منها .

هذا هو حكم التاريخ ، وهو الحق في أمر اتفاقية السودان وموقف بطرس باشا غالى منها . على أن ما تلاها من نشاط الحركة الوطنية بزعامة المغفور له مصطفى باشا كامل ومن طعمها على المعاهدة والخاذلها ذريعة للهجوم والمقاومة، جعل الوزارة المصرية أشد ميلا للتفاهم مع الانكليز تفاها يخفف من حدة هذه الحرفة إن كان ذلك مستطاعا ، ويقف في وجه طغيانها على النظام وعلى الأمان إذا خشي منها عليها ، ويعطى لاتفاقية السودان معنى غير معناها الأول ينحول انكلترا فيه سلطانا لم يتقصد الاتفاق تخويلها إياه

وكانت الحركة الوطنية في ذلك الحين متوجهة إلى الاستفادة من خلاف الدول ، معتمدة على ما يمكن أن يكون لتدخل فرنسا من قيمة في تحرير مصر . وبرغم فشل مرشان عند فاشودة وانسحابه وتضييع سلطان فرنسا لهذا السبب ، فقد ظلت أنظار مصطفى كامل ورجال الحزب الوطني متوجهة صوب باريس حتى سنة ١٩٠٤ حين عقد الاتفاق الودي الذي التزمت به فرنسا ألا تعترض انكلترا في

مصر . فلما تم هذا الاتفاق شعر المصريون جميعاً بازدياد مركز انكلترا في مصر قوة . وكان النظار المصريون المتصلون بالسلطة الانكليزية في مصر بسبب صراحتهم أكثر من غيرهم شعوراً بهذه القوة بل أيعانها واستعداداً لتقديم القراءين لتمهيد ثورة اثر غضبها . وفي هذه الظروف يبلغ سلطان انكلترا في مصر أو ج قوته . فلم يكن أمر حماه بالغة ما بلغت تقواهاته، يبرم أو ينقض من غير أقرارهم عن طريق موظفيهم الذين احتلوا كل مناصب الدولة الرئيسية والذين كانت لهم الكلمة النافذة على الموظفين المصريين . وبهذا يمكن منصب الموظف الانكليزي صغيراً ومنصب الموظف المصري كبيراً . كان تغرايف جرانفل ، الذي يقرأن مشورة انكلترا واجبة الاتباع في مصر ، لا يقف عند ما تبديه الدولة المحتلة عن طريق عميدها من رأى ، بل يمتد إلى المستشار الانكليزي وإلى مفتش الداخلية وإلى ملاحظ الطرق وإلى كل انكليزي أياً كانت مكانته . وبازاء هذا السلطان الانكليزي النافذ في مصر كانت الحركة الوطنية المصرية تتعمد وتفوي ، وكانت الثورة النفسية لشعب مصر الوادع الذي لا يقبل هذه ولا خضوعاً قد ملأت النفوس حتى كادت تفliest عنها . وكمظهر لهذا التناقض بين السلطة الحاكمة من ناحية و الشعب المصري من ناحية أخرى ، وقعت حادثة دنشواي باصطدام جماعة من الضباط الانكليز الذين كانوا يصيدون الحمام أثناء ذهابهم من القاهرة إلى الإسكندرية مع أهل قرية دنشواي في يونيو سنة ١٩٠٦ اصطداماً انتهي إلى موت الكابتن بول الانكليزي ، وإلى تأليف المحكمة المخصوصة برئاسة بطرس بشاش غالى الذي كان وزير الاتصالات بالنيابة

لغياب وزير الحقانية بالاجازة ، والى صدور وتنفيذ ذلك الحكم
الجائـر الذى يعتبر مثلا من أمثلة البربرية والوحشية فى أشد عصور
الإنسانية ظلاما ، والذى أعدم بوجبه أربعة وجبله ثمانية أمام
أنظار أهل دنشواى المفجوعين فى أهـلهم وعائـلـيـهـم ، عـداـ الـذـينـ زـجـواـ
منـهـمـ فـيـ غـيـابـاتـ السـجـونـ .

وكانت رياـسـةـ بـطـرسـ باـشاـ لـالـمـحـكـمةـ الـخـصـوصـةـ الـتـىـ أـصـدرـتـ
الـحـكـمـ مـاـ أـخـذـ بـهـ وـلـيمـ عـلـيـهـ ، وـلـكـنـ دـوـنـ لـوـمـهـ وـمـؤـاخـذـتـهـ عـلـىـ اـتـقـاـقـيـةـ
الـسـوـدـانـ . وـيـقـولـ المـدـافـعـونـ عـنـ بـطـرسـ باـشاـ فـيـ هـذـهـ الـمـسـأـلـةـ : إـنـ
حـكـمـ دـنـشـواـىـ كـانـ حـكـماـ سـيـاسـيـاـ أـمـلـتـهـ السـلـطـةـ الـأـنـكـلـيـزـيـةـ الـتـىـ أـمـرـتـ
بـارـسـالـ ماـشـانـقـ قـبـلـ أـنـ يـصـدرـ ، إـذـ أـرـادـتـ أـنـ تـضـرـبـ مـثـلـ صـرـامـةـ
وـحـزـمـ — وـاـنـهـ كـانـ صـادـرـاـ مـنـ أـغـلـبـيـةـ اـنـكـلـيـزـيـةـ لـأـعـضـاءـ الـحـكـمـةـ ، فـلـمـ
يـكـنـ لـلـأـقـلـيـةـ الـمـوـجـودـةـ فـيـهـاـ بـحـكـمـ الـقـانـونـ ، بـدـ منـ اـقـرـارـهـ وـتـوـقـيعـهـ .
وبـطـرسـ باـشاـ كـانـ رـئـيـسـاـ لـالـمـحـكـمـةـ الـخـصـوصـةـ بـحـكـمـ الـقـانـونـ الـذـىـ أـلـقـىـ
بـهـذـهـ الرـئـاسـةـ إـلـىـ ذـاـلـكـ الـحـقـانـيـةـ ، فـكـانـ لـاـمـفـرـلـهـ مـنـ الـخـصـوـعـ لـرـأـيـ
أـغـلـبـيـةـ الـهـيـئـةـ الـتـىـ يـرـأـسـهـاـ وـالـتـىـ أـصـدرـتـ ذـلـكـ الـحـكـمـ الـجـائـرـ .

وهـذاـ الدـفـاعـ عـلـىـ ظـاهـرـهـ مـنـ الـوـجـاهـةـ لـاـيـهـضـ حـجـةـ لـتـبـيرـ عـملـ
بـطـرسـ باـشاـ إـلـاـ إـذـ كـانـ هوـ مـعـتـقـداـ عـدـالـةـ الـحـكـمـ الـذـىـ أـصـدرـهـ
وـإـنـسـانـيـةـ تـنـفـيـدـهـ مـاـ لـاـيـصـدـقـ عـلـىـ رـجـلـ كـانـ لـهـ مـنـ عـوـاطـفـ الـخـيـرـ
وـإـنـسـانـيـةـ مـاـ كـانـ لـبـطـرسـ . ذـلـكـ بـأـنـ الـرـجـلـ الـذـىـ يـجـلسـ رـئـيـسـاـلـهـيـئـةـ
قـضـائـيـةـ يـعـهـدـ إـلـيـهـ بـتـطـبـيقـ الـعـدـلـ يـجـبـ أـلـاـ يـخـضـعـ لـصـوتـ غـيرـ صـوتـ
الـضـمـيرـ وـلـاـعـتـبـارـ غـيرـ اـعـتـبـارـ الـعـدـلـ الـجـرـدـ مـنـ كـلـ هـوـىـ . فـأـمـاـ انـ
كـانـ الـحـكـمـ الـخـصـوصـةـ لـيـسـتـ هـيـئـةـ قـضـائـيـةـ وـكـانـ صـورـةـ هـزـلـيـةـ

العدل لا وجود له وإنما على السياسة أحكامه ، فكان حريراً برجل له ما كان بطرس من دهاء ومقدرة أن يصل من تحقيق الجور إلى أقل حدوده وألا يرضي هذا التنفيذ الذي بعث إلى قلب الإنسانية جماء رعشه اشمئزاز وتقزز واستفز في نفسها أشد المقت لعمل لا يمكن أن يكون من الإنسانية المهدبة ولا من الإنسانية المتوجهة في شيء.

وكان حكم دنشواي خاتمة سيئة حياة سياسي ماهر هو لورد كرومر . فعلى آثر صدوره وتنفيذته بدأت مكارة إنكلترا ، كأمة مدنية ونظام ، تترزع في نفوس المصريين على اختلاف طبقاتهم . وبعد أن كانت الوكالة البريطانية معتبرة ملحاً العدالة في مصر وكانت ألوان العرائض والشكوى ترفع إليها طلباً للنصفة من ظلم الحكم بل من حيف التضليل ، تراجع المتظاهرون مذعورين أن فتحت أشباح المشانق والمشنوقين والجحالت والجلودين عيونهم على منظر بشع يتردد الإنسان في التحديق به بل يولي منه فراراً ويتنلى منه رعباً . لذلك لم تطق الوزارة الانجليزية أن تؤيد عميدتها في مصر فاضطرت إلى الاستقالة في مارس سنة ١٩٠٧ كما اضطرت الحكومة البريطانية إلى الموافقة على العفو ، بفضل جهاد مصطفى كامل ، عن مسجوني الدنشوايين .

وخلف السير الدون غورست لورد كرومر كعميد لإنكلترا في مصر ، وأراد أن يسلك فيها سياسة أخرى هي التقرب إلى الخديو الذي كان مؤيداً حتى يومئذ لمصطفى كامل وللحركة الوطنية . وربما خيل إلى السير غورست يومئذ أن الخديو كان قديراً على توجيه حركة مصطفى كامل وجهاً آخرى مادام هو الذي خلق هذه الحركة وغذاها ، متناسياً أن الزعيم الشعبي متربط دائماً بالمبادئ والمثل

العليما التي نادى بها ولو اعتقد عدم امكان تنفيذها . أو لعله قصد
بسياسة الاتفاق مع الخديو الى ماحدث بعدها من انفصال الحزب
الوطني عن عباس الثاني ووقفه منه موقف العداوة الصريحة في
بعض الظروف . على كل حال فقد خلقت سياسة جورست في مصر
جواً جديداً وجهت الانظار الى نواح لم تكن تتوجه اليها طويلاً من قبل .
ومما اتجهت اليه الانظار يومئذ اتجاهها خاصاً المطالبة بالدستور
وتقرير سيادة الامة . فقد تألف حزب الامة وجعلت الجريدة ،
وعلى رأسها الاستاذ لطفي بك السيد ، يدعون الى الدستور
بكل مالديهم من قوة ، ويدللون على فساد نظام مجلس الشورى فساداً
بيناً . واذ كان حزب الامة يعبر عن الرأي المعقول في مصر فلم يكن
في مقدور الحكومة ألا تستمع له في هذا شأن . لكن وزارة
مصطفى فهمي كانت قد ساخت في دست الاحكام ثلاثة عشرة سنة
منفذة لسياسة خاصة لا تتفق مع السياسة الجديدة التي جاء بها السير
جورست ولا تتفق مع تطور المطامع المصرية . لذلك استقالت في
سنة ١٩٠٨ وعهد الخديو الى بطرس باشا بتشكيل الوزارة الجديدة .
فشكراً ، وكانت فاتحة أعماله فيها أن قررت الحكومة علمية جلسات
مجلس الشورى وحضور الوزارة المجلس لمناقشة أعماله وللاجابة على
ما يوجه اليها من الاسئلة ، وأن عينت البرنس حسين كامل (انغفور
له السلطان حسين) رئيساً للمجلس زيادة لهيبة واحترامه . لكن
هذه الخطوة الاولى كانت دون ما تطلب الامة بمراحل ، فلم تتحقق
لذلك من المطالبة بالدستور بل زادتها قوة واندفعاً . واذ كان بطرس

يعيل الى تحقيق هذا المطلب فقد سعى سعيه لدى معتمد انكلترا
كي يضع نظاماً يقرب مصر من الحكم الذاتي.

وكان السير جورست لما يصل امام الرأي العام البريطاني الى شىء
من مثل مكانة لورد كرومر . لذلك رأى أن حركة الصحافة حركة
عنيفة في مصر قد تحول بينه وبين موافقة الحكومة البريطانية على
طلب الحكومة المصرية ، كما رأى أن حالة الأمان ليست كذلك
مما يؤيده عند وزارة خارجيته . لذلك طلب أن يبعث قانون الصحافة
الذى سن في سنة ١٨٨٢ م بمحاجة للادارة حق اندار الصحف و تعطيلها ،
وأن يوضع قانون النفي الادارى لارهاب الجناده . والظاهر أن حرص
بطرس باشا على تحقيق خطوة جديدة في سبيل الحكم الذاتي كان
شديداً . وكثيراً ما يلجأ السياسي الشديد الحرص على تحقيق غاية
معينة يراها ذات خطر في حياة أمتها ، إلى قبول أشياء لا يقبلها غيره ،
مادام يعتقد أنها أشياء مؤقتة قليلاً ضررها إلى جانب الغاية العظيمة
المرجوة . لذلك جاء بطرس بازاء رفض زميليه سعد زغلول و محمد
سعید لطلب المعتمد البريطاني بعث قانون الصحافة واصدار قانون
النفي الادارى ، إلى وساطة الخديو عندهما ، فأوفد سمه من رجاله من
أقنة وها . فصدر القانون في سنة ١٩٠٩ فأحدث صدورها في البلاد
دوايا هائلة ووقفت الصحافة ووقف الرأي العام يندبان الخريطة المضاءعة
بغير ثمن الإرضاء المطامع الانكليزية في حرصها على قهر مصر وإذلاها .
وامتدت هذه الضجة إلى تناول مسألة كانت تتناول الوقت بعد
الوقت في الصحف ، ولكنها تنوالت هذه المرة بحدة لم يسبق لها
نظير . ذلك أن الصحافة القبطية في مصر كانت تدافع دائماً عن

بطرس باشا وكانت تهم الصحافة الاسلامية بالتعصب الدينى في
مهاجمتها إياه . وكانت النعرة الدينية قوية في ذلك الحين كما قدمنا .
لذلك كانت العصبية الدينية تدفع الكتاب إلى حدود غير معقولة
ولكن لها نظائرها حتى في أشد الامم تحضراً . وأقرب هذه النظائر
مالا يزال يbedo الوقت بعد الوقت في صحافة الامم المسيحية خاصا
باليهود . وكانت بعض الصحف الاسلامية من جانبها لاتنى عن
مجاراة الصحف القبطية في هذا المضمار وسبقها . على أن ما وقفنا
عليه من مصادر مختلفة أ كثیرها اسلامي يقنعوا بان بطرس باشا لم يكن
معتصبا لا بناء طائفته تعصب عداوة لا غلبية البلاد الدينية . يؤيد ذلك أنه
لما أنشأ الجمعية الخيرية القبطية في سنة ١٨٨١ كان من بين الخطباء يوم
افتتاحها الاستاذ الشیخ محمد عبدہ والشیخ محمد النجار وعبد الله نديم
وغيرهم، وأنه كان بعد ذلك عظيم الوفاء لكثیر من أصدقائه المسلمين متصل
البر بكثیر من العائلات الاسلامية . من ذلك أنه كان أول من ذهب
إلى المغفور له الشیخ سليم البشري على أثر إقالة الخديو إياه من
مشيخة الازهر يسأله ما ياستطيع أن يقدمه له من خدمة . وكان
كثیراً ما يقضى حاجات أفراد من المسلمين من غير أن تكون له بهم
كثير معرفة، كما كان يصلهم صلة أبناء طائفته . على أن بره بأبناء
طائفته أمر طبيعي . وخیر ما سمعنا عنه في هذا أنه كان يتواافق للاقباط
جميعاً كما كان يتواافق لا أفراد من المسلمين ، وأنه هو الذي صنع
الطايفة القبطية فرفعها من مستوى الضعف الذي كانت فيه إلى مستوى
أسى منه بكثیر . فالجمعيات القبطية والمدارس القبطية والمنشآت الخيرية
القطبية يرجع الفضل في أكثرها له وهو أكثر مما يرجع لأى شخص آخر ،

كما يرجع الفضل له في فتح أبواب الوظائف العامة للأقباط أسوة بآنسلين واستمر يتابع، بالاتفاق مع المعتمد الانكليزي، وضع النظام الجديد للهيئة النيابية المصرية . وقبل أن يتممه كي يصدر القانون به طلبت شركة قناة السويس من الحكومة المصرية مد امتيازها أربعين سنة أخرى بعد سنة ١٨٦٩ . وكانت الحكومة المصرية يومئذ مستعدة لقبول الطلب . لكن حركة الرأى العام المصرى في هذا الشأن كانت قوية اضطر أولو الامر معها أن يعرضوا المشروع على الجمعية العمومية المصرية وأن يعدوا بأن يكون رأيها فيه قطعياً . وفي أثناء نظر هذا المشروع بالجمعية وفي فرصة هياج الرأى العام وقرر أعضاءه ، فكر إبراهيم ناصف الورداوى في قتل بطرس معتبراً إياه خائناً لوطنه بسبب توقيعه اتفاقية السودان ورياسته محكمة دنشواى . روت « الجريدة » الصادرة في ٢١ فبراير سنة ١٩٩٠ وصفاً للحادث مانصه « بقى — الباشا — كذلك حتى كان يوم أمس نزل كعادته في جماعة من الموظفين، وعند باب نظارة الحقانية صاحبهم وانصرف ومعه النائب العمومى ، فما كاد يضع رجله على سلم عربته حتى أصابه الرصاص المتعاقب من غدارة شاب لعب الشباب برأسه وتصور ماتصور وتجسمت في نفسه الخيلات فلم ترue هيبة الوزير ولا وقار الشيخ ولا خوف العقاب ... أصابه الرصاص في العنق والكتف والبطن خفر صريعاً فحمل إلى أودة ناطر الحقانية ثم إلى مستشفى الدكتور ملتون . وهناك زاره سمو الخديو وجميع الوزراء والسير جورست والامراء وأعيان الامة وكلهم يرجون له الشفاء العاجل . فلما كانت الساعة السادسة عملت له عملية جراحية لاخراج

الرصاصة الباقيَة، ولكن كانت مع الاسف قد نسفت الامعاء وتقدَّت
في صدر المعدة) ».

وقضى رحمه الله في الساعة الثامنة والرابع من صبيحة يوم
٢١ فبراير سنة ١٩١٠ ودفن في اليوم التالي في مسجد مهيب. واليوم
ترقد رفاته في كنيسته القائمة على جانب شارع الملكة نازلى الذي
كان من قبل شارع عباس.

* * *

هذه حياة بطرس غالى. والقارئ يرى كيف كانت حياة سياسى
نظم ومحسن كبير. ولئن كان قد أخطأ التقدير في بعض مواقفه فهو
لم يتصدى يوماً إلى غير خدمة بلاده. ولذلك كانت آخر كلامه فاه بها
حين احتضاره « يعلم الله أنى ما أردت غير الخير لبلادى ». وكانت
كلمة حق.

- ١٣٩ -

مصطفى كامل باشا



فِي عَصْرِ يَوْمٍ ١٠ فِي بَرَيْرِ سَنَةِ ١٩٠٨ بَيْنَا أَنَا جَالِسٌ مَعَ أَحَدٍ
زَمَلَائِي طَلَبَةُ مَدْرَسَةِ الْحُقُوقِ الْخَدِيوِيَّةِ إِذْ دَرَكَ عَلَى بَابِ دَارِهِ، جَازَ
الطَّرِيقُ أَمَامَنَا رَجُلٌ مُتَطَطِّجُواً، فَلَمَّا كَانَ بازِ ائْنَا وَقَفَ بِرَهْةِ خَيَانَاهُ وَقَالَ
«أَبْقَى اللَّهُ حَيَاةَكُمْ، الْبَاشَا تَوْفِي» . وَكَانَ زَمِيلِي مِنَ الْمُتَشَيْعِينَ
لِلْحَزْبِ الْوَطَنِيِّ الْمُتَطَرِّفِينَ فِي تَشِيعِهِمْ . فَلَمَّا سَمِعْ قَوْلَ النَّاعِي سَأَلَهُ فِي
لَهْفَةٍ: مَصْطَفِيُّ الْبَاشَا كَامِلٌ؟ فَأَجَابَهُ الرَّجُلُ مُنْتَلِقاً جَوَادِهِ: نَعَمْ!
وَلَكُمْ طَوْلُ الْبَقَاءِ! وَتَرَكْنَا أَنَا وَصَاحِبِي وَاجِينَ مِنْ هُولِ الْخَبْرِ وَانْ
كَانَ حَدِيثُ الْبَاشَا وَمَرْضُهُ وَالْخُوفُ عَلَى حَيَاةِهِ بَعْضُ مَا تَوَاتَرَ فِي
ذَلِكَ الْحَيْنِ . وَبَعْدَ زَمْنٍ قَصِيرٍ تَرَكَ صَاحِبِي عَائِدًا إِلَى بَيْتِي فَأَلْفَيْتُ
عَلَى النَّاسِ فِي الشَّوَّارِعِ وَالْمَوَانِيَّتِ مِنْ أَثْرِ الْذَّهُولِ مَا يَدِلُّ عَلَى أَنَّ
نَعِيَ الْبَاشَا إِلَيْهِمْ مِنْ قَلْوَبِهِمْ أَدْقَى اُوتَارِ الْحَزْنِ وَالْأَلْمِ . وَلَمْ
يَسْتَقِرِّي الْمَقَامُ فِي الْبَيْتِ دَقَّاقٌ حَتَّى جَاءَ زَمِيلِي يَسْتَغْنِيُ الْخَبْرَ وَيَعْلَمُ
إِلَى مَا قَرَرَتْهُ الْمَدَارِسُ كَلْهَا مِنَ الْاِشْتِراكِ فِي تَشِيعِ جَنَازَةِ الزَّعِيمِ
الْعَظِيمِ: وَكَانَ يَوْمُ ١١ فِي بَرَيْرِ يَوْمَ حَدَادِ عَامِ فِي الْعَاصِمَةِ وَفِي مَصْرِ
كَلْهَا لَمْ يَشْغُلَ النَّاسُ شَيْءٌ فِيهِ غَيْرُ جَنَازَةِ الزَّعِيمِ الشَّابِ . فَالْمَدَارِسُ
وَالْهَمَيَّاتُ الْوَطَنِيَّةُ كَلْهَا كَانَتْ تَفَكَّرُ فِي تَنظِيمِ الْجَنَازَةِ، وَأَهْلُ الرِّيفِ
كَانُوا يَفْدُونَ مِنْ أَطْرَافِ الْبَلَادِ لِلْاِشْتِراكِ فِيهَا، وَالْحَكُومَةُ كَانَتْ
تَعْدُ وَسَائِلَ الْأَمْنِ وَالنَّظَامِ، وَالْأَجَانِبُ الَّذِينَ رَأَوْا الْعَاصِمَةَ جَلَّتْ
بِالسُّوَادِ وَرَأَوْا أَهْلَهَا اتَّشِحُوا بِاسْبَابِ الْحَدَادِ كَانُوا يَفْكِرُونَ فِي الْعُمَقِ

الذى تغلغل اليه الروح الوطنى من سويدة نفس هذه الامة . فلما
سار النعش يحمله على أعناقهم أهل دنشواى الدين حكمت المحكمة
الخصوصية عليهم ، ثم كان لسعى مصطفى كامل أكبر الأثر فى العفو
عنهم ، صمت كل مافى المدينة ولم يبق بها أثر لحياة الا فى مشهد وداع
هذا الراحل وحلاة الابد . قال المرحوم قاسم أمين فى كلامه الذى
نشرت بعد موته ، أى بعد شهرين اثنين من وفاة مصطفى كامل ،

« ١١ فبراير سنة ١٩٠٨ يوم الاحتفال بجنازة مصطفى كامل
هي المرة الثانية التى رأيت فيها قابصر يتحقق : المرة الاولى كانت
يوم تنفيذ حكم دنشواى »

« رأيت عند كل شخص تقابلت معه قلبان مجروداً وزوراً مخنوقاً
ودهشة عصبية بادية في الأيدي وفي الأصوات . كان الحزن على جميع
الوجوه . حزن ساكن مستسلم للقوه مختلط بشىء من الدهشة والذهول .
ترى الناس يتكلمون بصوت خافت وعبارات متقطعة وهيبة باستهانة .
منظارهم يشبه منظر قوم مجتمعين في دار ميت كانوا كانت أرواح
المشروعين تطوف في كل مكان من المدينة . »

« ولكن هذا الاخاء في الشعور بقى مكتوماً في النفوس
لم يجد سبيلاً يخرج منه فلم يبرز بروزاً واضحاً حتى يراه كل انسان
« أما في يوم الاحتفال بجنازة صاحب (اللواء) فقد ظهر ذلك
الشعور ساطعاً في قوة جماله وانفجار بفرقة هائلة سمع دويها في العاصمه
ووصل صدى دويها الى جميع أنحاء القطر . »

« هذا الاحساس الجديده ، هذا المولد الحديث الذى خرج
من أحشاء الامة ، من دمها وأعصابها ، هو الامل الذى يقتسم في

ووجوهنا البائسة ، هو الشعاع الذى يرسل حرارته الى قلوبنا
الجامدة الباردة ، هو المستقبل . »

ولم يكن عجيباً أن يكتب قاسم أمين على هدوء نفسه وحسن
تقديره هذا الذى كتب . ولم يكن عجيباً أن يحرك مصر من أقصاها
إلى أقصاها الحزن لوفاة الرعيم الشاب . فقد جاء به القدر في فترة
من فترات حياة هذا الوطن حين بدأت الامة تنسى مظالم الماضي
أيام حكم اسماعيل وتشعر بشدة وطأة الحكم البريطاني الذي قام على
أساس من المصالح المادية وحدها فلم يعن إلا بتحجيف الأعباء المالية
ناسياً كل اعتبار غير تحفيض الضرائب . ليخيم على البلاد الجهل ،
وليكن الغرض الاسمي من التعليم خلق الموظفين ، وليسعد المصريون
بافتقارهم للحكام البريطاني ولضعفهم أمامه ، فذلك كله هيئ ويسير
مادامت الضرائب المرهقة ومادامت السخرة والكرbag قد ألغت .
في هذه الفترة التي شعرت فيها الامة بال الحاجة المعنوية للعزّة القومية
وللكرامة الإنسانية ، بعث القدر مصطفى بشيراً بهذه الحاجات السامية

رفيق الصوت على الكلمة طلق اللسان قوى الجنان حلوا الأسلوب
يتغنى لقومه بما تشعر به نقوسهم في غور أعماقها . فكان طبيعياً
أن يلتف الظماء حول هذا الورد من الكلام السائع يسمعون عنده
الأشيد التي تطرب لها نقوسهم وتهتز لها قلوبهم ويجد فيها شعورهم
الحبس منفذًا ومتنفسًا . ليكن ذلك الكلام غير ذي غناء . ولتبقى
القوة الغاشمة قديرة على أن تسير في طريقها ، ترفع من شأن المصالح
المادية على حساب حاجات النفس المعنوية ، فلن يغير ذلك من قيمة
هذا الذى يشدو باسم الوطن ومن محبة الناس له شيئاً . ألاست

ترى الى الجموع الحافل من العمال يسد جوعه على مائدة ذي
المال جزاء كدحه طول نهاره ، ثم ما يليث أَنْ يذهب لسماع
الشاعر أو المغني يووي عنده ظراً روحه . وهو لهذا المغني
أشد حباً منه مَنْ يمسك عليه حياته المادية ، لأنَّه يحس في الشاعر معنى
الإنسانية ، في حين أنَّ سعيه لدى المالك وجزاءه من سعيه لا يحيزه إلا البقاء
على حياته الحيوانية البحتة .

لذلك كان جزاء وفاقاً أَنْ تحزن مصر على شاعر الوطنية العظيم
مصطفى كامل . وكان حقاً أَنْ يرى قاسم أمين في وحدة هذا الشعور
بفقد الرعيم الشاب الذي كرس حياته ليتغنى باسم مصر وليعلن أنه
وهبها حياته ، ووحدة في الأمل الكبير مستقبل زاهر .

ولد مصطفى كامل في سنة ١٨٧٤ ، أَى في السنة التي ولد فيها
الخديو عباس حلمي الثاني . وقد بعث به أبوه على افندي محمد ،
وكان مهندساً ، إلى مدرسة أم عباس ، فمدرسة القرية الابتدائية التي
حيث تلقى دراسته الأولى . وفي أواخر أيامه بهما توفي أبوه وكفله
أخوه حسين واصف باشا وزير الأشغال السابق ، وبعد الدراسة
الابتدائية التحق بالمدرسة التجريبية — الخديوية الآن — لتلقي
دراساته الثانوية . وفيها ظهر جريئاً أكثر من زملائه جميعاً . وجرأته
هي التي جعلته دون سائر أخوانه يذهب بنفسه في مقابل ناظر المعارف
إذ ذاك على باشا مبارك يشكوا له حيف نظام الامتحان حيث أدى
إلى رسوبي ورسوب زملائه . وإعجاب ناظر المعارف بهذه الجرأة هو الذي
جعله يعدل عن هذا النظام فيؤدي ذلك إلى نجاح مصطفى وكثيرين

من زملائه . فلما أتم دراسته الثانوية التحق بمدرسة الحقوق الخديوية في العام المدرسي ١٨٩١ - ١٨٩٢ . ومن ذلك التاريخ بدأ ينشر رسائل ومقالات في الصحف ، كما أنه ، على ما يذكر مؤرخوه ومن بينهم مدام جوليت آدم ، ارتبط بالخديو السابق عباس حلمي الثاني برابطة كانت ذات أثر مباشر في حياته كلها بعد ذلك .

ولم يكن مصطفى كامل هو وحده الشاب الذي اصططفاه عباس الثاني ، ولا كان هو وحده الذي أثر ارتباطه به في حياته ، بل لقد اصططفى كثيرين من الشبان يومئذ من توسم فيهم الذكاء والقدام فعاونهم في دراساتهم وعاونهم بعد الدراسة ، وأوفدتهم إلى أوروبا لمهام سياسية يؤيد بها سلطنته ومرآزه كحاكم مصر الشرعي . وسياسة عباس الثاني كانت معارضة تمام المعارضه لسياسة الانكليز ، فانه مالبث أن تبوأ عرش أبيه وجده حتى وجد نداء له في قصر الدوباره لورد كرومر معتمد بريطانيا صاحبة السلطان الفعلى في البلاد بقوتها وبجيشه احتلالها وباستئثارها بكل المناصب الرئيسية في الحكومة . وهو ما لبث أن تبوأ عرش أبيه وجده وأراد مدفوعاً بمحاس الشباب ، أن يظهر للناس حقه وسلطانه حتى صدمته حادثة الحدود التي اضطر معها إلى الاعتذار عن ملاحظته التي أبداهها القائد كتشنر حين استعراضه الجيش المصري بالسودان . وكان المتقدمون في السن من المصريين الذين شهدوا عهد إسماعيل ومظالم حكومته والذين رأوا حركة عربي واشتراكوا أو لم يشاركون فيها وشهدوا فشلها وتغلب سلطان الانكليز عليها وعلى فرنسا وانفرادهم دونها بأمر مصر - كان هؤلاء المتقدمون في السن أشد الناس ترددًا في مشاركة الامير

الشاب الذي اعملى العرش في الثامنة عشرة من عمره مطامعه ومطامحه ، فلم يكن يستطيع الاعتماد إلا على الذين لم يهون عليهم ظلم اسماعيل استبداد الانكليز والذين لم يضعف الجهل أو البخل في نقوتهم معنى الحرية . وكان مصطفى كامل بين هؤلاء بل كان في مقدمتهم . فقد جمع الى الشباب إقداماً جاوز حدود الاقدام مع نشاط عصبي لا يهدأ الا أن يهد المرض صاحبه ويقعده عن حركته الدائمة . وهو لذلك لم يقنع بدراسة الحقوق وبكتابه المقالات في الصحف بل أنشأ ، وما زال في أول سني طلب الحقوق ، مجلة أسمها المدرسة ، صدر أول أعدادها في ١٨ فبراير سنة ١٨٩٢ وجعل نفسه بها زعيماً لملائه في الدرس يلقى عليهم النصائح ويرشدهم الى الواجب ويقدم لهم مختلف المعلومات التي يرشده اليها اختياره الشاب في بطون الكتب والنشرات الدورية .

وفي يونيو سنة ١٨٩٢ سافر لأول مرة الى فرنسا ليؤدي امتحان الحقوق الاول بباريس . وكان طبيعياً أن تأخذ بلبه الغضن حضارة الغرب وأن تؤثر في أعصابه الحساسة مظاهر الحياة الناشطة والحرية المنظمة . وكانت فرنسا يومئذ قد أفاقت من كبوة سنة ١٨٧٠ حين قهرتها المانيا ، وجعلت تذكر في حسرة تدليها من الصف الاول في تصريف سياسة العالم . والشعور بالألم يحفز الاحساس ويفيض على اللسان الشكوى والطموح والأمل . وقد تأثر مصطفى كامل بهذا أيضاً كما تأثر بالحضارة وبالحرية . وزاده تأثراً معاودته الحضور لامتحان في سنة ١٨٩٤ بباريس وفي أواخر هذه السنة بتولوز

حيث نال إجازة الحقوق . ومن ذلك اليوم انفتحت أمام خياله آفاق الحياة وأمالها . ولعل مما وجه هذه الآمال وجهتها ملأق له مصادفة من مقابلة الكولونيل بارنج شقيق لورد كروم و مدار بينهما من حديث كان له في العالم السياسي قيمة و تربت عليه حملة صحافية اشتراك هو فيها خالفه الفوز فالتجهيز إليه الانظار فرسم له القدر بذلك طريق حياته . فقد نشرت جريدة الاهرام الصادرة في ٢٨ يناير سنة ١٨٩٥ مقالاً عنوانه (حديث ذو شأن) موقعاً بامتناع مصطفى كامل حاوياً لما دار بين المصري الشاب وبين الصنابطي الانجليزي من مناقشة أفضى فيها الصنابطي بكل سياسة انجلترا في مصر مؤيدة بالدليل القاطع الذي لا يعرف حجة ولا جدلاً: دليل قوة السيف والمدفع . وأفضى فيها المصري الشاب بمحنة مصر وحقها وباعتمادها لنيل هذا الحق على قوله في ذاته وعلى أوربا التي لا تنظر إلى انكلترا في وادي النيل بعين مطمئنة . ولعل هذه الفقرة من أقوال مصطفى كامل تفسر نشاطه في المستقبل وتفسر السياسة التي اتبعها إلى سنة ١٩٠٤ حين تم الاتفاق الودي بين فرنسا وإنكلترا اتفاقاً اضفت إليه المانيا والمنسا . قال مصطفى : « إن مصر أن تأمل من أوربا نجاتها وخلاصها ولنا أوربا بأسرها التي تنادي بها صوالحها العدة بأن تنصرنا نصرة لتلك الصوالح التي سعيتم من يوم احتلالكم البلاد في تقويض أركانها »

وبما كان للخديو ومصطفى كامل ولكثير من المصريين يومئذ العذر في اعتمادهم على أوربا والتجاءهم إلى بعض دولها لمناؤة البعض الآخر . فلم تكن سياسة أوربا الاستعمارية قد استقرت يومئذ

على أساس ارتضته دولها الكبرى واطمأنت معه كل واحدة منها إلى أنها فاتت من الغنيمة الحظ الذي يكفيها والتي تكفي قوتها للدفاع عنه ولاستغلاله وامتصاص دمه . بل كانت المفاوضات مازال على أشدّها بين إنكلترا وفرنسا . وكانت إنجلترا الناشئة متطلعة إلى مثل الإمبراطورية البريطانية . وكانت الناسانة نظر إلى ملطيها بعين الوجل إذ رأه يتجفف . وكانت سياسة الباب العالى في الاستثناء قائمة على الاستفادة من هذه المفاوضات الدولية . فلم لا تقوم سياسة مصر على هذه القاعدة أيضًا؟ ولم لا تستفيد مصر من تعلم هذه الدول جمعيًّا إليها للتخلص منها جمعيًّا وتصل إلى نوع من الحيدة يكفل لها ولو الاستقلال الداخلي الواسع النطاق الذي وصل إليه اسماعيل باشا؟

والواقع أن فرنسا كانت مازال دامية الجرح لفشل سياستها بمصر بعد إjectionها عن الاشتراك مع إنجلترا في اتدخل المسلح سنة ١٨٨٣ . وكان المهاشد لأن هذه الضربة كانت في حكم القاضية على ماناته في وادي النيل من تفوذه منذ حملة نانليون في سنة ١٨٩٧ ، ومنذ اصطدامها بـ محمد علي وسعید من بعده، ومن تقييمها بـ بحفر قناة السويس ونشر الثقلية الفرنسية في بلاد الفراعنة . وزاد الجرح إيلاماً أن الفشل لم يقف عند مصر بل تناول تفوذه فرنسا في الشرق الأقصى بسبب تغلب إنكلترا عليها في الهند وفي غير الهند من الممتلكات . وقد أراد الخديو مستترًا وأراد مصطفى كامل أن يستفيد من هذه السياسة غاية الاستفادة . وكانت القاعدة التي رسمت أن تطالب الدول الأوروبية إنكلترا بتنفيذ وعدها بالجلاء عن مصر

وأن تدفع الدول الاوربية الى هذه المطالبة ببيان ما تقوم به انكلترا في وادى النيل من أعمال تدل على قصدها البقاء فيه . وكان حديث مصطفى كامل مع كابتن بارنج خطوة أولى وخطوة قوية في هذا السبيل . ولم تخض على هذه الخطوة أساييع حتى استصدرت انكلترا من الحكومة المصرية ذكر يتو بتأليف محكمة مخصوصة تحاكم المصريين الذين يعتقدون على جنود جيش الاحتلال أو ضباطه . وانهز مصطفى كامل الفرصة للاستفادة من هذا الحادث أيضاً . ثم كان أن جاء مسيو دونكل عضو مجلس النواب الفرنسي الى مصر في ٢١ مارس سنة ١٨٩٥ . ولعله وحده ، بل لعل الحكومة الفرنسية . وحدها لم يكونوا كل السبب في حضوره . وقد استقبله مصطفى كامل بالاسكندرية وظل معه يصل بينه وبين المصريين منطبقات المختلفة حتى غادر مصر عائداً الى بلاده في ١٣ ابريل من ذلك العام . وفي يوم ١١ ابريل أولم دونكل للصحفيين بالاسكندرية وخطبهم فرد عليه مصطفى كامل شاكراً اياه وشاكراً فرنسا متظراً منها معونة مصر وتأييدها .

ويذكر المرحوم على بك فهمي كامل في السيرة التي وضعها لاخيه أنه بعد أيام من ذلك وساعة سفر على مع الاورطة البيادة الأولى أسر إليه مصطفى بأنه مسافر الى باريس . وقد دهش على لهذا السفر المفاجيء على غير ميعاد وبلا سبب . وربما دهش له بسبب آخر حين ذكر له أخوه أن سفره إنما تدعو إليه « المسألة المصرية » . لما يقتضيه هذا السفر وهذه المسألة والدعوة لها من طائل النفقه . وسافر مصطفى الى باريس . والحق أنه قام بالدعوة فيها بطريقة

تدل على مهارة لاتصال نفرد ، بل تدبرها جماعة ، وعلى نشاط لا يُؤثر
كثيرون ، فذكر بدياً أنه موافق من قبل الحزب الوطني المصري .
والحزب الوطني على ما يُعرفه نحن اليوم وعلى ماقبله مصطفى كامل
في سنة ١٩٠٨ لم يكن له وجود في سنة ١٨٩٥ . لكن الحزب
الوطني هو الاسم الذي كان يطلق على العرابيين . واذن فهو يذكر
الفراسين بهذا الحزب الذي تغلب عليه الانكليز وحدهم حين تحرى
الفرنسيون عن وادي النيل .

ثم أنه جعل أساس دعوته فضلاً عن ذلالة لسانه لوحه فنية
بدئعة لم يذكر لنا مؤرخوه من الذي نقشها ومن الذي أمر بنقشها
وتمثل هذه اللوحة فرنسا واقفة في قوس نصر قام على نصب رفيع
يجرى النيل من تحته ، وقد قامت مصر على شاطئه مقيدة يحرسها
جندي بريطاني ، وتقدم جماعة من المصريين إلى فرنسا يستجدونها
لتفك أسر وطنهم . ونقش على اللوحة بالعربية وبالفرنسية هذه
الآيات :

أفرنسا يامن رفعت البلايا عن شعوب هزها ذكرراك
انصرى مصر ان مصر بسوء واحفظى النيل من مهاوى الاهلاك
وانشرى في الورى الحقائق حتى تجتلى الخير امة هواك
ومن هذه اللوحة طبعت الوف وزعت في أنحاء العالم ونشرت
في كل صحيفه بعد أن قدمها مصطفى كامل بعريضة الى رئيس مجلس
النواب الفرنسي نيابة عن المجلس . وما جاء في هذه العريضة قوله :
« جاءت الامة المصرية تستغيث بهذه الامة الكريمة — فرنسا —
التي حررت عدة من الامم ، فهل تجاب الى استغاثتها وتضرعها ؟ »

وهل الغرب أَنْ تُؤْيدُ بِهَذَا الْعَمَلِ الْجَلِيلِ مَكَانَتِهَا فِي الْعَالَمِ الْإِسْلَامِ؟
الْوَاقِعُ بِهَا؟ عَلَى أَنْ ذَكْرَ اسْمِ مَصْرُونَ مَا تَكُونُ حَرَةً مُسْتَقْلَةً
بِجَانِبِ الْأَمْمِ الْعَدِيدَةِ الَّتِي حَرَرْتُهَا فَرْنَسَا لَيْسَ بِالْفَخَارِ الْقَلِيلِ هَذَا
فَلْتَحْتِي فَرْنَسَا حَرَرةَ الْأَمْمِ».

كَانَ هَذَا الْعَمَلُ الَّذِي قَامَ بِهِ مَصْطَفِي كَاملُ نِيَابَةِ عَمَّا سَمِاهُ الْحَزْبُ
الْأَوْطَانِي ضِيَّةً كَبِيرَةً فِي الْعَالَمِ لَفَتَتِ الْأَنْظَارَ مِنْ كُلِّ صُوبٍ وَجَعَلَتِ
الصَّحَافَ فِي مُخْتَلِفِ الدُّولِ تَهْتَفُ بِاسْمِهِ، خَلَالَ الصَّحَافِ الْأَنْكَلِيزِيَّةِ
الَّتِي تَنَازَلَتْ هَذَا الْعَمَلُ بِالْتَّقْرِيرِ وَعِزَّتْهُ إِلَى مَقَامَاتٍ خَاصَّةٍ فِي مَصْرِ۔
وَشَدَّ هَذَا النِّجَاحُ الْأَوَّلُ مِنْ عَزِيمَةِ مَصْطَفِي كَاملٍ وَمَكَنَ لَهُ مِنْ
الاتِّصالِ بِكُبارِ السَّاسَةِ وَمَائِزَالِ فِي مُقْتَبِ شَبَابِهِ۔ وَزَادَهُ جِرَأَةً
وَأَقْدَامًا بِعْدَ إِلَيْهِ يَطْوِفُ عَوَادِمُ أُورَبَا يَتَحَدَّثُ فِيهَا إِلَى الصَّحْفَيْنِ
وَالسَّاسَةِ مَذْكُورًا أَيَّا هُمْ بِوَعْدَ انْكَلِتَرَا بِالْجَلَاءِ عَنْ مَصْرِ وَبِصَاحَبِ دُولَتِمْ
فِي أَنْ يَتَمَّ هَذَا الْجَلَاءُ۔ ثُمَّ عَادَ إِلَى بَارِيَسْ فَنَشَرَ فِيهَا رِسَالَةً عَنْ
أَخْطَارِ الْاِحْتِلَالِ الْأَنْكَلِيزِيِّ الْمَصْرِيِّ ۱٨٩٥ م. وَفِي ۱۳ نُوْفَمْبِرْ سَنَةِ
كَتَبَ إِلَى لُورِدِ سَالِسْبِرِيِّ رَدًّا عَلَى خَطَابِ كَانِ الْوَزِيرِ الْأَنْكَلِيزِيِّ
قَدْ تَقَاهَ فِي جَلْدِهِولِ عَنْ سِيَاسَةِ أُورَبَا نَحْوَ تُرْكِيَا۔ وَفِي خَطَابِهِ
دَافَعَ مَصْطَفِيُّ كَاملُ عَنِ الْمُسْلِمِينَ وَعَنِ دُولَةِ الْخَلَافَةِ۔ وَفِي ۳ يَنْيَاءِ
سَنَةِ ۱۸۹۶ كَتَبَ إِلَى الْمَسْتَرِ جَلَادِسْتُونِ يَطْلُبُ إِلَيْهِ، رَغْمَ وَجُودِهِ
بِعِيدًا عَنِ الْحَكْمِ، تَصْرِيحاً فِي شَلَانِ مَصْرُونَ فَلَاجِيَا جَلَادِسْتُونِ بِخَطَابٍ
وَرَدَتْ فِيهِ الْعَبَارَةُ الْمَأْثُورَةُ: «وَافِ زَمِنَ الْجَلَاءِ فِيمَا أَعْلَمُ مِنْذِ سَنِينِ»۔
وَعَادَ بَعْدَ ذَلِكَ إِلَى مَصْرُونَ حِيثُ أَقْامَ بِهَا حَتَّىْ أَغْسَطْسَ اذْشَدَ رَحْلَاهُ
إِلَى أُورَبَا مِنْ جَدِيدٍ۔ وَأَئْنَاءَ مَقَامِهِ بِصَرِّ أَلْقَى خَطَابَهُ الْأَوَّلَ.

بالاسكندرية كما كثُر المتصلون به من المصريين . وفي هذه الفترة أياضًا نشرت له جريدة الاكيلير الفرنسية التي تصدر بباريس حديثاً عن الحملة المصرية الانكليزية الى السودان معتبراً ايها وسيلة الى اطالة أمد الاحتلال الانكليزى اطالة لامْهَا ية لها . وفي هذه الفترة أيضاً اتصل علنا بالخديو اتصالاً زاد العلاقات بين لورد كروم وعباس توتو . ثم سافر في أول أغسطس الى باريس حيث استمر هناك في نشر الدعوة لمصر على أمل أن يحمل فرنسا وغيرها من دول أوروبا على التدخل لمصلحتها . وفي هذه المرة كان يذكر الخديو عباس وميوله نحو مصر وان « خطته هي انتظار الظروف ليستعد أحسن استعداد للوثوب والتزال لاسترداد حقوق البلاد المضومة » . ولم يغفل ذكر المسلمين والخليفة ، وبعد أن قام بنشر الدعوة في باريس سافر الى زرلين ومنها الى فيينا فالاستانة حيث وصلها في أواخر أكتوبر وقابل فيها جلاله السلطان . قال في كتاب له الى أخيه على فهمي كامل « وكان جلالاته ، كما أبلغني الباشئاتب ، يود الانعام على برتبة أو نيشان ولكنني أظهرت عدم رغبتي في شيء من ذلك حتى لا تروج بضاعة الاعداء ضدى ويهمنى أبناء الوطن العزيز بالعمل حبا في الظهور وفي مثل هذه الالقاب السكاذبة »

وكذلك جعل من أوربا ميدان نشاطه السياسي فكان يقضى فيها معظم شهور السنة متنقلًا بين عواصمها متوجهًا الى رجال الصحافة والسياسة فيه داعياً إياهم لистوفوا انكلترا وعدوها بجلاء عن مصر متوجهًا عن المصريين تارة وعن المسلمين طوراً، كل ذلك في لفحة أدنى الى الاعتدال وإن وصفها الانكليز بالتطريف . وقد

بقيت من أساليبه في الدعاية السياسية اذ ذاك تلغرافات الاحتجاج على ضرب الاسكندرية وغير ضرب الاسكندرية من الحوادث التي أدت الى الاحتلال البريطاني لمصر . لكن السياسة الانكليزية من جانبها كانت جادة في السعي لتحقيق ما أفضى به الكولونيل بارنج الى مصطفى كامل مما نشره في يناير سنة ١٨٩٥ . فكانت الجملة لاسترداد السودان واسترداده بالفعل وعقد اتفاقية ١٩ يناير سنة ١٨٩٩ وفتور الدول وفي مقدمتها فرنسا عن القيام بأى سعى جدى لمناواة انكلترا في مصر . ولكن ذلك لم يفت في عهد مصطفى كامل ولم يضعف من نشاطه واقدامه وإن يكن قد دعا أو دعا الذين يعمل معهم للتفكير في وسائل أخرى . وكان الاتجاء الى الباب العالى بعض هذه الوسائل .

ولعل التفكير في هذا الاتجاء كان من أثر انتصار الدولة العلية في الحرب البلقانية . وفي هذه الائتماء كثيرون تردد مصطفى كامل على الاستانة وازداد اعجاب السلطان عبد الحميد به فالنعم عليه في سنة ١٨٩٩ برتبة الملازم ثم برتبة الاولى ، وذلك في ظرف شهرين اثنين كما أنعم عليه برتبة الباشوية بعد ذلك بستين قلائل ولم يكن في مقدور تركيا أن تقاوم انكلترا في مصر أكثرا مما تقاومها أية دولة من الدول الاوربية . وهذه الظروف مجتمعة دعت مصطفى كامل والذين يعمل معهم ليراوا عقم سياسة الاقتدار على نشر الدنوة في أوربا وحدها والاعتماد على الدول لاجلاء انكلترا عن مصر ، ولذلك كروا في استنهاض الشعب المصرى نفسه بالتعليم وبدعوته لتقدير عزته القومية وكرامته الوطنية . وبهذه الفكرة

تأسست مدرسة مصطفى كامل في سنة ١٨٩٩ وصدرت جريدة اللواء في ٢ يناير سنة ١٩٠٠ . ومن ذلك الحين قامت سياسة مصطفى على أساس من توثيق عرى روابط مصر بتركيا باعتبارها الدولة المتبوعة من جهة والدولة الإسلامية القوية التي يمكن أن تتوجه الشعوب الإسلامية لها بالرجاء من جهة أخرى . أما فيما يتعلق بسائر الدول الأوروبية فقد ضعف رجاؤه فيها وان ظل مستمسكا منه بخيوط لعلها كانت بقيمة ذلك الامل القوى القديم الذى جعله يرفع صوته حالياً خمس سنوات تباعاً في عواصم أوروبا ، أو لعلها الحرص الطبيعي في الإنسان على ألا ينكر شيئاً من ماضيه . أما سياسته في استئناف الشعب المصري فكانت تقوم على غرس الكراهية في نفوس المصريين للأنكليز وحكمهم مصر وملء النفس المصرية بالإيمان بحق الوطن وبالتفاني في محبتة والخلاص له وبالاً ملداً ملداً في ثمرة السعي الصالح لقائده .

وبحسب مع ذلك كله ، ومع أن مصطفى كامل كان ذكياً جريئاً ، ومع أنه أمضى ما أمضى من السنين في أوروبا ، ومع إعجابه بالمدنية الوردية اعجاباً تكرر ذكره في كتبه ورسائله — عجيب مع ذلك أنه كان رجعياً في دعوه الاجتماعية . فلقد ظهر كتاب المرحوم قاسم أمين عن تحرير المرأة في سنة ١٨٩٩ . وكان منطقياً أن يلقى التأييد الحار من جريدة الرعيم الشاب أول ظهورها في يناير سنة ١٩٠٠ . لكن الأمر كان على تقدير ذلك . فقد كان اللواء خصماً لدوداً لقاسم أمين ولاً فكاره وكان ميداناً لاً شد المطاعن عليه . وظل اللواء كذلك في شأن الأصلاحات الاجتماعية كلها محافظاً بل رجعياً

مستمسكا بالقديم أشد الستمساك . ولئن جاز لنا أن نعمل خصوصاته
لقيام أمين بما لقيه قاسم من تحفهم المخديو له تحفهم حرم عاليه وهو
مستشار بمحكمة الاستئناف أن يدخل القصر فأن تعلييل رجعية
اللواء في الشؤون الاجتماعية قد يبدوا عسيراً إلا اذا كانت العلة
هي بعيتها التي دفعت الامير ورجاله للوقوف في وجه قاسم وأفكاره .
هذه العلة في رأينا هي تمليق الشعب فيما هو عزيز عليه من
عادات وأوهام لاستغلاله في الغايات السياسية التي يريد
الآمراء والملوك استغلاله فيها . وتلك هي علة تمايز الآمراء والملوك
والدعاة السياسيين لرجال الدين لأنهم حفظة هذه العادات والأوهام .
فلو أن عباساً أو لو أن مصطفى كامل عضد قاسماً في رأيه في تحرير
المرأة لأدى ذلك لنفور الشعب عنهم وتردد في اتباعهم . ولو أن
عباساً أو لو أن مصطفى كامل أراد أن يهز أوهام السواد في الناحية
التي تعرض الشيخ محمد عبد هزه الفتر الشعب كذلك وتردد . والمداعية
السياسي تاجر يزن الأمور . والحقائق بذاتها لا بقييمها الصحيحة
ولا بما تحتويه . وما دام غرس كراهية الاحتلال البريطاني في
نفوس المصريين وملء قلوبهم بالايقان الوطني يعوق سبيل الدعوة .
للاصلاح الاجتماعي فليكن الداعية السياسي ول يكن الامير محافظاً
بل رجعياً بل عدواً ظاهراً محارباً لـ كل فكرة حررة .

ونجحت دعوة مصطفى كامل أعظم نجاح . ذلك بأن نفوس
الشباب في مصر كانت متغطشة الى نغمة جديدة تحيي فيها الامل
بحياة عزيزة . وكانت هذه النغمة قد اختفت منذ الحوادث العرابية
إلى أن جاء مصطفى كامل . وبرغم وجود كثيرين ذوى مقدرة

لا تقل عن مقدرته وذوى تفكير اوضح من تفكيره ، فلم يكن أحد
منهم في اقدامه ولم تكن جماعة الشباب ملتبة في نفس التهابها في
نفسه . وعاون على نجاحه أسلوب جديد في الخطابة لم يكن مأولفًا
من قبل ، هو الاسلوب الوجданى الذى امتازت به خطابات الثورة
الفرنساوية . هذا الاسلوب المعتمد على الجمل الضخمة التي تندفع
بها الجاميع من غير روية عادة الى الغاية التي يريدها الزعماء .
« لا معنى للحياة مع اليأس ، ولا معنى لليأس مع الحياة »
« بلادى بلادى ، لك حبي وقوادى ، لك حيائى وجودى ، لك
دمى ونفسى ، لك عقلى ولسانى ، لك لي وجفانى ، فأنت أنت
الحياة ، ولا حياة إلا بك يا مصر » « لو انتقل قلبي من الشمال الى
اليمين ... الخ » بهذه الاسلوب الوجدانى وبقوته الخطابية النادرة المثال
وبحاطبته شعور الشبيبة وباستنهاضه همها وبأناشيده عن الوطن
ومحبته وارتقائه ، بذلك كله استطاع الزعيم الشاب ان ينهض باعباء
دعوه مؤيداً من الخديو عباس وأصدقائه بادىء الامر ، شاعرًا
بقوته بعد ذلك ، ميليا ارادته على الدين كانوا يملون من قبل عليه
ارادتهم ، مستثاراً بكل اصر وبكل رأى ، مطسعاً من كل أنصاره
واتباعه الذين لم يتسام واحد منهم ليتطلع الى مثل مكانته ، متقدما
دائماً الى الامام يتبعه شباب الامة كلها ، رافعاً بذلك علم النهضة
مردداً نشيد الامل في المجد والعظمة بصوت تهز له الافئدة وتحتفظ
له الجوائح فلا تعرف الخطأ ولا تأبه له ولا تشعر باقترابه بل بوقوعه
بازاء هذه الحركة الوطنية المتقدفة حرارة وایماناً لم يكن
لأنجاترا إلا ان تضاعف المجهود لبلوغ غايتها السياسية في مصر .

ولم يكن لورد كرومر مثاها في مصر يومئذ بالرجل الذي يستهان به . خارب هذه الحركة وطعنها من جانبين . إتهمها بالتعصب الإسلامي ليستثير أوربا المسيحية . واتهمها بالعداوة للجانب المؤلوب الدول في صف إنجلترا . ومايسرا ما تصدق الاذن الوربية كلمة التعصب الإسلامي وعداوة المسلمين المسلمين للجانب المسيحيين . لذلك اتفق مصطفى كامل كثيراً من جهوده في مصر وفي أوربا لنفي التهمتين ، وكان من ذلك أن أنشأ جريدين في مصر أحدهما فرنسيه والآخر انكليزية . على ان انكلترا لم تقف من مجدها دائمًا عند هذا الحد . بل واصلت المسعى السياسي حتى عقدت الاتفاق الودي مع فرنسا في ٨ يناير سنة ١٩٠٤ وبه حصلت على اطلاق يدها في مصر على ألا تغير نظام مصر السياسي . وأقرت ألمانيا والنمسا بهذا الاتفاق ، فأقرت الدول الثلاث بذلك معااهدة السودان التي عقدت في سنة ١٨٩٩ . وبهذا الاتفاق الودي أنهار ركن من أهم أدakan سياسة مصطفى كامل . بل أنهار مجده من منذ سنة ١٨٩٥ إلى سنة ١٩٠٠ حين كان كل عمله التجوال في عواصم أوربا لاستفزاز دولها كي يقتضوا انكلترا تنفيذ وعودها بالجلاء عن وادي النيل .

والواقع أنـ هذا الحادث صدم المصريـن يومئذ صدمة قوية . فرنسا هذه التي طالما علقت مصر عليها الأـ مـال ، فرنسـا التي رفعت البلـايا عن شعـوب تـهزـها ذـكرـاـها ، فـرـنسـا مـحرـرة الـأـمـمـ وـمـعـلنـة حقوق الـأـنسـانـ وـالـمنـادـيـةـ بـالـحـرـيـةـ وـالـأـخـاءـ وـالـمـساـوـةـ ، هـيـ التي تمـضـيـ الـاتـفاـقـ الـوـدـيـ تـؤـيدـ بـهـ سـيـاسـةـ الـاسـتـعـمارـ فـتـرـكـ انـكـلـتـراـ

طلاق يدها في مصر مقابل ترك انكلترا ايها تطلق يدها في مراكش !!
ياخبيه الا مل ! وأين إذن محل الرجاءة .

لكن «لامعنى للحياة مع اليأس ولا معنى لليأس مع الحياة» !
فلنجاهد ! واستمر مصطفى كامل في جهاده، وما زال له في دولة الخلافة
بعض الرباء وما زال دعوة الشعوب الاسلامية للالتفاف حول
دولة الخلافة كوسيلة لتحريرها محور دعوته . فلما كانت أوائل

سنة ١٩٠٦ حدث ما ززع من رجاء مصر في الدولة العلوية هي الأخرى .
ذلك لأن أعادت تركيا الخلاف الذي أحدثه حين تبوأ عباس عرش
آييه في سنة ١٨٩٢ بأن أرادت أن تخرب شبه جزيرة سيناء من الأراضي
المصرية ، فووقة انكلترا وأصرت على أن تكون حدود مصر هي المبينة
في الفرمان الذي أصدره السلطان لاماعيل باشا في سنة ١٨٧٣ . وقد قبلت
تركيا ذلك في تغرايف أرسله الباب العالي في ٨ يناير سنة ١٨٩٥ .
لكنها أرادت أن تفسر هذا التغرايف في سنة ١٩٠٦ تفسيراً خاصاً
فتشكل حدود مصر تتحدد من رفح إلى السويس فالعقبة . فووقة
انكلترا مرة أخرى . وما احتلت القوة التركية طيبة ، وهي قرية على
مقربة من العقبة داخلة ضمن الحدود المصرية ، خاطب السير دوارد
جري وزیر الخارجیہ البريطانية اذ ذلك سفير تركي في لندرة بما
معناه: إن قوات الامبراطورية على استعداد لتأييد منك انكلترا في
مصر . وقد استمرت المشادة في هذا الموضوع بين تركية وانكلترا
زمناً وقف أثناء مصطفى كامل بجانب تركي يدافع عن مطالب دولة
الخلافة جهد طاقتة . على ان تركي انتهت آخر الامر بالتسليم بطالب

إنكلترا ، فكانت هزيمة مسقطة لكل امل في معونة تركيا . وكذلك
تدعى الركن الثاني من أركان الدعوة التي كان مصطفى كامل قائماً بها .
ولقد كان من شأن تداعى هذه الاركان واحداً بعد واحداً
أن يكشف عما تستره هذه السياسة من الخيال . على أن حدثاً جديداً
وقف فيه مصطفى كامل موقف المدافع عن العدالة والانسانية بمعناها
الصحيح ستر ما انكشف من فساد الاعتماد على أوربا وعلى الباب
العالى . ذلك هو حادث دنشواى . فقد خرج جماعة من الضباط
والعساكر الانكليز من القاهرة قاصدين الاسكندرية فرروا في طريقهم
بقرية دنشواى فنزلوا الصيد الحمام باجرانها . واعتراضهم الاهالى
وحدث تصادم انتهى بجرح أربعة من المصريين بينهم امرأة وباصابه
بعض الضباط الانكليز اصابة فر من جرائها أحدهم الكابتن بول
فاصابته ضربة شمس مات متاثراً بها . وعلى أثر هذا الحادث عقدت
المحكمة الخصوصية التي شكلت بديكريتو سنة ١٨٩٥ لتنظر في هذه
القضية وحكمت على أربعة من الاهالى بالاعدام وثمانية بالجلد وأخرين
بالأشغال الشاقة ، ونفذ هذا الحكم بطريقة همجية لا عهد للانسانية بهامنذ

عصورها المظلمة . فقد نسبت المشانق التي أرسلت الى قرية دنشواى
قبل صدور حكم المحكمة أمام منازل الاهالى مباشرة ونصبت الى
جانبها آلات الجلد . وغداة صدور الحكم نفذ على صورة يشعر
من هو لها البدن . فكان كل محكوم عليه بالاعدام يعلق في المشنقة
ويبقى معلقاً أمام أنظار أهله وأبنائه الى أن يجلدوا اثنين من المحكوم
عليهم بالجلد . وكان هؤلاء يجلدون بكرابيچ ذات ثمانية السن معقود
طرف كل لسان منها بقطعة من الرصاص . ومن حول المشانق والجلالد

و فوق أسطح المنازل وقف الناس من أهل دؤلاء المتعسأء وذويهم
يشهدون جلودهم تشوى بالكريبيح وجثثهم فارقها أرواحها معلقة
في الماشائق، ومستشار الداخلية الانكليزى واقف يحافظ على النظام
لهذا المشهد الذى ابتدعه انكلترا فى مطلع القرن العشرين . ما أشد ها
وحشية وما اتعسها حضارة ! هنا يجب أن يرتفع الصوت عالياً دفاعاً
عن الرحمة وعن الإنسانية وعن العدالة وعن كل المعانى التى جاهدت
الإنسانية أحياها وقرروا لتبنيتها فى النفوس . وأى صوت أرفع
من صوت مصطفى كامل ، وأى أسلوب وجداً كأسلوبه ! وهذه
الدعایة السياسية التى فشلت بأذاء قوة انكلترا فى أوربا وفي مصر
لابد أن تنجح اذا استغلت لكشف هذا الظلم وللاستفادة منه لتجريمه
النفوس . وقد نجح مصطفى كامل فى هذا اكبر نجاح . والحق انه
لم يرتكب فى التاريخ الحديث فظاعة تعذيل فظاعة تنفيذ حكم دنشواى ،
ولم تشر حادثة منحوادث الشعور القومى فى مصر ما أثارته هذه
الحادثة . ولقد صدق مصطفى كامل اذ قال : إن عشرات السنين كانت
أقصر من أن تحيى شعور الشعب كأحياءه هذا الحادث . لذلك ظل
يكتب وينخطب فى مصر وفى انكلترا ي بياناً ل بشاعة هذا الظلم الذى
بلغ من بشاعته ان اضطر لورد كرومر الى اعتزال منصبه فى مصر
مع اعتراف الكل له بأنه من أقدر الساسة البريطانيين وأعظمهم
أمراً في حياة الامبراطورية .

على أن المصريين كانوا قد رأوا فشل السياسة الأولى التي جروا
عليها : سياسة الاعتماد على فرنسا ثم على أوربا ثم على الباب العالى ،
وقدر جماعة منهم أن لا بد من الاخذ بسياسة أخرى هي اعداد

الامة بأدوات الاستقلال من علم وخلق وغرس الایمان بنفسها في
نفسها لا مجرد كراهية الانكليز ولا حباً في تباب العالى ومقام الخلافة
السامى ، ولسكن حباً في الاستقلال والحرية لذاتهما . وكان لطفى
بك السيد وزير المعارف السابق لسان الدين فكرراً هذا
التفكير والذين اعتزموه لبث دعوتهم أصدار جريدة « الجريدة » .
على أن نفس مصطفى كامل لم تطاوهه ليرى في ميدان الخدمة
السياسية العامة من يرى غير رأيه . لذلك هاجم « الجريدة » قبل
صدرها وهو من أعرف الناس بصدقه لطفى السيد وبالذين كانوا
على رأيه . ولعل هذا الخلق في الرعيم الشاب هو الذي دعاه أن
يبعث من أوربا على أثر اعلان المرحومين سعد زغلول باشا وقاسم بك
أمين تشكيل لجنة لتأسيس جامعة مصرية أهلية محتجزاً على عمدهم بأنه
سبقهم الى الفكرة فيجب أن يكون تنفيذها تحت رعايته .

وخلف سيرodon جورست لورد كرومر كعتمد لانكلترا
في مصر ، بخري مع الخديو على سياسة غير سياسة المشادة والنزاع
التي كانت سائدة بين عابدين وقصر البارون إلى ذلك التاريخ ، وطبع
الخديو في أن يزال من وراء هذا الاتفاق مع معتمد بريطانيا سلطة
لعل السعي لها هو الذي دفع به لاصطفائه من اصطفى من الشبان
ليعملوا باسم مصر كي يخلوها الانكليز فتبقى السلطة فيها محصورة في
يد حفيد اسماعيل . وغير ذلك من الخديو على مصطفى كامل . وذلك
شأن الملك . يصطفون من يصطفونه مادام لهم في ذلك مأرب خاص .
فإذا انقضى المأرب انصرفوا عنه وانكروه . ثم أن مصطفى رأى
دعوة لطفى السيد الى الاستقلال التام بعد مدى من الدعوة الى

جلاء انكلترا وبقاء مصر قابعة لتركيا . لذلك قال في الخطبة البديةة التي ألقاها الحزب الوطنى والقاهما فى تياترو زيزينيا بالاسكندرية مانصه : « فليعلم أعداء مصر أننا نطلب لها الاستقلال ونطلب لها ذلك الاستقلال بأعلى أصواتنا وعلى مسمى من أمم الأرض كلها . وأننا اذا خطبنا الود لامة أو لدولة فاما نعمل كغيرنا وتتبع ناموس الطبيعة القاضى بأن من اتفقت مصالحهم يجتمعون ويتناصرون ». ومع هذه الكلمة الصريحه فى المطالبه بالاستقلال والحرص عليه كانت الفقرة الاولى من برنامجه الحزب الوطنى هي استقلال مصر الداخلى وفقاً لمعاهدة لندره فى سنة ١٨٤٠ . ولعل ذلك اثنا نص عليه تقادياً من معارضه القانون والتعرض لتهمة التآمر لقلب النـظام الذى كان موجوداً .

ولم يوهن فتور العلاقات بين مصطفى كامل والخديو ولا الخلاف بينه وبين الاحزاب المصرية الا خرى من همته العالية فى الدفاع عن منكوبى دنشواى . وقد كلل مسعاه بالنجاح فصدر الامر العالى بالعفو عنهم فى عيد جلوس الخديو الذى تلا هذه الحوادث أى فى ١٩٠٨ يناير سنة

بعد ذلك بشهر واحد كان مصطفى كامل على سرير المرض ينتظر الموت فى ثبات وصبر ، والامة من حوله يتحمّل قلبه فرقاعاً على هذا الابن البار الذى اذ كى ضرام الوطنية فى شبابيتها . فلما كان يوم ١٠ فبراير اطبق الموت جفني الزعيم الشاب وما يزال فى مقتبل عمره ، ولما يبلغ الخامسة

والثلاثين . لكن هذه السنوات الثلاث عشرة التي جاها فيها مصطفى (من ١٨٩٥—إلى ١٩٠١) هي في الواقع حياة طويلة ، لأنها حياة جليلة بنشاطها وبأعمالها ، جليلة بآيمانها وسعيها . وفي عصر ذلك اليوم بينما أنا جالس مع زميل لي من طيبة الحقوق من بنامن نعى الزعيم لنا • وفي اليوم التالي خفق قلب مصر من أقصاها إلى أقصاها حزناً عليه وجزاً لا يخلو من يكون مثله ذكاء ومقدرة وقوة آيمان .

وودع مصطفى هذا العالم وقد عمل لوطنه في عشر سنوات مالم يعمله غيره في عشرات السنين ، بل مالم تعلم أجيال بأسرها . لذلك بقيت ذكراه تحياها مصر كل عام . ومن حيث ذكراه فاؤلئك لهم الخلد طي ضمير الدهر وكفى بذلك جزاء موفوراً .

- ۱۶۳ -

قاسم بک امین



كلا ذكر اسم قاسم أمين ذكر معه تحرير المرأة في مصر . فأول صيحة ارتفعت لهذا التحرير هي صيحة قاسم في كتابيه : « تحرير المرأة » و « المرأة الجديدة ». وعلى أثر هذه الصيحة قام جدل عظيم في الموضوع ما زال حواشيه باقية إلى يومنا هذا . مع ذلك ، ومع أن قاسما لم يمت إلا من عشرين سنة ، فلو أنه بعث اليوم ورأى من آثار دعوته هذا التعليم الإجباري للبنين والبنات ، وهذه النهاية النسوية العظيمة في مختلف جوانب الحياة ، وهذه الحرية النسبية التي تتمتع بها المرأة ، وهذا الاصلاح في التشريع للاحوال الشخصية ما تم منه وما يوشك أن يتم ، إذن لا خدمة الدهشة ، ثم لا نقلبت دهشته اغتياطاً أى اغتياط بهذه الآثار ، ثم لعقب سروه أسف على ما اضطر إليه في كتابه من مخاوفه أزمه ايها روح عصره الجامد . ثم لترك ميدان المرأة وتحريرها يسير في طريقه الطبيعي ، ولنذكر في ميدان آخر من ميادين الاصلاح الاجتماعي الخطير الذي تحتاج مصر اليوم إليه أشد الحاجة . ولعل الأدب القومي وختقه وتوطينه والارتفاع به إلى سمات الاتصال الذائي الخصيب يكون بعض الميادين التي يصرف إليها بطل الجامعة المصرية منذ تأسيسها وأحد وأضخم أسس هذا الأدب القومي في كتابه الثالثة كل ما يكون لديه بعد بعثه من نشاط وجهد .

(اقرأ عن قاسم أمين أيضاً في « أوقات الفراغ » من ص ٩٦-١٤٨)

ذلك بأن روح قاسم كانت روح أديب، كانت الروح العصبية الحساسة الثائرة التي لا تعرف الطمأنينة ولا تستريح إلى السكون ، وكانت الروح المشوقة التي لا تعرف الازواج في كن للبحث والتنقيب حيث تنسى نفسها وتستبدل بكلها ما في حياة الكون وحركته من نشاط وجمال . بل كانت عيونه الواسعة تزيد أن ترى جدة الوجود الدائمة تتكرر مناظرها فتطبيع على صفحات نفسه وحياناً وإلهاماً أكثر مما تؤدي إليها المباحث الجافة منطقاً وجداً . وكانت هذه المناظر تذكر شعوره الحساس بجمالي الحياة ، وتدعوه إلى الخرص على متعاه بها وعلى دعوه غيره لهذا المتعة . وذلك لا يتواءم بالرجل فن جميل لا يقف عند التلذذ لنفسه بنعم الحياة، بل يعبر لغيره عن معانٍ هذه النعم ! وكما يعبر الموسيقى بالنغم والمصور بالنقش والمثال بالنحت والشاعر بالوزن ، كذلك الكاتب الأديب يجد في وصف ما في الحياة من مختلف ألوان الجمال ما يعبر عن شعوره به وما يدعوه غيره إليه . وحياة قاسم كانت كلها متوجهة إلى هذه الدعوة . وكانت متوجهة اليها بقوّة آخذه بنفسه متغلبة عليه حالة منه محل الإعنان به إيماناً صادقاً ولد قاسم مصرياً يجري في عروقه دم كردي ، أورثه إياه جده الأمير الكردي . ولد في أسرة متوسطة اليسار لم يفسد لها ترف الاكتئاب ولم تجن عايها آثار الحاجة . وتربي منذ نشأته تربية أمثاله، ثم سافر إلى فرنسا حيث درس الحقوق وعاد في سنة ١٨٨٥ . وليس في ظروف صباحه شيء غير عادي إلا أنه كان جم الحظ من الحياة مما أزمه العكوف على نفسه وعلى درسه . وليس في حياته بعد ذلك شيء من المجازفات التي تجذب لاصحاحها أنظار الجماهير ، بل ظل منذ

أتم دراسته إلى أن عاجلته منيته سنة ١٩٠٨ وهو في ريعان قوته
قضيا ثم مستشاراً بمحكمة الاستئناف . لكنه كان مع حيائه الجم
عيوفاً يحترم نفسه وكرامته كما يحترم الغير وحريته ، فلم يجرب عليه
أحد ضعة ولا ضعفاً . ولعل أقدس ما كان يجله من مظاهر الحرية
حرية الرأي . وتلك ظاهرة كثيرة ما تلقاها في ذوى الحماس . فهم مع
احترامهم لغيرهم وحريتهم ومع وبالغتهم في هذا الاحترام إلى حد
يهون معه عليهم أحياناً أن يتهدلوه سوء استعمال الغير لهذه الحرية
إلى حد يضيق بهم ، تراهم إذا أراد مريلد جبس رأيهم أو محاربته
توبرت كل أعضائهم وانتفضوا انتفاضة الديث تبدو أزيابه ومخالبه
ووقفوا مستميتين ينددون عن رأيهم ويستهينون في سبيل ذلك
بالمال والجاه والحرية والحياة . وذلك سر نجاحهم دائماً . على أنهم
لذلك لا يصدرون عن الرأي إلا بعد تحيصه وتقديره على مختلف
وجوهه والاقتناع به اقتناعاً يخل منهم مكان الإيمان . وهذا ما عبر
عنه قاسم في مقدمة كتابه « تحرير المرأة » حين قال : « هذه الحقيقة
التي أشرها اليوم شغلت فكري مدة طويلة كنت في خلالها أقلبها
وأختزنها وأحملها حتى إذا تجردت من كل ما كان يخاطب بها من
الخطأ استولت على مكان عظيم من موضوع الفكر مني ، وصارت
تشغلني بورودها وتنبهني إلى مزاياها وتنبهني بال الحاجة إليها ، فرأيت
أن لا مناص من إبرازها من مكان الفكر إلى فضاء الدعوة والله كر ». .
وهذا الخلق فيه هو الذي جعله منذ عودته من دراسة الحقوق
بفرنسا إلى خاتمة حياته قاضياً ممتازاً . فهو لم يقض يوماً ينال حظوة
عند أحد أو ليصفق الجم眾 له . ولم يكن من بين القضاة الذين قال عنهم :

«أعرف قضاة حکموا بالظلم ليشهروا بين الناس بالعدل .» ولم يتقيد في قضائه برأء الفقهاء أو أحكام المحاكم مما يعتبره أكثر القضاة حجة لا يحيد عنها . بل لم يتقيد بنص القانون اذا لم يصادف هذا النص مكان الاقتناع منه . وهذا هو ما جعله ميالاً للرأفة في قضائه نافراً أشد النفور من حکم الاعدام . فقد كان يرى «أن العفو هو الوسيلة الوحيدة التي ربما تنفع لاصلاح الذنب» وأن «معاقبة الشر بالشر اضافة شر الى شر» وأن «التسامح والعفو عن كل شيء وعن كل شخص هما أحسن ما يعالج به السوء ويفيد في اصلاح فاعله» و «أن الخطيئة هي الشيء المعتاد الذي لا محل للاستغراب منه والحال الطبيعية الملازمة لغريزة الانسان» . فإذا كانت الجماعة لم توفق بعد لادرارك هذه الأفكار وكانت قوانينها التي وكل اليه تطبيقها كقاض ما تزال تجبرى على سنة القصاص والانتقام وما زال دموية متوجحة ، فلا أقل من أن يتحاشى الاعدام وهو أشد ما فيها وحشية وهو العقوبة الوحيدة التي لا سبيل لمعالجتها اذا ظهر خطأ القاضي أو ثابت الجماعة الى رشدتها ورأت تعديل أساس عقوباتها يجعل العقوبة لاصلاح للفحاص أو أخذت بعذب العفو والتسامح .

وكذلك كان رأيه في قضائه المدني : لم يكن يتقيد بالاجراءات اذا رأى العدالة توشك أن تهدو لأن واحداً من هذه الاجراءات لم يراع ابراعاً الواجبة . ثم كان أشد القضاة ميلاً لصالحة المتخاصمين ولا حل التسامح محل النضال والحسنى مكان الشر والسوء . وهو في هذا كثثير من القضاة والمفكرين الذين أحدثوا بأحكامهم جديداً في العدالة وفي التشريع والذين خطوا بنصوص القوانين الى معان تتفق

مم الرق الانساني الذى يصمدون اليه ويودون لو يتحقق . وأنت
اذا تقرأ أحكامه تشعر فيها بهذه المعانى التى ربما خيل الى رجال القضاء
بالمهنة اتها الى الادب والخيال أقرب منها الى النصوص المقدسة ،
والتي كانت مع ذلك وسيلة التطور التشعيعى فى سبيل بلوغ العدالة
منازل الكمال .

وهذه الاراء المتقدمة التى اعتنقها قاسم فى نظره الى الانسان
وفى تحليله نفسيته ، وهذه الاعصاب التائرة التى تهز كل ما فى
الحياة من جمال ورجو لو يستمتع الناس به ، وتربيه قاسم فى وسط
فرنسا الحر الذى كان متأثراً بالثورة الكبرى وبثورات سنة ١٨٣٠
وسنة ١٨٤٨ وسنة ١٨٧٠ ، ذلك كله هو الذى دفعه ليعانى رأيه فى
تحرير المرأة مع علمه بما يشيره اعلان هذا الرأى عليه من حملات
شعواء . فقد شعر قاسم بما شعر به كثيرون من الشبان الذى درسوا
في أوربا من ألم لما يرونه حين مقارنة الوسط الذى كانوا فيه بالوسط
الذى عادوا اليه . بل لعل هذه الحال على حد تعبير الاستاذ لطفي
بك السيد « اعتبرته على نوع أشد مناسب لمقدار اطعاعه الواسعة
ومداركه القوية ومشاعره الرقيقة . وربما استحال ت هذه الحال
بساعدة ما به من الوقار الجنسي الى مملكة ينم عليها سكونه وإطرافه
ويفسرها كثير من كلامه الى حد يجعل المرأة يراه متظيراً أكثر منه
متفائلاً » . وكثيرون من تعميرهم هذه الحال يتورون ثم ما يلبثون
أن يهدأوا اذ يرون أنفسهم عاجزين عن ان يهزوا الوسط الذى هم
فيه او يبدعوا فيه جديداً . ولعل قاسم احدثته نفسه غير مرة بالسكتوت
والاكتفاء بجاهه العريض وبنصبته العظيم . ولعله كان يصف نفسه

أيضاً حين كان يقول عن الشيخ محمد عبده: «كم من مرة سمعته يقول كد أنه صمم على ألا يتداخل في شيء من هذا القبيل، ثم رأيته في الغدر منغمساً فيه أكثر مما كان، ذلك لأنّه، بعكس ما يراه عموم المُصرّين في أنفسهم، كان عنده أمل لا يزعزعه شيء في اصلاح أمته، كان عنده اعتقاد متيّن بأنّ البدرة الطيبة متى أقيمت في أرض بلادنا الخصبة نبتت وأزهرت وأثمرت كما نبتت وأزهرت وأثمرت بذور الفساد فيها. لهذا كان يلقي بعلة يديه كل ما جمعه في حياته من الأفكار الصالحة والعواطف الشريقة والتعاليم المفيدة، كان يشعر أنّ حياته ليست طويلاً فكان يعجل ببذل جميع ما كان عنده(١)» وكذلك لم يستطع هو أن يسمع لداعي الطائفة التي منصبها وجهه بعد ما رأى أن لا مناص من ابراز دعوه من مكان الفكر إلى فضاء الدعوة والذكر.

وفي ظننا ان الدعوة الى تحرير المرأة من رق الجهل ورق الحجاب لم تكن كل برنامج قاسم الاجتماعي، وإنما كانت حلقة منه هي أصغر حلقاته وأعمق مدتها. ذلك بأنه لم يقصر عليها كل جهد حياته، بل اشتغل منذ سنة ١٩٠٦ بالدعوة لانشاء الجامعة مع صديقه سعد زغلول وشغل بهذه الجامعة وبوتوطيد أركانها إلى أن وافته منيتها بعد ما أعد كل العدة لافتتاحها وقبيل هذا الافتتاح بأشهر معدودة. وتدل كلاماته على أن برنامجه كان أوسع من مجرد تأسيس الجامعة وتركها تسير حسب ما توجهها الرياح، وعلى أنه كان يريد أن يجعل من الجامعة خطوة لبرنامج أوسع نطاقاً يتناول ثورة في

(١) تأبين الشيخ محمد عبده

اللغة والادب كالثورة التي أحدثها كتاباه في تعليم المرأة وفي
رفع الحجاب .

ومن نافلة القول ذكر اراد الكلام عن برنامجه في تحرير المرأة .
فقد تناول الكتاب هذا البرنامج بالشرح والتحليل منذ أكثر
من عشرين سنة . وكل ما يمكن لقارئ كتابيه « تحرير المرأة »
و « المرأة الجديدة » أن يقف عنده اليوم في شأن برنامجه ما اضطر
إليه من تحفظ يجعل أهل هذا الجيل يرون صيحة قاسم التي كانت
يوم ظهرت قوية سرعة أن هزت أركان عادات أهل عصره لا تزيد
اليوم على أنها صورة للأراء والعادات المتداولة ، ونسخة من آلاف
ما يكتب من نوعها وما زيد أكثر الاحيان في تقدمها وسبقها .
ومعنى هذا ان دعوة قاسم آتت كل ثغرها فصارت بعض عقائد
الناس وأراءهم . وإذا كان شيء مما دعا إليه كتنظيم تعدد الأزواج
و يجعل الطلاق باذن القاضي ما يزال موضع النظر ، فإن الرجاء منعقد
بتامه عمما قريب ، كما أنه لم يبق من يعترضه إلا الجامدون والذين في
قلوبهم مرض . على أن كتابي تحرير المرأة والمرأة الجديدة ليسا
مقصوريين على الدعوة إلى تعليم المرأة وازالة الحجاب ، بل فيهما
مذهب جديد في التفكير والكتابة لم يكن معروفاً من قبل قاسم
ولم يسبقه إليه أحد ، فيهما شيء من « الروماتسم » الغربي ومن تحليل
الطبيعة الإنسانية في أرق عواطفها وأدق وجدانها . فقد كان
قاسم ينظر إلى عاطفة الحب نظرة عبادة وتقديس ، وكان يقول « إن
العارف يعتبر العثور على الحب الشريف أكبر السعادات في
هذه الدنيا . وإذا كان المال زينة الحياة فالحب هو الحياة »

بعينها» (١) وكان يراء غذاه روحيا لا غنى لنفس عنه في جميع أدوات حياته . وعنه أن « كل عشق شريف . فان كان بين شريفين زاد في قيمتهما ورفع من قدرهما . وان كان بين وضيعين أكسبهما شرفا وقيمة حتى اذا زال العشق سقطت قيمتهما وانحطت مرتبتهما ورجعا الى أصلهما ». ورجل ذلك نظره للحياة أدنى الى تغريب حكم العاطفة والاعتبارها الهدى والمرشد الاول في الحياة . وانك اذ تقرأ في كتابيه ما كان صادراعنه هو غير متاثر بجده مع غيره او ببحوثه الفقهية التي التجأ اليها لتبصير مذهبها بازاء الشريعة الاسلامية ، إذذاك ترى العاطفة الحسارة ، عاطفة الحب والرحمة والتسامح والسلام هي السائدة في كل نواحي الكتاب ، وهي مقدمة كل أسبابه ونتائجها . وهل الحياة الا محبة ورحمة وتسامح وسلام ؟ وهل في الحياة أجمل من المحبة والرحمة والتسامح والسلام ؟ وقام يزيد الناس أن يستمتعوا بمحال الحياة وبالحياة كلها استمتاعا كاملا . وهو لا يريد هذا على أنه مجرد دعوة مثل اسما قد تصل الانسانية اليه وقد لا تصلك ، ولكنه يريد هذهحقيقة قائم . وهو يريد لنفسه بمقدار ما يريد للناس ، وأكثر مما يريد للناس . وأنت ترى هذا في كلامه التي لم تنشر للناس الا بعد موته والتي كان يرصده فيها أفكاره الخاصة لنفسه . ترى في هذه الكلمات مبلغ ايامه بالجمال وبالحب وبالفن الجميل . وترى مبلغ ألمه لعدم تقدير بنى وطنه بداعي الطبيعة وتصوير رجال الفن بهذه البدائع . قال : « وصلنا قصر اللوفر وكنا أربعة من المصريين لنتمتع المنظر بأربع ماجادات به قرائج اعظم الرجال في العالم . فيبعد أن تجولنا في

(١) تحرير المرأة

عْرَفْتَنِي جِلْسٌ أَحَدُنَا عَلَى أَحَدِ الْكَرَامِيِّ قَائِلاً : أَنَا أَكْتَفِي بِمَا رَأَيْتُ وَهَا أَذَا مُنْتَظَرُ كُمْ هَنَا . وَقَالَ الثَّانِي : أَتَبْعَكَا لَآنِي أَحَبُّ الْمَشِي وَأَعْتَبُ هَذِهِ الْزِيَارَةِ رِيَاضَةَ لِجَسْمِي ، وَسَارَ مَعْنَا شَاخِصًا أَمَامَهُ لَا يَلْتَفِت إِلَى اليمين ولا إِلَى اليسار وَمَا زَالَ كَذَلِكَ حَتَّى وَصَلَّنَا قَاعَةَ الْمَصَاغِ وَالْحَلَى ، وَحِينَئِذٍ تَبَهَّتْ حَوَاسِهِ وَصَارَ يَنْظُرُ إِلَى الْذَّهَبِ ثُمَّ صَاح « هَذَا أَطْفَلُ مَا فِي هَذِهِ الدَّارِ » ، وَوَصَلَّنَا إِلَى مَثَالِ الْجَمَالِ الْفَرِيدَةِ فِي الْعَالَمِ أَجْمَعٍ فَسَأَلْتُ دَلِيلَنَا مَاذَا تَسَاوَى هَذِهِ الصُّورَةِ إِذَا بَيَّنْتُ ؟ فَقَالَ أَنَّهَا تَسَاوَى ثَرَوَةُ أَغْنِيِّ رَجُلٍ فِي الْعَالَمِ ، تَسَاوَى كُلُّ مَا يَعْلَمُ كَهُوَ الْإِنْسَانُ ، تَسَاوَى مَا يَقْدِرُهُ لَهُ حَائِزُهَا وَيَطَابُهُ ثُنَانُهَا إِذْلَالُهُ حَدَّ قِيمَتِهَا »

وَمَثَالُ الْجَمَالِ عِنْدَ قَاسِمِ مَحْسُومٍ فِي الْمَرْأَةِ . وَإِذَا كَانَتِ الْمُوسِيقِي وَكَانَ التَّصْوِيرُ وَكَانَ التَّمَثِيلُ وَكَانَ كُلُّ مَظَاهِرٍ مِنْ مَظَاهِرِ الْفَنُونِ الْجَمِيلَةِ مُحِبِّيَاً إِلَيْهِ فَإِنَّ مَصْدِرَ الْوَحْيِ الَّذِي تَصْدِرُ عَنْهُ هَذِهِ الْآثَارِ جَمِيعًا هُوَ الْمَرْأَةُ، هِيَ الَّتِي تَجْعَلُ لِلْطَّبِيعَةِ وَمَا فِيهَا جَمَالًا لَأَنَّ عَيْونَهَا تَقْعُدُ عَلَيْهَا ، وَهِيَ قَاهِمَ الرَّجُلِ هَذَا الْجَمَالُ لَأَنَّهَا تَحْبُّ الرَّهْرُو وَعَطْرَهُ وَالنَّسِيمِ وَأَرْجُهُ وَالْقَمَرِيِّ وَشَدُوْهُ وَلَأَنَّهَا تَحْبُّ كُلَّ جَمِيلٍ . وَقَدْ لَاتَرَى ذَلِكَ وَاضْحَى صَرِيْحًا فِي كِتَابِ قَاسِمٍ ، وَلَكِنَّكَ تَرَاهُ وَاضْحَى فِي عَبَارَاتِهِ الْمُلْتَهِيَّةِ عَنِ الْعُشُقِ وَالْحُبُّ . وَفِيهَا قَدْمَنَا مِنْ عَبَارَاتِهِ فِي تَحْرِيرِ الْمَرْأَةِ وَفِي الْكَلَامِ مَا يَنْهِيْضُ دَلِيلًا عَلَى رَأِينَا . وَأَكْثَرُ مِنْهُ فِي الدَّلَالَةِ قَوْلُهُ : « كَلِّي أَرَدْتُ أَنْ أَخْيِلَ السَّعَادَةَ تَمَثِّلَتْ أَمَامِي فِي صُورَةِ امْرَأَةٍ حَائِزَةً لِجَمَالَ الْمَرْأَةِ وَعَقْلِ الرَّجُلِ » وَقَوْلُهُ : « الْحُبُّ احْسَاسٌ عَمِيقٌ يَسْتَوِي عَلَى النَّفْسِ كُلُّهَا وَيَجْعَلُهَا مُحْتَاجَةً إِلَى الْاِخْتِلاَطِ بِنَفْسٍ أُخْرَى اِحْتِيَاجًا ضَرُورِيَاً كَاحْتِيَاجَ الْعَلِيلِ إِلَى الشَّمْسِ وَالْغَرِيقِ إِلَى الْهَوَاءِ ، نَارُ تَلَهِبِ الْقَابِ »

لَا يظفّهَا البعْدُ وَلَا يبرُدُهَا القُرْبُ بِلْ يزِيدُهَا اشتعالاً ... نَظْرَةُ فِي
عِيُونِ مُحَبِّبَتِهِ تَمَلاً قَلْبَهُ فَرْحاً وَتَجْعَلُهُ يَتَخَيلُ أَنَّهُ مَاشٌ فِي طَرِيقٍ
مَفْرُوشٍ بِالْوَرْدِ أَوْ رَاكِبٌ سِحَابَةً وَطَائِرٌ فِي الْمُرْتَفَعَاتِ الْعَالِيَّةِ، فَوْقَ
فَوْقَ قَرِيبِ السَّمَاءِ» وَهُوَ، وَذَلِكَ إِيمَانُهُ الصَّحِيحُ، قَدْ رَأَى أَنَّ
الْمَرْأَةَ الَّتِي تَسْتَطِيعُ أَنْ تَلَهُمُ الرَّجُلَ كُلَّ هَذِهِ الْمَعْانِي السَّامِيَّةِ وَأَنَّ
تَقْفِيسَ عَلَى الْفَنَانِ بِالْوَحْيِ وَعَلَى غَيْرِ الْفَنَانِ بِاسْبَابِ السَّعَادَةِ الَّتِي تَحْبِبُ
إِلَيْهِ الْحَيَاةَ وَالْعَمَلِ فِيهَا لَيْسَتْ هِيَ الْمَرْأَةُ الْجَاهِلَةُ الْمَحْجُوبَةُ . لَذَلِكَ دُعَا
دُعَوَتُهُ لِتَحرِيرِ الْمَرْأَةِ مِنْ رُقِ الْجَهْلِ وَرُقِ الْحِجَابِ لِتَكُونَ مَبْعَثَتُ
الْسَّعَادَةِ لِلنَّاسِ جَمِيعًا

لَكِنَّ هَذَا الْوَحْيُ وَالْأَهْمَامُ لَا يَكُونُ إِلَّا إِذَا اسْتَمْعَدَ الرِّجَالُ
لِتَلْقِيهِ . وَإِذَا كَانَ لِدُعْوَةِ قَاسِمٍ أَنْ تَنْجِحُ فِي مِيدَانِ تَحرِيرِ الْمَرْأَةِ وَأَنْ
تَجْعَلُ مِنَ الْمَصْرِيَّةِ مِثْلَهَا كَانَتْ أُخْتَ رِينَانَ أَوْ زَوْجَةَ جُونَ سَتوَارَتْ
مِيلَ أَوْ شَبِيهَاتِهَا مِنَ النَّسَاءِ الْمُلَوَّتِيَّ أَوْ حِينَ إِلَى النَّوَابِغِ مَا غَيْرَ وَجْهِ
التَّارِيخِ، فَلَا بدَ مِنْ اعْدَادِ الرِّجَالِ لِتَلَاقِهِ هَذَا الْأَهْمَامُ السَّامِيُّ وَلَا بَرَازِهُ
فِيهَا يَجِبُ أَنْ يَبْرُزَ فِيهِ مِنْ قُوَّةٍ . وَذَلِكَ لَمْ يَكُنْ مُمْكِنًا وَالْتَّعْلِيمُ الْعَالِيُّ،
كَمَا كَانَ يَوْمَئِذٍ، مَقْصُورٌ عَلَى أَنْ يَعْدِمُ مَوْظِفِينَ لِلْحُكُومَةِ وَلِلْأَعْمَالِ
الْحَرَةِ مِنْ لَا يَرَوْنَ الْعِلْمَ إِلَّا وَسِيلَةً لِلْكَسْبِ «وَيَعْمَلُونَ عَلَى مِبْدَأٍ
— إِكْسَبْ كَثِيرًا وَالْتَّعبُ قَلِيلًا — وَلَيْسَ فِيهِمْ العَامِلُ الْمُحْبَلُ عَلَيْهِ
أَوْ فَنَهُ وَالْعَاشِقُ الَّذِي تَحْتَلُ شَهْوَةُ الْعَمَلِ كُلَّ قَلْبَهُ وَتَتَمَدَّدُ فِيهِ وَتَمْلُؤُهُ
بِرْمَتَهِ» . أَمْثَالُ هَؤُلَاءِ لَا يُوحِيُّ إِلَيْهِمْ جَمَالُ الْعَالَمِ فَكِرَةً جَدِيدَةً
وَلَا يَرْتَجُونَ مِنَ الْحَيَاةِ إِلَّا اعْتِزَازًا بِمَنْصَبٍ أَوْ بِمَالٍ طَائِلٍ يَحْصُلُونَهُ .

وهو لاء لا يكُن أن تنهض أمة بهم لترقى إلى سبيل الكمال . فاما
الفئة التي : « تطلب العلم حباً للحقيقة وشوقاً إلى اكتشاف المجهول ،
الفئة التي يكون مبدئها التعلم للتعلم » والتي تحس جمال الحياة في
مختلف مظاهره ، اتفة التي ترى في المرأة الجميلة المذهبة معواناً على
النهوض بالجامعة — هذه الفئة لا تكون إلا حين توجد الجامعة وحين
يوجد التعليم الجامعي . وهذه الفكرة هي الأساس الذي دعا قاسمًا
للتعاون مع صديقه سعد زغلول ومم أركان نهضة مصر ليؤسسوا
الجامعة المصرية التي استقرت بمنبرها برئاسة سعد باشا زغلول حتى ترك
منصبه كمستشار في الاستئناف وعين وزيرًا للمعارف خلف محله قاسم
أمين في رئاسة الجامعة إلى أن عاجلته المنية .

وقد ظل قاسم عاملاً مع أصحابه مجدًا يستهضفهم ويجمع
الأموال ويهيء كل أسباب نجاح الجامعة . وقد بين فكرته عنها في
خطاب القاه بمنزل المغفور له حسن باشا زايد بالنوفية لمناسبة وفاته
خمسين فدانًا للجامعة قال فيه : « إن الوطنية الصحيحة لا تتكل
كثيراً ولا تعلن عن نفسها . عاش آباءنا وعملوا على قدر طاقتهم
وخدموا بلادهم وحاربوا الأمم وفتحوا البلاد ولم نسمع أنهم كانوا
يفتخرون بحب وطنهم ، فيحسن بذلك أن نقتدي بهم فمجرد القول
ونعتمد على العمل ..

« نحن لا يمكننا أن نكتفى الآن بأن يكون طلب العلم في مصر
وسيلة لمزاولة صناعة أو الاتحاق بوظيفة ، بل نطمع في أن نرى بين
أبناء وطننا طائفة تطلب العلم حباً للحقيقة وشوقاً إلى اكتشاف
المجهول ، فئة يكون مبدئها التعلم للتعلم . نود أن نرى من أبناء مصر ،

كان نزي في البلاد الأخرى، عالماً يحيط بكل العلم الإنساني واحتياصاته
أتقن فرعاً مخصوصاً من العلم ووقف نفسه على الالام بجميع ما يتعلق
به، وفيما لو فـاً اكتسب شهرة عامة، وكتاباً داع صيته في العالم،
وعالماً يرجع اليه في حل المشكلات ويحتاج برأيه. أمثال هؤلاء هم
قادة الرأي العام عند الأمم الأخرى والمرشدون إلى طرق نجاحها،
والمدبرون لحركتها تقدمها. فإذا عدمتهم أمة حل محلهم الناصحون
المجاهلون والمرشدون الدجالون

«إن عدم استعداد طلبة العلم لحب العلم ذاته هو غريب عظيم فينا يجب أن
تفكر في إزالته. وهو نتيجة من نتائج التربية المترتبة التي غفلت عن
 التربية احساسنا وأهملت تربية قلوبنا فأصبحنا ماديين لأنهم الآباء النتائج
في جميع أمورنا، حتى في الأشياء التي بطبيعتها يجب أن تكون بعيدة
عن الفوائد كعلاقة الأقارب والاصحاب

«إن الارتفاع في الإنسان تابع على الأوصوص لاحساسه، وإن
أكثـر الناس استعداداً للـكـمال هـم أـصحاب الـاحـسـاس الـذـين تـهـزـ
أـعـصـابـهـمـ المتـورـةـ بـعـلامـةـ الـحوـادـثـ وـتـبـلـغـ مـنـهـمـ الـانـعـالـاتـ الـفـسـيـةـ
مـبـاغـاـ عـظـيـماـ فـيـظـهـرـ أـثـرـهـ فـيـهـمـ بـكـثـرـةـ وـشـدـةـ. أـوـئـكـ هـمـ السـعـدـاءـ
الـاشـقـيـاءـ الـذـينـ يـتـمـتـعـونـ وـيـتـأـلـونـ. أـوـئـكـ هـمـ السـابـقـونـ فـيـ مـيدـانـ
الـحـيـاةـ، تـرـاثـمـ فـيـ الصـفـ الـأـولـ مـخـاطـرـينـ بـأـنـقـسـهـمـ يـتـنـافـسـونـ فـيـ مـصـادـةـ
كـلـ صـعـوبـةـ. مـنـ يـنـهـمـ تـنـتـخـبـ الـقـدـرـةـ الـحـكـيـمـةـ خـيرـهـ وـتـوـحـيـ
إـلـيـهـ أـسـرـارـهـ فـيـصـيرـ شـاعـرـ بـلـيـغاـ وـعـالـماـ حـكـيـماـ أوـلـيـطاـهـرـاـ وـنـبـيـاـ كـريـعاـ.
ولـيـ أـمـلـ عـظـيـمـ أـنـ اـشـاءـ اـجـمـاعـ اـمـصـرـيـةـ يـكـونـ سـبـبـاـ فـيـ
ظـهـورـ شـبـيـةـ هـذـاـ الجـيلـ وـمـاـيـاهـ عـلـىـ أـحـسـنـ مـثـالـ»

كان أول أمل لقاسم من إنشاء الجامعة إذن هو الامل العلمي البحث . هو تكوين فئة للبحث وراء الحقيقة شوقا اليها وحرضاً على كشف ما يحيط بهذا العالم من اسرار . وهذه الحقيقة لا يصل اليها أولئك المشغولون بباب الرزق العاكفون على السعي لها والدأب في سبيلاها . وإنما تصل اليها بعية علمية يتصل الطالب فيها بالاستاذ اتصال دراسة واتصال بحث . اتصال تعاميم واتصال تضامن في زيادة ثروة الانسانية العلمية . هذه الثروة النورانية التي تضيء ما حوطها لتهتك حجب الجهل وما يجره وراءه من جمود وتعصب وتفاق ، والتي تهدى الانسانية سبيل السعادة بما تكشف لها من مجال الوجود . ولعل أكبر رجاء قاسم كان أن يتناول هذا البحث آداب مصر بغية الوصول الى تركيز أدب قومي صالح يجدد الأدب العربي الذي كان متداولا الى عصره . وقد كانت لقاسم في تجديد اللغة والأدب آراء لا تقل تقدما عن ارائه في مسألة المرأة وتحريرها . وكان يرى « أن اللغة العربية صرت عليها القرون الطويلة وهي واقفة في مكانها لا تتقدم خطوة الى الامام بينما أخذت اللغات الاوربية تتحوال وترتقي كلما تقدم أهالها في الأدب والعلوم حتى أصبحت النموذج المطلوب في السهولة والايضاح والدققة والحركة والرشاقة ، وصارت أنفس جوهرة في تاج التمدن الحديث » . وفي كلماته كثير مما كان يراه من أوجه النقص في اللغة ووسائل علاج هذا النقص قال : « لم أر بين جميع من عرفتهم شخصاً يقرأ كل ما يقع تحت نظره من غير خن . أليس هذا برهاناً كافياً على وجوب إصلاح اللغة العربية لي رأي في الاعراب أذ كره هنا بوجه الاجمال وهو

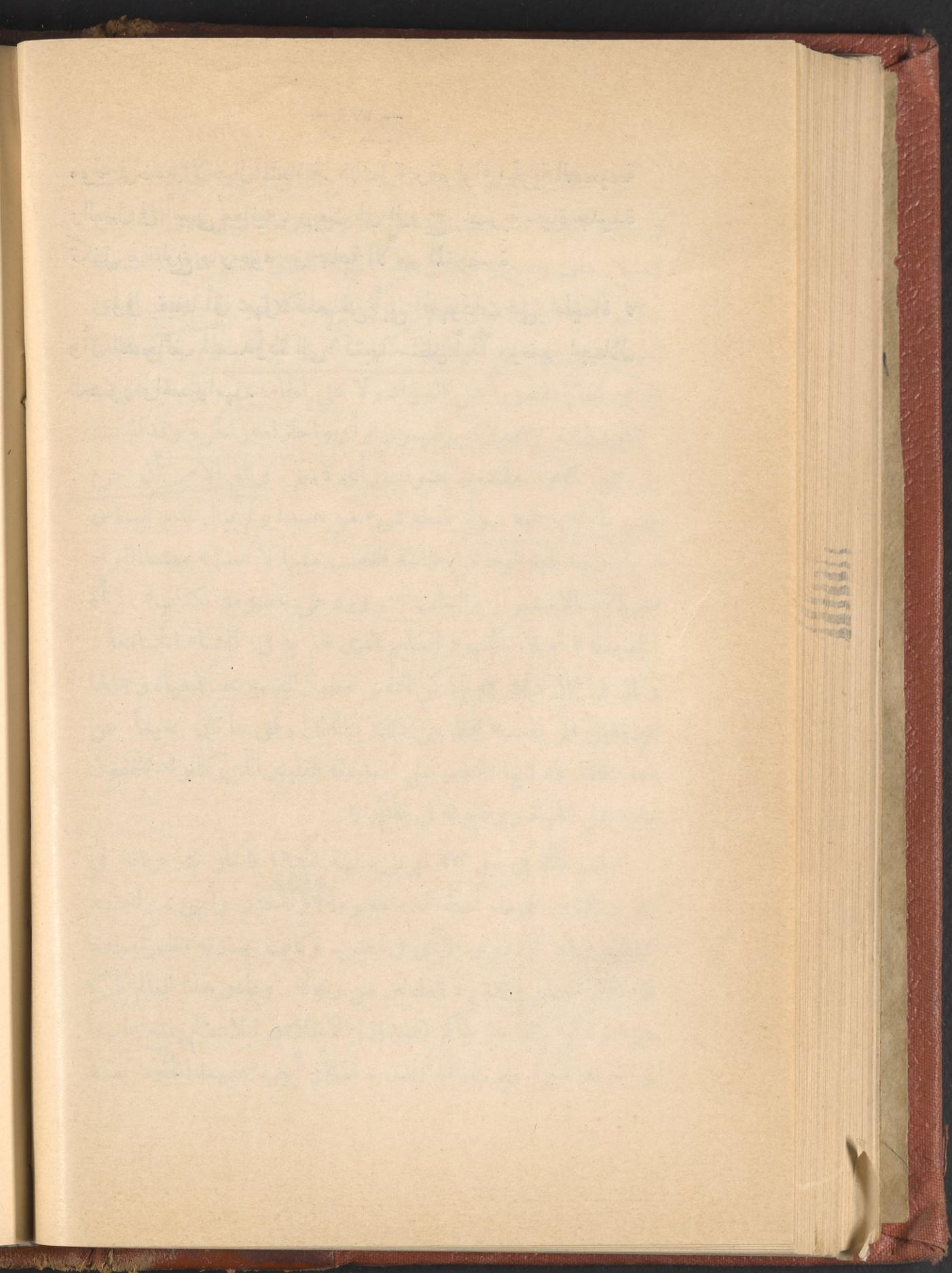
أن تبقى أواخر الكلمات ساكنة لا تتحرك بأي عامل من العوامل.
بهذه الطريقة ، وهي طريقة جميع اللغات الأفرونيكية واللغة التركية
أيضاً ، يمكن حذف قواعد النواصب والجوازم والحال والاشغال
الخ . بدون أن يتربّط عليه اخلال باللغة إذ تبقى مفرداتها كما هي «

ولم يكن جزءه على الادب بأقل من نفوره من جود اللغة .
فكم نعى على الكتاب والشعراء افتقارهم على « تكرار أفكار
الغير التي حفظوها كما يحفظ الأطفال القرآن ». وكم أسف على القتور
العقلى الذى يجعلك : « اذا اجتمعت في اليوم بعشرين رجلا من
معارفك تسمع من التسعة عشر الآخرين ما سمعته من الاول ولا تجد
في الجريدة التي تقرؤها أو تسمع من الصاحب الذى تقابله فكرة
غريبة أو تعبيراً جديداً أو أسلوباً مبتدعاً، لا تجد الناخب الذى يدهشك
ويجذبك بعجائب جنوته » وكم استهجن الاساليب التي تقتصر على
الحسنات الملفظية ودعا الى جيدة تخرج بالكتابتين من ذلك النوع
البالي الذى لا يعرف البحث والتحليل والتسميع على النفس والأشاعر
ووصف ب دائم الطبيعة مكتفياً بالعبارات المحفوظة التي توارثوها
عن كتاب العرب أيام مجدهم . وإنك لنجد فيما خلف قاسم صورة
من هذا الأدب الجديد الذى يدعوه اليه والذى غزا ميدان التحرير
والكتابة فأصبح أدب هذا العصر الحاضر . ولئن كنا مازال زجو
للسالib الجديدة ثروة وقوة فإن فضلاً كبيراً يرجع لقسام في هذه الجمدة
التي دعا إليها والتي كان يرجو أن تبدع فيها الجامعة التي جاهد في الشاعرها
والتي قامت بعد موته قوة تقربها من المثل الأعلى الذي يرجوه

واختطف الموت بفأة قاسماً وما يزال في دينع قوته . مات بالسكتة القلبية بعد أمسية قدم فيها طالبات رومانيات في نادي المدارس العليا . مات وهو في ميدان هذا الجهد الشاق الذي خاض غماره وحمل أعباءه بقوة وعزيمة لم يتطرق اليهـما كلال . فقد وقف الرأي العام في وجهه على أثر نشر كتاب تحرير المرأة . ولم يكن هذا الرأي العام مقصوراً على السود ولا على الجامدين . بل ساير هؤلاء كثيرون من يزعمون أنهم ينتمون إلى الرأي واحترامه والحرية وقداستها ، بل من كانوا مقتنيـن بصواب رأـي قـاسم . وبلغ الامر أن حرم قصر عابدين عليهـه . ولم يـُبـطـه شـيءـ منـ هـذـاـ وـلـمـ يـبـالـ بـذـمـ النـاسـ « بل وجد فيه نوعاً من جمـاسـةـ الغـضـبـ منـهـاـ لـأـعـصـابـهـ منـشـطـاـلـقـواـهـ مـغـرـيـاـيـاهـ بـالـسـتـمـارـ وـالـثـبـاتـ » . ورد على خصـومـهـ بـكـتابـ « المرأةـ الجـديـدةـ » ثم قـامـ بـالمـجـهـودـ العـظـيمـ الذـىـ قـامـ بـهـ فـيـ اـشـاءـ الجـامـعـةـ . وـكـانـ فـيـ إـيـانـ ذـلـكـ كـالـهـ سـاـكـنـ النـفـسـ مـطـمـئـنـ الضـمـيرـ مـحـبـاـلـلـحـيـاـةـ وـجـاهـهـ غـيرـجـنـحـيلـ عـلـىـ نـفـسـهـ بـحـظـ منـ ذـلـكـ يـنـالـهـ فـيـ رـفـقـ ماـ كـانـ بـعـيـداـ عـنـ مـصـرـ ، فـإـذـاـ عـادـ إـلـيـهـ اـقـتـصـرـ عـلـىـ أـصـدـقـائـهـ الـقـلـيلـيـنـ الذـيـنـ كـانـوـاـ يـخـفـفـونـ عـلـيـهـ جـهـلـ الـحـيـاـةـ وـيـرـغـبـونـهـ فـيـ بـقـاءـهـ »

مات بخأة في ليل ٢٣ ابريل سنة ١٩٠٨ فأثار خبر وفاته في
تفوس الناس جميعاً، أصدقائه وخصومه ^{ذكره} حزن وأسى، واجتمع
للتشييع رفاته كل ذوى الرأي في مصر. وكانت جنازته مظهراً أساساً
لأجلال الوطن وتقديره العاملين من رجاله. وغادر هذا العالم تاركاً
وراءه ذكرآ باقياً هو ذكر الصدق والأخلاق لبلاده لم يبتغ عليهـما
في حياته أجرآ من جاء أو نشب ، فـكانـ أـجـرـهـ عـاـيمـهـ مـاـ اـخـلـودـ بـعـدـ

هوّه في ضمير الأجيال المتعاقبة. ذلك لأنّه رفع لواء الحرية الصحيحة
والعدل في أسمى معانٍه ، وبعث إلى الروح المصرية حياة جديدة
تُكفل لها بلوغ ما ترجوه بين جماعة الأمم المتحضرة
وفي يقيننا أن مجاهود قاسم من أبقى المجهودات على الحياة ،
وأن الصحائف المعدودة التي كتبها ستظل أبداً موضع احتجاج
العصور واحد تراهم .



اسماعیل باشا صبری



ARAN
BER

رَبِّهِ لَكُلِّ يَوْمٍ

لم تمض على وفاة المغفور له اسماعيل صبرى باشاغير سنوات قليلة
ومع ذلك فقد بدأ الناس لا يذكرون عنه لا انه كان شاعراً مجيداً .
فاما انه كان وكيلاً للحقانية في آخر أيامه ، وانه درج قبل ذلك في
وظائف الحكومة المختلفة حتى بلغ هذا المنصب ، فهذا مايسحب
النسىان عليه ذيله رويداً رويداً ، وهذا مايعتبر الجانب القليل الخطر
من حياته . ولا عجب في ذلك . فلقد كان الشعر هو الجانب المنير
من روح اسماعيل صبرى والذى يجعله أحد رجال التاريخ
الحديث . والناس لا يذكرون من الكباء الا مواضع عظمتهم
الحقة ، المواضع التي تتصل فيها نفوسهم بنفس الإنسانية كلها
اتصالاً تتأثر به النفس الإنسانية تأثراً باقياً على الأجيال في تعاقبها .
فاما هذا العمل اليومي الذي يقوم به كل منا ويستطيع غيره أن يحمل
 محله فيه ، فاما هذا الجانب من الحياة الذي يتكرر فيه الفرد من غير
أن تظهر له شخصية خاصة ممتازة ، فأماماً النيابة والقضاء ووكالة محكمة
الاستئناف ومنصب النائب العامى ووكالة الحقانية مما تقلب فيه
اسماعيل صبرى ، فتتكمل المراكن على خطتها وجلالها وما تخلعه على
صاحبها في حياته من جاه ومقام عظيم ، اما يتصل صاحبها بالجبل الذى
يعيش فيه الا أن يتمتاز في أعمال هذه المناصب امتيازاً يترك أثراً
تنادله الأجيال . ولم يترك اسماعيل صبرى في هذه الناحية من
حياته ذلك الاثر . لذلك كان له من جاهها مدى حياته ما يكون

لغيره . فأما ما بقى له فذلك الضياء النفسي الذي يتجلّى في شعره القليل ، والذى يعتبر على قوله آية في الجمال تهزّ لها نقوس كل الأجيال ، والذى يبقى من أجله اسم اسماعيل صبرى على الزمان ، لأنـهـ على حد قول الاستاذ على الجارم في مرثيته ايهـ —

لم يمت من يزول من عالم الحس * وتأبى آثاره أن يزولا

* * *

ولد المرحوم اسماعيل صبرى في ١٦ فبراير سنة ١٨٥٤ ودخل مدرسة المبتدئان التجهيزية فمدرسة الادارة . وفي سنة ١٨٧٣ التحق بالراسالية المصرية لفرنسا فاز اجازة الحقوق في سنة ١٨٧٨ . وهذه الاجازة هي التي فتحت أمامه أبواب السلك القضائي من مساعد نيابة لدى المحاكم المختلفة إلى وكيل وزارة المقاونية . على أن الجانب النفسي الأقوى منه لم يكن الجانب التشريعى أو الجانب القضائى ، بل كان جانب تجاوب الاوزان والانغام والشعر . وكثيراً ما رأيت رجالاً يكتبون دون غيرهم من أهل حرفهم في الكفاية والمقدرة ، ولكنهم يمتازون بجانب آخر لهم فيه نبوغ . هؤلاء يحجب فيهم جانب النبوغ الجانب الآخر ويجعله يبدو ضعيفاً . بل كثيراً ما يجنبني جانب النبوغ على الجانب العملى للحياة ، لما يكره النبوغ عليه من وهبته الطبيعية إيهـ من مجهد مستمر وحياة خاصة ، فإذا الجانب العملى يكاد ينسى إلا ما تملـيهـ عـالـيهـ الـمـلـكـاتـ الـمـتـازـةـ منـ قـوـةـ وـاقـتـدارـ .

ولم يكن جانب النبوغ الشعري في اسماعيل صبرى تاريخاً قديماً معروفاً . وقد عبر شوقي في رثائه إيهـ عن ذلك بقوله :

ان فاته نسب الرضى فربما
جريا لغاية سؤدد وطراف

شرف العصاميين صنع نقوسهم
من ذا يقيس بهم بني الاشراف

قل للمشير الى أبيه وجده
أعلمت للقمرین من أسلاف

وكم اكانت الموهب الممتازة لاترجم الى قارئين قديم
المعروف ، بل كثيراً ما رأيت هذه الموهب الممتازة تتجل في اشخاص
لاتلح في قارئهم أية مقدمة لها . وهي قد تجلت في نفس اسماعيل
صبرى منذ كان في السادسة عشرة من عمره ، وقبل أن يختلط طريقه
إلى السلك القضائى . فقد نشرت له مجلة روضة المدارس وما زال في هذه
السن مقاطع شعرية تلخص خلاها روح الشاعر ، وان كانت في ذلك
الحين قد كانت متأثرة أشد التأثر بأغراض الشعر فى عصر اسماعيل من
 مدح الامراء وذوى السلطان . وروضة المدارس كانت يومئذ مجلة
 أدبية تعمل لاحياء اللغة العربية والشعر العربي .

ولما سافر في الارسالية وأقام بمدينة اكس أتيبح له الاطلاع
على الأدب والشعر الفرنسي . ويدل شعره في السنوات الأخيرة على انه تأثر
بهذا الشعر كثيراً وانه انطبع منه في نفسه حظ غير قليل . على انه لم يستطع
في أول أمره ان ينقل الى الشعر العربي روح اغريبة مثلما فعل شرقى
مشلا . فأنت ترى في شعر صبا شوقى الشيء الكثير المتأثر تأثيراً باديا
بحياة شوقى في أوربا . أما اسماعيل صبرى فكان منذ أول حياته

شاعرًاً مقالاً . وكان ، على ما يظهر من شعره ، لا يتأثر تأثيراً سريعاً ، ولكن
ما يؤثر فيه يبقى عالقاً بنفسه حتى يكون له مظاهره ولو بعد حين
والظاهر أن التقاء الحياتين الشرقيّة والغربيّة والشعرتين الشرقيّ
والغربي في نفس اسماعيل صبرى ، أحدث أثراً غميّقاً امترجاً مع غريزة
حياته . فقد كان رجلاً رقيقاً كل الرقة دمث الأخلاق حاضر البديهة ،
اجتمع له كل ما يعرف من صفات « ابن البلد » وظرفه . وانك
لتسمع ما يرويه عنه اصحابه من ذلك الشيء الكثير : فكان اذا
سمّ انساناً من الناس ولم تطأوعه نفسه الرقيقة على الاغلاظ له في القول ،
طلب إلى صديقه حافظ ابراهيم أن يوقع بيته وبين هذا الثقيل حتى
لا يضطر لمقابلته أو التحدث إليه . وكان كثير المتمرد ، حتى لقد تحكم
عليه النكمة فلا يرى بأساساً من أن يقول : انه لو نزل كتاب مقدس
في القطب الشمالي لوعده الله عباده النار أعدها المتقين . وكان ظرفه
وخفة روحه وسرعة بديهته يلهمانه في كثير من المواقف ما لا يلهم
المنطق . اعترف أمامه متهم بجريمة القتل . فلما خلا مع زملائه للمداولة
ورأى أن العقوبة هي الاعدام ، ذكر لهم انه يشك في اعتراف هذا
الرجل لأنه لا يرى في سياده معنى شجاعة يمتاز بها على سواه من أمم الله .
وجئ بالرجل إلى غرفة المداولة وقال هو له . أتدرى ان اعترافك
هذا يجعلنا نحكم عليك بالاعدام . فكان جواب الرجل : لكن العمدة لم
يقل لي هذا ، بل قال لي حين دفع لي الجنديين أني سيعفي عنى لأنني كنت
في السجن حين ارتقاب الحادثة . وتبين فعلاً ان الرجل كان في السجن
فلم يكن له في الحادثة يد . وقضى ببراءته
إلى جانب هذه الصفات التي يمتاز بها « ابن البلد » المصري مما

تأثرت به نفس اسماعيل صبرى الشاعرة بمحاطتها الوسط المصرى، كان
رجل اجتماع بالمعنى الانجليزى الصرف، أى رجل دنيا اذا أردت ترجمة
العبارة الفرنسية *homme du monde* ترجمة حرفية. وكان له أصدقاء
كثيرون جدا من الجاليات الاوربية المقيمة بالقاهرة. وكان يغشى
اجماعات من يختارهم من أهل هذه الجاليات بقدر ما يغشى اجتماعات
الظرفاء وأولاد البلد

على انه مع كل هذه الوداعة والظرف ومع ما كان يسيل به خلقه
من رقة، كان أبدا لا يقيم على ضيق. ذكر لي بعض أصدقائه الذين عرفوه
طوال حياته انه برغم ما تقلب فيه من كبرى مناصب الحكومة كان
المصرى الوحيد الذى لم يقابل لورد كروم و لم يدخل الوكالة
البريطانية في مصر. وانه حدث بينه وبين رياض باشا، وكان رئيس النظار،
جفاء حكم أصدره ماسا بعض المحسوبيين على رياض باشا. فلما جاء
في أحد المواسم الى عابدين ومثل بين يدى الخديو توفيق ثم خرج
من لده الى رياض باشا منهيا اياه كرئيس حكومة او قهري باشا
ولم يأذن له بالجلوس. وكان ابن رياض باشا واقفا عند باب المحرجة
التي يجلس فيها أبوه، فقال اسماعيل صبرى مخاطبا ابنه بمسمع من
الأب : قل لا يريك يحترم الناس كي يحترموه . وروى عثمان باشا
سرتضى في حفلة تأبين اسماعيل صبرى أن أحد قناصل الدول الأجنبية
طلب اليه ، وكان محافظا للاسكندرية ، أن يشيع جنازة غنى من
أهل جاليته ترك ثروة طائلة كسبها في مصر وأوصى بها كلها للبلاده.
فكان جواب المحافظ أن اعتذر، لأن المحتمل بجنازته لم يفك في مصر
التي أثرى فيها، فليس يطلب الى مصرى أن يفك في مجاملته حياً أو ميتاً.

دعة وظرف ورقه وحسن معاشرة وإباء، اجتمعت كلها في نفس شاعر التقت فيه الحياتان الشرقية والغربية وأهمتها الطبيعة ذوق الجمال، وبخاصة ما كان منه متعلقاً بالنغم الشعري — فمادا ترى يكون أثر ذلك كله في شعره؟ فاما الرقة فقد تنفست في شعر صبرى غزلاً بالمرأة وهياما بجمالتها أيما كانت هذه المرأة. وأنت ترى من ذلك شيئاً غير قليل حين تذهب الى مراجعة شعر صبرى الغنائى. لكنك تراه ماثلاً بصورة حلوة جميلة آخذة باللب في قصيدة البديعة (تمثال جمال) وبخاصة في هذه الآيات منها يخاطب المرأة الجميلة أو كما سماها «لواء الحسن»:

ان هذا الحسن كلامه الذى فيه للأنفس رى وشفاء
لا تردى ببعضنا عن ورده
دون بعض ، واعدى بين الظاء
ساعفى آمال أذلاء الاهوى
بقبول من سجاياك رخاء
وتحلى واجعلى قوم الاهوى
تحت عرش الشمس بالحكم سواء
أقبلى نستقبل الدنيا وما
واسفرى ، تلك حلى ماخليت
واخطرى بين الندامى يخافوا
وانطقي ينشر اذا حدثتنا
وابسى ، من كان هذا ثغره
أن روضا راح في النادى وجاء
ناثر الدر علينا ما نشاء
يعلماء الدنيا ابتساما وازدهاء
أن هذا الحسن من طين وماء
الملا تكؤن سكان السماء
وانزعى عن جسمك الثوب بين
وأرى الدنيا جناحى ملك خلف تمثال مصوغ من سناء
وتراه كذلك في هذه الآيات يخاطب بها امرأة لا ندرى أية

واحدة هي من ألوية الحسن التي تزدحم عادة في نفس ذوى الطرف
والرقة من لا تحتمل ثقوبهم طغيان الحب المستبد يذعن له الفؤاد
والقلب والنفس والجوارح جميعاً إذعان خضوع وایمان واستسلام،
وهو مع ذلك باذعاته راض وبذله سعيد:

زیني الندى وسیلی فی جوانبه لطفاً یعم رعايا الماطف ریاه
ریحانة أنت فی صحراء مجده من الرياحين حیاناً بہا الله
ان غاب ساق الطلا أو صدلاً لحرج هـذا جمالک یغیننا محباه
لعلمک تلمح فیما نقلنا من هاتین القصیدتین — أو المقطوعتين
ان شئت — شيئاً غير الغزل بجمال المرأة من غير تقید بامرأة معينة.
ولعلمک تلمح فیها من الموسيقى أكثـر مما اعتمدـت ان تلمح فـیما تستـمع
إليه من شـعر غير اسماعـيل صـبرـى . وـاـنـك لـوـاجـد هـذـهـ النـغـمةـ
الموسيقـيةـ الـحلـوةـ الرـقـيقـةـ فـیـ أـكـثـرـ شـعـرـهـ انـ لمـ يـكـنـ فـیـ شـعـرـهـ جـمـيعـاـ .
بلـ انـكـ لـوـاجـدـهـاـ حتـىـ فـیـ القـصـائـدـ التـيـ يـسـكـلـفـ الشـاعـرـ نـفـسـهـ أـنـ
يـكـونـ حـمـاسـيـاـ فـیـهاـ كـقـصـيـدةـ فـرـعـونـ وـقـوـمـهـ . بلـ أـنـكـ لـوـاجـدـهـاـ
حتـىـ فـیـماـ يـتـكـافـفـ فـیـهـ الـحـكـمةـ كـقـصـيـدةـ السـاعـةـ وـمـاـ نـظـمـهـ عنـ نـجـمـ هـالـىـ .
وـذـلـكـ طـبـيـعـىـ وـقـدـ كانـ اسمـاعـيلـ صـبـرـىـ مشـغـوفـاـ بـالـغـنـاءـ طـولـ حـيـاتـهـ
إـلـىـ غـيرـ حدـ حتـىـ كـانـ الـحـيـاةـ عـنـدـهـ قـطـعـةـ مـنـ الـموـسـيـقـىـ ، أوـ قـلـ كـانـ
خـيـرـ مـاـ فـیـ الـحـيـاةـ عـنـدـهـ قـطـعـةـ مـنـ الـموـسـيـقـىـ . وـكـانـ سـعـهـ أـكـرمـ حـوـاسـهـ
عـلـيـهـ . أـلـيـسـ فـیـ رـثـائـهـ يـقـولـ حـافـظـ اـبـراـهـيمـ :

لـقـدـ كـنـتـ أـغـشـاهـ فـیـ دـارـهـ وـنـادـيـهـ فـیـ زـهاـ وـازـدـهـ
وـاعـرـضـ شـعـرـىـ عـلـىـ مـسـمـعـ لـطـيـفـ يـحـسـ ذـبـوـ الـورـتـ
وـالـحـقـ أـنـ اسمـاعـيلـ صـبـرـىـ لـمـ يـوـلـمـ فـیـ حـيـاتـهـ بـشـىـءـ وـلـعـهـ بـالـغـنـاءـ ،

ولم يجاهدو هو في مناصب القضاء لترقية شئ عفي مصر اكثراً كثراً من جهاده
الترقية الغناء . كان ذلك شأنه من ذعير المغفور له الخديو اسماعيل باشا ،
أى منذ أن نشأ يقول الشعر إلى أن مات . وكان لا يقف من شعره الغنائي
عند الشعر العربي بل كان يختلط بالغنائين ورجال الموسيقى وكان
يضع لهم أدواراً باللغة المصرية . وكان لذلك موضع محبة رجال الفن
المusiقيين والغنائين واحترامهم .

ولقد كان له في هذا الباب فضل كبير : رفع الـ دوار الغنائية
من درك كانت فيه بفعلها ذات معان رقيقة تمثل عواطف طاهرة
وممولة سامية . وادواره (قدك أمير الاغصان) و(الفجر لاح
قوموا ياتجارت النوم) وغيره الاتزال من أفضل الدوار المصرية التي
تغني إلى وقتنا الحاضر . وقد عرفه الناس جميعاً بذلك حتى كان حجة
يرجع إليه . روى لي احمد شوقي بكل حادثة غاية في اللطف . تلك انه كان
عنه وهو يشغل منصب النائب العمومي يوم ما كانت مصر توج أفكار
أهلها بحادث سياسى وقع فيها . وفيها جالسان يتهدى من دخل حاجب
ومعه مظروف حكومى كبير فقطع ذلك حديهما وانتظر أن يجدا
فيه إشارة إلى الحادث السياسي وما يجب اتخاذه من الاجراءات بازائه .
فلما فض اسماعيل باشا المظروف وقرأ ما بداخله هز رأسه مبتسمـا .
ذلك أن على باشا شريف رئيس مجلس الشورى يومئذ قد بعث في هذا
الظرف بدور غنائي وهو يطلب إلى النائب العمومي اصلاحـه . وهذه
المناسبة قص اسماعيل باشا صبرى حادثاً وقع في قرطبة حين كانت
الدولة الإسلامية على وشك الزوال منها ، وكانت طرقها تجرى دماً
لا قتال الناس فيها . ذلك أن فتاة أطلت من نافذتها منادية صديقة

لما في نافذة مقاولة تطلب إليها وترأ تصاحب به عودها . وكذلك يطلب رئيس مجلس الشورى إلى النائب العام أن يصلح له دوراً غنائياً بينما تزوج البلاد بحادث سياسي لا تعرف تناجه .

ولهذا الولع بالنغمة وبالغناء ترى الكثير من شعر إسماعيل صبرى صالحًا لأن يكون صوتاً يغنى فيه . اسمع إلى قوله يخاطب سيدة تدعى الكسندرى

اتشى الدر يا سميرة أسكندرى
مدر لافت عقدة من فيك
وأميطى عن الحقيقة ما يك
جب عنا جماها من شكوك
وقوله :

أقصر قوادي فما الذكرى بنافعة
سلام الفؤاد الذى شاطرته زماننا
هلا أخذت لهذا اليوم أهبة
لهفى عليك قضيت العمر مقتضها
ولا بشافعة في رد ما كانا
حمل الصباية فاخفق وحدك الآنا
من قبل أن تصبح الاشواق أشجانا
في انوصل ناراً وفي المجران نيرانا

وغير ذلك مما يغنى فيه من شعر إسماعيل صبرى كثير
أنت لا تستطيع أن تطلب إلى شاعر بلغ من الرقة ما بلغ إسماعيل
صبرى وشغف بالغناء شغفه أن يكون ممن يجاهدون الحياة يحاولون
اخضاعها لرأيهم أو أن يكون قوى الإيمان بما في الحياة بشيء .
فالمرأة وجماها والغناء والحانه والموسيقى وأنفاسها صور يطرب لها
الحس وينطبع طريه في النفس فيدعوها إلى الطمأنينة للحياة
والاستهثار بما يشغل الناس أنفسهم فيها من شؤون ، والتوفير على
المتعة بهذا الطرب والحرص على استدامته والفوز بذلك من الموتى .
ويذكر الذين عرفوا إسماعيل صبرى معرفة صحيحة أنه كان كذلك .

لَكُنْكَ مَعَ ذَلِكَ تَرَى فِي شِعْرِهِ نِزَاعَاتٍ تَكَادُ تَكُونُ صَوْفِيَّةً . وَتَرَى
إِلَى جَانِبِ ذَلِكَ شَيْئاً مِنَ التَّبَرِمَ بِالْحَيَاةِ وَمِنْ إِشَارَاتِ الْمَوْتِ وَاسْتَعْجَالِهِ .
أَلِيسْ يُذَكَّرُ بِتَغْزِيلِ عُمَرَ بْنِ الْفَارَضِ شِيخِ الصَّوْفِيَّةِ فِي النِّدَاثِ الْأَكَمِيَّةِ
قُولُ اسْمَاعِيلِ صَبْرِي

يَارَبُّ أَهَانِي بِنِعْصَلِكَ وَأَكْفَنِي
شَطَطِ الْعُقُولِ وَفَتْنَةِ الْأَفْكَارِ
غَضْبُ الْلَّطِيفِ وَرِحْمَةِ الْجَبَارِ
يَاعَالِمِ الْأَسْرَارِ حَسْبِيِّ مَحْنَةٌ
عَلَى يَانِكَ عَالِمِ الْأَسْرَارِ
أَخَاقُ بِرِحْمَتِكَ الَّتِي تَسْعُ الْوَرَى أَلَا تُضِيقُ بِأَعْظَمِ الْأَوْزَارِ

أَوْ لَيْسَ الْحَكْمَةُ كُلُّ الْحَكْمَةِ فِي قَوْلِهِ :

أَوَاهُ لَوْ عَقْلُ الشَّبَابِ * وَاهُ لَوْ قَدْرُ الْمُشَيْبِ

أَوْ لَمْ يَقُلُّ الْفَلَكِيُّونَ أَنَّ نَجْمَ هَالِيَ الْمَذْنَبِ الَّذِي صَرَّ بِالْأَرْضِ فِي
سَنَةِ ١٩١٠ كَانَ سَيِّحَرْقَ الْأَرْضَ وَيَقِيمُ الْقِيَامَةَ فَابْتَهَجَ اسْمَاعِيلُ لِذَلِكَ وَقَالَ .

أَنْتَ نَعَمْ النَّذِيرُ يَانِجْمَ هَالِي زَلْزَلُ السَّهْلِ وَالرَّوَاسِيِّ ذَعْرَأً
أَنْ يَكُنْ فِي عِيْنِكَ الْمَوْتُ فَاقْذَفْهُ
أَغْدَأَ أَسْتَوْى الْأَنُوفَ فَلَا يَنْظُرْ
أَغْدَأَ يَصْبِحُ الْصَّرَاعُ عَنَاقَا
إِنْ يَكُنْ كُلُّ مَا يَقُولُونَ فَاصْدِعْ
بِالَّذِي قَدْ أَمْرَتَ حَيْثِتَ عَشْرَأً
بِلَ أَلْمَ يَدْعُ صَبْرِيَ الْمَوْتَ كَمَا دَعَاهُ فَوْسَتْ مَسْتَعْجَلَا إِيَاهُ كَيْ

يَنْقَذُهُ مِنْ عَذَابِ الدُّنْيَا حِينَ قَالَ :

يَامُوتُ خَذْ مَا بَقِتَ أَلَا * يَامْ وَالسَّاعَاتِ مِنْيِ
بَيْنِي وَبَيْنِكَ خَطْوَةً * أَنْ تَخْطَهَا فَرْجَتْ عَنِي
فَكَيْفَ مَعَ هَذَا كَلَهُ يَكُونُ لِشَا لِلْحَيَاةِ طَرُوبَا بِمَا فِيهَا فَزْعَا مِنْ

الموت ومن العدم، وكيف مع هذه الحكم التي نراه في شعره يكون كل شغله بجمال المحسوسات من منظور ومسنوع؟ هذا اعتراض يرد للذهبن لأول وهلة. لكن الشاعر لا يكون شاعر حكمة ولا شاعراً نفسانياً مجرد ذكره خواطر فلسفية وعمرها ذاكرته أكثر مما اهتزت لها نفسه. ثم هو لا يكون بما في الحياة مؤثراً الموت لبعض أبيات قد تدفأه إلى قوله شعوون خاصة. فالبيتان الأخيران اللذان رويناهما أنا قالهما إسماعيل صبرى — في رواية بعض من عرفوه — لما كان يلقى في حياته العائلية من أسباب الشكوى. وأما ذلك التصوف الذي زراه في الأبيات الأولى فليس إلا مظهراً لما وعنته الذكرة راجع نفس الشاعر في ساعات تغضن فيها النفس بنعيم الحياة حين يفيض عنها فيضاً يجعلها تستغفر وتتوب برها لتعود إلى نعيم الحياة وفيضه بعد ذلك مباشرة. فأما الشاعر النفسي فهو الذي يحس في أعماق نفسه بمعان قوية تظهر في شعره ولو تحدث عن ظواهر تعددها أنت وأعدها أنا تافهة في الحياة. من ذلك كثير من شعر أبي العلاء المعري. ومنه كثير من شعر الأفرنج. كنت أعيد منذ بضعة أيام قراءة قصيدة (موت الذئب) لالفرد دفيني واستعيد منها المعانى القوية التي تحييش في نفس الشاعر الفرنسي وتنتجلي في كل قصائده. مثل هذا الشاعر النفسي أن كان دينياً يرى في جمال المرأة وفي تجاوب الموسيقى وفي ألحان الغناء معان دينية. وهو يرى هذه المعانى الدينية في موت طفل وفي موت ذئب كما يراه في الحب وفي كل صورة من صور الحياة ولون من ألوانها. وإن كان شاعر عاطفة أو شاعر فاسفة تجلت العاطفة والفلسفة في شعره كله. فإذا رأيت له شعراً

لايعرف الجانب النفسي القوى من جوانب حسه أو شعوره أو تفكيره
كان لك أن تحكم بأن ما خزنته الذاكرة مما لم يؤثر في النفس أثراً
عميقاً هو مبعث هذا الشعر . وما تخزنـه الذاكرة مما ينظمـه الشاعر
ليس هو المـعبر عن نظرـته للحياة وتقديرـه لما فيها .

كان اسماعيل صبرى إذن متاثراً بما تتأثر به العين والاذن من
صور الحياة وألوانها . وكان هذا هو الذى يوقع على وتر عاطفـته
أنفـامـ شـعرـه . وكان شـعرـه لـذلك جميلـ الـلفـظـ غـایـةـ الـجـمالـ . وكان تأثيرـهـ هـذاـ
يـجعلـهـ معـنىـاـ بـالـجـمالـ الـلـفـظـىـ أـكـثـرـ مـنـ كـلـ شـاعـرـ سـوـاهـ . وـاـنـكـ لـتـجـدـأـمـاـكـ
فيـماـ نـقـنـاـ لـكـ هـنـاـ مـنـ شـعـرـ مـظـارـ ذـلـكـ وـاضـحـاـ جـلـيـاـ . فـربـ فـكـرـةـ
عادـيةـ أـوـ صـورـةـ تـرـأـمـاـكـ كـلـ يـوـمـ تـجـدـهـ فـهـذـاـ شـعـرـ فـإـذـاـ بـهـ
قدـ اـكتـسـتـ روـقاـ وـبـهـاءـ ماـكـانـ لـهـ أـنـ تـكـتـسـيـهـاـ لـوـ أـنـ شـاعـرـأـ
آـخـرـ هوـ الـذـىـ صـاغـهـ . وـالـظـاهـرـ أـنـ هـذـهـ التـزـعـةـ الـقـوـيـةـ عـنـ اسمـاعـيلـ
صـبـرـىـ كـانـتـ ذاتـ أـثـرـ كـبـيرـ فـيـ الشـعـرـ الـعـرـبـىـ فـيـ هـذـاـ عـصـرـ . فـخـافـظـ

ابـراهـيمـ لـأـيـابـيـ أـنـ يـدـعـوـ اسمـاعـيلـ صـبـرـىـ استـاذـ وـاسـتـاذـ شـوـقـ .
شـوـقـ لـأـيـابـيـ أـنـ يـعـتـرـفـ بـاـنـ هـذـهـ النـظـرـةـ الـتـىـ كـانـ يـنـظـرـ بـهـاـ اسمـاعـيلـ
إـلـىـ شـعـرـ أـثـرـ فـيـهـ هوـ تـأـثـيرـاـ غـيـرـ قـلـيلـ . وـلـمـ يـنـشـأـ مـنـ الشـعـراءـ فـيـ
الـعـهـدـ الـاـخـيـرـ مـنـ كـانـتـ لـهـ فـيـ الشـعـرـ نـفـسـيـةـ خـاصـةـ تـخـالـفـ نـفـسـيـةـ

اسمـاعـيلـ صـبـرـىـ لـتـطـبـعـ الـجـيلـ الـجـدـيدـ كـمـ طـبـعـ هـوـ بـطـابـعـهـ جـيلـهـ .

وـلـاـ أـسـتـطـيـعـ أـنـ أـخـتـمـ هـذـاـ بـحـثـ الـعـجلـ عـنـ اسمـاعـيلـ صـبـرـىـ
مـنـ غـيـرـ أـنـ أـضـعـ أـمـاـمـ الـقـارـىـءـ اـبـيـاتـ اـرـتـجـالـهـ تـسـيلـ رـقـةـ وـتـعـبـ أـرـقـ تـعـبـ
عـنـ هـذـهـ الـنـفـسـيـةـ الـتـىـ كـانـتـ تـرـىـ الـعـاطـفـةـ كـمـ كـانـتـ تـرـىـ كـلـ مـاـفـ

وَالْيَقِنَاتُ أَحْسَنَ الْمَنْظُورَاتُ وَفِنْدِمَوْعَلِهِ لِرِجَالِهِ لِإِيمَانِهِ فِي الْأَبْنَى مِنْ تَغْيِيرِ
الْأَمْرِ حِفْنَةِ الشَّيْخِ عَلَى يَوسُفِهِ فَقَالَ قَاتِنُهُ إِنَّهُ نُبُوْجَهُ نُبُوْجَهُ نُبُوْجَهُ
وَلَا شَاءَ يَلْمَلِي ؟ الْعَيْنُ لَوْلَا هُنَّ فَلَقْوَاهُ هُوَيْهُ إِنَّهُ شَعْبَهُ هُوَ لَقِيَهُ
لَيْهُ إِنَّهُ وَالْبَيْتُ لِإِنْسَانِهِ قَهْلَهُ أَهْلَهُ الْقَمَرِيَّةِ .

نَهْ نَلَّا تَخْلُلِ إِفْكَهُ بِمُطْلَقِكَهُ أَنَّ الظَّلَامَ نَهْ بِعْدَهُ نَهْ لَهُ
مَتَّفَلَهُ نَهْ لَهُ وَقَوْيَهُ نَهْ فَالزَّمَمُ افْكَانَكَهُ لَا يَحْلِلُهُ بِعْدَهُ إِلَيْكَ دَرِيَهُ
إِنَّهُ يَقْنُنُ الْحَقِّيَّةَ إِلَيْكَ لَفَخَدَهُ بِأَنَّهُ يَعْلَمُهُمْ بَعْدَهُ نَهْ
ثَلَاهُ لَأَنَّهُ مَنَّا ثَلَاهُ وَفِيهِمْ لَهُ إِذْ قَضَيْتَ النَّابِرَ بِالْيَسْعَرَعَجِيَّةِ
وَجَرَهُ بِوَاعِنِ لِأَبْلَعَ عَتَبِكَهُ شَلَّالِيَّكَهُ أَسْيَشَنَهُ لَهُ ثَلَاهُ لَنَقْرَيَّةِ
لَهُ إِنَّهُ عَشَّا إِنَّهُ فِي لَعْوَمَنْهُ بِكَاعَ الشَّكَالِيِّ وَالسَّيْلِ وَالْمَطَيِّرِ لَهُ
أَهْلَشَقَنْ أَكَوْمَتِ دِيَحَانَةِ فِي الْبَيْتِ لِأَحَدَهُ لَقَعَ تَسْتَحَ أَمَدَهُ
رَلِيَهُ لَهُ إِنَّهُ قِرْقَانَهُ هَيْرَوْجَ فِي لَهُ لِيَغْلُو وَلَقْحَهُنَا الْعَطْرَنَهُ
لَفَلَافَهُ مَا كَانَ أَعْشَكَ فِي الْأَحْيَاءِ مُخْتَصِّرًا بِنَهْ تَنَاهُ رَبِّهِ
. قَعْشَنْ لَتَسَاعَهُ لَقَسَهُ إِلَّا كَمَاهُ لَهُ الْزَّهْرَهُ

فَارِحَلِيَّ تَشَيْعَكَهُ أَلَادَواحَ جَازِعَهُ
لَيَدِهِ لَهُ
فِي لَهُ عَشَانَهُ لَشَنِيَّهُ . فِي لَهُ ذَمَّةَ اللَّهِ بَعْدَهُ لَيَفِي لَهُ لَيَفِي لَهُ لَهُ
قَيْسَهُ سَفَلَهُ قَسَلَهُ قَيْسَهُ عَشَانَهُ مَاتَنَاهُ نَهْ بِيَضَّ كَالْمَهْمَهَ
لِيَلِيكَ وَقَدْ رَأَيْتَ مِنْ أَسْمَاعِيلَ صَبَرِيَّ وَشَجَرَهُ هَذِهِ الْفَنِسِيَّةِ
وَالْمَشْغُوفَةِ بِالْأَلْوَانِ تَشَعَّرُ إِلَى جَانِبِهِ هَذِهِ بَعْزَلَهُ شَعْرِيَّهُ كُلُّ مَنْ يَقْرَأُ
يَشْقَرُ أَسْمَاعِيلَ صَبَرِيَّ مِنْ إِنَّهُ يَكَانُ شَيْعَرًا مَطْهَرًا لِجَهَنَّمَهُ وَمَرْقَنَهُ أَنَّ
عَنِ النَّرْعَةِ الْبَدُوِيَّةِ كَافَتِ الْأَتْعَوْفُ سَبِيلًا إِلَى نَفْسِهِ ، وَإِذَا الرَّاقِهِ الَّتِي تَسِيلُ
بِهَا جَوَابَ وَادِي النَّيْلِ وَالْمَهْفُوْلِ الَّذِي يَظْلِمُ سَمَاءَهُ وَالْخَضْرَةَ النَّضَرَةَ

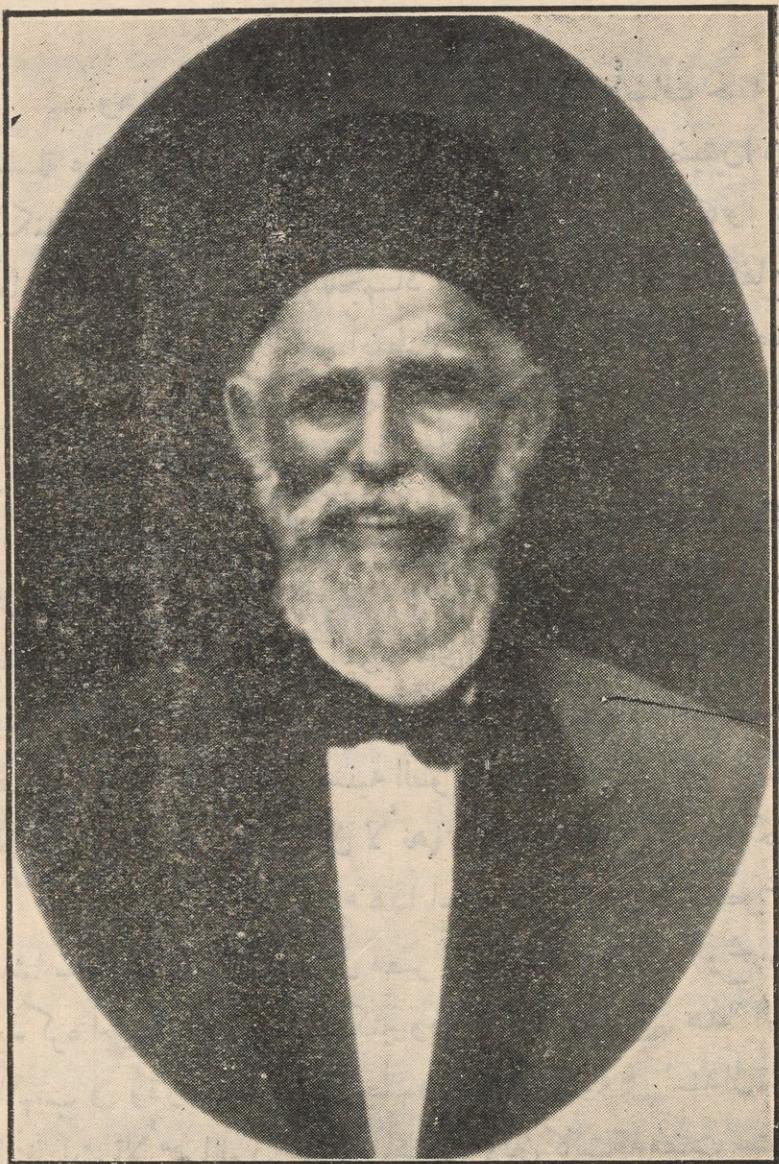
التي تزين جنباته وأغاريد الطير في هوائه الرقيق ، كل ذلك كان ينعكس في نفس اسماعيل صبرى بقوة لا تراها في كثيرين غيره من الشعراء . ولعلك لذلك ذقر له باللقب الذى لقبه به معاصر وده : لقب شيخ الشعراء .

و قضى حياته مغبطا بالحياة ، حتى اذا كان في آخريات أيامه أصابته ذبحة صدرية قعدت به عن أذن ينعم بشيء في الحياة خمس سنوات تبعا ، ولعل بيته يخاطب الموت :

بيانى وبينك خطوة * ان تخطها فرجت عنى
كان يصدق عليه خلال هذه السنوات الحمس الصدق كله .
وقد خطى اليه الموت هذه الخطوة في منتصف ليل ٢٠ مارس سنة ١٩٢٣ . وقضى يومئذ متجملا معه مدرسة حافلة من مدارس الشعر ومذهبها جليلًا من مذاهب تقدير الجمال . قضى وخلف بعده من أثره مجموعة أشعار لم تطبع بعد لانه كان يقول انه وهب شعره للنسىيان . وتلك هبة لن تم . فالنسىان لا يتطرق الى السکال ولا يعود على الجمال . لذلك نشر من شعره الشىء الكثير وحفظ أصحابه مالم ينشر . ولعلنا نسعد بروؤية مجموعة شعره مطبوعة عما قريب .

- ۱۹۷ -

محمد باشا سلیمان



(۱) ۱۹۷۰ء (تھہری) ۶۷۷ جم ۲۷۷

... وهذا أيضاً محمود سليمان باشا قد مات ، فأضاف حمزة إلى سلسلة عظاء مصر الدين ودعوا عالمنا هذا في السفتين الماضيتين (١). لكنه ودعا على صورة غير تلك التي ودعوه عيّنا . هم كانوا ين بمحاجد تحفذه قوى الشباب للجهاد ، وأآخر بعض طبعه الكفاح ، وثالث اضطرار لاعتزال الناس اضطراراً . أما هو فخاهد نخير وطنه في شبابه ، ثم جاهد لف كهولته ، ثم جاهد له وقد نيف على التسعين ، وبعد اعتزامه الانقطاع إلى الله وعبادته . فلما دب الخلاف بين المصريين واندلع لهيب الفتنة في البلاد نأى عن انتمنته مختاراً وعكف على ما اعتاد من عبادة وتقوى ، وظل في تقواه وفي عبادته ينتظر بقلب مطمئن ونفس هادئة اليوم الذي يختاره الله فيه إلى جواره . فلما كان عصر يوم الثلاثاء الماضي أغمض عينيه عن عالمنا هذا ليفتحها هناك في العالم الذي قضى سنيه الطويلة يرجوه ، عالم أجر وسعادة لا يعرفان الزمان ولا المكان لأنهما يسموان على كل زمان ومكان . وليس كثيرون من أبناء هذا الجيل من يذكرون شخص محمود باشا سليمان ، وإن كانت أجيال مصر المتعاقبة ، وكان تاريخ مصر يذكره أطيب الذكر . ليس كثيرون من يذكرون هذا الرجل الأهيبي في وقاره النحيف في جسمه الطويل القامة في اعتدال ، الحاد النظرات الأسود اللون الجليل المشيب . ولئن كانت قد مضت سنوات

(١) كتبت هذه الرسالة لمناسبة وفاته في ٢٢ يناير سنة ١٩٢٩

لم أره فيها، فاني ما لرالع أذكر أول مرارة رأيتها، وكفتنها برأيها
طالباً بالحقوق ، وكنت تارياً على شرطه». أخيراً يلقى اهتماماً لعمري الذي استدعايناه
لطفى بك السيد . فيدينا أننا هناك فى الحقيقة أيام وليقى نحن نلتقط المرة
دخل محمود باشا سيمان فى أيام العحضر وفى الحال والحرام وقد مني
له لافى بك . وأشهد لقد جاست يوم عنة وفى نفسى شئ عالم تارى بهما
أمام هذا الشيخ الذى يحمل طى ستجاعيد وجهه كمحض العجيدة فمن لا واسع
مصر . جاست وجعات أحوال أن اختلس ، في نظرات يدخلها
الحياء والخوف ، صورة رئيس حزب الامة آتتها يتحدث إلى كاتب
حزب الامة . وانتظرت أن يتكلم ، فمضت لحظات خاطئ طويلاً
طويلة وخلت معها أن وجودى قد يحول دون الشيخ والكلام ،
فاستذنت وانصرفت . ولم أره بعد ذلك غير موات قيملة كانت
الأخيرة منها حين كان رئيساً للجنة الوفد المركزية وحين كانت تتعلق
باسمها آمال الوفد المصرى فى أوربا ، وأمال المصريين فى تصدير منه نـ
هذا الرجل قد غادر نابعه أن طوى رحلة الحياة فى أيام وتوعدة ووقارئه
وانتقل منها فى مثل هذه التوعدة والأناة والوقار الى جوار ربه وما يرجلوا
من حسن ثوابه . غادرنا بعد إذ خلف وراءه تاريخاً حافلاً جليلاً
وذكراً لالتشوب سواطع نوره شارة من ظلام . فلاته وبه هذه
الرجل حياته كلها الله ولوطنها ولا بنائهما . كان فى عهد المغفور له اسماعيل
باشا الخديو رجلاً كاملاً مسموع الرأى نافذ الكلمة ، ترك عمدية
بلده ساحل سليم وناظرة القسم التى تتبعه الى وظائف وكيل مديرية
في جرجا وفي أسيوط . فلما صدر القانون النظمى بعقد مجلس النواب
في عهد توفيق باشا تقدم للنيابة عن الامة وانتخب عضواً ب مجلس

النواب وألقى عليه أن يلقى خطاب العرش ، وكان له في هذا المجلس
موافق يذكرها له التاريخ . فلما شبت نار الثورة العرابية كان من
بعيدى النظر الذين قدروا ما يمكن أن يصيب البلاد من جرائمها ،
فتنحى عن الاشتراك فيها كما تنحى بعد ذلك عن الاشتراك في النظام
الذى أعدتها . فمع هذه الانسحانة الكبيرة التي كانت له ، ومع ما أظهر
من مقدرة في مجلس النواب الذى سبق الثورة ، ومع أنه لم يكن
من أنصار الثورة وأعوانها ، فإنه لم ير بعد فشل الثورة واحتلال
الإنكليز مصر أن يتقدم للعمل العام تحت النظام الجديد الذى سنه
الإنكليز مصر حين استصدروا من الخديو قانون مجلس الشورى
والجمعية العمومية ، بل تنحى عن العمل العام وترك القاهرة إلى
الصعيد ، وعكف على عمله الخاص وعلى البر بالفقراء . وظل كذلك
من سنة ١٨٨٢ إلى سنة ١٨٩٥ حين أخرج به ظرف محل خاص
من هذه العزلة وجعله يتقدم لعضوية مجلس الشورى ، وما لبث أن
عاد إلى القاهرة وإلى العمل العام حتى انتخب وكيلًا للمجلس وحتى
كانت له فيه مواقف مشهودة . وإذا كان للتاريخ أن يذكر السابقين
إلى مطالبة الانجليز بأن يخلوا بين مصر ووضع نظام الحكم فيها ،
فقد كان المغفور له محمود باشا في مقدمة هؤلاء . كان في مقدمتهم منذ
كان عضواً في مجلس الشورى وحين ترأس بعد ذلك حزب الأمة .
وإذا كان للتاريخ أن يذكر السابقين إلى الأحزاب المنظمة ، فإن محمود
سلیمان باشا هو أول من ترأس حزباً ذا برنامج ونظام في مصر . فقد
كانت الأحزاب المصرية إلى يوم تشكيل حزب الأمة تقوم على
فكرة الدعوة لعمل واحد معين . فالحزب الوطنى أيام عرابي باشا

كانت مطالبه محصورة في الدستور وفي التسوية بين المصلحين والاتراك من رجال الجيش . والأحزاب والهيئات التي جاءت بعد ذلك كانت تطلب مطلبًا واحداً كجلاء انكلترا عن مصر أو ما هو من ذلك بسبيل . أما حزب الأمة فكان أول الأحزاب التي وضعت لها برنامجاً مفصلاً يتناول مرافق البلاد السياسية والاقتصادية والاجتماعية جائعاً . وعلى هرجه سلكت الأحزاب الأخرى بعد ذلك

ولقد تألف حزب الأمة على هذه الصورة في آخريات سنة ١٩٠٧ وببقته الجريدة، التي كانت بعد ذلك لسان حاله، بشهور . وكان رئيس شركة الجريدة ورئيس حزب الأمة هو المغفور له محمود باشا سليمان . فلما حدثت بعد ذلك بسنوات، أسباب الخلاف بين المسلمين والأقباط وكان من أثرها أن عقد الأئمرون مؤتمرأسيوط يتممون فيه حكومات ذلك العصر بانها تنهي الأقباط عن مناصب الحكم ولا تعطيهم حظهم الكامل منها، وكانت هذه الحركة خطيرة النتائج ، كان محمود سليمان باشا من الذين تقدموا للقضاء عليه ولاعادة الألفة بين العنصرين . ولذلك قالف المؤتمر المصري بهيو بوليس واختار المغفور له رياض باشا رئيساً له ومحمود سليمان باشا وكيله ، وفند من اعم الأقباط يومئذ وأظهر الناس على أن لهم من مناصب الحكم أكثر من نسبتهم العددية بكثير ، ودعاه إلى أن يكونوا في وحدة الأمة صفاً .

وجاءت الحرب الكبرى وكان محمود باشا قد جاوز المائتين وحق له أن يستريح من عناء العمل وأن يخلص كل نفسه لله في انتظار لقاءه إيمانه . والحق أن صفحات الجهاد التي كانت له في ماضيه وما قام به كأب

من حسن العناية وجميل البر بأبنائه كان كافياً وفوق الكفاية ليكتب لهذا الرجل صحيفه بمحنة باقية . وصحت عزيمته على الاعتزال والانقطاع لله حتى لقد خرج من ماله لا بناء في سنة ١٩١٦ واعتزم عيش الزهداده والذنك و تمام الانقطاع لله . وما أجمل «هذه الشيخوخة الظاهرة المنزهة عن شوائب الهوى والتي قامت فيما سبق لها من سني الحياة بما يطاب الى الرجل من جد وبر وتقوى ، تقضى في حساب النفس والقربى الى الله ورجاء مغفرته وثوابه . ما أجمل الشيخ يصل الى قمة الحكمة بعد أن يطوف من الحياة بشهواتها وأهواءها ومطامعها وما لها وبمجدها فتدعوه الحكمة إلى أن ينظر إلى الأهواء والمطامع والشهوات جميعاً نظرة اصغر أن كانت لا بقاء لها ولا متعة للنفس بها ، وإنما المتعة بامتعان النظر في الكون واستكناه مافيته من خير وحق وجمال .

على أن الأقدار كانت قد احتفظت بأسر نصفحة أخرى من صفحات المجد يخطها محمود سليمان باشا . ليكمن لشيخوخته عليه حق ، ولتكن خير خاتمة المرأة أيام تقضي في العبادة والتقوى ، ول يكن محمود سليمان قد خرج من دنياه تاركا إياها إلى أولاده وانقطع لنفسه ولربه - ليكن ذلك كاه فان للوطن مع ذلك عليه حقاً . وهو لم ينس يوماً حق الوطن عليه . لذلک ما كادت الحرب العامة تضع أوزارها ، ثم ما كادت الحركة الوطنية المصرية تبدأ ، حتى اذا هذا الشيخ خرج صرفة أخرى من عزلته و جاء ينضم الى صفوف المجاهدين لاعلاء شأن الوطن ورفع منارة وتقديس كلّيته . ولئن كان قد نيف على المئتين فلن تزيد هذه سنة ولن يزيد مجده ومقامه

وعظمته الاحرصاً على الوقوف في الصف الأول من صفوف المجاهدين،
وأن يكون في مقدمة من يتعرض لما يصاب به من يتعرض للدفاع عن
عذمة هذا الوطن واستقلاله. وكان منظراً يهر النفوس ما فيه من
مهابة واجلال. فلقد جلس محمود باشا في رئاسة لجنة الوفد المركزية
يوم كانت البلاد تضطرب أشاؤها من أقصاها إلى أقصاها ويوم كانت
الا حكام العرفية بالغة قسوتها أعظم مبلغ ، جلس في رئاسة لجنة الوفد
المركزية وجعل من داره كعبة قصاد خدمة الوطن وأقسم لا يتزحزح
الآن تزحزحه القوة . وأرادت القوة يوماً أن تبتلى ثباته وعزمه
فاصدرت إليه الأمر أن ييرح القاهرة ، فإذا به لا ييرحها حتى ذهبوا
إلى ذهبته وأبعدوها عن ميدان العمل السياسي على كره منه . ولذلك
كان في ذلك ، كما كان في غيره ، سباقاً إلى مثل التضحية والمكانة العالية.
وكان في هذا مثلاً عالياً من النزاهة والتضحية لخير الوطن .

ولما آن للبلاد أن تنقسم بعضها على بعض وأن تقوم بين أهلها
الفتنة ، اعتزل الميدان نهائياً وأن لم ينس قديم صلاحه بأصدقائه سواء
منهم من كان في فريقه السياسي ومن كان في فريق مخاصمه . وعلى اشتداد
الخصومة في وقت من الأوقات بين الاحرار الدستوريين والمغفور
له سعد زغلول باشا فإن محمود باشا سليمان كان أسبق من أرسل إلى
سعد باشا على أثر عودته من جبل طارق ينهيه بسلامة مقدمه .
وكذلك كان في هذه كما كان في غيرها عظيمها ساماً فوق شهوات
الساعة ، كبيراً عن أن يتاثر بالهواء الطارئة .

ومن يوم اختلفت الأحزاب في مصر عكف هو على ما كان قد اعتزم من السنوات من الانقطاع لله ولعبادته . وظل كذلك حتى

ارتضاه الله الى جواره يوم الثلاثاء ٢٢ يناير سنة ١٩٢٩ . ارتضاه الى
جواره خلف هذه الدنيا في أيام و töدة و حكمة كما عاش نيرا في أيام
و töدة و حكمة .

فَلَمَّا مَرَأَهُ الْمُؤْمِنُونَ قَالُوا إِنَّهُ مُرْسَلٌ مِّنْ رَّبِّهِ
وَإِنَّهُ يَنذِّهُنَّ أَنَّهُ مُنْذَّهٌ مِّنْهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ
وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ
وَلَمَّا سَمِعْتُهُ أَقْبَلْتُ عَلَيْهِ وَقَالَ لِي
أَنْتَ مُؤْمِنٌ مَّا تَرَى فِي الْأَرْضِ
أَقْرَأْتُهُ مِنْ كُلِّ مَا يَعْلَمُ
أَقْرَأْتُهُ مِنْ كُلِّ مَا يَعْلَمُ

أَقْرَأْتُهُ مِنْ كُلِّ مَا يَعْلَمُ
أَقْرَأْتُهُ مِنْ كُلِّ مَا يَعْلَمُ
أَقْرَأْتُهُ مِنْ كُلِّ مَا يَعْلَمُ
أَقْرَأْتُهُ مِنْ كُلِّ مَا يَعْلَمُ
أَقْرَأْتُهُ مِنْ كُلِّ مَا يَعْلَمُ
أَقْرَأْتُهُ مِنْ كُلِّ مَا يَعْلَمُ
أَقْرَأْتُهُ مِنْ كُلِّ مَا يَعْلَمُ
أَقْرَأْتُهُ مِنْ كُلِّ مَا يَعْلَمُ
أَقْرَأْتُهُ مِنْ كُلِّ مَا يَعْلَمُ
أَقْرَأْتُهُ مِنْ كُلِّ مَا يَعْلَمُ
أَقْرَأْتُهُ مِنْ كُلِّ مَا يَعْلَمُ

أَقْرَأْتُهُ مِنْ كُلِّ مَا يَعْلَمُ
أَقْرَأْتُهُ مِنْ كُلِّ مَا يَعْلَمُ
أَقْرَأْتُهُ مِنْ كُلِّ مَا يَعْلَمُ

-٢٠٥-

عبد الخالق ثروت باشا



ما أحسب بقية من الهجاء التي منيت بها الامم كانت أشد
وقدماً على النفوس من بقية مصر في المغفور له عبد الخالق ثروت
باشا . وما أحسب رجلاً وجلاً خصوصه كما وجل أصدقاؤه لفقدده ، كما
اشترى أصدقاء هذا الفقيه العظيم وخصوصه في وجده لرحلته رحلة
الابد . ثم ما أحسب العقل والعاطفة والحواس جميعاً اهتز بالحسنة
وبالإسى اهتزازها لهذا الحادث الذي رج نفوس الناس رجاً بل
دكها دكاً . ولن أنسى ما حييت تلك اللحظة الأسيفة التي عرفت
فيها الخبر إثر الوفاة بسويعات حين دخلت إلى صالون السيدة المحترمة
هدى هام شعراوى بباريس فألفيتها وألفيتها الاستاذ الكبير
هليباوى بك وألفيتها زائرهما وكلاهم باكتو العين والفؤاد وكلاهم
في شبه ذهول لما أصاب مصر في مครع هذا الرجل الذي كانت
تعتبره مصر كلها ملادها اذا حزب الخطيب وضلت بساسته مصر
وساسته انكلترا السبيل . ثم لن أنسى ما حييت اسراع المصريين
وأصدقائهم مصر الاجانب الى سكنه في باريس بشارع أنانيل دلافرج
Anatole de la Forge وليس منهم من يقف فزعاً لوفاة رجل كان
له بعده في الحياة سعة ، بل كلهم أشد فزعاً لمصر وما أصابها بفقد
هذا الربانى الذى اختاره القدر ليسير بدفعه سفينتها حين التعارض
الهوجاء فى نقادها من أدق المواقف . لن أنسى هذا ، ولن أنسى صاحب
الدوله عدى باشا يكن فى منزل القيد وفى مشهد جنازته بباريس وهو

يتسائل عن الوفاة وكيف كانت في جزع دونه جزع الاخ لفقد اعز
اخ له عليه، وهو يحاول حبس عبرته فتخونه كما تخون جميع الذين
شهدوا صندوق جثمان الفقيد ينقل من عربة الجنازة الى عربة السكة
ال الحديدية . وكيف ينسى انسان هذا وما أحاط بالفاجعة ولكل انسان
«هن» هذه الفاجعة الالمية نصيب لأنها فاجعة مصر وفاجعة السلام ؟
منه في ويلى القدر الا أن يحيط هذه الفاجعة بما يزيدها هولا ، إذ
ليختطف الوجل في بلاد ذاتية عن وطنه ويختطفه على عجل ، كاذ للقدر
عذبي مصل ثار لا تمداً ثأرته إلا اذا أشعرها أمّاً موجعاً ينقض
ة للاضlosure بعضاً على بعض . فلقد كان ثروت في صحته حين جاء الى
باريس من سان مورتن يوم الاثنين السابع عشر من شهر سبتمبر
السنة ١٩٢٨ — أي قبل وفاتهخمسة أيام . فلما كان يوم الجمعة
الحادي والعشرين من سبتمبر خرج في الصباح كعادته وعاد بعد
الظهر بقليل يشكوا أمماً في الكتف وفي الظهر . واستدعي طبيب
الجامعة فشخص الحالة ورأى أنها بسيطة لا تزيد على روماتزم يزول
هذا في زمن قصير . لكن الالم تزايدت أثناء الليل . فلما جاء
محمد على دلاور بك في الصباح ليعود صديقه رأى معه ضرورة
استدعاء استاذ اخصائى أحاجيم أنه سيكون هناك في الساعة الواحدة
والنصف وقت الظهر لا ينكر لا يستطيع ترك المستشفى الذى يعمل
فيه قبل هذا الموعد . وحضر الاستاذ الطيب في الموعد ، فلما خص
المريض في سهره وخرج الى قاعة الاستقبال خرج دلاور بك
في آخره يأساً لمدرأته وكلدريأيا مروعاً فالناس اعتبرته ديهة صلدية
ملائكة واستطاعوا جعلها ساعتين كلان في نجاح حبيبه شع من الامل .

لـكن الطـبـيـبـ في شـكـ من اسـتـطـاعـةـ اـحـمـالـهـ إـيـاهـاـ وـهـ مـاـ كـادـ يـغـادـرـ
غـرـفـةـ الـاسـتـقـبـالـ إـلـىـ سـلـمـ الدـارـ حـتـىـ اـذـ ثـرـوتـ باـشـاـ قـدـ شـعـرـ بـأـنـتـفـسـ
يـضـيقـ شـمـ يـضـيقـ ،ـ فـيـؤـلـمـ ذـلـكـ وـيـوـجـعـهـ .ـ وـلـكـيـ تـخـفـفـ مـنـ
هـذـاـ الـأـلـمـ لـرـفـعـتـ السـيـدـةـ الـمحـترـمـةـ زـوـجـتـهـ إـيـاهـ إـلـىـ صـدـرـهـ .ـ شـمـ لـمـ تـكـ
إـلـاـ لـحظـةـ حـتـىـ شـعـرـ إـلـاـشـاـ بـشـىـءـ أـنـظـقـهـ فـيـ دـهـشـةـ وـعـجـبـ بـلـفـظـ «ـالـلـهـ»ـ
وـكـانـتـ هـىـ آخـرـ كـلـمـةـ قـالـهـاـ .ـ فـانـ شـرـيـانـاـ مـتـصـلـاـ بـالـقـابـ اـنـفـجـرـ فـيـ هـذـهـ
الـلحـظـةـ أـشـعـرـهـ اـنـخـطـرـ حـينـ لـمـ يـكـمـلـ إـلـىـ دـفـعـ اـنـخـطـرـ سـبـيلـ وـلـاـ إـلـىـ اـتـقـاءـ
الـكـارـثـةـ الـتـىـ تـفـجـرـ هـاـ فـوـادـ مـصـرـ وـسـيـلـةـ .ـ وـنـوـدـيـ بـالـطـبـيـبـ فـعـادـ
فـاـذـاـ بـهـ أـمـامـ جـلـالـ الـمـوـتـ وـكـانـ مـنـ بـرـهـةـ أـمـامـ رـجـلـ أـلـبـسـتـهـ الـحـيـاـةـ
وـأـلـبـسـهـاـ كـلـ حـالـ الـجـلـالـ .ـ

وـكـائـنـاـ أـرـادـ الـقـدـرـ إـذـ كـتـبـ لـوـحـ أـجـلـ ثـرـوتـ فـيـ بـارـيـسـ بـعـيـداـًـ
عـنـ بـلـادـهـ وـكـتـبـ عـلـىـ زـوـجـهـ اـنـ تـكـونـ فـيـ هـذـهـ السـاعـةـ العـصـيـةـ إـلـىـ
جـانـبـهـ ،ـ أـنـ يـحـيـطـ الـفـجـيـعـةـ الـمـفـزـعـةـ بـمـاـ يـخـفـفـ مـنـ هـولـ وـقـمـهـاـ ،ـ جـمـعـ
بـيـارـيـسـ فـيـ هـذـهـ الـفـقـرـةـ جـمـاعـةـ مـنـ اـخـصـاءـ ثـرـوتـ وـأـصـدـقـائـهـ وـمـحبـيهـ
وـعـارـفـ فـضـلـهـ فـيـ خـدـمـةـ بـلـادـهـ .ـ جـمـعـهـمـ لـيـكـونـواـ إـلـىـ جـاـفـ جـمـانـهـ
وـلـيـحاـولـواـ عـزـاءـ زـوـجـتـهـ وـوـلـدـهـ دـصـطـفـيـ الـمـقـيـمـيـنـ مـعـهـ .ـ وـقـامـ
اـصـرـيـوـنـ الـمـقـيـمـوـنـ فـيـ بـارـيـسـ وـطـائـقـهـ كـبـيرـةـ مـنـ الـفـرـنـسـيـنـ وـغـيـرـ الـفـرـنـسـيـنـ
فـيـ الـيـوـمـيـنـ الـلـذـيـنـ انـقـضـيـاـ بـيـنـ الـوـفـاةـ وـتـشـيـعـ الرـفـاتـ فـيـ سـفـرـهـاـ لـتـسـتـقـرـ
فـيـ ثـرـىـ الـوـطـنـ بـكـلـ مـاـ يـجـبـ لـثـرـوتـ مـنـ اـكـرـامـ وـاجـلالـ .ـ

وـفـيـ هـذـيـنـ الـيـوـمـيـنـ الـلـذـيـنـ انـقـضـيـاـ بـيـنـ الـوـفـاةـ وـتـشـيـعـ الـىـ
ثـرـىـ الـوـطـنـ كـنـتـ تـسـمـعـ مـنـ الـمـصـرـيـنـ جـمـيعـاـ عـبـارـةـ مـلـكـتـ عـلـيـهـمـ الـبـاـبـمـ :ـ
مـنـ ذـاـ يـحـلـ عـنـدـ اـمـشـاـ كـلـ اـذـ تـعـقـدـتـ بـعـدـ ثـرـوتـ !ـ كـنـتـ تـسـمـعـ هـذـهـ

العبارة تصدر منهم جميعاً على اختلاف نحليهم وأحزمتهم . أو لم يكن هو دائماً المؤئل الذي يلتجأ إليه المصريون مهما علت أقدارهم والذى يلتجأ إليه الانكليز حين يخرب الامر ولا يكاد انسان من الناس يرى له من طريق السلام فرجاً ولا حلاً ؛ لذلك كان الكل ينظرون إليه كأنه الربان الذى ينقذ السفينة كلما ارتطمت على الصخر وخيف عليها ان تتحطم . فطبعيى أن يتسائل الكل عنمن يحل عقد المشا كل اذا تعقدت بعد موته .

ولعل احداً لم يذكر في وفاة ثروت مصاب زوجه وأبنائه فيه ، لأن الناس نسوا في هذه الوفاة كل مصاب غير مصاب الوطن . مع هذا فمصاب بني ثروت ومصاب أصدقائه فيه كأم وكصديق فادح فاجع كمصاب الوطن سواء بسواء . فلقد كان أباً لأب بأبنائه وأوفي صديق لا صدقائه . بل ان الذين عرفوه أباً ليذكرون كم كان بره عظيماً وكم كان حنانه أعظم من بره . وكم كان صديقاً لابنائه بمقدار ما كان أباً لهم . وكم كان يجد في صداقتهم له ما يزيد في عواطف الآباء والبنوة سمواً ورقة . وان الذين عرفوه صديقاً ليعرفون له من الوفاء لهم ما قل ان يكون له في صديق مثال . ثم هو الى جانب ذلك كان حصافة الرأى ونبيل الشمائل . والشهامة والذكاء صورت كلها رجلاً .

ولد محمد عبد الخالق ثروت سنة ١٨٧٣ في بيت جاه ونعمه .

كان أبوه المغفور له اسماعيل عبد الخالق باشا ابن المرحوم عبد الخالق

افندى من أصل أناضولى ، وكان من كبار الحكماء فى عهد محمد على الكبير . وكانت أمه من بيت تركى هى الأخرى . وقد أرسل به ابوه الى مدرسة عابدين وهو فى الثامنة من عمره ، ثم تابع دراسته فى مدرسة النور مال حتى اذ أمال شهادة الدراسة الثانوية التحق بمدرسة الحقوق ثم كان أول الناجحين فى إجازة الميسانس سنة ١٨٩٣ .

وكان ثروت الطالب ، على ما ذكر الاستاذ لطفي بك السيد زميله فى مدرسة الحقوق ، « شاباً حسن الطلعة ، تعزوه سيم الجد فى غير عبوس ، متربعاً فى غير كبر ، سهل الأخلاق دون فناء فى الا غيار . وكان فى ألمه وفرجه معتدلاً محتفظاً فى كل حال بكل رأيه ، نافذ الرأى فى بيته ، وودوداً من غير الحاج ، ومتحفظاً من غير انتباش ، محب العشرة فى رقته . وكان فى جاذبيته وحلاؤه حديثه متفوقاً كما كان فى ذكائه واجتهاده . نعم فقد كان ذيئاً حاد الذكاء مواعيى البديهة كثير الاشتغال ، فوق درس الحقوق ، بمناحى الثقافة يلتمسها فى الأدب الفرنسي والعربى . وأكثر ميله فى هذا الباب الى التاريخ على العموم والتراجم على الخصوص ، ميل كبر معه حتى صار فى السنين الأخيرة — من حياته — نوعاً من الشغف » وكان لشغفه هذا مظهر عرف عنه كل أصحابه وعرف عنه باعة الكتب فى مصر وفى باريس بنوع خاص . فقد كان كثير التردد عليهم والبحث فى مخازنهم عن كتب قديمة نفت طبعاتها ، وكان لا يأبه أن ينفق فى هذا البحث أياماً متمالية حتى يقع على طلبته . فإذا وقع عليهما أمعن فيها بمحثها وتقليمها حتى يقف منها على غاية البحث الذى يدور بخاطره . ولما نال إجازة الحقوق التحق موظفاً بوزارة الحقانية سكريراً

للمستشار القضائي بها . وكان المستشار القضائي يومئذ السير جون سكوت من أحسن من عرفت الحكومة المصرية مقدرة ونراة . وسرعان ماقدر مواهب ثروت حتى اختصه بكل تقته و حتى وضع في يده كل ثقوده . وتفوز المستشار الانكليزي يومئذ كان أقوى من تفواز الوزير المصري ، بل كان تفواز أي موظف إنكليزي أقوى من تفواز أكبر كبير من ولاة الحكم في مصر . لذلك كان ما استولى عليه ثروت من ثقود ومن ثقة بحيث طوع له أن يقوم في وزارة الحقانية مقام صاحب الأمر والنها فيها وما يزال شابا لم يبلغ الخامسة والعشرين من سنها . وعاونت هذه الحرية في السلطة مواهب من مقدرة وذكاء ، فلم يلبث إلا قليلا حتى تقدم في وظائف القضاء وحتى عين مستشاراً بمحكمة الاستئناف ثم نقل مديرًا لأسيوط ثم عاد إلى الحقانية نائباً عاماً واختير وزيراً لها في سنة ١٩١٤.

على أنه لم يقصر نشاطه في هذه الفترة من حياته على المناصب التي تولاها والتي أسرع به الزمن فيها إلى حد لم يعرفه غيره ، ثم كان بشفافته وذكائه واقتداره مثلاً عالياً للموظف الكافء القدير . بل لقد أسلس من نشاطه إلى أعمال عامه لا اتصال لها بالحكومة ، بل كانت الحكومة تنظر إليها في كثير من الأحيان بشيء من الريبة والخذلان . انتخب عضواً في إدارة الجمعية الخيرية الإسلامية ، وعضووا في إدارة الجامعة المصرية ، وكان يومئذ مازال يشغل منصب النائب العام . وكانت له في الجامعة وفي الجمعية سلطة نافذة واردة قوية ، ثم كان لنفوذه بعد أن علا في العالم السياسي نجمة

ما زاد الميئتين قوة واقتدارا على القيام بالاعمال الجليلة في البر وفي
الثغرة مما أنشأنا من أجله .

وقد ظل اقتداره وظل نفوذه معروفا في الدوائر الخاصة بالقضاء
وعند المسؤولين عن شؤون مصر العامة، حتى عين في منصب النائب
العام. وكان المسؤولون وكانت دائرة القضاء تقدر فيه إلى جانب ذيله
حرصه على تنشئة من يتوصّم بهم الكفاية والمقدرة من الشبان ومن
يطبع في أن يقوموا بلادهم مثل الدور الذي قام به هو بلاده. فلما كان
صاحب الدعوى العمومية أتاح له حادث خطير أن اتصل بالجمهور اتصالا
مباشراً، فقد انتدبه إبراهيم ناصف الورداوي على حياة المارخون بطرس
باشا غالى في سنة ١٩١٠ با أن أطلق عليه الرصاص ساعة خرجه
مع ثروت باشا النائب العام من وزارة الحقانية وتولى ثروت بنفسه
تحقيق هذا الاعتداء والمرافعة في الدعوى . هنالك اطلع
الجمهور منه على اقتدار خاص . وهنالك بدأ الجانب السياسي من
حياة الرجل تظهر نواته وتسكان تتحدد سياساته . فالعبارة التي نقلها
من تلك المرافعة تلخص إلى حد كبير ما جرى عليه ثروت توزير
وكرجل سياسي بقية حياته ، قال :

« نحن أول من يجل الاشتغال بالمسائل العامة ويرى أن السعي
بانطلاق المشروع فيما ترقى به البلاد وأهلها من فروض العين على
المصرى ، وان كل مصرى مطالب بتضمينه شيء من وقته وماله
وهيته في خدمة بلاده . نحن أول من يرحب بتنمية الوطنية ورياضة
النفوس على احتفال أشق المشقات في اعلاء اسم مصر وزيادة شرفها
ورفعتها . كذلك نرى أن من مرقيات الأمم الدارجة في رقيها

النظر في اعمال القابضين على أزمة الامور فيها
ونقدتها . ولكننا لانسلم بحال من الاحوال أن يتطلع الى مقام ناقد
الحكام الا رجل جمع الى العلم الغزير والحكمة البالغة الاتزان في
القول والفعل حتى يقدر الاعمال قدرها وينظر في الامور بفكر
صحيح ، فلما يتعدى حد المشروعية والا انقلبت الخدمة وبالا وارادة
الخير شرآً »

هذه العبارة من مرافعه ثروت تم من حياته السياسية المستقبلة
عن جانبين : الاول تقديره السعي لتقديم البلاد واستقلالها على انه
غرض من فروض العين على كل مصرى . والثانى أن يكون ذلك
السعى بالطرق المشروعة لا بالثورة ولا بالفوضى ولا بالاعتداء .
ولئن كان هذا التعبير - بالطرق المشروعة - هو الذى اتخذته مصر
من ابعد شعاراتها في المطالبة بحقوق كان ثروت بطل تحقيق النصيب
الا وفي منها ، فان هذا التعبير بالذات قد جعل ثروت كنائب عام يقف
من كثرة شباب مصر يومئذ موقف الريبة . فالشباب ، وان قدر
بعقله ما للحق في ذاته من قوة تتغلب على كل قوة سواها ، متوجل
يريد أن يرى الحق في قبضة يده أو هو يصفق وان في أطواء قلبه
لم يعتدى على من يحسنه الحال دون هذا الحق . لذلك كان
الوردانى موضع عطف الكثيرين من الشباب وان لم يكن موضع
عطف الذين يقدرون الاشياء بنتائجها من المسؤولين ، ولذلك كان
ثروت بمراقبته موضع اعجاب المسؤولين وتقديرهم وموضع حنق
الشباب عليه مع اعجابهم بقدرته كالمسئولين سواء سواء .
ولم يحرك حنق الجمهور ولا متابعته الشباب في غضبه أى عصب

من أعضاب ثروت . ذلك بأنّ جانباً ثالثاً من جوانب حياته السياسية كان الاعتداد برأيه هو وبعقيده لا برأى الجمهور وعقيده فيه . فهو ما اطهاف ضميره ورضيت نفسه مقدم على عمله غير عابيٌّ برأى الناس في إقادمه . وهو مقدم في جرأة عجيبة لا يسهل تصديقها إلا على الذين عرّفوا قدر دماثة الخلق ووداعة الطبع وحب الخير والميل العظيم إلى البر والرجمة .

وحرّك الحكم بالاعدام على قاتل بطرس غالى النفوس بشيءٍ من مثل ما تحرّكت له على أمر الحكم في قضية دنشواى ، وكان بطرس رئيساً لحكمتها المخصوصة . تحركت النفوس ذاكراً دنشواى واتفاقية السودان ، ملتمبة غيرة بما سمعت في الدعوى من مرافعات الدفاع عن الورداني . مرافعات حارة تقىض تقديرًا لوطنيته التي دفعته إلى جريمة ارتكبها مدفوعاً بعوامل لا قبل له بعقاومتها . وأحق أن هذا الحادث الذي عقب حكم دنشواى في سنة ١٩٠٦ ثم صدور العفو عن الحكم عليهم من الدنشوايين في سنة ١٩٠٨ ثم وفاة مصطفى كامل ، الذي جاهد حتى استصدر العفو ، بعد صدوره بشهر واحد . نقول إن هذا الحادث حرّك النفوس في مصر إلى المزيد من السعي في المطالبة بحرية كان الشعور ما يفتّأ متزايداً بأن الاحتلال الانكليزي القاibض على أزمة الأمور في مصر يحاول التقضاء عليها قضاء أخيراً . وكان من أمر هذا الشعور ، الذي ازداد التهاباً حين أحسن بتخلّي أوربا عنه بالاتفاق ، الودي الذي عقد بين فرنسا وإنكلترا في سنة ١٩٠٤ وبعجز الباب العالي الذي انهزم أمام إنكلترا في حادث طابه في سنة ١٩٠٦ ، أن بدأت في البلاد حركة اعتماد على النفس وتقدير لما يجب من جهود .

المصريين لوظفهم بما جعل الحكومة المصرية التي تقوم لتستر الحكومة الفعلية، حكومة المستشارين الانكليز، تخس بفضاضة على نفسها او حرج في مركزها . وكان ذلك شأن حكومة محمد سعيد باشا التي تولت مناصبها بعد وفاة بطرس . على أنها حرصت على أن تظهر في مظاهر الحكومة الوطنية فيها كان يقع من مناقشات في مجلس الشورى ، ثم ظهرت كذلك في مظاهر الحكومة الوطنية حين أصدرت، بموافقة انكلترا وعميدها في مصر لورد كتشنر الذي خلف سير الدون جورست بعد وفاته ، قانوناً جديداً لنظام الحكومة المصرية ، هو قانون الجمعية التشريعية .

وَعْت الانتخابات هذه الجمعية في أو آخر سنة ١٩١٣ ، وبدأت عقد جلساتها منذ أوائل سنة ١٩١٤ بعدما انتخب فيها من أقوياء الحجة في مصر وذوى المكانة منها ما جعل الحكومة لا تستطيع طول مناقشة الجمعية إياها . فاستقالت وإن لم يكن ثم نص في القانون النطامى بمسئوليتها أمام هذه الهيئة النيابية . وشكل حسين رشدى باشا الوزارة الجديدة واختار ثروت باشا وزيراً للحقانية فيها .

على أن الحرب العظمى لم تثبت أن أعلنت في أغسطس سنة ١٩١٤ فلم يكن بد من إرجاء عقد جلسات الجمعية التشريعية حتى انتهائها . ويدرك الذين عاشوا هذا الظرف الدقيق من حياة مصر والحكومة المصرية كم كان مركز مصر حرجاً ، وكم كان مركز الحكومة المصرية أشد حرجاً . فصر كانت ولاية عثمانية ممتازة تدين بالولاء لتركيا . وخديو مصر عباس حلمي الثاني كان غائباً عن مصر مقيناً بالاستاذة متها في نظر الانكليز بالتآمر مع تركيا وعم ألمانيا على انكلترا وعلى

الملقاء . ورشدى باشا رئيس الحكومة والقائم مقام الخديو مدين هو وحكومته لتركيا والاخديوى بالخلاص والولاء . وانكلترا صاحبة اليد العليا في مصر والجيوش المجرارة على أرضها : ملك بكلمة أن تضمها الى أملاكها من غير أن يستطيع الخديو أو تستطيع تركيا دفاعا عنها . وهيهات إذا ضمت مصر الى أملاك انكلترا أول الحرب أن يكون أمل في أن تخرج من هذا المركز بعد الحرب اذا انتهت هذه الحرب بانتصار انكلترا وحلفائها ، أو أن يكون أمل حتى في مركزها كولاية عثمانية ممتازة اذا انتهت الحرب بانكسار انكلترا وانتصار الالمان عليها . فما عسى تصنع حكومة حسين رشدى في هذا المركز الدقيق ؟

وزاد مركز تلك الحكومة دقة وحرجاً أن الشعور العام في مصر كان ميلاً الى جانب ألمانيا آمالاً في فوزها طامعاً في أن تحرر من نير انكلترا . وكما تجدت يومئذ في نفس المصريين الذين كانوا يعتمدون من قبل على فرنسا للتجليل لهم جنود انكلترا عن أرضهم آمال في الاعتماد على ألمانيا لتحقيق لهم هذه الغاية . وكان هؤلاء المصريون الموالون لألمانيا بعواطفهم يدورون في الاندية والأماكن العامة وفي قطري السكة الحديد وبعيدهم خرائط الحرب مؤشراً عليها بواقع القتال وبما كسب الالمان واندحر الملقاء . ودعوا به كهذه من شأنها أن تعداد بلاد الثورة اذا لم تكن حكومتها مستعدة لقمع كل حركة من الحركات الطائشة فيها . لكن هذا الاستعداد من جانب حكومة رشدى باشا لم يكن له تأويل إلا الدفع بمصر الى أحضان انكلترا والخروج بذلك على ما كان معروفاً يومئذ

من ميول تركينا ميلاً انتهت بخوضها غمار الحرب الى جانب ألمانيا. فوقفت تلك الحكومة محاولة أن تصل الى خير الوعود من انكلترا بالنسبة لمصر يوم تنتهي الحرب لصالحة الحلفاء، عاملة على أن يصيّب مصر أقل ضير يمكن من جراء الحرب، نافضة يدها بعد ذلك من شؤون الدفاع عن مصر بعد ما أعلنت انكلترا الأحكام العرفية فيها وأخذت هذه المهمة على عاتقها، منتظرة تطور الحوادث وما يمكن أن يجيء القدر به.

وأعلنت تركيا الحرب منضمة الى ألمانيا، فألقت انكلترا الفرصة للتغيير موقف مصر السياسي. وقد دار بخاطر أولى الاصرفي لندن — على ما ذكر لورد جرای وزير الخارجية الانكليزية في ذلك الحين — أن يعلنواضم مصر الى أملاك التاج. لكن اعتراضات قامت في هذا الصدد: أو لها وأقواها أن الحلفاء الذين تحارب انكلترا وإياهم كتفاً لكتف يئولون هذا التصرف من جانبها بأنماه أرادت أن تقدر لنفسها غنائم الحرب قبل أن تضع الحرب أوزارها وقبل أن تتفق وإياهم على شيء في هذا الصدد. ثم ان اعلان الضم ربما كان من شأنه أن يبيح الشعور في مصر الى حد ربما كانت عواقبه غير مأمونة. على ذلك فكرت حكومة لندن في اعلان الجماعة على مصر، وانتهت، بعد شيء من التردد، الى اختيار السلطان حسين كامل سلطاناً في القاهرة بدل ابن أخيه عباس الذي قررت انكلترا أنه الضماماً ظاهراً الى أعدائهم، فلا يمكن أن يعتلي عرشاً تحت حمايتها. ودارت محادثات طويلة في هذا الشأن بين الوكالة البريطانية والحكومة المصرية انتهت الى قبول رشدي باشا وزملائه الأمر

الواقع والبقاء في مناصبهم كوزراء تحت نظام الحياة، آملين متى انتهت الحرب أن تجده انكلترا في تضفهم ما يجعلهم منها يمكن
يستطيعون معه الوصول إلى خير نظام سياسي لبلاد المقادير على
عواقبهم أعباء مصيرها في ظرف دقيق لم يكونوا يتوقعونه، وظللت
حكومة رشدي باشا، وفيها ثروت باشا وزير لحقانية، حتى وضعت
الحرب أوزارها وأعلنت الهدنة في ١١ نوفمبر سنة ١٩١٨، قاعدة بكل
ما أخذت به نفسها من ولاء للحلفاء وحرص على مصالح مصر ورجاء
في أن لا يسوء مركزها بسبب ظروف احتتموها ولم تكن لهم
يد فيها.

ولما كانت الشروط الاربعة عشر التي وضعها الرئيس ولسن رئيس
جمهوريه الولايات المتحدة تعتبر آياها أساساً للهدنة والصلح قد أعلنت
قبل الهدنة بأشهر مشتملة على شرط يجعل للشعوب حق تقرير مصيرها،
فقد اتهز جماعة من أعضاء حزب الامة - نذكر من بينهم على باشا
شعراوي، ولطفى بك السعيد، و محمد باشامحمد و عبد العزيز باشا فهمي -
هذه الفرصة ففكروا في تكون هيئة طالب مصر بحقها في تقرير
مصيرها . وأفضى هؤلاء بفكيرتهم إلى حكومة رشدي باشا فوجدوا
منها ارتياحا لها . ففاحوا سعد زغلول باشا على أن يكون رئيساً
لهيئةهم باعتباره وكيل الجمعية التشريعية المنتخب كما فاتحوا
عبد اللطيف المكباتي بك و محمد على باشا من أعضاء
الحزب الوطنى . وعلى ذلك تألفت هيئة أطلقت على نفسها اسم
الوفد المصرى ووضعت صيغة توكيلا من الامة لها بالسعى لاستقلال
مصر أينما وجدت إليه سبيلًا . ووزعت هذه التوكيلات في طول

مصر وعرضها بعلم حكومة رشدى باشا . وكان من رأى السير زنجاله ونحت مندوب انكلترا السامى في مصر يومئذ أن يترك هذا الوفد حرية السفر الى انكلترا أو الى حيث شاء من ممالك أوربا وأن يسافر حسين رشدى باشا وعدهى يكن باشا ليعبر في لندن عن مطالب المصريين . ولو أن نصيحة السير ونحت نجحت يومئذ لتغير ، على الأغلب ، وجه المسألة المصرية ولسارت في طريق غير التي سارت فيها بسبب رفض انكلترا الاذن للوفد وللوزيرين المصريين بالسفر .

ورفضت حكومة لندن سفر أحد من الوزراء المصريين وسفر رجال الوفد الى انكلترا أو الى مؤتمر السلام . ولم تنجح محاولات الحكومة المصرية والمندوب السامي البريطاني في تحويل الحكومة الانكليزية عن رأيها . هنالك استقال رشدى باشا وعدى باشا واستقال وزارتهما في ٦ فبراير سنة ١٩١٩ . ولقد خيل الى المراجع العالى يومئذ أنهم واجدون في ثروت باشا ، وله من الكفاية والمقدرة ما له ، الرجل الذى يستطيع التغلب على الموقف باقناع رجال الوفد كى يعدلوا عن خطتهم ، كما خيل اليهم أن ثروت باشا لن يرفض رئاسة الوزارة حين تعرض عليه وما يزال يومئذ فى الخامسة والأربعين من عمره . لكن تقديرهم أخطأ ، فقد كان ثروت باشا مشتركا بقلبه وبعقله مع الحركة الوطنية ومع زميليه عدى ورشدى . ثم هو كان يقدر التبعية الكبرى التى احتملها مع زميليه بقبول البقاء فى الوزارة بعد اعلان انكلترا جماليها على مصر . فإذا كانت المقادير قد أتاحت النصر لانكلترا ، وكانت مصر

والحكومة المصرية بنوع خاص ، عاملاً من عوامل هذا النصر اعترف به الفيكونت مارشال النبي قائد جيوش الحلفاء في الشرق، فان من خطط الرأى وسوء التدبير الذي لا يليق بسياسي حنكته تجاذب الحرب ما حنكت ثروت باشا أن يرضى العاجلة من رياضة الوزارة بديلاً لما كان يرى حقاً متهأة أن تبلغه من نظام يتفق مع مكانها ويعادل بعض الجهد التي بذلتها أثناء الحرب الكبرى . وإذا كانت بعض دول أوروبا التي خاضت غمار الحرب إلى جانب الحلفاء قد حصلت على وعد بالتوسيع وضمان الاستقلال ، وإذا كانت بلاد العرب قد اعتبر لها استقلالها ، فمن يكون ثروت هو الذي يقبل وزارة يعتبر قبولاً حيلولة دون مصر وما تطمع فيه من استقلال وعزّة مكان بين دول العالم.

ورفض أن يشكل الوزارة في هذا الظرف الدقيق ، مقدراً أن صبيح سعيد عليه رفضه عند ذوى الكلمة والمرأجع العليا في مصر . بل لقد أبلغ يومئذ أن رفضه هذا يحول بينه وبين الوزارة بقيمة حياته ، فلم يعبأ بما أبلغ إليه وأصر على الوقوف إلى جانب أمته اصراراً دعا الوفد ، وعلى رأسه سعد زغلول باشا ، كي يسعى بكلماته إلى دار ثروت باشا مقدماً إليه التهنئة على إيمائه الوطني وأيات الشكر على تضامنه مع الوفد في حركته القومية . وكانت كلمات سعد باشا أنه تضامنه مع الحركة القومية العامة يكسب الوفد قوة والبلاد أملاً في النجاح . وترتب على هذه الزيارة لبيت ثروت باشا أن أندرت الساطعة العسكرية الوفد بأئمهم بحر كاتم يعرقلون سير الحكومة . على أن هذا الانذار لم يزد على أن ثبت ثروت باشا في اصراره على

رفض تشكيل الوزارة وعلى وضع حجر الأساس برفضه هذا لنجاح
القضية القومية .

من ذلك التاريخ بدأ ثروت باشا نشاطه السياسي في السعي
للاستقلال بلاده بالطرق المنشورة التي أشار إليها في مراقبته في قضية
قتل بطرس باشا غالى . ومن ذلك التاريخ أخلص لغايته كل نفسه
وكل جهده وازدرى إلى جانبها كل ما يطمع فيه غيره . على أن ثقته
المطلقة بنفسه كانت تدعوه إلى أن يتبع في سياساته خطة غير التي
يتبعها كثيرون من الساسة غيره . فهو لم يكن يبدأ بأن يعلن
لذاته مطالبه مستعيناً في تحقيقها بالقوة أو بالحقيقة أو بالمساومة .

بل كان يحدد في نفسه غاياته ويعتمد قبل كل شيء على البحث المقترب
بالحكمة والمنطق وحكم العقل . وقوته ومهارته وصبره كانت تكفل
له النجاح دائمًا في بلوغ ما يريد . وكان يكفل له هذا النجاح كذلك
ما تعوده من الاضطلاع بالتبعات وحمل المسؤوليات منذ أول شبابه
وحين كان سكرتيرًا لمستشار الحقانية الذي ألقى بين يديه بواسع
سلطته . بهذه القوى عنده استعان حين جاءت لجنة ملنر سنة ١٩٢٠
لتتظر في وضع نظام مصر تحت الحماية البريطانية فاشترك مع أصدقائه
السياسيين ، رشدى باشا و عدلى باشا و اسماعيل صدقى باشا ، في اقتناع اللجنة
بضرورة التفاهم مع هيئة الوفد المصرى فى أمر القضية المصرية .

وكان ثروت باشا من بين زملائه هو الذى ينقل آراء اللجنة ووجهات
نظرها إلى رجال الوفد بباريس كى يهدى لهم الوقوف على آرائها
وخططها ، حتى إذا اتصلوا بها كان الصلام متممًا . فلما انتهت اللجنة
من محادثاتها مع الوفد وأعلن مشروع ملنر فى صيف سنة ١٩٢٠

ثم قدمت اللجنة تقريرها وأعلنت الحكومة البريطانية اعترافها بأن
الحامية علاقة غير مرضية بين مصر وإنكلترا وطلبت الى عظمة سلطان
مصر ايفاد هيئة تفاوض مع الحكومة البريطانية في استبدالها
ب العلاقة أوجب للرضا ، شكل عدل باشا وزارته الاولى في مارس
سنة ١٩٢٠ وكان ثروت باشا وزير الداخلية فيها .

وعاد سعد زغلول باشا من باريس في أوائل ابريل ودارت
محادثات بينه وبين الوزارة انتهت الى اختلافه واياها في طريقة
تشكيل الوفد الذي يقوم بالتفاوضة واعلانه الحرب عليهم في خطبة
ألقاها في ٢٨ ابريل ببحري شبرا . ثم سافر عدل باشا على رأس الوفد
ال رسمي الذي تألف بأمر عظمة السلطان ليقوم بالتفاوضة ، واستصحب
معه من أعضاء وزارته حسين دشدي باشا و اسماعيل صدقى باشا و محمد
شفيق باشا ، كما استصحب غيرهم مفاوضين ومستشارين . وقام ثروت
باشا في مصر رئيساً للوزارة بالنيابة . وكوزير للداخلية مسؤول عن حفظ
الامن والنظام اللذين كانا مهددين بحرکات أنصار سعد باشا زغلول لم يتردد
في احتمال التبعات التي رآها واجبه في هذا الظرف ، دالا بذلك على جرأة
وحزم لا يعرفان ترددوا ولا هوادة . وبرغم الجهد الذى بذلها عدل باشا
والوفد الذى كان معه في سبيل إقناع الانكليز بوجهة نظر مصر ،
وبرغم تناولهم كل مسألة من المسائل الخلافية بين الدولتين ابتعاء
الوصول الى حلها حلا يقنعهما ، فقد جنى الخلاف بين سعد باشا
والحكومة على هذه المفاوضات فلم تؤت المرة التي كانت مرجوة
منها ، ولذلك قطع عدل باشا المفاوضة بعد أن أعلن اليه لورد كرزون
وزير الخارجية البريطانية مشروع حكومته . واستقال عدل باشا

٢٣٣

على آخر وصوله. ونشرت السلطات البريطانية المشروع المذكور مرفقاً
بعدرة مهينة لمصر أشد الاتهامات. ثم زاد حرجاً أن قبضت السلطة العسكرية البريطانية على
الاستقالة. ثم زاد حرجاً أن قبضت السلطة العسكرية البريطانية على
سعد زغلول باشا وخمسة من أنصاره وقررت نفيهم عن مصر. هنالك
عادت البلاد كلها كلهـة واحدة تناـدي بعدم التعاون مع انكلترا وتدعو
كل مصرى أن لا يقبل تأليف وزارة تضطلع بمسؤولية الامر
في مصر، حتى تظل انكلترا وأحكامها العرفية مسؤولة مباشرة عن كل
ما يقع فيها.

في هذا الظرف ظهرت مهارة ثروت باشا السياسية وظهر اقتداره.
أن المشروع الذي أعلنته انكلترا ولم تقبله مصر يقضى باعتراف
انكلترا باستقلال مصر استقلالاً مقيداً في مسائل معينة. وهذه
القيود هي التي لا ترضاهـا مصر. فإذا أرجـأنا النظر في هذه القيود
إلى ظرف مقبل أكـثر ملـائمة من ظرف المفاوضات وما كان يشـوبـه
من خلاف بين سعد باشا زغلول والحكومة المصرية وأعلنت انكلترا
من جانبـها التخلـي لمصر عـما ارـتضـتـ أن تـتخـلـي عـنهـ أثناء مفاوضـاتـ
عدلـيـ باشاـ ووفـدهـ،ـ كانتـ هـذـهـ خطـوةـ جـديـدةـ منـ جـانـبـ انـكـلـتـراـ تـدلـ
بـهــاـ عـلـىـ حـسـنـ نـيـتـهـ باـزـاءـ مـصـرـ وـتـزـيلـ الـحـرجـ الـذـيـ أـدـىـ إـلـيـ كـتابـهــ
الـمـرـفـقـ بـهــ الـمـشـرـوـعـ،ـ ثـمـ لـاـ تـكـوـنـ قدـ خـسـرـتـ شـيـئـاـ لـاـ هـمـاـ اـنـتـزـلـ
عـمـاـ كـانـتـ مـعـتـرـمـةـ مـنـ قـبـلـ التـنـزـلـ عـنـهــ.ـ عـلـىـ أـنـهــ حـينـ بدـأـ مـحـادـثـاـتـهــ مـعـ
مـعـتـمـدـ انـكـلـتـراـ الـمـوـصـولـ إـلـىـ هـذـهـ الغـاـيـةـ لـمـ يـدـأـهــ بـطـلـبـ الفـاءـ الـجـاهـيـةــ
وـالـاعـتـرـافـ باـسـتـقـلـالـ مـصـرـ،ـ لـمـ كـانـ يـعـلـمـهــ مـنـ أـنـ هـذـاـ الطـلـابــ يـلـاقـ

من جانب حكومة لندن بالرفض ، بل تقدم بطلبات لا يبدو أول الامر أن لها بوجود الحماية البريطانية لمصر او برفعها اتصال . ولم يكن بد أمام العقل من قبول انكلترا هذه الطلبات . وبعد قبولها وتحديد المسائل التي تعلق لتفاوضات حرة مستقبلة بين مصر وانكلترا ، وصل ثروت باشا من بحثه الى نقطة تبين معها امتناع انكلترا نفسه أن بقاء الحماية الانكليزية مفروضة على مصر لم يبق له أية فائدة لانكلترا نفسها . وحكم العقل يقضي بأن التشتيت بأمر لا فائدة من ورائه سخيف لا يليق بذوى الفطنة السياسية . وقد بلغ من اقتناع الlord اللنبي معتمد انكلترا واقتناع المستشارين الانكليز في الوزارات المصرية برأى ثروت باشا ، أن هددوا جميعاً بالاستقالة اذا وقفت لندن فلم تحب مطالبهم . وعجيت حكومة لندن لهذا الموقف فاستدعت معتمدها ومستشاريه فذهبوا اليها ، ولم يكن الا أيام حتى أقنعت حجاج ثروت الحكومة الانكليزية أيضاً . وعاد لورد اللنبي في يوم ٢٨ فبراير سنة ١٩٢٢ فاعلن في مصر تصريحًا من جانب انكلترا بأنها تعترف بمصر دولة مستقلة ذات سيادة وتنهى لذلك حمايتها عليها محتفظة لتفاوضات مستقبلة بمسائل اربع : الدافع عن مصر ، وحماية مواصلات الامبراطورية ، وحماية الاجانب والاقليات ، ومسألة السودان . وعلى اثر ذلك أجاب ثروت باشا دعوة جلالته الملك فشكل وزارته الاولي في أول مارس سنة ١٩٢٢ .

على أن هذا العمل العظيم الذي قام به ثروت باشا من حمل انكلترا على الاعتراف باستقلال مصر كان سبباً لأن تدب ضده في الخفاء مؤامرة لاغتيال حياته . وقد دبر هذا الاغتيال قبل

اعلان التصريح ببیو مین . على أن ادارة الامن العام عامت بالمؤامرة وأحيطتها ، بأن أبلغت ثروت باشا الخبر وتفاصيله ، وأن المؤتمرين يكمنون له عند كبرى الأعماى ، حتى اذا من في أو تمويله ذاهباً الى نادى محمد على فتكوا به . وقد طلب ذلك اليوم الى مقابلة عظمة السلطان في عابدين في الوقت الذى كانت المؤامرة فيه تزيد أيام جريمتها . فدعا اليه صديقه وزميله في محادثات الانكلترا بشأن الاعتراف باستقلال مصر حضرة صاحب المعالى اسماعيل صدقى باشا وطلب اليه أن ينوب عنه في مقابلة جلالة الملك على أن يركب سيارة بالاجرة . وكذلك نجاح ثروت وبقى على المتأمرين . ومن يدرى ماذا كان يصيب مصر لو أن الجناية تمت على ما يشتهى المدبرون ؟ .

واعلان انكلترا اعترافها بمصر دولته ذات سيادة بفضل مجاهودات ثروت باشا السالمية ومقدرته على الاستفادة من الظروف بتقديره قوة بلاده ومطالب انكلترا — هذا الاعلان رفع مقامه فجعله سياسياً فذ في نظر العالم بأسره ، وجعل ابناء أمته يتطلعون اليه معجيزين به وبمهاراته . على انهم انقسموا مرة أخرى ، لافي قدرهم المجاهوون ذلكه ، ولكن في الخطة السياسية ، أو بالأحرى في الخطة الحزبية التي يسلكونها بازاء التصريح بالاستقلال وبازاء الرجل الذي فاز به ، فاما الطوائف الحكيمية التي تقدر الاشياء بقيمتها الحقيقية فاعتبرت التصريح خطوة جدية في سبيل استقلال الاستقلال وعاهدت ثروت باشا على معاوزته في خطته . ووقفت طوائف أخرى حريصة من ناحية على ألا يمس التصريح اذى ، عاملة في نفس الوقت على

مناوبة ثروت باشا وحكومته مناوبة دفعتهم للطعن على التصريح والانتقاد من قيمته . وقد كان من مظاهر هذا الموقف ان أمسك هؤلاء عن إبداء رأيهم في التصريح حين أعلن البرلمان الانجليزي أنه يريد بحثه في جلسة حدد لها يوم ١٤ مارس سنة ١٩٢٢ ، وظلوا في وجل أى وجل أن لا تناول حكومة لويد جورج ثقة البرلمان بسبب اعلانها إياه . فلما فازت هذه الحكومة البريطانية بالثقة وأعلن جلاله ملك مصر استقلالها في ١٥ مارس واطمأن هؤلاء المتحفرون إلى أنه أصبح حقاً لمصر لايُزعها فيه أحد بدأوا حملتهم عليه جملة منظمة غايتها الحملة على حكومة ثروت باشا . على أن ثروت لم يتردد في هذا الظرف لحظة ، بل ظهر بكل ما يجب من قوة وحزم وببدأ ينفذ ما ينطوي عليه التصريح من حقوق مصر بإنشاء وزارة الخارجية التي كانت ألغيت منذ أعلنت الجماعة البريطانية على مصر في ١٨ ديسمبر سنة ١٩١٤ ، وباقالة المستشارين البريطانيين من مختلف الوزارات عدا وزارة الحقانية والمالية ، وبتشكيل لجنة من خيرة رجال مصر لتضع للبلاد نظاماً دستورياً على أحدث المبادئ العصرية ، وبالضرب على يد الفوضى في كل صورها ومظاهرها ، واظهار الحكومة المصرية الأهلية بعظيم الاحترام الواجب لها .

وليوطد في النقوص الاعيان بحق مصر دعا في ٢٦ مارس سنة ١٩٢٢ ، لمناسبة عيد ميلاد جلاله الملك ، إلى حفلة كبيرة بفن دق الكوتنمنتال حيث ألقى خطاباً يبين فيه من ايا العمل الجليل الذي قام به ويرسم فيه الخطوة الواجب اتباعها لاستكمال الاستقلال . وقد

يبدو عجيباً أن تكون الفكرة السائدة في هذا الخطاب هي اعنة
الفكرة التي وردت في مراجعة عبد الخالق ثروت النائب العام في قضية
الورداني ، والتي أوردت نصها من قبل . فقد جاء في هذا الخطاب
السياسي ما نصه :

« لم يبق علينا إلا أن نقنع انكلترا أن ليس بها من حاجة إلى
المسك بالضمادات التي تريد الاحتفاظ بها فتخطو بريطانيا العظمى
خطوة أخرى بالاكتفاء بما لا يتنافى منها مع استقلالنا الشرعي .
وليس لدينا وسيلة لتأييد ما نذهب إليه أكثر من تعلقنا بأهداب
السكينة والتزامنا المدوّع وأخذنا بأسباب النظام . فان حجتهم الكبرى
فيما يبدونه من رغبة في الضمادات هي شدة حذرهم على مصالحهم
وخرفهم عليها وعدم اطمئنانهم الى تركها لعهنتنا . فإذا قضينا على
عوامل الفتنة والاضطراب وجعلنا التزام السكينة رائداً فاننا نتلهم
هذا السلاح بأيديهم وندفع حجتهم علينا . ولا مشاحة في أن كل
من يعمل على تعكير السلام أو إثارة الاضطراب مجرم في حق وطنه
طامل على هدم كيانه »

ثم جاء فيه أيضاً :

« انى لا أكره المعارضة ، بل اذا انعدمت هذه المعارضة فانى
أعمل على خلقها لما لها من نفع وفائدة في الوصول الى الحقيقة
وتحقيق كل أمر على أكمل وجه . ولكنني أريد المعارضة الشريفة
التي ترفع عن الاعتبارات الشخصية ولا تنزل الى اختلاق الاكاذيب .
انى أريد الخصومة الشريفة التي لا تنظر الا الصاححة الوطن وخير
البلد وتدرس كل أمر لذاته مجردًا عن كل اعتبار شخصي » .

وهذه الخطة التي رسمها ثروت في خطاب يوم عيد ميلاد جلالته الملك، هي التي كررها من بعده في خطب ألقاها في افتتاح لجنة الدستور ولو فوفود ذهبت إليه في شؤون سياسية مختلفة. ولقد كان لهذه الخطة الحكيمية أن تؤيي ثرثراً كاملاً بفضل مهارة ثروت وحنكته وقوته منطقه لو أن مناوأته لم تنتقل من الميدان الوطني الصحيح إلى ميدان آخر. فبينما هو يعمل جاداً في تطبيق مزايا الاستقلال الذي حصلت عليه مصر مقيداً بالتحفظات التي أشرنا إليها، وقعت على جلسة من البريطانيين، ضباطاً وجنوداً ومدنيين، سلسلة اعتداءات شنيعة أودت بحيات ثمانية عشر منهم على التعاقب. على أن هذه الاعتداءات وحدها ما كانت لتجنى على خطيئة لم يقترن بها ما جعل مركز وزارته حرجاً غاية المرح بعد زمن. وجيز من بدء لجنة الدستور عمحها. ففند محمد هذه اللجنة إلى وضع مبادئ تتفق مع المبادئ العصرية التي كلفت بوضع الدستور المصري على أساسها، وشاركتها ثروت باشا الرأى في مبادئها. وفي رأى البعض أن مصر بلاد شرقية يجب أن تسود فيها وسائل السياسة الشرقية وخطتها. لذلك ألقى ثروت باشا نفسه في موقف لا يستطيع معه القيام بأعباء الحكم على الوجه الذي يرضاه ضميره. وبرغم المحاولات الكثيرة التي بذلها لتهيئة العوائق الكمينة في ثورتهم حوله، فإنه شعر بدقة المركز فعل يستعجل لجنة الدستور حتى وضعت مشروعه وتعجلت بعد ذلك في وضع مشروع لقانون الانتخاب. ورفعت اللجنة مشروعه إليه في جلسة تاريخية ألقى فيها كلمة ذكر أثناعها أنه سيعمل على صدور الدستور كما وضع مشروعه، وكان ذلك في ١١٨ كتوبر سنة ١٩٢٢. ولما

كان جماعة أصدقائه السياسيين يؤلفون في هذا الوقت حزب
الاحرار الدستوريين، انتظر من معونهم ما يكفل اقتداره على السير
بسياسته خطوة أو خطوات أخرى . لكن الحزب ما كاد يتألف في
٣٠ أكتوبر ثم ما كاد يمضي أسبوعان على تأليفه حتى أطلق جماعة
من الشبان الرصاص على باب داره دار جريدة «السياسة» فأصابوا احسن
باشا عبد الرازق وسماعيل بك زهدي من أعضاء مجلس ادارته .
وأبدت الصحف المزاولة لهذا الحزب أن الرجلين ذهبا ضحية خطأ
يوسف عليه لا نهائاه لم يكونا مقصودين بالذات .

وكثرت الأقاويل حول المصادر الحقيقة التي تشجع هذه
الجرائم ، ورأت وزارة ثروت باشا بعد أن رفعت الدستور إلى
جلالة الملك أنها تخطت بالبلاد خطوات يمكن الوقوف عندها فترة
وياماً تطمئن النفوس وتهداً أسباب الجريمة . وعلى ذلك رفع ثروت
باشا استقالته في يوم ٣٠ نوفمبر منها فيما أعلنت وزارةه وبما
مهدت له من صدور الدستور وغير الدستور بما نص في تصریح
٢٨ فبراير على وجوب صدوره .

واعتكف ثروت منتظراً ظرفاً خيراً من الطرف الذي كان فيه في
الحكم ليعود إلى الميدان فيعمل ل تمام ما بدأه بتصریح الاستقلال .
على أنه في اعتقاده لم يتوازن يوماً عن يذل كل مالديه من تقوده
يصدر الدستور . فلما صدر في ١٦ ابريل سنة ١٩٢٣ أيام قيام
وزارة يحيى باشا ابراهيم وانتظرت البلاد الانتخابات ، أخذ يتوقع
في ظروفها ما يطوع الله العود لتنفيذ سياسته وسياساته ، كما رأيته ،
تقوم على الاخلاص الصحيح والعزيم الوطيد على إتمام اتفاق بين

إنكلترا و مصر تحمل به المسائل المتعلقة في التصریح . و عسیر الوصول .
الى هذا وفي البلد من آثار الانقسام ما يخشى أن يجني على أية
مفاوضات جديدة جنائية الانقسام على المفاوضات التي تولاه اعدلى
باشا يكن سنة ١٩٢١ . فلما عاد سعد زغلول باشا من منفاه فكر
ثروت في إمكان التفاهم معه اجتناباً لـ كل انقسام مستقبل . لكن
علاقة الرجلين كانت متواترة منذ سنة ١٩٢١ أشد التوتر . وقد
ألقى الحيطون بسعد في روعه أن ثروت هو الذي نصّب بنفيه . ثم
إن سعداً كان قد طعن على ثروت أشد المطاعن وأقسها . بل أتى
ذهب في الطعن عليه الى اتهامه في إخلاصه لوطنه . فكيف يستطيع
ثروت أن ينسى هذاكه وأن ينقدم الى فاحية سعد خطوة من
الخطى ؟ على انه رأى كرامة الوطن فوق كرامة أي فرد من أبنائه ،
فبعث الى سعد بخطاب يذكر له فيه أنه في حرصه على مصلحة الوطن
يريد أن يحتكم وإياه في أسباب الخلاف بينهما الى الامر اعوذى
الرأى والمكانة في البلاد . وكان يرجو من احتكامه أن تزول أسباب
الانقسام وأن تعود وحدة الأمة ليعود هو معتمداً على هذه الوحدة ،
إلى استكمال استقلال بلاده باتفاق بين مصر وإنكلترا . لكن
مسعاه هذه المرة لم ينجح أن رفض سعد باشا التحكيم . وبقى
ثروت باشا بعد ذلك بين كتبه ومكتبه وفي عمله المتصل بالجمعية
الخيرية الإسلامية وبالجامعة المصرية وبنيرها من الهيئات التي
كانت أبداً في حاجة الى ثاقب رأيه . فلما كانت سنة ١٩٢٥ أدت
الظروف السياسية الى التفاهم والائتلاف بين سعد زغلول باشا
وخصومه السياسيين . ذلك أن سعد باشا حصل حزبه على الأغلبية

الكبيرى في انتخابات سنة ١٩٢٤ فتولى الوزارة وظل فيها حتى اعتدت جماعة ينسب بعضهم إلى حزبه على حياة السير لم ستاك باشا حاكم السودان العام . فأبلغت إنكلترا حكومته انذاراً قاسياً أضطرت بعده إلى التخلى عن المناصب . وخلفه أحمد زبور باشا في رئاسة الحكومة، فاستعان بالاحرار الدستوريين بعد أن حل مجلس النواب وأجرى انتخابات أسفوت عنأغلبية لحزب سعد باشا كذلك . خل المجلس الجديد أيضاً وأجلت الانتخابات إلى أجل غير مسمى . على أن الخل الأول وهذا التأجيل الثاني خلق في البلاد حرباً جديداً كان أعضاؤه كثیرى التردد على القصر الملكي وكانت رغبهم عن الدستور والحياة النيابية أكثر من رغبتهم فيهما . وخيل لأعضاء هذا الحزب يوماً أنهم يستطيعون القيام وحدهم فأقيل رئيس حزب الأحرار الدستوريين من الوزارة واستقال زميلاه الوزيران اللذان كانوا من أعضاء حزبه تضامناً وإيهاداً، وسنحت بذلك فرصة التفاهم والاتفاق مع حزب سعد زبور باشا ضد الخصم المشترك والعمل معاً لعود الحياة النيابية . وكذلك قربت الظروف

بين ثروت باشا وسعد باشا ، وكان يخيل للكثيرين أنهم لن يلتقياً . وجرت انتخابات وألف عدلي باشا يكن الوزارة الائتلافية الأولى وجلس سعد باشا في رئاسة مجلس النواب . وفي أوائل إبريل سنة ١٩٢٧ استقال عدلي باشا: فألف ثروت باشا وزارته الثانية وبقي سعد باشا في منصبه رئيساً للنواب . وكانت إنكلترا يومئذ قد أرادت، متآمرة بآراء مندوها السامي اللورد جورج لويد ، التحرش بالحكومة المصرية ، نخلقت ما سمي أزمة الجيش وبعثت بأساطيلها إلى الاسكندرية

ولم يعرف أحد قط مطالبها على وجه التحديد. فاستطاع ثروت باشا، بمهارته وكياسته، أن يقضى على هذه الأزمة من غير أن تصل انكلترا من مطالبها إلى أكثر من منح أحد الموظفين الانكليز بوزارة الحربية المصرية رتبة الباشوية.

حدث بعد ذلك أن سافر جلاله الملك فؤاد إلى أوروبا مدعواً إلى زيارات رسمية بإنكلترا وإيطاليا وفرنسا وبلجيكا. وبعد شئ من التردد استصحب جلالته رئيس وزارته ثروت باشا في رحلته. فانهز ثروت فرصة وجوده بإنكلترا وفاته وزير خارجيتها السير أوستن تشمبلن في أمر أزمة الجيش وتحدث إليه فيما إذا كان مستطاعاً الوصول إلى حل المسائل المعلقة بين الدولتين اتفاء أزمات أخرى. وقد انتهت هذه المحادثات إلى مشروع لم يقبل في مصر ولكنـه مهدـ السـبيل الصـحيح إـلـي الـاتفاق النـهائي . وربما كانـ مـمـكـناً تـعـدـيلـه بـما يـهدـ لـقبـولـه ، لـو أـنـ سـعدـ باـشا زـغلـولـ بـقـيـ حـيـاـ إـلـيـ حـيـنـ اـنـهـاءـ ثـروـتـ مـنـ مـحـادـثـاتـه . لـكـنـهـ تـوـفـيـ أـنـيـاءـهـاـ ، فـيـ ٢٣ـ أغـسـطـسـ سـنةـ ١٩٢٧ـ ، رـلـمـ يـخـلـفـهـ مـنـ حـنـكـتـهـ التـجـارـيـبـ السـيـاسـيـةـ مـاـ حـنـكـتـ هـذـاـ الزـعـيمـ . وـطـلـبـ إـلـيـ ثـروـتـ باـشاـ أـنـ يـحـلـ مـجـلـسـ النـوابـ وـأـنـ يـجـرـيـ اـنـتـخـابـاتـ يـعـرـضـ فـيـهـ مـشـرـوعـ الذـىـ وـصـلـ إـلـيـهـ عـلـىـ الـبـلـادـ ، فـأـبـيـ . لـأـنـهـ رـأـىـ أـحـزـابـ مـصـرـ كـلـهـاـ لـاـ تـقـبـلـ مـشـرـوعـ ، وـلـأـنـهـ مـنـ نـاحـيـةـ أـخـرىـ خـشـىـ إـذـاـ حـلـ الجـلـسـ أـنـ لـاـ يـعـودـ . وـاستـقـالـ مـنـ الـوزـارـةـ وـنـشـرـ يـوـمـ اـسـتـقـالـتـهـ كـتـابـاـ أـخـضرـ عـنـ مـفـاـوـصـاتـهـ . وـيـدـلـ هـذـاـ الـكـتـابـ وـالـمـذـكـرـاتـ الـتـىـ اـشـتـمـلـ عـلـيـهـاـ عـلـىـ ضـخـامـةـ الـجـهـودـ الذـىـ بـذـلـهـ ثـروـتـ أـنـيـاءـ قـيـامـهـ بـالـمـفـاـوـصـاتـ مـنـفـرـداـ ضـخـامـةـ لـمـ يـعـرـفـ هـاـ حـتـىـ الـيـوـمـ فـيـ

حياة سياسى مصرى نظير . ويدل كذلك على مقدرة وذكاء وكفاية ونصلع بالسياسة العالمية قل أن يكون لها مثيل . ثم يدل على صحة ما رواه عنه السير أوستن تشمبرلان لأحد أصدقائه إذ قال : «أتاح لي التصالى في جمعية الأمم بأكثـر وزراء الخارجية في الدول المختلفة لأن أقدرهم جميعاً . وما أحسب واحداً منهم يفوق ثروت مهارة وقوة حيجة وحسن بيان » . وفي الكتاب الأخضر المذكور ، إلى جانب هذا كله ، اتجاه جديد في سياسة ثروت يرمى إلى ربط الاتفاق بين مصر وإنكلترا بقضية السلام في العالم ، ويجعل لذلك من الرجل سياسياً عالمياً لا سياسياً قومياً وكتفى . فقد أبدى وزير الخارجية البريطانية من التشدد بعض الأمور مارأى ثروت باشا معه أن المناقشة أصبحت غير مجديه وأن مقامه في لندن لا يوصى إلى الغاية التي ينشدها لم يبق له محل . وكان أمامه إذ ذاك أن يعلن ذلك إلى قومه في عبارة قوية أخاذة ، وأن يعود محاطاً بهالة من الجلال والاعجاب . لكن ذلك ليس يتفق مع طريقته في التفكير ولا هو يقرب الغاية التي ينشدها ولا يؤيد السلام الذي يسعى لها يليده .

ذلك جاء الى الحكمة ينادي داعيها في نفس الوزير الاكليزي، حتى اذا لم يجب هذا الداعي وأصر على تشدده كان مسؤولاً أمام العالم كله وكان مخالفاً في خطته مع مصر كفتح بلاد الشرق الخططة التي أتبعها الدول الاوربية فيما بينها لتأييد السلام . فبعث بخطاب ذيـه من البراعة السياسية ، ومن المحرض على كرامته وكرامة بلاده، ومن تمثيل مناظره بـعدم النجاح، ما يشهد به نفسه اذ قال :

« عزيزى صاحب السعادة »

« من أطيب الأشياء إلى نفسي أن أعرب لسعادتكم ، قبل مغادرتي لندرة ، عن عظيم شكرى لما لقيته لديكم من حسن الاستقبال . وان أنس لا أنس زرعة الود التى ما برحتم تصدرون عنها فى محادثتنا ولا ما أبدىتموه على الدوام من صادق الرغبة فى التماس أسباب التوفيق بين البلدين . »

« ولقد كان يسعدنى أن أرى مساعديك المجيدة فى تثبيت أركان الصداقة بين القطرين تسکل بالنجاح ، كأنه يؤلمى أن يتحقق كل ما بذل من الجهد في هذا السبيل ، تلك الجهد الذى لم تجعل ، حتى اللحظة الأخيرة ، مجالا للشك في حسن خاتمة محادثاتنا في هذا الشأن . »

« ولازال أرجو ، إذا نادى منكم داعي الحكمة والتجى إلى صادق شعوركم وصحيح انصافكم ، أن تدركوا الغاية التي تعملون لها ، وأن تضموا إلى أكيل « لوكارنو » إكيل الاتفاق بين إنكلترا ومصر »

ولم تضعف استقالته من إعانته بامكان الاتفاق بين مصر وإنكلترا . بل كان يرجو في ظروف سياسية جديدة ما يمكنه من العود لمعالجة المفاوضات من جديد مع عظيم الرجاء في نجاحها .

لكن الجهد العظيم الذى أتفقه والمقابلة السيئة المنظوية على إنكلترا الجميل ، التي قوبل بها ، ومحاولته نسيان ذلك بالا كباب على العمل في مجلس الشيوخ كعضو من أعضائه ، كل ذلك هز أعصابه وأضعف قوته . فسافر مستشفياً في صيف سنة ١٩٢٨ وذهب إلى سان مورتز ثم عاد منها إلى باريس في ١٨ سبتمبر . ولم يكن يدرى أن أجله

يتربص بها ليختم كتاب حياته في الساعة الثانية من بعد ظهر ٤٢
سبتمبر ، أي بعد وصوله إليها بخمسة أيام .
٢١٩٢٨

وبكت مصر ثروت ، وتقدمت دول العلم كلها تعزى لها فيه ، وتناولت
الصحافة في مختلف الأمم أعماله فشادت بها ورفعتها إلى المكان
الجدية به . . . بكته مصر مقدرة جميل صنيعه ، وعظم نزاهته ، وعلو
همته ، آسفة على ما فرط منها أيام حياته في حقه . مؤمنة بأن سبقي اسم
ثروت علماً في تاريخ مصر على الاقتدار السياسي المنشود النظير .

الكتاب العظيم
كتاب العزائم

كتاب العزم
كتاب العزم
كتاب العزم
كتاب العزم
كتاب العزم

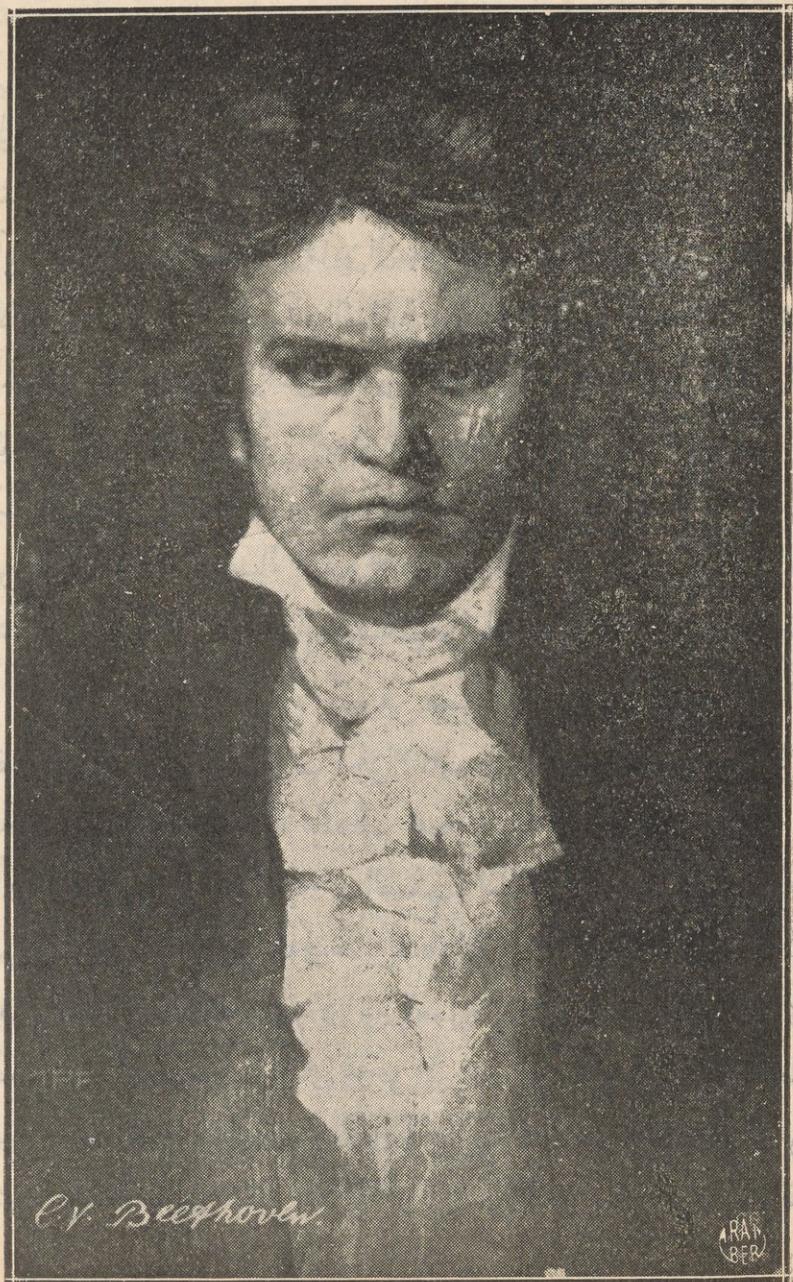
الكتاب الثاني

ترجم غربيّة

مُسْكَنُهُ

— ۲۳۹ —

بِهِ وَفْنٌ



اليوم ، ٢٦ مارس سنة ١٩٢٧ ، يحتفل العالم بمرور مائة عام على وفاة بيتهوفن ، اجلالاً لتلك الاحان القدسية التي أورثها اياد هذا النابغة الشقي ، والنبي ما زال برغم ما أحدث كبار رجال الموسيقى آيات خالدة في عالم النغم . فما يزال لحن الريف وألحان بيتهوفن التسعة الأخرى وسائر أناشيد الغنائية موجود في جو الوجود فتزده بالحياة نعمة ، وتشدو في أغوار تقوس عارفيها والمعجبين بها كلما أعزهم اللحن العذب ليعرف من همهم وليريهم عزائمهم . وما يزال اسم بيتهوفن ولن يزال مقترباً بكل لحن من هذه الاحان ، بل بكل نغمة من نغماتها . وذكر العالم اليوم له مرور مائة عام على وفاته ليس إلا أداء الدين الشكر الواجب على العالم لكل من زاد حياته جمالاً وفضلاد وقوة .

يذكر العالم كله اليوم بيتهوفن فيذكر ذلك الالماني المولد ، الفلهنكي الأصل ، المتقارب أجزاء الجسم في قصر يكاد يجعله ق Zimmerman ، الحاد النظرة ، العبوس ، المتوجه للحياة بعد ما تجهمت الحياة له ، فأورثته المرض وانتهت به إلى الصمم ، الجاعل مع ذلك من العالم سبيلاً المسرة ، المفني نفسه في سبيل فنه ، المؤمن برسالته وبقوته . يذكر العالم هذا الرجل الذي لم يجد في غير العمل سبيلاً للسعادة ، أو بالأحرى لحسن احتمال الشقاء ، والذي توفر على عمله في الموسيقى توفرأ جعله ينتفع بهذه الثروة الفنية ، والذي لم يعرف غير الموسيقى ولم يؤمّن بشيء إيمانه بها أن كانت أعصاً به أو تاراً تهتز بالنغم لكل مافي الحياة .

فقد كان كل ما في الحياة عنده نعماً، كان الجمال نعماً والعواطف
نعمًا والأفكار نعماً والنور والظلمة والحزن والأسرة والزهر والشجر
والسحاب والجبل وكل ما في الطبيعة وما في الحياة ألغاماً تشدوا
بها أو تاره هذه النفس العصبية الحساسة الشديدة التأثر بكل ما يلامسها.
بهذه الأنقام وبما تعبر عنه من جليل المعانى وبذكرى واضعها
يمحتفظ العالم اذن اليوم.

وَعَجِيبٌ أَنْ كَانَتْ حَيَاةً وَاضْعُمْ هَذِهِ الْأَنْغَامُ السَّمَاوِيَّةُ نَشَارًا
كُلَّهَا . فَلَمْ يَنْشأْ بِتَهْوِفَنِ نَشَأَةً غَيْرَهُ وَلَمْ تَتَسَقِ حَيَاةُهُ مَعَ بَنْوَغَهُ ، وَلَمْ
يَنْدُقْ مِنَ الْهَنْسَاءِ مَا يَنْدُوْهُ أَمْثَالَهُ . بَلْ كَارَنْ ، وَهُوَ عَلَى حَدِّ قَوْلِهِ
«بَا كَوْسِ الدُّنْيَا يَسْتَصْفِي لِلْإِنْسَانِيَّةِ الرَّحِيقُ الْعَذْبُ وَيَجْلِي عَلَى النَّاسِ
أَقْدَسَ مَا فِي الرُّوحِ مِنْ جَلَالٍ» ، مَعْذِبًا فِي نَشَأَتِهِ، مَعْذِبًا جَلِ حَيَاةِهِ،
مَعْذِبًا كَذَلِكَ فِي مُوتِهِ . وَلَعِلَّ مَا مَمْتَعَتْ بِهِ ذَكْرَاهُ بَعْدَمَا اسْتَرَاحَ مِنْ عَذَاءِ
الْحَيَاةِ وَنَشَارِهَا الدَّائِمِ مَعَهُ ، قَدْ أَفَاءَ عَلَى رُوحِهِ مِنَ الطَّائِنَةِ مَا لَمْ
يَسْتَرِحْ إِلَيْهِ يَوْمًا طَوَّالَ عِيشَهُ .

ولد لدفج فان بهوفن بمدينة بون على مقربة من كولونيا في ١٦ ديسمبر سنة ١٧٧٠ . وكان ابوه مغنياً سكيراً ، وكانت امه خادماً وابنة طباخ وأرمل فراش . وهذه بداية في الحياة لا تبشر بخير ولا بنعمة . بل هي نذير صراع للوجود فاس قتال . ولم يمهله أبوه الى اكثر من الرابعة من عمره حتى تبين منه ميلاً للموسيقى ، فراد أن يستغله بعرضه على الناس وحبسه ومعه كمنجا صغيرة ،

وأرهقه بالعمل حتى كاد يكره اليه فنأ خلق له . لكن كسب الأب
كان تافها ، فكان لابد للطفل أن يجني من عمله عيشه . فما بلغ
الحادية عشرة حتى كان عازفا في اركسترا أحد المسارح . وفقد أمه
وهو في السابعة عشرة من عمره . خزن لفقدتها أشد الحزن أن القى
ذلك عليه أعباء العناية بأصر أسرته وتربيمة أخيه بسبب ما انحط من
قوى أخيه .

وفي نوفمبر سنة ١٧٩٢ ارتحل الموسيقى الى فيينا عاصمة المانيا
المusicية على أثر موت أخيه . وكان يومئذ كما كان طوال حياته ميلا
للعزلة محباً للعمل حباً جماً . وكان لذلك قد جعل من البيانة (١) خيراً أصدقائه .
فاليها كان يبيت شجنـه حين اضطر لـهـجـرة دارـاهـلهـ وقد جعلـهـاـ
عربـةـ أـبـيهـ جـحـيـماـ ، وـاـيـاهـ كانـ يـسـتوـدـعـ الـافـكـارـ الـطـرـيفـةـ الـتـيـ يـفـيـضـ
بـهـ قـلـبـهـ ، وـعـلـيـهـ كانـ يـرـجـلـ هـذـهـ الـافـكـارـ اـرـجـالـاـ ، وـمـعـهـ كانـ
يـتـنـاجـيـ بـمـاـ يـجـولـ فـيـ نـفـسـهـ مـنـ خـلـجـاتـ وـمـاـ يـحـيـشـ بـهـ صـدـرـهـ مـنـ
عـواـطـفـ ، وـبـهـ كانـ يـعـبرـ لـلـنـسـاءـ الـمـوـاتـيـ أـحـبـ عـمـاـ يـغـمـرـ قـلـبـهـ مـنـ
هـيـامـ وـمـاـ يـحـزـ فـيـهـ مـنـ غـيـرـةـ . بلـ لـقـدـ كانـ يـتـحدـثـ بـهـ إـلـىـ أـصـدـقـائـهـ .
وـلـمـ يـكـنـ أـكـثـرـ مـنـهـ بـلـاغـةـ لـلـعـبـارـةـ عـمـاـ فـيـ نـفـسـهـ . فـقـدـتـ سـيـدةـ مـنـ
مـعـارـفـ وـلـدـهـاـ وـجـزـعـتـ لـفـقـدـهـ أـيـ جـزـعـ ، فـلـمـ ذـهـبـ بـهـ وـفـرـ

يواسـيـهـ أـمـسـكـ بـيـدـهـاـ وـوـضـعـهـ عـلـىـ قـلـبـهـ وـقـالـ لـهـ : «ـاـنـ مـاـ اـشـعـرـ بـهـ
هـنـاـ لـاـسـبـيلـ إـلـىـ بـيـانـهـ . لـكـنـ بـيـانـةـ سـتـقـولـهـ عـنـ»ـ مـ جـاـسـ إـلـىـ
الـآـلـةـ الـموـسـيـقـيـ وـارـجـلـ قـطـعـةـ يـحـكـيـ فـيـ صـدـرـهـ أـبـيهـ ، مـ كـانـتـ
لـلـسـيـدةـ نـعـمـ الـعـزـاءـ . وـكـذـلـكـ كـانـتـ بـيـانـةـ صـدـيقـهـ كـماـ كـانـتـ مـوـضـعـ

(١) البيان على نحت الاستاذ مصطفى صادق الرافعي

قوته في الموسيقى وسلطانه في الارتجال . . يبلغ من الساطنان عليها حتى قال عنه موزار — الذي ملأت الحانة أذان ذلك العصر وما تزال الى اليوم من مفاخر الموسيقى — وقد سمعه وهو في السابعة عشرة من عمره يرتجل وحده في غرفة مجاورة للغرفة التي كان فيها موزار وجاءه من أصحابه : « قنبهوا الى هذا الشاب فسيكون موضع حديث الناس يوما من الأيام »

ذهب الى فينا على اثر وفاة أبيه بدعوة من أعضاده وفي مقدمتهم الكونت دوالشتين . وكان أكبرهم من ذهابه اليها أن يدرس على هايدن أكبر المؤلفين الموسيقيين الالمان يومئذ . لكن هايدن كان مشغولا بتأليفه جد الاشتغال فلم يجد الشاب من وقته ما يفيده . فتركه بل قاطعه وعمد ليدرس على البرختبرجيه . وكانت أخلاق هذا الاستاذ على علمه يشوبها كثير من الغرور والجفوة بما لا يتفق وأخلاق بتهوفن الحرة التائرة . وعلى ذلك كل دراساته الموسيقية وحده فظل فيها من أثار النبو عن متعارف القواعد مالم يعبأ به بتوغه الخالق وقوته الخارقة للمعادة وسلطانه الذي حلق في السماء خضعت له كل القواعد .

وخصده يومئذ البرنس لخنفسيكي وأواه في داره وفرض له سبعة فلوريينا سنويًا . وألفت بينهما صداقة متينة لم تكن تخلي من أسباب لسوء التفاهم قضت دائمًا عليها الاميرة لخنفسيكي التي كانت موسيقية تقدر فضل النابغة الذي يقيم معهم حق قدره .

ويومئذ كانت الثورة الفرنساوية تعزز العالم كله بعبادتها . وكان بتهوفن خصما لها أول أمره . لكن مداومته قراءة هو ميروس

وأفلاتون وفرجيني وناسيت وتشينه المبادىء الجمهورية التي قامت
عليها الثورة ، جعل منه نصيراً من أكبر أنصارها . ولذلك لم يتردد
حين جاء اليه الجنرال الفونسى برنادوت يطلب اليه أن يضع لحنًا
لتحت قنصل الثورة بونابارت . وأتم بهوفن اللحن وكان
على أهبة إرساله إلى باريس إذ علم أن نابليون توج نفسه إمبراطوراً . فما
لبث أن عاد إلى بيته ساخطاً ومرق لحنه وقال : « كلا ! هذا رجل
مطامع كغيره من الرجال » ولم يرد أن يسمع بعد ذلك عنه خبراً .
ثم الحـ عليه أصدقاؤه بعد سنوات من ذلك كـ يعيد هذا اللحن إلى
الحياة فغير فيه القطعة الثانية وكانت نشيد النصر ووضع بدتها
نشيد الآسى ، كما نـ يـعـيـ بـ ماـ كـانـ مـنـ آـمـالـهـ . وسمى اللحن
لحـ الـ بطـولةـ ، وأضـافـ إـلـىـ عنـوانـهـ هـذـهـ العـبـارةـ «ـ اـحـيـاءـ لـذـ كـرـىـ
رـجـلـ عـظـيمـ »

ومن يومئذ بدأت تواليفه ومصنفاته تقipض فيضاً . فكتب
عدة أحـانـ هـنـ خـيرـ أحـانـهـ كـ كـتـبـ اوـبراـ فـدـليـوـ . وـ يـوـمـئـذـ أـحـسـ
بسـلطـانـهـ وـآـمـنـ بـقـوـتـهـ وـفـاضـ عـنـهـ الرـضـاـ بـالـحـيـاةـ وـالـسـكـيـنـةـ هـاـ ، وـ تـدـلـ
الـصـورـ الـتـيـ صـورـتـهـ فـيـ ذـلـكـ الـعـصـرـ عـلـىـ مـلـعـ طـمـاـ نـيـنـتـهـ وـعـظـيمـ أـمـلـهـ فـ
الـمـسـتـقـبـلـ . فـقـىـ سـنـةـ ١٧٩٦ـ كـتـبـ فـيـ مـذـكـرـاتـهـ الـخـاصـةـ يـقـولـ :
«ـ اـقـدـامـاـ ! وـبـرـغـمـ أـسـبـابـ ضـعـفـ الـجـسـدـ فـالـنـصـرـ لـعـقـرـيـتـيـ هـاـ أـنـ أـلـفـتـ
الـخـامـسـةـ وـالـعـشـرـينـ . . . فـيـجـبـ فـيـ هـذـاـ عـامـ أـنـ يـظـهـرـ الرـجـلـ كـامـلاـ»
وـذـلـكـ عـلـىـ أـنـهـ كـانـ مـاـيـزـالـ فـيـ بـدـاـيـةـ حـيـاتـهـ الـعـامـةـ . فـأـوـلـ حـفـلـةـ عـامـةـ
لـهـ كـيـانـيـ وـقـعـتـ فـيـ ٣ـ مـارـسـ سـنـةـ ١٧٩٥ـ . لـكـنـهـ لـمـ يـبقـ لـدـيـهـ رـيبـ
فـيـ قـوـتـهـ وـلـمـ يـخـفـ ذـلـكـ عـلـىـ أـحـدـ مـنـ اـصـحـابـهـ . بـلـ كـانـ يـبـاهـيـ بـهـ عـلـىـ

صورة قد لا يرضاها من لم يكن له مثل مولده . كتب الى الدكتور
وجلر — صديق صباح في مسقط رأسه — يخبره بتجاهله العظيم ،
فكانت الفكرة الاولى عنده ظاهرة في قوله : « أرى مثلاً صديقاً
محاجاً ، فاذا لم يسمح لي جيبي بالاسراع الى معونته لم يكن على الا
أن اجاس الى منضدة العمل فإذا بي في وقت قصير قد سددت
حاجته ، ألاست ترى هذاغية في الجمال . . . ويجب أن أقف فني
على معونة الفقراء »

لكن ! يا القسوة القدر ! فما كاد هذا النابعة القوى يتربع على
دست عظمته حتى بدأ مقدمات الهم واليأس تسلك اليه مسارها .
بدأت هذه الأفة التي نعاصت عليه عيشه بقيمة أيامه منذ سنة ١٧٩٦ .
فاما تض على هذه السكينة للقوة العظيمة شهور حتى بدأ وجه
الحياة يتوجه وببدأت نذر الشقاء تتقدم . وببدأت مقدمات الصمم
بطنين الا ذان ليل نهار طنين امزعجاً . وقد ظل سنوات يخفي مرضه
حتى على اعز اصدقائه . وكيف تزيد وسعيه على أن يقول للناس
انه أصم ! لكن ذلك لم يبعد به عن مداومة العمل . ولئن ظهرت
بعض آثار الحزن الناشئة عن آلامه في عدد من الاحان التي وضعها
في ذلك الحين فقد بقى اكثراها بساماً طروباً . غير انه لم يطق كمان
علمه بعد أن احتملها خمس سنوات تباعاً . فكتب في سنة ١٨٠١
يشكوا هذه العلة الى كثير من اصدقائه ومن بينهم صديقه أمندا إذ
كتب يقول له :

« عزيزي الطيب الرفيق امندا . . . كم كنت ارجوك بجانبي .
فخص صديفك بيته وفن بالأس غاية البوس ، ذلك لأن سمعي ، وهو أكرم

اجزاء نفسي على ، قد ضعف كثيراً . و كنت أشعر منذ كنا معه
باعراض المرض . وكنت أخفيه ، لكنه اطرد سوء من بعد ، فهل
أشفي ؟ ارجو ذلك بالطبع ، ولكن رجائي فيه قليل . فمثل هذا
المرض اشد مما سواه استعصاء على البرء . و سأضطر لقضاء العيش
في بؤس فأتجنب كل ما أحب وكل ما هو عزيز على ، وذلك بين
علم شقة و أناية . . . ياشفاء الاستسلام الذي يجب أن الجأ اليه .
لا ريب أنني فرضت على نفسي السمو فوق كل هذه الآلام فهل
ترى أستطيع تحقيق ما فرضت ؟»

هل من سبيل الى عزاء لتهوفن عن هذا الالم ؟
هل من وسيلة لتحفييف مضضه وصرارته ؟ الوسيلة الممكنة هي
الرأة والسبيل هو الحب . فلو ان بهوفن وجد يومئذ من يتعلق بها
قلبه ويؤمن به وبعظمته قلبها ، لكان له من ذلك ما يهون عليه بعض
همه . ولقد كان منذ نشأته طيب القاب عطوفاً . لكن حبه كان
قاسياً كالفضيلة التي امتلاها قلبه . وكان لذلك يرى عاراً أن تتدلى
الموسيقى للتعبير عن حب تشوبي الشهوة . ولذلك عاب على موزار
قطعته «دون جوان» . على ان فضيلته القاسية هذه هي التي كانت
سبب فشل علاقته الغرامية جميعاً . ففي سنة ١٨٠١ تعلق جوليتا
جوتشياردي واهداها لحن المعروف «ضوء القمر» ، وكتب الى
صديقه وجلو يقول له «الآن اعيش اكثر سكينة واحتاط بالناس .
اكثر من ذى قبل . ولقد أبدع هذا التطور في حيالي سحر فتاة عزيزة
تحبني واحبها . وهذه هي الاحظات السعيدة الاولى التي تذوقت منذ
عاهدين » . لكن هذا الحب زاده شعوراً بعرضه كما ان جوليتا كانت

لعوا شديدة الانانية لاتعبأ باللام بتهوفن . ولم تعرف في سنة ١٨٠٢ ،
أى بعد سنة واحدة من حبها ، عن أن تزوج من الكونت
جالنبرج . وكان حب بتهوفن إياها ظاهراً مخلصاً ، فسكنت خيانتها
طعنة قاسية أصابت بها شغاف قلبها . على أنها لم تكتف بما فعلت بل
جعلت تستغل لفائدة زوجها وجعل بتهوفن يذعن باسم الطيبة ويقول
« انه عدوى . وذلك هو السبب في اسدائي إياه كل خير استطيع
اسداه » .

وأدى به الصمم والمرض والانقطاع عن الناس وخيانة جوليتا
إلى اليأس من الحياة وإلى اليقين باقتراب ختامها . وزاد به اليأس
حين ذهب إلى « هيليجنسنستات » أحدى صاحبيات فيما مستشفياً ،
ومكث بها ستة أشهر لم يقدر لسماعه خلاها شيئاً . هناك كتب
وصيته التي تشتمل هنا ، وإن كان قد عاش بعدها خمساً وعشرين سنة ،
لأنها تدل على عظيم ألم هذا الرجل العظيم كما تدل على عظيم نبوغه
وعظيم أيامه بفنها وعلى طهارة نفسه وطيبة قلبها وحبه الناس ، وتدل
على أن هذه العواطف كانت في نفسه هياجة زائرة كهذه الموسيقى
القوية الثائرة التي سمعها له في كثير من حياته . وحتى في الحانه
الرقيقة اللحمة والسودا . قال :

« يا إيهما الدين ينظرون إلى أو يحسبون حقوداً أو بما بالناس
أو متظيراً بالحياة لشد ما تظلمونني . إنكم لا تعرفون السبب الخفي
الذي يظهرني بهذا الظهر . فقد كان عقلي وقابي متوجهين منذ طفو لتي
إلى عاطفة رقيقة هي الطيبة ، وكنت دائعاً مستعداً لأقوم حتى بعظيم
الاعمال . لكن صوروا لأنفسكم بؤس حالى منذ ست سنين ، هذه

الحال التي زادها الأطباء الاغرار سوءاً أو التي مازالت أخدع في أمرها
عاماً بعد عام أملاً في تحسنها، ثم أضطر آخر الأمر لاحسنه حالاً مزمنة
يقتضي البرء منها، إن كان فيه أمل، سنتين عدة، وقد يكون هذا
البرء حالاً.

«لقد ولدت ذا مزاج حاد نشيط مستعد لذوق مسرات الاجتماع
ثم أضطررت وما مازال في أول عمرى إلى عيش العزلة. وحاولت التغلب على
ذلك فصدمتني التجربة الالية القاسية غير مرّة وجدت عندي
الاحساس بمرضى. ثم انى ما كنت مستطيعاً أن أقول للناس: ارفعوا
الصوت وصيحووا فاني أصم. وكيف أستطيع أن أذيع ضعف حاسة
كان يجب أن تكون عندي ادنى إلى الكمال منها عند الآخرين.
حاسة كانت في الماضي بالغة من الكمال حدالم يتح لقليل من أبناء
فني ان يبلغوه. كلا! لا أستطيع، فاعذروني اذا ان رأيتوني
أعيش عيش العزلة بينما أريد أن أكون معكم وفي صحبتكم. وشققاني
مضاعف له ألمى أن كان سبباً لحكم على حكماً قاسيماً. ولقد منعت من
أن أجد الراحة والطمأنينة في الاجتماع بالناس وفي المحادثات الظرفية
وفي العطف المتبدال. فانا وحيد منقطع. لا أستطيع أن أجاذف
بنفسي في الجماعة. ومام لم تكرهني على ذلك حاجة ماسة فيجب أن
أعيش منفياً. فإذا اقتربت من جماعة ملك على الأرض طراب بجموع حواسى
من خشية أن أتعرض لوقوف الناس على بيئنة أمرى.

«ومن ثم أمضيت هذه الستة الاشهر في الريف، وقد طلب الى
طبيبي الفاضل أن يعني بسمعي جهد الطاقة، وبلغ من ذلك أكثر مما
كنت أرجو. ولقد شعرت غير مرّة بالميل للجتماع بالناس وتركت

نفسى تنال منهاها . ولكن ! أى مذلة أن أرى رجلا على مقربة منى
يسمع قيشاره من بعيد ولا أسمع أنا شيئاً ، أو يسمع غناء الراعى
ولا أسمع أنا شيئاً . ولقد قربت هذه التجارب بينى وبين اليأس
حتى كدت أقضى بيدى على حياتى . لكنه الفن — نعم هو الفن
وحده الذى استيقانى . اواه ! لقد بدا لي أن من الحال أن أترك هذا
العالم قبل أن أتم كل ما أحسست أنى مطالب بادائه . وكذلك أطلت فى
هذه الحمامة البائسة ، والبائسة حقا ، لجسد سريع التهيج حتى لينقمه
أقل تغيير من خير الحالات إلى أسوئها ... صبرا — كذلك يقولون !
وهو الصبر الذى يجب أن اختاره الآن ليمر شدا . وقد اخترته .
وأنى لا أرجو أن تظل عزيمتى على المقاومة ثابتة حتى ترضى الآلهة
بالقضاء على بقية حياتى . وان يصلح الحال أو يسئ فاني الصابر . ألا
ليس يسيرا أن يكره الإنسان ، وما يزال في الثامنة والعشرين من
العمر ، على أن يكون فيلسوفا . وذلك أشد قسوة ب الرجل الفن منه
بأى رجل آخر .

«اللهم انك لتستشف من سمائك حجب قلبي و تعرفه و تعلم انه
حاصل بحب الناس والرغبة في عمل الخير . وأنتم أيها الناس اذا قرأتם
يوما هـذا الذى اكتب فاذكرواكم كنتم ظالمين إياى . وإن الشقى
ليتعزى اذا رأى شقيناً مثله قام برغم كل ما ألمت الطبيعة في سبيله
من عقبات بكل ما في جهده أن يقوم به ، كى يكون في صف رجال
الفن والصفوة المختارين .

لدفع فان به وفن

هيلجنستات في ٦ اكتوبر سنة ١٨٠٢

«هيلجنستات في ١٠ أكتوبر سنة ١٨٠٢ — والآن وداعاً،
وداعاً أسيفاً — ان الامل العزيز الذي جئت به الى هنا، هذا الامل
في أن أشفى ولو الى حد يجب أن أياس منه كل اليأس — وكما
تناثر أوراق الخريف وتذوى — كذلك هذا الامل جف في نفسى
وذوى — كما جئت الى هنا أعود وقد فقدت حتى الهمة التي كثيرةً
ما استندت اليها أيام الصيف الجميلة — أواه أيها القدر! — هبلى أن
أرى مرة واحدة يوم مسيرة صفو — فما أطول الزمن الذي حبس
عني فيه رين المسرة الصادقة العميق — أواه متى يارب؟ متى أستطيع
أن أحس بها في معبد الطبيعة والناس... أبداً! — كلا! كذلك
يكون أبلغ القسوة. »

لم تنشر هذه الوصية الا بعد وفاة بتهوفن ، لكنها تدل على
مبلغ ما كانت تضطر布 به نفسه حين كتبها من الالام ، وعلى
شديد ايمانه مع ذلك بالفن . هذا الإيمان الذي يجعله
يستأثر الموت وان كان في الموت راحة له من شقوته وأوصابه ،
ويستأثره ليم رسالته وإن عانى في سبيل إتمامها من الالام ما لا
قبل لغيره باحتماله . وكذلك ترى النواuges حقاً يسمون في سبيل
ابراز مواهبه بكل ما يحرض الناس عليه وبكل ما يجذعون منه
ويفرون . فيينا كان بتهوفن يكتم هذه الصيحات الفاجعة مكتفياً
بتوجيعها في صدره بينه وبين نفسه ، وبابتهاها على القرطاس لتكون
سبيلاً الى سلامه بعد موته ، كان اخوه يستغلان أحانه استغلالاً
مادياً ما كان بتهوفن ليعنى به لولا حبه لا خوبه حباً يتفق مع
عظمة الفضيلة التي تقىض بها نفسه أناشيد والحان قديسية سامية .

وكثيراً ما خاطبه أصحابه فيما يجني عليه أخواه من مساعات ، فكان جوابه وهو يبكي : « لـكـنـهـاـ أـخـوـاـيـ ». وما لا أخويه وبكائه : انه هـمـاـ مـزـرـعـةـ تـسـتـغـلـ وـمـوـدـرـزـقـ فـيـاضـ . كـتـبـ أـحـدـ أـخـوـيـهـ لـناـشـرـ طـابـ بـعـضـ قـطـعـ أـصـلـيـةـ مـنـ أـخـانـ بـهـوـفـنـ وـأـنـاشـيـدـهـ : « ليس لدينا من ذلك إلا لحن وعزف كبير للبيانة وثمن كل ثلاثة فلورين . أفتريد ثلاثة سونات للبيانة ؟ نحن لانستطيع أن نقبل فيها أقل من ثلاثة فلورين ، على أن تسلم بعدخمسةأسابيع أو ستة ، لأن أخي أصبح لا يعني الآن بأمثال هذه التفاهات ولدينا » وذكر بقية « البضائع » . وبهوفن لا يقييد من ذلك إما كله إلا ما يقيم حياته المليئة بالآلام . فأما هذه الحياة التي يحتفظ هو بها للفن فليست في ملائكة ، لأنها هبة القدر للوجود كله في حاضره ومستقبله . هي قيشاراة قدسية بعضها يد العناية إلى هذا العالم ، لتنشد الناس كل ما أبدعت العناية في الخلق من نغمات . والى أن تم هذه الرسالة الواجبة عليها يجب أن يبقى صاحبها معذبا شقيا ، ويجب أن يستريح لمعذابه ولشقوته ، أو على الأقل يجب أن ينسيه إيمانه برسالته وإنصرافه بكل وجوده لا بلاغهاهذ الشقاء وهذه العذاب لكن المرأة هي البلسم والشفاء لعذابه أو لتسكينه . وقد عبّرت جولييتا بهوفن عبئا قاسيا رغم ما كان من شدید تعلقه بها . فهل جفاه الحب بعد ما جفته هذه العوب الايرة المحبة لترف الحياة التافه أ أكثر من حبها لمجد العظمة الخالدة ؟ كلا ! فما تزال بهوفن ساعات سعادة في الحياة ينعم بها رغم همه ، وملك هذه الساعات المخلص الطاهر هي : تريزبرنسويك .

وكان بيوفن قد عرف تيريز منذ أيامه الأولى في فينا ان كان يعلمها البيانة . لكنه لم يعلقها يوماً ولم يسر الى قلبه خاطر الحب منها وان اتصل بأخيها السكونت فرنسوa بصداقه متينة . فلما كانت سنة ١٨٠٦ وكانت جوليتا قد تزوجت منذ ثلاث سنين زارت بيوفن صديقه القديم في مارتنفاسار بال مجر . قالت تيريز : « وبعد العشاء ذات مساء أحد جلس بيوفن في ضوء القمر الى البيانة وصر بيده على ملامسها . وكنت أعرف أنا وأخي ذلك منه . في كذلك كان يبدأ دائماً . ولعب بعض تقسيم على طبقات القرار . ثم انتقل من ذلك الى لعب أغنية سباستيان باخ : ان شئت ان تهيني قلبك فليكن ذلك أول الامر في خفيته حتى لا يستطيع أحد أن يحس مسارح أفكارنا المشتركة . ولعب هذا اللحن في وقار وهيبة ، وكانت أمي وكان القسيس قد ناما ، ونظر أخي الى ما أمامه ذاهلاً . أما أنا فأخذتني نظره وأخذني غناوه وأحسست بالحياة كاملة . وفي صباح الغد تقابلنا في الحديقة فقال لي : أكتب الآن أوبرا أرى بطلتها في دخيلة نفسى وأراها أمامى حينما ذهبت وأينما أقت . وما أحسبنى سوت يوماً لهذا السمو . فكل ما أمامى ضياء وطهر ونور . وفي شهر ما يوأصبحت مخطوبته باقرار أخي فرنسوa وحده » وظلت هذه الخطبة حتى سنة ١٨١٠ حين انقصمت عروتها وإن لم تنقصم عروة الحب بين الخطيبين اللذين عاشا به سعيدين حتى مات هو في سنة ١٨٢٧ وماتت هي وما زال على عهده في سنة ١٨٦١

وكان لهذا الحب في نفس بيوفن وفي حياة الموسيقية أثر أى أثر . فاللحن الرابع الذى كتب فى أول أعوام الخطبة زهرة

تقطوع بشذا السكينة والخلود الى ضفو العيش مع الناس . وكذلك كانت الالحان التي كتبت في هذه السنوات أقل ثورة وأكثر ترناً بنعمة الحب والحياة ، ومنها لحن الريف باغاريد بلا به وآطيماره وأغنيات شبابه وعداراه . ولم يقف أثر الحب عند موسيقى بهوفن بل تعدد الى حياته فعمله محبأ للتألق في ملبيس ٤ ميلاً للاختلاط بالناس والتحدث اليهم حاضر النكتة ظريفاً . وبلغ من ذلك أن الناس نسوا صممهم ولم يلاحظوا عليه الا ضعف بصره الحاد المطردة . ومن ذلك العهد السعيد في حياة بهوفن يحفظ التاريخ خطاباً يثبت فيه لترير ما يبعثه الحب المضطرب في النفس الثائرة من عواطف مضطربة مقلالية . قال فيه :

« ياملاكي وكلني ونفسى ، النظرى في بدائع الطبيعة واطمئنى الى ما هو محظوم . . فالحب يلح عدلاً في أن يكون له كل شيء ، ذلك شأنه معنى في أمرك ، وهو شأنه معك في أمرى . إن قابى لمعنى بما أريد أن أبشر إياه . أينما كنت فانت معنى . أى لا يكى حين اذكر أنك ان تقفى على اول اخبارى قبل يوم الاحد على الغالب ، إنى أحبك كما تحببى بل أقوى واشد . إلهى ! ايه حياة هذه من غيرك . . فانت قريبة بعيدة . وأفكاري تتدافع نحوك يا محبوبتى الحمالقة . وهي سعيدة طوراً حزينة قارة تسائل القدر هل هو سيرعاننا . أنا لا استطيع العيش الامرك والا فلا عيش لي . ولن ينال غيرك قلبى ابداً . ابداً ! لم يجب يارب ان يتبعك متحابان كل عن صاحبه . على ان حياتى انتهى الان حياة احزان . ولقد جعلنى حبك فى نفس الوقت اسعد الناس وأشقاهم . اطمئنى . اطمئنى . وأحببى اليوم .

وبالامس . ما أعظم تطلعى اليك وما أكثر دموعى من اجلك . انت . انت . انت ياحيائى . يأكلى وداعا — واقيمى على حبى ولا تنسى ابداً قلب حبيبك بتهوفن — لك الى الابد — لي الى الابد — لنا الى الابد »

وهذا الخطاب كوصيته وجد في أوراقه بعد موته . ولعله كتبه في آخر سنوات خطبة تریزله . ففيه من اليأس أكثر مما فيه من الرجاء . وهذه العبارة التي يسائل فيها القدر هل هو سير عاهما تنبئ عن بداية انحلال الخطبة . على أن قلبه وقلبها ظلا عاصرين بهذا الحب الى آخر حياتهما . فمن كلمات بتهوفن في سنة ١٨١٦ : « يدق قلبي كلما ذكرتها بنفس القوة التي دق بها حين رأيتها لأول مرة ». وفي هذه السنة عينها ، سنة ١٨١٦ ، وضع الانعام الاربع البديعة . « الى العزيزة المحبوبة النائية » وكتب في مذكرةه « يفيض قلبي ما شهد هذه الطبيعة البديعة وهي مع ذلك ليست هنا الى جانبي » وكانت تریز قد أهدت اليه صورتها وكتبت عليها بهذه الاداء « الى النافحة الفذ والفنان العظيم والرجل الطيب ». وقد دخل صديق على بتهوفن في آخر سنة من سني حياته فالفاه يقبل الصورة ويبكي ويناجي نفسه بصوت رفيع . « لقد كنت جميلة ، و كنت عظيمة ، و كنت كالملاك الاطهار ». وبلغ من شدة تأثره لفارق تریزان كتب يوما الى أحد اصدقائه « أيها الاسكين بتهوفن — محدثاً عن نفسه — ليس لك في هذا العالم حظ من السعادة ؛ انا حظك منها في رحاب المثل الا على ، فملك فيه اصدقاء » وكتب في مذكرةه « اسلاما ! واسلاما تماماً لحظك . انت لم تعد تستطع ان تعيش نفسك وانما تعيش لغيرك

ولم يبق لك من نعيم في غير فنك . الالهم هبنا قوة الانتصار على
نفسى » هذا ولم تفت أثر ذكر بتهوفن الى اخر حيائما . فكيف
انقصمت الخطبة ولم يجمع بينهما الزواج ؟ ذلك مالم يقف عليه احد .
ولعله كان لفقر بتهوفن واختلاف مكانته مع مكانة تریز الاجتماعية .
ولعله كان لطبع بتهوفن الحاد القاسى السريع الى التطير والذى
لا يهون الحياة البدنية معه .

على انه كان قد وصل في سنة ١٨١٠ الى اوج قوته وجلس على
عرش مجده . وكان يحس بهذه القوة ولا يتواضع بسببها . رأته بتينا
برنتانو المغرة بمعرفة عظام الامان في سنة ١٨١٢ لاول مرة . ولم
تقن في حاجة الى اكثير من مرآه وسماع حديثه حتى سحرت به
وقالت .

« ليس في العالم ملك ولا امبراطور له مثل هذا الشعور بقوته »
ثم كتبت الى جيتي تقول . « لمارأيته لاول مرة انمحى الوجود كله
من أمامي . ولقد أنساني بتهوفن العالم وانسانى ايک أيضا يا جيتي .
وما أظنني مخطئة أن أؤكد ان هذا الرجل يسبق المدنية الحديثة
غير اهل .» وأراد جيتي ان يعرف بتهوفن فتقابلا في حمامات بوهيميا
يتوبيلز في ذلك العام نفسه لكنهما لم يتباها . خلق بتهوفن العنيف
الحر لا يتفق مع خلق جيتي الرقيق الوداع . ذكر بتهوفن نزهة لهما
كان فيها قاسيًا كل القسوة مع دوق فيمار . قال في خطاب بعث به
إلى بتينا فون ارنم :

« يستطيع الملك والامراء أن يخلقا الاساتذة والمستشارين
وأن يفرقون في الرتب والالقاب ، لكنهم لا يستطيعون أن

يخلقو اعظماء الرجال والاذهان التي تسمو على المحاميم . فاذا اجتمع رجالان مثلى أنا وجيتي وجب على هؤلاء السادة أن يحسوا بعظمتنا . ولقد تقابلنا أمس حين عودتنا في الطريق مع العائلة المالكة كلها وكنا قد رأيناهم من بعيد فانزع جيتي نفسه من ذراعي ليقف على حافة الطريق . وعبيشاً قلت له كل ما أردت أن أقوله فلم يزحزحه ذلك خطوة واحدة عن موقعه . عند ذلك كبسـت قبعتـي في رأسـي وزررت ردنجـوتـي وسرـتـي وذراعـي وراء ظهرـي وسـطـ الجمـوعـ الكـثـيفـةـ . وأفسـحـ الاـمـرـاءـ وـالـحـاشـيـةـ لـ طـرـيقـاـ وـرـفـعـ لـ الدـوقـ روـدـلـفـ قـبـعـتـهـ . وـكـانـتـ الـامـبرـاطـورـةـ أـولـ مـنـ حـيـانـيـ . فـالـعـظـاءـ يـعـرـفـونـيـ . أـمـاـ جـيـتـيـ فـرـأـمـامـهـ الجـمـعـ وـهـوـ فـيـ مـكـانـهـ عـلـىـ حـافـةـ الـطـرـيقـ منـحـنـ أـشـدـ الـاحـنـاءـ وـقـبـعـتـهـ فـيـ يـدـهـ . وـقـدـ لـمـتـهـ أـشـدـ المـلـومـ بـعـدـ ذـلـكـ وـلـمـ أـغـتـفـرـ لـهـ قـطـ تـصـرـفـهـ »

ولم ينس جيتي له هذه المسـاءـةـ وـظـلـ بـيـنـهـ وـبـيـنـهـ مـاـ كـانـ يـينـ فـوـلـتـيرـ وـرـوـسـوـ فـيـ آـخـرـ حـيـاتـهـ . قـالـ جـيـتـيـ لـزـلـتـرـ : «ـ بـهـوـفـنـ شـخـصـيـةـ لـاسـبـيلـ مـعـ الـاسـفـ إـلـىـ تـأـلـفـهـ . وـقـدـ لـاـيـكـونـ مـخـطـئـاـ إـذـ يـرـىـ الـعـالـمـ كـرـيـهـاـ . لـكـنـ خـلـمـتـهـ فـيـ الـحـيـاةـ لـيـسـتـ هـيـ الـوـسـيـلـةـ الـتـيـ تـجـعـلـ الـعـالـمـ حـلـوـاـ لـهـ وـلـغـيـرـهـ . عـلـىـ أـنـ مـنـ الـوـاجـبـ أـنـ نـعـذـرـهـ وـأـنـ نـشـفـقـ عـلـيـهـ . فـهـوـ أـصـمـ . »ـ عـلـىـ أـنـ كـراـهـيـةـ جـيـتـيـ لـمـ تـمـسـعـهـ مـنـ الـأـعـجـابـ بـيـتـهـ وـفـنـ وـمـنـ تـقـدـيـسـهـ . وـإـنـ جـاهـدـ لـاخـفـاءـ ذـلـكـ طـاقـتـهـ ! ذـكـرـ منـدـلسـنـ أـنـ جـيـتـيـ سـمـعـ أـحـدـ الـحـانـ بـهـوـفـنـ خـاـولـ اـخـفـاءـ اـعـجـابـهـ قـائـلاـ : «ـ هـذـاـ لـاـ يـمـسـ الـقـلـبـ وـلـكـنـهـ يـشـيرـ الـدـهـشـةـ »ـ ثـمـ لـمـ تـعـضـ لـحظـاتـ حـتـىـ غـلـيـهـ الـبـحـنـ وـجـالـهـ ، فـلـمـ يـهـالـكـ أـنـ قـالـ : «ـ هـذـاـ بـدـيـعـ وـعـظـيمـ

و فوق العقل. أني لا أحس كأن البيت سينطبق على » وبعد أن كان لا يريده أن يسمع اسم بيرون جعل يسأل عن أمره وكان الدوق رو دلف الذي أشار إليه بيرون أحد التلاميذ القليليين ممن رضى هو أن يكون أستاذًا لهم . وبرغم اعفاء الدوق إياه من تكاليف البلاط ونظامه فقد كان يشكوا مما بقي مضطراً له بداعي المحاجلة من هذه التكاليف . ومن طريق الدوق رو دلف عرف كثيرين من الأمراء وأعضاء البيت المالك الذين لم يكونوا يأبهون للعطاء ، أمثال هايدن ووزار ، وإن بقي لديهم شيء من العطف على البائس بيرون . وزادوا عليه عطفا حين بدأ نجم نابليون يتأفل . فان بيرون لم ينس خيانة هذا الجمهوري الذي اتخاذ الشعب سلام الامبراطورية . فلما انتصر الانكليز عليه في موقعة واترلو وضع بيرون لحنًا لتصار ولنجتون مجده فيه كما في مجد حروب الاستقلال التي أقامها أمم أوروبا ضد فرنسا . وفي أوائل سنة ١٨١٤ وضع لحن آخر يماعن « بعش ألمانيا ». فلما انعدم توقيفينا على أثر هزائم نابليون كان بيرون في ذروة عظمته وقوته ، فشاركه في أعياد المؤمن على أنه عنوان من عنوانين مجد أوربا ، ورأس في ٢٩ نويفمبر سنة ١٨١٤ الاركستر التي لعبت أمام ملوك العصر نشيده عن « ساعة المجد ». فلما سقطت باريس في سنة ١٨١٥ وضع نشيده عن جعل عنوانه « انتهى كل شيء ». وكذلك ظهرت قوته ومقدرتها وظهر خلقه المثابر وبطشه وجبروته . هذا الجبروت الذي أباح له بعد موقعة يينا أحدى مفاخر نابليون أن يقول : « من سوء الحظ أني لا أعرف الحرب كما أعرف الموسيقى . اذا هزمته » .

وكان حظ بيوفن مذبذباً : فما تكاد آونة طمئنة تطول به زماناً حتى تعقبها آونة شقاء أطول منها وتعدل مرارتها اضعاف حلاوة تلك الاونة . فكما تخلى عنه الحب مرتين تخلىت عنه فيينا بعد هذا المجد والسلطان مجرد انتهاء أعياد النصر . وبلغ ان فكر في هجرتها رغم ما كان من اتفاق الدوق رودلف تلميذه والبرنس لوبيكوفتز والبرنس كنسكي منذ سنة ١٨٠٩ اذ رتبوا له معاشاً سنوياً أربعة آلاف فلورين على ان يظل في المساكن يظل خرآ لها . ورغم ما كان من عدم وفائهم كل الوفاء فانه سر بهذا الاعتراف بمجده . فلما مرت أعياد النصر عكف من جديد على العمل . لكن الصمم كان يزداد حتى كان تاماً في سنة ١٨١٦ . وبذلك أصبح بيوفن لا يسمع موسيقى ولا يسمع لحنا ولا نشيدا الا في دخلة قلبه

وكم لاق بسبب ذلك من عناء وهم . فقد أراد ان يدبر أوبرا فدلليو في سنة ١٨٢٢ . وكان جلياً منذ الفصل الاول انه عاجز عن هذه الادارة كل العجز . فقد كانت عصاه بطيئة ، فكانت الالات الموسيقية بطيئة معها . لكن المغنين لم يكونوا يستطيعون اتباع هذه الموسيقى فكانوا يسرعون . وحصل اضطراب اضطراب مدبر الجوق العامل الى ايقاف التمثيل . ثم حاد بيوفن الى الادارة وعاد التمثيل الى الاضطراب . قال صديقه الدكتور شندرل « ولم يقو قلب أحد على أن يدفعه ليقول لبيوفن : تتح اليها الالاس فانت عاجز عن الادارة : ووقف التمثيل للمرة الثانية فوق بيوفن ينظر في كل ناحية يريد أن يعرف سبب الاضطراب . ولم يفهم شيئاً ناداني اليه ومدى كراسته لا أكتب له . فكتبت : أرجوك أن لا تستمر وسأفسر لك في البيت

سبب ذلك . ثما هو الا أن قفز صاحبا بي : فلنعمل بالخروج .
وجرى الى بيته بكل عمامكته قوله وهناك ارتى على مقعد وسند
بيديه وجهه وجلس حتى ساعة الطعام لا ينطق بكلمة . وساعة الطعام ظل
صامتا وعلى وجهه اثر الالم الفاجع والانحلال للاليم . فلما كان بعد
العشاء وأردت أن اتركه رجاني أن أصحبه الى طبيب كان معروفا بفائه
من خير أطباء الاذان .. وفي كل ماتلا ذلك من صلاتي بيته وفن
لم أر يوما كهذا اليوم القاسى من أيام نوافر .. وقد بقى هذا المشهد
الاليم طعنة في قلبه حتى فاجأه منيته ..

وفي سنة ١٨٢٤ كان حاضراً لتمثيل رواية على موسيقاه . ولما
انتهت الموسيقى صفق الناس أشد التصديق فلم يسمع شيئاً ولم يعرف
من أمر اجلال الناس لقطعته الا بعد ما مأسكت مغنية بيده وأدارت
وجهه الى ناحية الجمود ليرى الايدي المصفقة والقيمات التي تهتز
في الايدي علامه الاعجاب والثناء .

وعاون بؤس الصمم وألم المرض ما وقع فيه من حاجة واعواز ،
فهذا الذى كان يفرض أخوه أثمان الحانه على الناشرين فرضاً وصل
في آخريات أيامه ليكتب هذه العبارة لأحد تلاميذه : « اكتب
هذه (السونات) في ظروف شاقة . فمن المحزن أن يضطر الانسان
للكتابه كى يحصل الخبز . وهذا هو حالى اليوم ». وكتب في مذكرةه
الخاصة : « لقد حصرت حتى أكاد ان كشف الناس » . وقال عنه أحد
معاصريه وأصحابه انه كان لا يستطيع الخروج من بيته في بعض الاحيان
لسبب ثقوب حذائه .

وفي هذه الايام الاخيرة كان لا يأنس الى الناس ولا يعرف غير

الطبيعة . فكان يرى ^{هائماً} في الغابات والاحراش ، وليس له ^{هم} الا تدوين الانغام والاحان لا يحول بينه وبين ذلك حر ولا قر ولا مطر ولا ثلج . قالت تريزدي برسو يك « كانت الطبيعة صديقة الوحيد » وكانت كل مذكراته تقىض هياماً بهذا الوجود المطلق الحر تمام الحرية والذى تتجلى فيه عظمة الخالق وقوته . ولذلك كانت موسيقاه تقىض بمعانى الطبيعة فيضاً ، حتى ^{لها} ^{هائماً} بلغ من شدة هيامه بها أن صار قوة من قواها أو أنه « ملك روحها » على حد تعبير صديقه شندرل . كتب الموسيقى الكبير شومان يصف أثر أحد أحان بهوفن في نفسه : « مهما يتكرر سماع الإنسان لهذا اللحن فإنه مؤثر فينا بنفس القوة التي أثر بها من قبل . فهو كالظواهر الطبيعية التي تملئنا دائمًا خوفاً ودهشة منها تكرر حدوثها »

ولعل بهوفن كان محباً للطبيعة ، لأن روحها لا لانه ملك هذا الروح . ولذلك كانت حياته ، ككل ما في الطبيعة ، حياة نضال لا يعرف اليأس ، وعمل لا يعرف الكلال ، وتجدد لا يعرف الجمود . فما كان المرض ولا الصمم ولا خيبة الحب ولا الفقر الذي بلغ الأعواز ، بمانع له من أن يتم في عالم النغم رسالته . أو تدرى ما هذه الرسالة التي كان يجاهد في سبيلها خلال ما أثقل حياته من كوارث وأحزان ؟ كانت رسالته بعث المسرة على الأرض . فكان ^{هائماً} كان القيثارة العقيقة المحطم كثيراً من أجزاءها والتي بالغ الصانع في إتقانها ، فما تزال مبعث أحل الانغام وأبدعها . ولقد كان بهوفن يؤمن برسالته هذه كل الإيمان . ومنذ ظهرت بوادر نبوغه في الموسيقى فسكن في قلب الناس عن طريق

اللحن، ففَكِرْ فِيهَا وَمَا يَزَالُ فِي يَوْنِيهِ سَنَةِ ١٧٩٣. وَكَانَتْ نَهَايَةً أَعْمَلِهِ
أَنْ يَتَوَجَّ أَحَدُ أَعْمَالِهِ الْمُوسِيقِيَّةِ الْكَبْرِيِّ بِلِحْنِ الْمُسْرَةِ. وَكَانَ ذَلِكَ
دَأْبُهُ وَهُوَ فِي أَشَدِ حَالَاتِ الْعَذَابِ وَالْأَلْمِ. لَكِنَّهُ كَانَ يَتَرَدَّدُ دَائِمًا
أَنْ لَمْ يَكُنْ شَيْءٌ مِّنْهَا وَضَعُهُ لِيَكُنْ فِي مَقْنِعٍ لِصُورَةِ الْمُسْرَةِ عَنْهُ. وَظَلَّ
ذَلِكَ شَأْنُهُ حَتَّى السَّنَوَاتُ الْآخِيرَةُ مِنْ حَيَاتِهِ حِينَ وَضَعَ الْمُحْنَ
الْتَّاسِعَ. حِينَئِذٍ وَفَقَ لِهُذَا النَّشِيدُ الَّذِي يَرْجُوهُ . . . لِكَنَّ أَيْ تَوْفِيقٍ
وَأَيْةً عَظِيمَةً !

قال أحد الكتاب يصف هذا النشيد البديع الذي يختتم اللحن التاسع : «ساعة تبدأ آية المسرة تبدو يقف الأرکستر بجأة ويسود المسرح سكون تام يخالع على مطام النشيد معنى قدسيارهيباً. وذلك حق. فهذا النشيد إله وحلمه. ثم تهبط المسرة من السماء تحيط بها طمامينة الخلد فتسكن الآلام بريحها الناعم تجرى الى القلب جريان البرء في قواد المريض، ثم تسسو بعد ذلك في صورة من الجلد المهيّب. رويداً رويداً حتى تملك المسرة النفس وتغزوها وتعلن فيها حرثا على الألم عواناً. ثم اذا اللحن تحرك في النفس جنود السرور تحسها فوق هذه الصحف المرتعشة، فكانما ترى نبض بهوفن القوى وشدة تنفسه وصيحاته الملهمة حين كان يجب المزارع ويضع لحنه وكانت ملكته قوة الشياطين . وتعقب مسيرة الحرب مسيرة الروح مسيرة بالاعان، ثم تجاش بالنفس مسيرة مقدسة هي مسيرة الحب . ثم ترى الإنسانية مرتعشة تتدأذرعها للسماء صاحبة صيحات قوية مندفعة الى المسرة تضمها الى قلبها ».

هذه القوة العجيبة التي تبدو في أكثر ألحان بهوفن والتي

بدت في لحن المسرة مضاغفة، جعلت كثيرين يذهبون إلى أن ملوكه في الموسيقى يقف عند الضخم منها والآليم . قال هبوليست حين رده على هذا وتحليلاً موسيقياً بهوفن عامة : « نعم انه صاحب هذا الملك من أراضي جوداء تهبه فيها الأعاصير وتعصف فيهم العواصف باصواتها الصاخبة القوية . وهذه المملكة لم يتحقق لغيره من الموسيقيين أن يدخلها . لكنه يعيش كذلك في ملك آخر . فأنخر ما في الريف الناضر واكثره رواء وبهجة ، وأعذب ما في الوديان الظليلة وأكثره ابتساما ، وأشد ما في ضياء الفجر أول مطلعه رقة وبكورة — هذا كله كذلك في ملوكه . لكنه لا يزال من ذلك كله ما يزاله مطمئن النفس ، بل تهز المسرة كل وجوده كلياً يهزه الألم ! وشحوره باللذة بالغ غاية القوة . فهو ليس سعيداً ، ولكنه في بحره . فمثله مثل رجل قضى ليلة نابغية وخرج منها مضطرباً كليماً متوقعاً يوماً شرّاً منها ، فإذا به يرى خاتمة مشهد صباح سعيد . اذ ذاك تضطرب يده ويتنفس الصعداء من أعمق صدره وتعود كل قوام الجسمية المنحلة فتسترد سلطانها ، ويصبح في نهره من النعيم أشد اندفاعاً مما كان حين استسلامه للميأس . »

ولما اطمأن له نشيد المسرة واطمأن هو لنجاحه فيه ، هانت عليه أحزانه وألامه وهان عليه فقره وإن ظل يعاني من بأسائه شر ما يعانيه إنسان .. ولعل لهذا الفقر صلة بتلك التزوه التي كان أخوه يقتضي بها من الناشرين ، فقد مات أحد هؤلاء تاركاً من ورائه ولداً أحبه بيته وفن بهذه القوة التي كان يندفع بها إلى كل شيء . وسار الفتى سيرة سيئة لم يصلح منها حب عممه أيام ولا مداومته لتصحيحته . وكان

هذا الفتى كثير الاستدامة ، فكان يتهوفن في فرط حبه له يعمل
جهد طاقته لسداد ديونه . وسافر بتهوفن في خريف سنة ١٨٢٦
يبحث عن وسيلة يوطد بها مستقبل ابن أخيه هذا . فلما عاد في
أواخر نوفمبر سنة ١٨٢٦ أصابه برد أمرضه . ولم يكن أحد من
أصدقائه حاضراً ليعنى به . فتكلف الفتى أن يبحث له عن طبيب ،
فنسي مدى يومين ثم جاء الطبيب وأحال بتهوفن علاجاً سليئاً . وقد
استطاع بقوه بنيته أن يقاوم المرض ثلاثة شهور تباعاً ، لكنه
ضعف بعدها ضعفاً أضاع الأمل في شفائه . ولو لا كرم بعض
الإنكليز من أصدقائه لقضى آخر أيامه في بؤس وشقة ليس كمثلهما
بؤس ولا شقة .

ثم جعل ينتظر في صبر وسكتينة « ختام المهزلة » حتى يوم ٢٦
مارس سنة ١٨٢٧ ، اذ عصفت عاصفة وهطلت ثلوج وأرعدت السماء
وهاحت الطبيعة أصوات موسيقاه المهيبة المخيفة . وعلى موج
هذه الأصوات طارت روح بتهوفن الى عالم الخلد . وكان عمر
تهوفن يومئذ ستة وخمسين سنة وثلاثة أشهر وتسعة أيام . فلما آن لثمانة
أن ينقل الى مقره الآخر شيعه ثلاثة الفاً ولبس فيينا عليه
الحاداد . ودفن في مقبرة وارنج ، وما زال قبره الى اليوم فيها وعليه
هذه الكلمة الوحيدة الخالدة : بتهوفن .

وكذلك قضى من كان يرى الموسيقى إلهاماً أسمى من الحكمة
ومن الفلسفة ، ويتمثل أفكاره في عزف الآلات أكثر مما يتمثلها في
اللفاظ الناس . وكذلك قضى « باكوس ، الذي يستصنف للإنسانية
الرحيق العذب ويجلب علىهم أقدس ما في الروح من جلال » . قضى

ونقل الى قبره حيث خط اسمه . لكن روحه الماثل في الألحان وأناشيده
وعزفاته ما زال باقياً ولن يزال . وهل الروح الخالد الا العمل
يترك به صاحبه في العالم أثراً خالداً؟ . وهل أثر أخلد من موسيقى
بتهوفن ! أم هل أثر أكثر منها سحراً وقداسة ؟ !

والاليوم يحتفل العالم بمرور مائة عام إجلالاً لـأـلـحـانـ الـقـدـسـيـةـ
الـسـامـيـةـ،ـ فـيـؤـدـيـ بـعـضـ دـيـنـ الشـكـرـ الـوـاجـبـ عـلـىـ الـعـالـمـ لـكـلـ مـنـ زـادـ
حـيـاتـهـ جـالـاـ وـفـضـلاـ وـقـوـةـ.

رسالة بتهوفن في مائة عام . ملخص رسائلها ولذلك لفتت انتباهي لكتابه المعنون
بـ«ـلـلـلـهـ وـالـلـهـ»ـ تـذـكـرـ بـهـ مـعـهـ لـفـيـهـ تـذـكـرـ لـلـهـ وـالـلـهـ

لـلـهـ وـالـلـهـ . مـلـخـصـ رسـالـةـ بـهـ لـلـهـ وـالـلـهـ تـذـكـرـ لـلـهـ وـالـلـهـ

لـلـهـ وـالـلـهـ . مـلـخـصـ رسـالـةـ بـهـ لـلـهـ وـالـلـهـ تـذـكـرـ لـلـهـ وـالـلـهـ

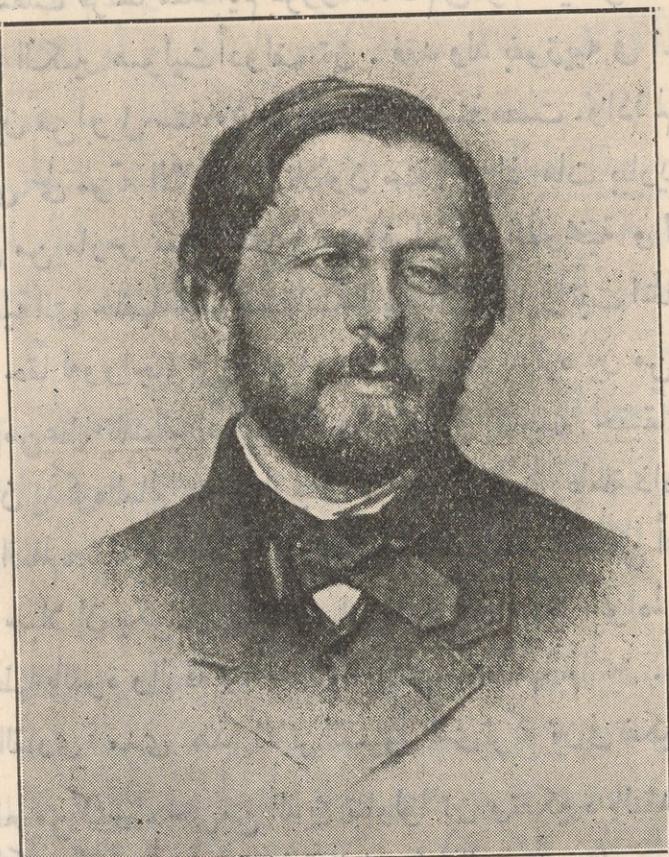
لـلـهـ وـالـلـهـ . مـلـخـصـ رسـالـةـ بـهـ لـلـهـ وـالـلـهـ تـذـكـرـ لـلـهـ وـالـلـهـ

(كـتـبـتـ فـيـ ٢٦ـ مـارـسـ سـنـةـ ١٩٢٧ـ لـمـاـسـبـةـ مـرـورـ مـائـةـ عـامـ)

على وفاة بتهوفن) .

لـلـهـ وـالـلـهـ . مـلـخـصـ رسـالـةـ بـهـ لـلـهـ وـالـلـهـ

هیولیت ادولف تین



هیولیت ادولف تین (Hohenwart) از افراد برجسته ایرانی است که در سال ۱۸۴۰ میلادی متولد شد و در سال ۱۹۰۷ میلادی درگذشت. او دارای تحصیلات عالی در ادب و علم انسان‌شناسی بود. تین در زمینه‌های مختلفی فعالیت کرد، از جمله تاریخ ایران، ادب ایرانی، و زبان‌شناسی. او در سال ۱۸۶۵ میلادی به عنوان استاد ادب ایرانی در دانشگاه تهران استخدام شد. تین همچنین در سفارت ایران در لندن فعالیت کرد و در آنجا مدتی در موزه بریتانیا مشغول تحقیق و نوشتن بود. او در زمانی که ایران را می‌زیست، مکالمه ایرانی را با ایجاد یک کتاب مکالمه ایرانی (Conversationschule des Farsi) معرفی کرد. تین در سال ۱۹۰۷ میلادی درگذشت و در آرامگاه اسلامی در لندن دفن شد.

احتفلت فرنسا منذ أيام بمرور مائة عام على مولد الفيلسوف الكاتب
الفرنسي الكبير هبولييت أدولف تين . فقد ولد بفوزيه في الحادي
والعشرين من أبريل سنة ١٨٢٨ أي منذ مائة سنة مضت . وإذا لم يكن
قد مضى على موته إلا خمس وثلاثون سنة — إذ مات بيارييس في
الخامس من مارس سنة ١٨٩٣ — فإن الآثار التاريخية والادبية
والفلسفية التي خلفها تجعله حقيقةً منذ اليوم بأن يسجل في ثبت الأخلالين ،
وتجعل حقاً له واجباً على وطنه فرنسا أن يشيد بذكره بين من يشيد
بذكرهم من عظماء تلك البلاد . بل أن هذه الآثار لتجعله حقيقةً منذ
اليوم بان يذكره العالم كله بين الرجال الذين كانوا قوة عاملة ذات أثر
خالد في العالم ، نقله ونقل تفكيره خطوة جديدة وفتح آمامه من أسباب
البحث سبلاً إن يكن غيره قادر سلماً من قبل فإن أحداً سواه لم يرسمها
ولم يخططها بالقوة والدقة والمهارة التي رسمها وخططها بها تين . ويكتفى
ليقدر القارئ مدى هذا الأثر العميق الذي تركه تين في تفكير العالم
أن يسمع من كثير ، حتى من الذين تناولوا تين وتفكيره بالنقد ، أنه
كان أكبر أثراً في نشر الفلسفة الواقعية (البوزتفزم) من صاحبها
أوجست كومت نفسه . وأنه إلى جانب تثبيته قواعد هذه الفلسفة
الوضعية في ذهن أهل عصره والعصور التي خلفته قد فتح طامياً دين
جديدة في الفن وفي الأدب وفي الشعر وفي كل صور نشاط العقل
الإنساني والنفس الإنسانية بما جعل للعلم الوضعي وللفلسفة الوضعية

من مтанة الاذكان ما لا يزال حتى اليوم وطيداً قوياً غاية القوة رغم
موجات الروحية والتبازو في وغيرها مما سبق الحرب وشجعه
الحرب ، وما لا يستطيع أن يقاوم — حتى في الميادين الفلسفية
البحثة — تيار العلم الجارف الذي يبدل الناس كل يوم على أن العلم
إذا اخطأ في تقرير نتائج معينة لأن الاستقراء أو الملاحظة أو
التجارب لم تكن كاملة حين تقرير هذه النتائج، فالعلم وحده هو القدير
على اصلاح هذا الخطأ من طريق الاستقراء والملاحظة والتجارب وما
يتقرب على هذه من تبويب ينتهي إلى استنباط القوانين العلمية
الصحيحة التي يمكن أن تكون أساساً لارتكاز الفلسفة الواقعية
الصحيحة .

رجل هذا أثره في التفكير الانساني لا يمكن لوطنه إلا أن يعترف
له بالمجد وأن يذكره لكل مناسبة ، ولا يمكن للعالم أن ينسى له فضله
على التفكير الانساني وتوجيهه فلسفته في فترة خاصة من حياة هذا
التفكير .

على أن لتين الى جانب هذا الفضل العلمي العظيم فضلاً آخر
لا يقل عنه ، بل يزيد بعضهم أن يذهب إلى أنه يفوقه . ذلك هو
فضله ككاتب . فهذا الرجل الذي حاول ونجح في محاولته هدم الفلسفة
الكلامية التي كان الاستاذ فكتور كوزن عميدها في عصره ، والذي
حاول ونجح في أن يقر إلى جانب التفكير الواقعى ^{postive} المذهب
^{الектив} الجبرى « determinisme » وان يطلق هذا المذهب على الإنسان
ويخضع له بقدر ما تخضم له الأفلاك وال موجودات كلها — هذا
الرجل كان صاحب أسلوب في السكتابة له من الهر ما يسرحك ^{كلما}

تسحرك قطعة من الموسيقى أو لحن من الغناء، حتى ليدعوك إلى أن تعود إلى قراءة الصفحة مرات، وحتى يترك في ذاكرتك صحفاً معينة تعود الوقت بعد الوقت أن تعود إلى قرائتها وتردیدها بصوت عال لتسمع إلى الحانها كما تسمع إلى الحان أوركسترا بهوفن. وإنني لا ذكر الآن على ذكر اسم بهوفن فصلاً له في كتابه (مذكرات عن باريس Notes Sur Paris) (Une tête à tête) خلوة عنوانه (خلوة عنوانه) وصف فيه ايقاع الحان بهوفن وصفاً مأزال ولن أزال الذي أقرأته ولتردیده الذي سمع الحان هذا الموسيقى في سمونية الريف التي أحبها ولا أشيم من سماعها. وليس هذا الفصل الذي ذكرت إلا واحداً من كثير من الفصول ومن الكتب ومن المطولات التي كتبها تين والتي لا تفتّأ تردد إلى الخاطر وتتردد في خلايا الذاكرة كلما ذكر الإنسان النغم الحلو الساحر في تعبير الكتاب في آية لغة من اللغات.

وأعلم أروع ما كتبه تين في هذه الناحية الأدبية هو ما كتبه في الوصف والسياسة. فكتابه الذي ذكرت لك عن باريس، وكتابه «مذكرات عن إنكلترا» وكتابه عن جبال البرانس، وكتابه عن رحلته في إيطاليا، هذه كلها كتب باقت فيهما براعة الوصف مبلغاً قل أن يجاري فيه كاتب. ولقد ذكرت لك هذه القطعة عن موسيقى بهوفن. وانت تعلم أن الكاتب الذي يكتب مثل هذه القطعة إنما يعتمد على ذاكرته. وذاكرة السمع هي التي كانت تحرك قلم تين حين وصف الموسيقى. مع ذلك فلم تكن ذاكرة السمع أقوى ذاكرات تين. بل لقد ذكر لنا هو نفسه في كتابه De l'Intelligence أن أقوى

ذاكراته ذاكرة الالوان ، وأن المنظر الذى تقع عليه عينه تخزن له ذاكرته أكثر مما تخزن أية صورة تتصل باحدى الحواس الأخرى. فإذا كان ماذكرت لك عن سونات بيتهوفن هو بعض ما وعنته ذاكرة المسموع عند ذين ، فلما أن تقدر بعد ذلك كيف كان وصفه لما وعنته ذاكرة المسموع وألوانها عندده ، وكيف استطاع بالأسلوب بهاته وصفه الزاهي الشديدة الحركة والحياة ان يثبت الالوان المختلفة التي اختزنها ذاكرته في سياحاته الكثيرة.

وليس فضل ذين مقصوراً على فلسنته وعلى أدبه فهو الى جانب ذلك مؤرخ من أكبر المؤرخين الفرنسيين. أقول المؤرخين الفرنسيين ولا أقول مؤرخى فرنسا . لانه لم يقتصر على كتابة تاريخ بلاده . وإذا كان كتابه « أصول فرنسا الحديثة » الواقع في اثنى عشر جزءاً هو من أهمّات كتب التاريخ الفرنسي . وكان يتناول عصر ما قبل الثورة كما يتناول عصر الثورة والعصور التي بعدها ، فإنه قد تناول الى جانب هذا التاريخ بحوثاً أخرى في التاريخ القديم وفي التاريخ الحديث ، وتناولها كما تناول كل مباحثه على طريقته الخاصة التي سنعرض فيما بعد لها ، وتناولها بدقة في البحث وبدقة في العبارة وقوية في الاسلوب جعلت له كل هذه المكانة التي كانت له في عصره ، وكل هذا الجهد الذي يشهد له بهاليوم حتى ألد خصوم نظرياته . ويكفي أن يطلع الانسان على كتابه « تاريخ الاداب الانكليزية » ليقدر مدى ما لهذا الكاتب من سعة اطلاع ودقة بحث وعمق تفكير شهدت كلها له بأن قليلاً من الانكليز أنفسهم هم الذين تناولوا بحث ادب لغتهم بهذه السعة والدقة والعمق . فأما مباحثه التاريخية

الآخرى، ومباحته الى مزج فيها التاريخ بالادب، فترى ذلك بهراً ودهشة.
اقرأ «تىت ليف» وعصره من عصور التاريخ الرومانى . اقرأ
«لافونتين وأقصيصة». اقرأ كتبه الثلاثة «رسائل في النقد
وفي التاريخ» ثم سائل نفسك كيف كان يصنع هذا الرجل ليحيط
بكل هذه الاشياء خبراً ، وكيف كان يصنع ليحصها كل هذا
المحيص ، وكيف كان يصنع ليكتب كل هذه الكتب ، وكيف كان
يصنع ليؤدي كل هذه الاعمال ، ول يؤديها بهذا الجمال وبهذه الدقة
وبهذه القوة .

ورسائله في النقد والتاريخ قد جعلت منه نقاده معترضاً بفضله
وبسلطانه ، وقد أقامت له مذهبها في النقد يتسق مع مذهبها في الادب
وفي التاريخ وفي الفلسفة وفي كل ما تناول من مباحث . وعندي
أن مذهبها في النقد أقرب الى الدقة من كل مذهب سواه . فهو أشد
المذاهب امعاناً في «الموضوعية» . هو اذا عرض لكتاب او
مؤلف لم يعرض له من جهة تقديره الشخصى للكتاب او لصاحبها ،
ولكن بعد تحليل كل ما أحاط بالمؤلف ومؤلفه من ظروف . وبعد
مقارنته هذا المؤلف بكل ما يستطيع مقارنته به من عاصره ورمى الى
مثل غرضه . ولست أدرى اذا أقول إن مذهبها أقرب الى الدقة من
كل مذهب سواه: أنا متاثر بتقدير ذاتي أم بذكريات خاصة . فلقد
قرأت كتبه في النقد والتاريخ منذ أكثريمن اثنى عشرة سنة وتركت
في نفسي من الاثر ما لم تركه كتب أ neckline فرنس «الحياة الادبية»
وما لم تركه كتب أستاذ النقد الكبير سنت بيف نفسه . ولست
أشك في أن كثيرين قد يتذوقون نقد جول متر أو فاجيه أو بورجييه

أو بول سوداي كثر من تذوقهم نقد تين . وربما كان حكمي أنا أيضا يتغير لو أن الظروف التي أحاطت بقراءتي تغيرت . لكنني ما أزالأشعر حتى هليوم حين أعرض لقراءة كتاب وحين أفكري تقده ، ولو لنفسي ومن غيرأى فكرة في الكتابة عنه ، على الطريقة التي أحبتها تفسي منذ قراءة كتب تين .

لتين إلى جانب هذه الميادين الكثيرة ميدان آخر لم يقتصر على التأليف فيه . بل كان فيه ، كما كان في بعض الميادين الأخرى ، مدرسا أيضا ، ذلك ميدان الفن الجميل . ولقد كان تين موسيقيا، فلا عجب اذا هو تحدى أو كتب عن الفن الجميل . لكنك اذ تقرأ كتابه « فلسفة الفن » تراه يحمل الفن وصوره وعائيه بالطريقة عينها التي يحمل بها المسائل النفسية والمسائل المادية ويخضع الصور والأنغام لقواعد الجبرية التي يخضع لها كل ما في الوجود من سماوات وأفالك وكائنات . أليست الفنون بعض عرات الإنسان ، « والانسان عرة وسطه » على ما يقرر تين غير مرأة وفي غير موضع ؟ والوسط الذي يعيش فيه الإنسان ليس خاصعاً له ولكنها خاصم لعوامل طبيعية وتاريخية لا قبل لها ولا سلطان لها عليها . اذن فالفن عرة محتومة لهذه العوامل ، ويمكنك أن تفسره وأن تفهمه بشرح هذه العوامل ، كما يمكنك ببساطها أن تفسر وأن تفهم أي محمل من أعمال الإنسان .

ولكن ليس معنى أن « امرء عرة وسطه — أو بيئته ان شئت » أن الناس يتساون فيما بينهم كما يتساوى عمر الشجرة الواحدة . بل إن عمر الشجرة الواحدة لا يتساوى ، فنه الكبير والصغير ومنه الصالح

والفاسد . والناس كذلك منهم الصغير والكبير والصالح والفاسد . وأنت تستطيع أن تعرف الفرق بين عمر الشجرة بأن تشقه وأن تصل إلى دخيلته . فكيف تستطيع أن تصل إلى دخيلة الرجل لترى مبلغ ما يختلف أولئك المتشابهون من عمر الوسط الواحد تشابه ثمرات الشجرة الواحدة واختلافها ؟ الامر هين بذلك عليه حين في مختلف من مواضع كتبه ، ويدل ذلك عليه بنوع خاص في كتابه عن « الذكاء » ويفرد له مقدمة الطبعة الاخيرة من تاريخ الادب الانكليزى التي

طبعت سنة ١٨٩١

فكل مظاهر الرجل وكل أعماله ، وكل مطامعه ومشاعره هي المسالك إلى دخيلة نفسه . فإذا أنت أردت على هذه الطريقة تقسيماً أن تعرف حين حق المعرفة فيجب أن تعرف كل مظاهره وكل أعماله . وكم كنا نود لو استطعنا القيام بهذه البحث في هذه العجاله القصيرة عن حياة ذلك الرجل العظيم . لكننا مع ذلك نكتفي بالقليل الذي أتاحت لنا الظروف أن نعرف عنه عن الكثير الذي لا سبيل إلى معرفته غير الانقطاع للدراسة حين وحياته وكل كتبه دراسة ذاتية لا تتسع إلا لـ ستة أجزاء في الفلسفة أو في الادب الفرنسي . ولعلنا في هذا الاكتفاء بالقليل الذي نعرف لأن غلط حين حقه . ثم لعلنا لأنعدو بعض مباحثه التاريخية في النقد . فأمامنا بعض الشيء عن حياته ، وأمامنا مؤلفاته الكثيرة ، وهي صورة نفسه وخلاصة حياته . وأمامنا الى جانب هذا أسلوبه ، والاسلوب — على ما قال حين — هو الانسان .

ولد هبولييت حين اذا بفوزيه بمقاطعة الأردن في فرنسا

في ٢١ أبريل سنة ١٨٢٨ من عائلة رقيقة الحال . وكان لا يهبه جان باقىست حين اتصال بالقضاء . لذلك استطاع حين أن يتلقى عليه تعاليه إلى جانب دراساته بمدرسة مسيو بيرسن الصغيرة حتى بلغ الحادية عشرة من عمره . وإذا ذاك مرض أبوه فأرسل به في سنة ١٨٣٦ إلى مدرسة دينية في (رقل) أقام بها ثمانية عشر شهرًا توفى أبوه خلاها تاركاً ثروة بسيطة لا رملته وابنه وابنته . وبعد وفاة أبيه سافر إلى باريس فالتحق بمعهد ماقيه . وكان قالميد هذا المعهد يدرسون بمدرسة بوربون (College Borbon) ، وفيها ظهرت بوادر كفایاته النادرة كما اتصل فيها بأصدقاء كان لهم آثرًا بلغ الآثر في مستقبل أيامه من أمثال بروف بارادول ، وبلانا ، وكرنولييس ، وفت وغيرهم .

ولقد امتاز حين لا أول دخوله المدرسة بقدرة على العمل مدهشة وبأكباب عليه لا يقل إثارة للدهشة . فلقد كان يكتفى لرياضة نفسه بعشرين دقيقة يقضيها لعباً بعد العشاء وبساعة يلعب أثناءها الموسيقى بعد الغداء . أما فيما سوى هذا وفيما سوى أوقات الطعام والنوم فكان لا يصرفه عن العمل صارف . وكان لذلك كثير التحصيل كثير التعليق على ما يحصل كثير التفكير فيه مما جعل له على أصدقائه جميعاً تقدماً معتزاً به منهم اعترافهم بفضلاته وبقدراته في الكتابة نظماً ونثراً في اللغتين الفرنسية واللاتينية .

وبعد انتهاء دراساته الثانوية انتقل إلى مدرسة المعلمين (L'Ecole Normale) . وفيها ازداد أكبابه على الدرس ، فقرأ أفلاطون

وارس طو وآباء الكنيسة كاستمر يدرس الانكليزية التي أتقنها
ليدرس آداب اللغة الانكليزية . وإذا كان تين قد ظهر تفوقه أثناء
دراساته الثانوية وأثناء مقامه بمدرسة المعلمين حتى لقد كانت
الجوائز الأولى كلها من نصيبه، فأن الروح العلمية المنطقية التي امتاز
بها بعد ذلك والتي وضعت على قواعدها مذهبة في البحث، قد تبيّنت
أثناء وجوده في مدرسة المعلمين بنوع خاص . فقد لاحظ عليه أستاذته
جميعاً مبالغته في دقة الحرص على المنطق والسلوك به مسلكاً رياضياً
والوصول به دائماً إلى قاعدة على نحو ما يصل الرياضيون في مسائل
الحساب والهندسة والجبر . أثبتت استاذته فاشرو في مذكراته عن تين
وما يزال تين طالباً بمدرسة المعلمين ما ياتي : « أكثر تلميذ عرفت في
المدرسة جداً ورقى نفس علم مدهش بالنسبة لسنِه . تحمس وشره
للعمر فان لم أر له مثلاً . ذهن يلتف النظر بسرعة التصور والدقة والمرونة
وقوة التفكير . لكنه يدرك ويتصور ويحكم ويقرر بغاية السرعة .
مولع بالقواعد والتعاريف حتى لا يكتفى بأقل مما يضحي بالحقيقة من أجلها ،
ومع ذلك لا يظن أنه يضحي بالحقيقة لا أنه كان مخالفاً لها أشد أخلاص .
 وسيكون تين أستاذًا ممتازًا . لكنه سيكون أثر من ذلك وفوق ذلك
عاليًا من الطراز الأول إذا اتاحت له صحته الاشتغال بالعلم زمان طويلاً .
و مع ماله من دماثة في الخلق عظيمة ومن طباع غاية في الطيبة ، فلنذهب
قوة لا تلين حتى لن يستطيع أن يكون لأحد على تفكيره أى تأثير .
وهو على كل حال ليس من أهل هذا العالم . فسيكون شعاره شعار
سبنوza « يعيش ليفكر ». أما خلقه وأما طبيعته فيمتازان بمناعة
لا يسمونه معهما أغراء » .

على أن هذا التفوق الذي كان للمطالب حين لم يكن المعترض الناس
بده هن غير أن يجني على صاحبه جنابته . ورمي كان التفوق رجل من
الناس تفوقا عقلياً أن لا يجني عليه في نظر ذوى السلطان والذين
يسكون بيدهم مصير الجماعات ! صحيح أن هذا التفوق يقدر عند
المخلصين للحقيقة وللذين لا مصلحة لهم في سؤدد آراء ومبادئ
معينة ، وهذا التقدير هو الذي يكفل انتصار الحق ولو بعد حين .
لكن حين ، الذي كان يقضى كل وقته قرءة وبحثاً ، والذى أوى به
النقد والتحقيق منذ شبابه ، والذى لا يستطيع أن يسلم بغير ما يعتقد
الحق ، حين هذا ، وهو طالب ، لم يكن ليقر كثيراً من المبادئ
المفاسدية التي كانت تدرس يومئذ وغيرها إما تأيد ناحية دينية تجعل
التفكير خالضاً للمبادئ المسيحية التي تريد الكنيسة أن تسود ،
أو تأيد ناحية علمية خاصة هي ناحية المطلق ، أو المنطق المجرد ،
ـ مما كان يدرسه كوزن وغير كوزن من فلاسفة ذلك العصر . وقد
خرج حين ، ومازال طالباً ، على هاتين الطريقتين من طريق التفكير
ورأى فيها وسائل غير صالحة للكشف عمما في العالم من حقيقة .
ـ ووضع حين ، ومازال طالباً ، قواعد تفكيره هو ، هذه القواعد
ـ التي سار عليها في مستقبل أيامه ، مجاهداً لاكمالها ما استطاع ، ولكن
ـ من غير أن يرى في كل دراسته وبحوثه ما يطبع عليها أو ينقضها .
ـ وإذا فهو ثائر على التعاليم المقررة .. وإذاً فيجب ألا ينجح في إجازة
ـ الفلسفة التي تقدم لها مع زميليه أوبيه وسوكر في سنة ١٨٥١ ..
ـ ول يكن عدم نجاحه هذا وهو المشهود له بالفضل والتفوق عزاء لغيره
ـ من الذين قدموا للأجازة نفسها فرسبوها وهم دونه تفوقاً وفضلاً ..

ولم يغير عدم تجاهه في اجازة الفلسفة من رأيه ولا من عزمه .
واستمر في عمله وبحوثه وإن اشتغل بالتدريس في المدارس المختلفة
أن عينه وزير المعارف مدرسا بمدرسة (تقير) في مقتنيع عام ١٨٥١
الدراسي . لكنه لم يبق في هذه المدرسة الا شهوراً نقل بعدها
إلى مدرسة دونها في الدرجة . ذلك أن اضطرابا سياسيا وقع في
فرنسا واتهم العاملون بأنهم سببه وطلب إليهم أن يعتذروا وأن يشكروا
رئيس الجمهورية على التعديلات التي أدخلها على نظام الحكم ، فكان
تين هو الوحيد الذي رفض الاعتذار والشكر . وعلى ذلك أندرو نقل
إلى بواتييه ومنها نقل مساعد مدرس إلى زانسون في سبتمبر سنة ١٨٥٢
ومع تنقلاته الكثيرة وعدم رضى السلطات عنه فإن نشاطتين
لم يفتر دراسته وتحصيله لم يهنا وإنما بذهبه في البحث لم يضطرب .
فقد وضع رسالة عن المشاعر (Les Sansations) (رسالة لا تينيه تقدم
بها إلى السوربون لنيل إجازة الفلسفة . ولما كانت هذه الإجازة قد
الغيت فقد أراد أن ينال بها إجازة الآداب (Aggregation-es-lettres).
لكن طريقة في التفكير جنت عليه هذه المرة كذلك فلم تقبل رسالته .
فوضع رسالة أخرى عن لافوتين هي التي نال بها دكتوراه الآداب
في ٣٠ مايو سنة ١٨٥٣ .

ومن بعد حصوله على الدكتوراه عرضت الأكاديمية الفرنسية
موضوعا لجائزة منح في سنة ١٨٥٥ رسالة تكتب عن قيد لييف
الكاتب والمؤرخ الروماني الكبير ، فتقدم لها تين وكتب فيها رسالة
كانت هي الأولى بين كل الرسائل التي قدمت
بعد هذه الجهدات المضنية سبت سنوات تبعا شعرتين بالحاجة

حاجة ماسة مطلقة الى المراحة ونصح له بان يذهب الى جبال البرانس .
وطلب اليه الناشر هاشت أن يكتب له دليلاً عنها «فوضع كتابه
«سياحة في البرانس» وصف فيه هذه الطبيعة الجميلة العجيبة
وعادات أهلها وقصصهم وصفاً دقيقاً، ناقداً، مارأى موضعاً لنقد
مازجاً ذلك كله بفلسفته، متبعاً حتى في هذا الكتاب طريقة الجديدة
التي جنت عليه من قبل .

ما هي هذه الطريقة الجديدة؟ وكيف يمكن أن تخلى على كتاب
في عصر كالعصر الذي عاش فيه تين والمذى، فقررت فيه حرية الرأي
والنشر على أنها مكفولة مقدسة؟ .

أما طريقة تين في رسائله التي تقدم بها الامتحانات وفي كتاب
قيت ليف وفي تغير ذلك من الكتب التي ظهرت وأتى سطحه حتى
آخر أيام حياته، فتقوم على فكرة أساسية هي تطبيق الطريقة
الواقعية - أو الوضعية - التي قررها أو جست كت على الأحياء
بنفس الدقة التي تطبق بها على غير الأحياء . وتطبقة على الإنسان
وعلى النفس والروح بنفس الدقة التي تطبق بها على الأحياء
الآخر غير الإنسان وعلى غير الأحياء . فكما أن طريقة البحث
العلمي في شأن غير الأحياء هي الملاحظة والتجربة واستنباط القوازن
على قواعد هذه الملاحظة والتجربة، فيجب اتباع هذه الطريقة
بعينها في شأن الحيوان والانسان على السواء . وأنت لكي تدرس
غير الأحياء فأنت تحمل الشيء، وأنت تترجمه الى نظامه وأشباهه،
وأنت تلاحظ تأثيره بالبيئة المحيطة به وتتأثره فيهم ثم تستنبط القوازن
الخاصة به بعد إذ تنظم ملاحظاتك وتجاريئك وتبهها وترتيبها .

ثم أنت تعمد لتفقد على حياة الحيوان إلى تأثره عن طريق حواسه بالأشياء المحيطة به، كما أنك إذا أردت أن تعرف تاريخه عمدت إلى ما قد يكون باقياً في الأحجار من آثاره، هذا فضلًا عن التجارب في تجاريتك عليه إلى كل الوسائل المختلفة التي يلجأ إليها الكيميائيون والطبياء وغيرهم في معاملتهم. ذلك كذلك يجب أن يكون شأنك مع الإنسان. يجب ألا ترى فيه عالماً مستقلاً وسط هذا العالم الذي تعيش فيه. إنما هو جزء من هذا العالم خاضع لقوانينه وأحكامه متاثر به مؤثراً في تجربته عليه للسن التي تجري على غيره من الخلائق. فإذا أردت أن تبحث في أي شأن من الشؤون يتعلق به وجوب عليك أن تلتجأ إلى الطرائق العلمية التي تتيحها في الظروف الأخرى وأن ترى في أعماله ومشاعره واحسنته وتصوراته وسائل الوصول إلى دخلة نفسه. هذه دون سواها هي الطريقة الأكيدة التي تصل بك إلى شيء يقرب من الحقيقة. وهذه يجب أن تكون أساس البسيكولوجيا وأساس التاريـخ وأسس الاجتماع وأسس العلوم المتصلة بالأنسان جميـعاً. فأما الطريقة التي تقيم هذه العلوم على قواعد المنطق المجردة التي تجعل من استجهام الشخص في طوابع نفسه ووسيلة رسمه للعالم ما يستلممه من صورته، فليست من الطرائق العلمية في شيء ولا يمكن الاعتماد عليها إذا نحن أردنا أن نقيم عالماً انسانياً أو فلسفـة انسانية على قواعد علمـية صحيحة.

هذه هي الطريقة الجديدة التي امتاز بها قين، والتي جنت عليهـ في كثير. وهي قد أصبحت اليوم قدية وقد أصبح يرد عليها نقـلـ كثـير أساسـه ما فيها من تطرف وغلوـ. لكنـها كانت جديدة يوم نادـى

بها تين . وكانت عماداً قوياً للمذهب المادى . فهى لا تقر للروح ولا للنفس ولا لا مثال هذه الألفاظ بـ مدلولات مستقلة قائمة بذاتها بعيدة عن مادة الجسم ، بل هى ترى كل ما في الجسم بعض مادته كما أن كل ما في أي موجود من الموجودات بعض مادة هذا الم وجود . وإذا كانت هذه المادة ذات ارادة وذات خلق وذات تصور وتفكير ، فإن هذه المظاهر ليست إلا صور القوة الكمية في المادة ، أو إن شئت التعبير الدقيق ، فهى بعض صور المادة متحولة قوة لأن المادة والقوة شىء واحد بـ دليل تحول كل منها إلى الآخر حين تفاعله مع غيره من القوى أو المواد . وما دام ذلك هو الشأن وكانت القوة والمادة تخضعان لقوانين ثابتة لن تجد لها تبديلاً ، فمن الخلط الذى لا يبرره مبرر أن تختلف طريقة البحث فى الإنسان عنها فى غير الإنسان ، ومن الخلط المبني على العقائد الراهنجة انتهاج سبيل فى بحث شؤون النفس غير السبيل العلمية المقررة فى سائر الشؤون .

كانت هذه الطريقة جديدة يوم نادى بها تين . لكنه نادى بها منذ كتبه الأولى على صورة واضحة وبأسلوب قوى لفتا الانظار له ، وبخاصة أنظار مفكري ذلك العصر وـ من كانت ييدهم مقايد الجماعة فى التفكير وفي الحكم . وإذا التفتت أنظار هؤلاء فلا تفكير فى حرية مـ كفولة ولا فى حرية مقدسة . إنهم ، ان كانوا مخلصين حقاً ، يعتبرون أنفسهم حماة الجماعة وـ نظامها ، وـ يرون فى محاربة الأفكار التي تختلف أفكارهم محافظة على هذا النظام . وـ يـ شرون منهم يـ شرون ، وـ ان لم يقولوا ، بأن المحافظة على نظام الجماعة جديرة بأن تهدى من أجلها كل حرية ، لأن الحرية لا تـ قـ جـ إـ لـ حـ يـ وجـ النـ ظـ اـ مـ .

ونشر كتابه «سياحة في البرانس» وصف فيه هذه الجبال الفاصلة بين فرنسا وأسبانيا وأخلاق أهلها وطبق في وصفه وفي تحليله نظرياته التي أشرنا إليها. على أنه لم يكتف من سياحته بالرياضية وبوضع هذا الكتاب، بل هو ظل يستمع لقارئه استصحبه في جولاته وظل يفكر فيما يسمع ويعمل عليه. أليس شعاره أنه يعيش ليذكر! فإذا هو كان في رياضة قضت بها صحته، أو هو كان في مكتبه، فليس امامه ما يعنده عن التفكير كما أنه ليس امامه ما يعنده عن التنفس. ولقد كان فكره بحاجة إلى العمل حاجة رئيسيه إلى الهواء، حتى لقد تخيل إلى من يقرأ تاريخ حياته أن هذه الحياة تتعرض للخطر إذا هو انقطع عن التفكير العلمي الجدي يوماً من الأيام.

ولقد أفاد من سياحته في البرانس لصحته، وأفاد من قراءته وتفكيره، وأفاد شيئاً جديداً لم يكن له من قبل به عهد. ذلك اتصاله بالحياة الخارجية ولو اتصالاً محدوداً. فلقد عاش منذ أيام تلمذته وليس يعرف غير كتبه ومكتبته وغير البيانو يوقع عليه الاحزان التي يحبها والتي يجد فيها سلوة عن كل تعبه. وكان من أثر ذلك عليه أن جعله على مقال فاشروـ يدرك ويتصور ويحكم ويقدر بغاية السرعة، ويولع بالقواعد والتعاريف حتى لكتيراً ما يضحي بالحقيقة من أجلها. أليس ما في الكتب منطق مجرد! أوليس كتب ذلك العصر حتى كتب الفلاسفة الواقعيين، قليلة التحليل للواقع الصغيرة! فاتحين عذرها إذا هو سارع إلى تقرير النتائج ووضع التعريف، والقواعد مادام يسير على الطريقة التي رسماها لنفسه على أنها سبيل الحقيقة، وما

دأم لم يتصل بالعالم الخارجي اتصالاً يحوله أكثر ميلاً لتحليل الحوادث الصغرى واستقرارها وترقيب النتائج عليها. فلما أتاحت له زيارة البرانس الاتصال بالحياة أتاحت له مع هذا الاتصال شيئاً من المؤودة في منطقة الرياضي السريع وجعلته أكثر عناء باستيعاب أكثر ما يستطيع استيعابه من الواقع الصالحة لاقامة ما يريد أن يقيمها من نظريات وقواعد.

وعاد من البرانس فعاش مع أمه في جزيرة (سان لوى) ثم اختلط من جديد بأصدقائه بلازا وبريفورادول وأبو وتعرف إلى رينان، ومن طرقه عرف سانت بيف وجدد علاقاته مع مسيو هافيه الذي كان استاذ له بمدرسة العاملين مدى ثلاثة أشهر. وكما عاد إلى أصدقائه عاد إلى جده وأنتجه حتى لتعتبر السنستان ١٨٥٥ و ١٨٥٦ من أكثر سنى حياته نشاطاً وأغناها انتاجاً. فلقد نشر عشرات المقالات في مجلة L'Instruction Publique كما نشر مقالاً في مجلة «العالمين». وفي سنة ١٨٥٧ بدأ يكتب جريدة «الديبا» واستمر بعد ذلك على مكتبه طويلاً.

والذي يقرأ كتبه الثلاثة «رسائل في النقد وفي التاريخ» وكتابه «الفلاسفة الانشائيون في القرن التاسع عشر» يرى التجاه مجهوده العقلى في تلك السنوات الخصبة من حياته، ويرى مبلغ هذا المجهود الضخم الذى تناول بحث اليونانيين القدماء وكتاب فرنسا وفلسفتها وكتاب انكلترا وفلاسفتها. وتناول ذلك في دقة واحاطة قل نظيرها. وماذا تريد أن تكون الدقة والاحاطة أكثر من أن يعرض تين إمام نظرك فكرة كل كاتب وفلسفته وأسلوبه وإن يحمل ذلك وإن يردد

للميئه ولالجنس المذين نشأ الكاتب فيهم وان يدلّك على ما يراه
القاد غيره وما يراه هو في الكاتب وفكرة من قوة وضعف وكمال
وتفصي ودقة في بلوغ الغاية التي قصد إليها الكاتب أو اضطراب
في نرج السبيل إلى تلك الغاية. وهذه هي طریقتہ التي سار عليها منذ
تلك الأيام في النقد. وهي الطريقة العلمية الصريحة التي لا تعرف المواربة
ولا المداحاة، ولا تعرف مذاهب الشك والتردد، والتي تقفك من
كل كاتب ومن كل موضوع على خلاصة الموضوع وعلى صورة
واضحة من الكاتب على نحو ما رأاه ذین .

وقد طبع ذین مباحثه عن الفلسفة الانشائين ونشرها في أوائل
سنة ١٨٥٧ ، اي في التاسعة والعشرين من عمره . ومع أنه إلى ما قبل
ذلك التاريخ قد لقي من رجال الجامعة ومن وزارة المعارف عنتا، فإن رسائله
المختلفة التي نشرت لم تثر من النقد الاماكتبه أصدقاوه عن سياحة
البرانس وما كتبه الاستاذ الكبير جيزو عن ثيت ليف. لكنه ما لبث أن
نشر « الفلسفة الانشائين في القرن التاسع عشر » حتى تكامل عنه
كثير من كبار تقاد عصره أمثال سانت بيف وشير وبالاش وغيرهم
ما زاد في ذيوع رفعته ككاتب وكتّاب وفکتور وكفيلسوف مجدد في الطريقة
وفي الاسلوب .

ولم يكن عجبًا أن ينال هذا الكتاب من كتب ذین تلك المكانة .
 فهو قد قصد به إلى هدم الفلسفة الكلامية التي كان يدرسها ويقررها
في ذلك الوقت لارجعيه ومن ديراز والمسيو فكتور كوزان . وكان
فكتور كوزان صاحب مقام كبير في ذلك الظرف، وكان القائم بتدريس
الفلسفة في كلية فرنسا، وكان درسه مقصداً للآباء من المستمعين. لذلك كانت

حملة تين عليه اشد من حملته على صاحبيه . فكان يقول عنه انه بحثة غير فيلسوف . وكان يرى في هذه الفلسفة الكلامية او الانشائية شذوذًا عيباً على قواعد العلم التي تقررت منذ أوائل ذلك القرن ، وعودة الى قواعد قديمة عقيمة تخلط بين طريقة ديكارت التي تبدأ بالشك ، والنظريات الالمانية التجريدية الصرفة . وهو قد سلك في هدمه لتمك النظريات مسلكًا جمع بين المنطق الدقيق الذي امتاز به وبين التحكم بتسلك الطرائق العتيقة البالية من طريق البحث عن الحقيقة كما ظهرت فيه مقدرة تين كاتب الى جانب تقوه كفکر وكفيلسوف . ثم هو قد أيد ما قررته مباحث عصره الحديثة مما جاء به أولجست كومت وداروين وغيرهما من الذين وضعوا قواعد العلم الواقعي وأسس نظريات التطور . ثم هو قد أضاف الى ذلك نظريته الخاصة بتطبيق هذه القواعد تطبيقا لا هوادة فيه على الانسان كتطبيقه على غير الانسان وعلى الجماد . واذا كانت هذه النظرية قد لقيت في بادئ الامر شيئاً من معارضه الهيءات الجامعية ، فان المباحث العالية التي نشرها تين مشبعة بها والمقام الذي كان يرتفع اليه يوما بعد يوم وعاما بعد عام يجعل نجاح كتابه عن الفلسفة الانشائية نجاحا حاسماً ودعا الكثيرين الى أن يعيدوا النظر فيها يقررها هؤلاء الفلاسفة من قواعد ، وجعل ما وجدهم كارو وغيره الى تين والى رينان من تقد أساسه رميهم بالاخذ ، لا يلقي مر المفكرين والعلماء ذوى الرأى أى التفات له بأكثر من الاشتقاق على كتابيه والرثاء لتألمهم .

وكان جمع مقالاته عن الفلاسفة في كتابه هذا قد جمع رسائله

في النقد وأظهر الجزء الأول من (رسائل في النقد وفي التاريخ) سنة ١٨٥٨ ، على أن كتابة هذه الرسائل وجمعها ونشرها لم يشغله عن متابعة بحوث تاريخية في الأدب الانكليزي شغف بها منذ أيامه الأولى وشغل بها منذ مطالعاته بعد ترك مدرسة المعلمين . ولقد نشر الأجزاء الأولى حتى بيرون في سنة ١٨٦١ واستمر يكتب هذا الكتاب الذي يعتبر كتابه عن (الذكاء) وكتاب (أصول فرنسا الحديثة) أما من أمهات كتب تين وأثراً باقياً من آثار تفكيره . وقد أتم هذا الكتاب ونشره كاملاً في سنة ١٨٦٣ وضع له المقدمة التي أشرنا من قبل إليها والتي حان فيها صلة الإنسان بالبيئة وبالجنس وبالعصر الذي يولد فيه تحليلاته منه إلى أن المرأة ثمرة هذه العوامل الثلاثة ، وإنك إذا استطعت أن تعرف كل الدقائق المحيطة بهذه العوامل الثلاثة استطعت أن تضع للإنسانية من القوانين الثابتة ما لا سبيل إلى تبديله إلا أن يكون لتبدل سنن الكون العامة سبيل والحقيقة أن هذا الكتاب الذي وضعه تين عن آداب اللغة الانكليزية قد أضاف إلى مجده كفيلسوف وكمؤرخ مجده ككاتب . ولئن كانت رسالته عن سياحة في جبال البرانس قد دلت من ذلك على شيء كثير ، فإن وصفه للعصور المختلفة التي مررت بها إنكلترا وأثرت في أدبها قد دل على خصب في الخيال لا يقل عمما كان لتين من دقة في المنطق . وأنت تقرأ صحف هذا الكتاب المقتالية فتنتقل من تحليل نفساني دقيق لكاتب من الكتاب أو شاعر من الشعراء أو عصر من العصور ، إلى وصف جمع بين الدقة المنطقية والخيال الشعري لحياة ذلك الكاتب أو الشاعر ولحياة جماعة أهل ذلك

العصر . وهذا التداول، بين دقة المنطق و خصب الخيال هو الذي طوع لـ كثيرين من نقاد قين أن يقولوا عنه انه منطيق شاعر أو خيال فيلسوف . وربما وجدت لهذا النقد في بعض كتب قين مسوغاً . لكنك تقع داءما على ما يدللك على أن قين كان يشعر تمام الشعور بهذا التداول وكان يحرص على إلا يجني أحد جانبي نفسه على الجانب الآخر . فهنا يتبع تحت قوله عبارات تتردد آنا بعد آن يذكر فيها انه جاوز الحد مضطراً في استعمال المجاز وفي الاتجاه إلى الخيال ويعود بعدها إلى منطقه الحكم وتحليله الدقيق ، فيشرح البيعة الطبيعية والعصر وميّزاته والجنس وخصائصه ويطبق ما يستنتج من ذلك كله على الكتاب والشعراء الذين يحملهم ويرسم بذلك صورة مضبوطة من هذا الأدب الانكليزي الذي استغرق تاريخه أربعة أجزاء من كتب قين .

وكان قين قد رشح نفسه سنة ١٨٦٢ ليقوم بتدريس الأدب في مدرسة الهندسة . لكن مسيو دي لونفي انتخب بدلاً منه . على أن وزير الحرية عينه في مارس من السنة التالية ممتحناً في التاريخ واللغة الالمانية بمدرسة سان سير الحرية . وفي سنة ١٨٦٤ شغل مقعد تدريس تاريخ الفن والجمال في كلية الفنون الجميلة . فكان تعاقبه في وظائف الدولة هذه سبباً لاثارة الخوف في نفس رجال الدين مما دفع المؤسسيرو بانوليككتب منشوراً يوجه به الى الشبيبة والى الآباء يطعن فيه طعنًا جارحاً على قين ورينان وليتري ويشهر فيه بزعاتهم الأخادية مما كاد يودى بمركتز قين لو لا تدخل البرنسيس ما قبلها لم يحيته .

وفي سنة ١٨٦٤ وجه بكتبه الى الاكاديمية ليحصل على جائزة بوردان، فانبرى له مونسنيير دوبانلو من جديد واشترك معه آخر ون ليحولوا بينهما وبين الجائزة. على ان مسيو جيزو دافع عنه بكل اخلاص واستمرت المناقشة أمام الأكاديمية فيمن يستحق الجائزة ثلاثة أيام متتالية استقر الرأى بعدها على ان الجائزة لا تمنح لأحد ما دامت لامتحانتين . ومن ذلك التاريخ فتر اهتمام تين بالاكاديمية وتعضيدها أو عدم تعضيدها له .

على أن هذه الخصومات انتتابعة وهذا التجنى على ذلك الكاتب الفيلسوف الكبير لم يحل دون حصوله على وسام الماجيون دونير في سنة ١٨٦٦ وعلى شهادة D.C.L من جامعة أكسفورد .

بعد محاضرات القها بها عن راسين وكورن في سنة ١٨٧١ .
ومنذ عين تين أستاداً لتاريخ الفن والجمال في كلية الفنون الجميلة اتسع له زمن البحث وميدانه ووجد من الوقت ما يسمح له بالسفر في بلاد مختلفة وبخاصة في ايطاليا مهد الفن ومنتسب أجمل ما أبدع المثالون والمصورون من آثار .

على الطريقة التي كتب بها تاريخ أداب اللغة الانكليزية كتب في سنة ١٨٦٥ كتابه فلسفة الفن وفي سنة ١٨٦٧ نشر رسائل عن المثل الاعلى في الفن أتبعها بمقالات عن فلسفة الفن الفلمنكي والفن اليوناني ضمت كلها بذلك إلى كتاب فلسفة الفن .

كتب هذا الكتاب على طريقة في كتاب أداب اللغة الانجليزية . فالى جانب وصفه للممتع للآثار الفنية المختلفة ترى نظريته الثابتة التي تخضع الفن كما تخضع كل مظاهر الحياة الإنسانية ، وكما تخضع الإنسان

نفسه ، إلى الطريقة العلمية في البحث ، طريقة التحليل والمقارنة
والاستنباط وارجاع كل أثر من هذه الآثار إلى البيئة والجنس
والعصر التي نشأ فيها صاحب الأثر . وهذا في نظره هو السبب
الأساسي لاختلاف كل مدرسة من مدارس الفن عن سواها .

فالفن الإيطالي غير الفن الفرنسي وغير الفن الفلمنكي وغير الفن
الإنكليزي ، لأن البيئة الإيطالية تختلف عن كل واحدة من هذه
البيئات الأخرى ، وإن أمكن أن يوجد شيء من الشبه بين منتجات
هذه المدارس المختلفة إذا هي كانت معاصرة بعضها البعض لما في هذه
المعاصرة نفسها من داع لوجود مشابهة قليلة أو كثيرة في التفكير
والتصور والنظر بين الفنون المختلفة . وذلك هو سبب الاختلاف
بين المذاهب المختلفة في الأمة الواحدة إذا هي اختلفت عصورها
وإن كان في اتفاق البيئة والجنس ما يبعث إليها شبهًا قويًا يحصل بينها
في الروح والحياة .

وفي أوائل سنة ١٨٧٠ نشر كتاباً ثانياً من أهميات كتبه . ذلك
كتابه (في الذكاء) . ولقد ذكر هو في مقدمة هذا الكتاب أنه ثمرة
بحث وتفكير عشرين سنة كاملة . والواقع أن بين هذا الكتاب
وبين رسالة «المشاعر» التي قدمها ليحوز بها جائزة الفلسفة في سنة
١٨٥١ صلة كبيرة . ذلك بأنه يرد الذكاء في الإنسان إلى احساسه
ومشاعره ، وإن كل حس يؤثر بمحاسنه في مرآة الذكاء في
الإنسان تأثيراً هو صاحب الأثر الأكبر في تكوين هذا الذكاء .
وفي هذا الكتاب أيضاً شرح تين نظرياته ، بل لعله في هذا الكتاب

وتحده قد قرر هذه النظريات على صورة كاملة ظهر فيها مذهبها الجبرى بكل قوته ووضوحه.

ظهر لتين كثيرون غير المكتب الذى ذكرنا منها كتابه (مذكرة عن إنجلترا) وكتابه الآخر (مذكرة عن باريس). وإذا هو كان فى المكتب الأول كاتباً ومحالاً على طريقته، فهو قد امتاز فى الكتاب الثاني بالنكبة المقدمة وبرقة فى العبارة مع دقة فى الملاحظة وصارارة فى التحكم بالناس وبالحياة جعلت كثييرين يتمنون لو أنه وجه نصيباً كبيراً من عنايته إلى هذا النوع من الكتابة.

وتزوج تين فى سنة ١٨٦٨ فلم يغير زواجه شيئاً من حياة الجد والعمل التى كان يحياها. على أنه منذ سنة ١٨٧٠، وعلى أثر الحرب الفرنسية الالمانية، حز فى نفسه ألم هزيمة بلاده وتوجه بكله يريد أن يقف على أسباب ضعفها. وكان هذا هو الدافع له إلى وضع كتابه الاكبر (أصول فرنسا الحديثة) الذى عمل فيه منذ سنة ١٨٧٠ إلى أن مات فى سنة ١٨٩٣ والذى اضطر من أجله أن يتخلى عن مهنة التدريس منذ سنة ١٨٨٤ ليقطع له انقطاعاً تاماً. ويدأهذا الكتاب بجزئين عن العصر القديم، أى العصر السابق لما قبل الثورة الفرنسية. أما تاريخ الثورة فيتناول ستة أجزاء، ويتناول التاريخ الحديث ثلاثة أجزاء يعقبها جزء واحد ووضعه تين كفررس للمكتب كله. ولقد كان في عزمه أن يضع، في الجزء الذى لم يمهله القدر ليتمه، الصورة الصالحة لنظام العائلة ونظام الجمعية في فرنسا كما يريد العلم لهذا النظام أن يكون، لكنه توفي في الخامس من شهر مارس سنة ١٨٩٣ وما زال في الخامسة والستين من عمره.

وكتابه (أصول فرنسا الحديثة) هو عمله الخالد على التأريخ.

ولقد سار فيه على نفس الطريقة التي سار عليها في سائر كتبه. وان يكن الدافع الذى دفعه لكتابته، ألا وهو حب وطنه حباً أذ كتبه هزيمة حرب السبعين وزادته ضرامة، قد جعله في كثير من الأحيان يناصر حزباً على حزب وطائفة على طائفة من الأحزاب والطوائف المختلفة التي حكمت فرنسا منذ ذلك العصر القديم الذى كتب هو عنه.

وهو على كراهيته للاستبداد في كل مظاهره وعلى تقديره للحرية في مختلف صورها، لم يكن يؤمن بالديمقراطية ولا بالمساواة المطلقة التي تترتب عليها، بل كان يحسب فيها هي أيضاً لوعنا من استبداد الجماهير الحمقاء بحكم البلاد لا تقل سوءاً عن استبداد الملوكي الظلمة الغاشيين، فكلا الاستبدادين قائم على الشهوة العميماء التي تبتغي المصالح الذاتية في شره وسخف والتى لا تفهم المعانى العليا التي يتطلع إليها العلم ولا السنن الثابتة التي تستنبطها الفلسفة القائمة على هذا العلم.

ويذكر كثيرون انه كان في هذا كما كان في فلسفته متأثراً بالفلسفة الانكليزية وبالحياة السياسية الانكليزية. وأعمله كان يميل إلى شيء من الارستقراطية بطبيعة تفكيره، ولذلك كان كتاب عصره جميعاً أنشأ يذكرونه باسم (ميسيو تين)، وذلك امتياز لم يعرف إلا له ولا ثنين أو ثلاثة من كبار الكتاب معه. وربما كان صدق ما يقوله مسييو هريو وزير معارف فرنسا في خطابه عن تين من أنه لو كان انكليزياً وعاش في إنجلترا لكان حتماً أن يلقب وأن

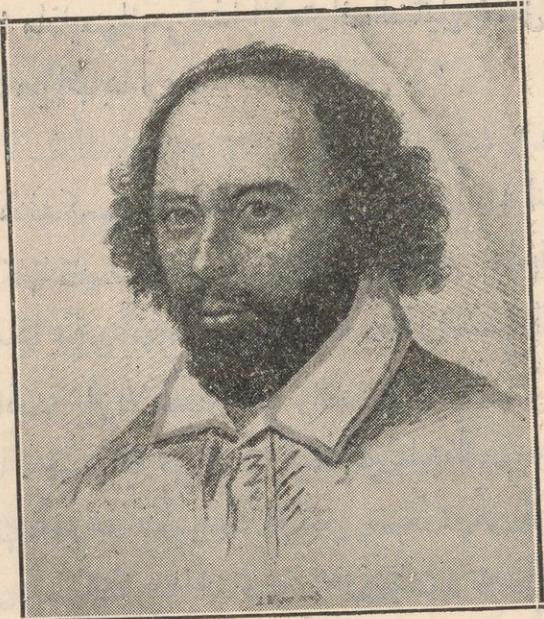
يكون (السير هيبروليت). وهذه النزعة هي التي أدت به ليكتب رسالة مطولة عن الانتخاب المباشر يطعن فيها من الطعن على هذا النظام، ويرى من السخرية أمر السخرية أن يتساوى في الرأي عن طريقة حكم البلاد ماسح الأحذية وعميد الكلمات ومدير الجامعات، كما يرى جماعة أن يحكم نصف الامة زائداً واحداً نصفها الآخر ناقصاً واحداً أو أن يحكم سوادها الطائش المخدوع بترهات المغررين والمضللين صفة أبناءها وخلاصة ذوى الرأى والعلم فيها حكماً أقل أثره ان يبعث التقرّز الى نقوس الصفوة ويضعف من حبّ كثير منهم للعمل ويضيّع بذلك جهوداً أقلّها خير الف مرة من جهود السواد وقادته.

وعاش تين ومات ومنطقه منطقه ورأيه لم يتغير. وكانما كان مصدراً حياً لهذه الكلمة: «النبوغ فكرة في الصبا تنفذ في الرجولة». فمنذ كان تين في مدرسة المعلمين الى أن مات، كانت غايتها في الحياة واحدة وطريقتها الى هذه الغاية واحدة: كانت غايتها الحقيقة وكانت طريقتها الى الحقيقة العالم، حقيقة لا هوادة فيها وعلم كذلك لا هوادة فيها. وهذا كان جديراً حقاً بالخلود. وإذا كان كثير من نظرياته قد نقضت بعد حياته، فهو في ذلك ليس الا انساناً عظيماً. هو قد خططاً بالعالم في عصره الخطوة التي كان يجب ان يخطوها العالم. كما كان رسولاً ل تمام هذه الخطوة. اما وقد أتم رسالته وآن للعالم أن يخطوا خطوة أخرى، فان ذلك لن يغض من فضله ولن يغمطه شيئاً من حقه، بل هو على العكس من ذلك يزيدنا قدرأً له

وأعجبا به . وكيف أن يسأل انسان نفسه : ماذا يكون العلم وماذا تكون الفلسفة لو أن قين لم يوجد ؟ ولن يستطيع انسان أن يجيب على هذا الا بالاعتراف لتين بفضل عظيم . وهذا الفضل هو الذي جعل فرنسا تحتفل بعيده وجعل الفرنسيين يفكرون في اقامة تمثال له في باريس وتمثال آخر نصفي في مدرسة المعلمين .

أَنْتَ مُحَمَّدٌ أَنْتَ مُحَمَّدٌ أَنْتَ مُحَمَّدٌ
بِسْمِ اللّٰهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيْمِ بِسْمِ اللّٰهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيْمِ
أَنْتَ مُحَمَّدٌ أَنْتَ مُحَمَّدٌ أَنْتَ مُحَمَّدٌ
اللّٰهُمَّ إِنِّي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ مُحَمَّدًا فَلَا يُنْعَمْ بِهِ كُوْنٌ

ولیم شکسپیر



« ماحاجة شكسبيير الى أحجار فوق أحجار يقيمها الناس مدى
قرن كامل لتأوى اليهارفاته الجيدة ؟ ماحاجته أن تدفن بقاياه المقدسة
تحت هرم يصعد حتى يصل الى عنان السماء ؟ يا ابن الذكرى العزيز ووارث
المجد العظيم ! ماذا يعنيك من هذا الاعتراف الضئيل بفضل اسمك وقد
أقت لنفسك من إعجابنا وعجبنا تمثالا لا يبلی . »

« ملتن »

« تمثالا لشكسبيير ! ولماذا ؟ إن التمثال الذي أقامه لنفسه على عماد
هو انكلترا كلها خير له من كل تمثال . ليس شكسبيير بحاجة الى هرم وله
مؤلفاته . وماذا يمكن أن يخلد الرخام منه ؟ وماذا يستطيع البرنز أن يقيم
حيث يقيم المجد ؟ إن الا أحجار كلها والفنانين الذين ينحتونها يضيئون
جهدهم عينا . فالعقبيرية هي العبرية من غير حاجة اليهم . ولو اجتمعت
الاحجار كلها ، أفتراها تكبر هذا الرجل إصبعاً ؟ وأى قوس أبقى من
هذا القوس : قصة الشتاء — العاصفة — زوجات وندسور المرحات —
يوليوس قيصر — كريولان . وأى اثر اعظم من ليير ، وأشد تجها من
تاجر البندقية ، وأبهر من روميو وجولييت ، وأبهى من ريكاردو س
الثالث . وأى بدر يلقى على هذا البناء ضياءً أتعجب من حلم ليلة الشتاء ؟
وأى عاصمة ولو كانت لندرة تثير حوله ضجة هائلة كاثير روح مكتب
الهائلة الضجيج ؟ وأى حلية من خشب الزان أو البلوط تبقى بقاء أو تلاوة ؟
وأى نحاس أصلب من نحاس هملت ؟ كلا :لن يوازي بناء من الحجر

أو الصخر أو الحديد هذا الروح روح العبرية العميق . روح الله يتجلى به على لسان الانسان . ورأس فيه فكرة هو القمة . أما كداس الاحجار فهو دضائعة . وأى بناء يساوى فكرة ؟ إن بابل بدون ايزاس ، وحوفر لا صغر من هو ميروس ، والكوليزيوم لأقل من جوف فال ، وقصر اشبيلية قزم الى جانب سرفانتس ، وكنيسة القديس بطرس في روما لا توازى كعب دانت . فكيف تستطعون وإن جهdtm أن تقيموا برجاً في رفعة هذا الاسم : شكسبير »

(فكتور هو جو)

وصدق ملتون ، وصدق فكتور هيجو . فأنت لا تعنى إذ تذكر شكسبير أأقيمت له تماثيل أم رفعت له نصب واهرام . وأنت لا تذكر الى جانب اسمه ما تذكره الى جانب اسم نابليون من عهد فندوم أو قبر الانفاليد . بل انت إذ تذكر شكسبير تنسى كل ما في العالم غير مخالف شكسبير ، غير هذه التركه الخالدة من الشعر السامي فوق كل مراتب الشعر ، والذي يزداد سمواً كلما ازدادت فيه إمعاناً ، حتى تنسى الى جانبه كل شعر وكل موسيقى وكل فن لأنك ترى فيه عالماً كاملاً من الاشياء والناس والالهة خلقه خيال يندمج فيه كل خيال ، وفن يتلاشى أمامه كل فن . ولتنسى انى جانبه الاعجاب في الحياة بأى شئ عسواه . هذا وشكسبير لم يكن ملكاً ولم يكن غازياً ولم يكن عظيماً في قومه ، بل كان ككل نابغة وكل عبقري رسولات مؤذيه رسالته حتى لتحرقه . ومن هذا الاذى ومن هذا الاحتراق تتعطر الحياة بأربيج تلك الرسالة وتزداد بهذا الاريج شعوراً كلما ازداد عطر الاحتراق والاذى ذيوعاً وانتشاراً .

نعم ! لم يكن شكسبير ملوكا ولا غازيا ولا عظيما في قومه . بل كان مؤلف روایات وكان مهرجا . كان عمله في الحياة أن يبعث السرور والنشوة إلى نفس الجمهور ثم لا يناله أكثر الاحيان من هذا الجمهور الذي أضحكه غير السخط والازدراء . ومات شكسبير وانطوى دور المهرج فظل أهل عصره ينكرون عليه مقامه كمؤلف رينعتونه بأنه لم يحدث جديداً وأنه غراب اكتسى بريش الطيمور الجميلة فلم يصنع أكثر من أن سرق ما تقب غيره . لكن الز من الدائم الكرو والذى يصهر ثرات الماضي فيستخاض جوهرا من خبته ، لم يجد في شكسبير الا جواهراً يشع في المستقبل الى قرون وقرون بعده ، فلا تزداد إلا تطلعها اليه واعجابها . وهذا الز من وجده في الهمام شكسبير الشعري علما وحكمة ، فنفي عنه حسد أهل عصره وأقام له من الجد ما عبر عن بعضه ملتن شاعر انكلترا الاول بعد شكسبير ، وهو جو مقدم شعراء فرنسا ومتترجم

شكسبير الى الفرنسيية

واذا لم يكن شكسبير عظيما في قومه فليس في تاريخ حياته ما يقف النظر عنده إلا أن يكون خلقه الثائر ونفسه المتمردة على الخلق وعلى الفضيلة .

ولد في ستراتفورد — آن — إين في ٢٣ إبريل سنة ١٥٦٤
أى في عصر الملكة إليزابات أحد عصور انكلترا الراهنة ،
وفي القرن السادس عشر عقب الانقلاب الدينى العظيم الذى
قام به مارتن لوثر وتآثرت به انكلترا أكثر مما تآثرت به أية أمة
غيرها . وكان أبوه جون شكسبير محترما في قومه لأنه كان يملك
زوجة تغنيه عن غيره ، جاءه بعضها من كده وبعضها من زوجه . وقد

اختلف الرواة في الصناعة التي كان يزاولها جون بين أنه كان تاجراً أو مزارعاً أو جزاراً . ويدهب كثيرون إلى أنه كان يزاول هذه المهن جميعاً كما يفعل الكثيرون من أهل القرى والبلاد الصغيرة . ولمكانته من قومه انتخب في مجلس بلاده القروي ونيطت به أعمال قاضي المصاولات . وفي سنة ١٥٧٧ ساعت حال جون شكسبيـر المالية حين كان ابنه ولـيم ماـيزـال ، وهو في الثالثة عشرة من عمره ، في بداعة تعليمه . فاضطر لاستعانته به في كـدح الحـيـاـة . وجعل الفتـيـ على قول بعض مترجمـيه — « يقتل العـجـول لا يـبـيـهـ ويـلـقـيـ أثـنـاءـ يـقـوـمـ بـعـمـلـهـ خطـبـاـ رـائـعـةـ الـأـسـلـوبـ عـلـىـ سـامـعـيـهـ ». وكـذـالـكـ انقطعـ عنـ الدـرـسـ وـشـغـلـ بـهـ الـحـيـاـةـ حـتـىـ تـزـوـجـ فـيـ الثـامـنـةـ عـشـرـةـ مـنـ عـمـرـهـ مـنـ هـشـواـيـ وـرـزـقـ مـنـهـ فـيـ ٢٦ـ مـاـيـوـ سـنـهـ ١٥٨٢ـ فـتـاهـ أـسـمـاهـ سـوـزـانـ وـتـوـأـمـينـ غـلامـينـ فـيـ فـبـرـاـيرـ سـنـهـ ١٥٨٥ـ

على أن هموم الحياة ومشاغل الأمـرـةـ لمـ تـغـيرـ شـيـئـاـ منـ خـلـقـهـ المضطربـ الشـائـرـ . فقد أولـعـ منـذـ صـبـاـهـ بـالـشـرابـ سـتـيـ كانـ فيـهـ مـفـخـرةـ قـرـيـتهـ ، كـماـ أـنـهـ كـانـ لـاـ يـعـفـفـ عـنـ سـرـقةـ الصـيـدـ مـنـ أـمـلاـكـ كـبـارـ الـمـلاـكـ وبـخـاصـةـ مـنـ أـمـلاـكـ السـيـرـ تـوـمـاسـ لـوـسـ كـبـيرـ قـضـاءـ قـصـبـتهـ . وـكـمـ خـضـعـ منـ أـجـلـ ذـلـكـ لـهـوـانـ الضـربـ وـمـذـلـةـ الـعـقوـبـةـ . وـفـيـاـ هوـ يـوـمـاـيـجـارـىـ أـهـلـ قـرـيـةـ مـجاـوـرـةـ فـيـ الشـرابـ سـكـرـ حـتـىـ لـمـ يـسـتـطـعـ العـودـ إـلـىـ أـهـلـهـ . فـلـمـ أـصـبـحـ ذـكـرـ حـالـهـ وـمـاـأـلـ إـلـيـهـ أـبـوـهـ الذـىـ أـدـخـلـ السـجـنـ بـسـبـبـ دـيـوـنـ فـفـضـلـ هـجـرـةـ بـلـدـ أـصـبـحـ لـاـحـتـرامـ لـهـ بـيـنـ أـهـلـهـ بـرـغـمـ مـاـكـانـ يـشـعـرـ بـهـ فـيـ نـفـسـهـ مـنـ تـقـوـقـ عـلـىـ أـقـرـانـهـ أـنـ كـانـ قدـ بـدـأـ يـتـغـفـىـ بـشـعـرـ يـنـظـمـهـ ، فـهـجـرـ سـتـرـاتـقـورـدـ إـلـىـ لـنـدـرـةـ وـهـ لـاـيـدـرـىـ مـاـيـسـتـطـيـعـ أـنـ يـفـعـلـ فـيـهـ

ودخل العاصمة العظيمة خالى الوفاض يضئيه الضنك والعوز
فأسرع الى حرفة من أحقن الحرف . ذلك أنه كان يلتقى بخيمول
المتفرجين على أبواب المسارح فإذا انقضت ساعات التمثيل نفحوا
هذا الخادم بما تجود به أنفسهم . ولعل هذه الحرفة الوضيعة حظا
غير قليل فيها يدين به العالم اليوم لشكسبير من روایاته الخلدة . فلن
سبيل هذه الحرفة استطاع شکسبير أن يعرف بعض الممثلين وأن
يكسب عطفهم وأن يتحقق بعد ذلك باحدى الفرق في أدوار تافهة .
لكنها كانت سلمه الى أدوار خير منها . ومع انه لم يكن يوماً ممثلاً
بارعاً ولم يصل الى النبوغ في التمثيل الا ما كان من نبوغه في دور
طيف والد هملت فان خشبة المسرح هي التي دفعته الى كتابة روایات
تشهد الاجيال المتعاقبة تمثيلها معجبة مقدسة .

وكما تدهشك أن تكون حرفة شکسبير الحقيقة سبب هذا
المجد العالمي فقد يدهشك كذلك أن تعلم أن ظرفاً آخر لا يد له فيه
قد عاون الشاعر في عمله . ذلك أن اضطرابات العاصمة الانكليزية
أدت الى اقفال مسارحها ما بين ١٥٩٢ و ١٥٩٤ . واذ كان شکسبير
قد بدأ يولع بالنظم والتأليف ووجد من معاونة بعض ذوى النفوذ
ما أغايه عن اتباع الفرق التمثيلية في تجوهها ، فقد ظلل مدى هاتين السنتين
مكتباً على دراسة اللغات الفرنسية والاطالية والاسبانية ، مكتباً على
النظم والتأليف . وخلالها استشف مظاهر نبوغه وعبقريته وميوله
التمثيلية . فكتب في ابريل سنة ١٥٩٣ قصيدة فينس وادونيس
Venus and Adonis كما كتب في مايو سنة ١٥٩٤ روایة لوكريس
وأهداها الى لورد سودامبتون . ويقال إن المورد شجعه على الاستمرار

وفي صيف سنة ١٥٩٤ فتحت دار التمثيل أبوابها عاد شكسبير إلى المسرح وببدأ يقدم رواياته لتمثيل. ولم تكن قوة هذه الروايات تتحقق على أحد خصوصاً أنها كانت تمثل حياة ذلك العصر وأخلاقه أدق تمثيل. لذلك لم يلبث شكسبير أن حاز من ذيوع الصوت ما خلع عليه اسم الممثل البارع وإن كانت براعته الحقيقة في تواليفه. وكان من أثر ذلك أن شارك شكسبير بنصيب في أرباح مسرح (الجلوب) الذي كان يشتغل فيه، فاستطاع بذلك أن يشتري في بلدة ستراتفورد دوراً وضياعاً وأن يعيش في رغد ونعمة وأن يعيد أباه وأهله إلى حب الحياة. وكما سرت شهرة شكسبير له سبل العيش فقد فتحت أمامه أبواب العظاء وأفالته عطف الأسرة المالكة ورفعت بذلك من عقام التمثيل والممثلين الذين كانوا قبل ذلك عباق من الضعف والحقارة يشعر الإنسان به حين يقرأ من مقطوعات شكسبير ما كتبه أثناء مقامه بيطاليا وما فيه من برم بالحياة وألم لا زدراء الناس مهنة لم يكن له كى يكسب العيش مفر من احترافيها. وزاد المهنة رفعه أن مثل شكسبير في حضرة الملكة إليزابيث وإن

قال من عطفها، وان يك قد تنكر بعد ذلك لها حتى لم تذرف عليها
عينه دموعة عند موتها ولم تتحرك شاعريته بعبارة ألم لرثائها.

وبقى شكسبير يؤلف في السنة الواحدة الرواية والروایتين
ويمثلها مع زملائه الذين كانوا واياه على خير وفاق. وقد أثار قارئ
تأليفه كل رواية من رواياته مباحث شتى حتى وضع (اومندمانوفي)
كتاباً مسماه «محاولة لتحقيق الترتيب الذي كتبت به روايات شكسبير»

(An attempt to ascertain the order in which the
plays of Shakespeare were written)

كذلك اذ نذكر بعض النقاد نسبة بعض الروايات له كما ذكر بعضهم وجوده.

وفي سنة ١٦١٠ اعتزل المسرح وترك لندرة الى ستراتفورد
حيث عاش عيشاً هادئاً مكتفياً بما جمعه من مال مستمراً مع ذلك في كتابة
رواياته. ويذهب بعض مؤرخيه الى أنه كان مع ذلك يعود الى لندرة
الحين بعد الحين ويشترك في تمثيل بعض الروايات حتى احترق مسرح
الجلوب في ٢٩ يونيو سنة ١٦١٣ أثناء تمثيل رواية هنري الثامن.
هناك انسحب شكسبير الى قريته ولم تبق له عنایة بغير رفاهته
فعاش عيش ذوى اليسار وطلق المثليل والتأليف جھيغاً وجعل يقرض
الناس بالفائدة مما أدهش كثيرين من كتبوا عنه. قال تين : « خاتمة
غريبة تبدو لأول نظرة خاتمة تاجر لاخاتمة شاعر. أفنعوها الى
هذه الغريرة الانكليزية التي ترى السعادة في حياة رجل الريف
صاحب الملك حسن الايراد كريم الاصل المحاصل على أسباب الرغد
المطمئن بين الناس الى مكانته واحترامه والى سلطنته العائلية ومكانته
عن قومه ؟ أم ان شكسبير كان كفولتير رجلاً موزوناً وان يك

خيالي الذهن يحتفظ بقوة حكمه خلال نشاط شاعريته ، بعد ذلك
مقتصد حاجته الى الاستقلال عن الناس ، قدير ، بعد أن يحيط
بكل ماضي بخاطر الإنسان ، أن يرى مع كандيد أن الخير كل الخير في
أن يزرع حديقته ؟ أما أنا فأميل لافتراض يدل عليه رأيه الملىء
المتين . ذلك انه لكتيرة ما أنتيج خياله المتموج قد نجا كما نجا جيتي من
مخاطر الخيال المتموج . وانه في تصويره الشهوات قد بلغ ما يبلغه جيتي
من تخفيف حكم الشهوات إياه . وان الاندفاع لم يحدث في سلوكه
انفجاراً لانه كان يجد في الشعر مصرف الاندفاعه . وان روایاته
حفظت عليه حياته لأنها لم من خلاها بكل ما في الحياة الإنسانية
من هوس وتعس ، فاستطاع أن يجعل بينها وعلى ثغرها اتسامة مطمئنة
مكتتبة ، وأن يسمع ليسرى عن نفسه هذه الموسيقى الاثيرية التي
أبدعها في روایاته . وأريد أن أفترض أخيراً انه كان في جسمه ،
مثله في سائر تكوينه ، أحد رجال جيله العظيم ، وعصره العظيم ، وان
متانة العضل كانت عنده مثلها عند رابليه وتسيان وميكانيج وربنس ،
توازى حساسية الاعصاب . وان الماكينة الإنسانية كانت يومئذ
أقوى بناء وأحسن بناء فكانت تستطيع أن تقاوم عصف الشهوات
واندفاعات الهوى . وان النفس والجسم كانا مازلا متوازنين
في كان النبoug يومئذ زهراً ونمرة ، ولم يكن مثلما هو اليوم مرضياً »

قد يكون هذا التصوير الذي فرضه تين لحية شكسبيرو صحيحاً
لكنه لا يزيد على انه فرض في رأي تين نفسه . على انك اذا أردت
أن تقف على أسرار شعر شكسبيرو روایاته فقد وجئت دراسة ذلك

كما دراسة لا يتسع المقام هنا لأنَّ كثُر من الالِمَام بشيءٍ منها إلماماً
بسقطاً.

نشأ شكسبير، كما قدمنا، في العصر الذي عقب الانقلاب الديني الذي قام به مارتن لوثر وتأثرت به إنكلترا أكثر مما تأثرت به أية أمة غيرها. وكان الدين أخذوا بالمذهب الجديد ما يزيدون متأثرين قبل كل شيء بأساسه وهو حرية التفكير. وكان انهميار قيود الكثلوكي هو البادىء أمّام الانظار. ولم تكن بعد قد تركت في النفوس قواعد المذهب الجديد ترتكزاً ثبتت اليمان بها ثبيتاً يحول دون تحطيمها. كما لم تكن خلقت حول المذهب الجديد هذه الاوهام الحسنة التي ترون على الناس عبد الحياة فيخضعون لها طائعين — لذلك كلّه كانت جماعة ذلك العصر في إنكلترا تسيف الاخاء ولا تزعج لاعلانه ولا تضطرب أمّام ما يرتبه أصحابه عليه من تقشف أحياناً واستهتار واباحة أخرى وشك ثالثة، واعتلال في الحياة وفي المتعابها اعتدالاً يبقى عليها أو يطيل. ولعل هذه الظاهرة كانت ذات أثر فيما رأينا من سلوك شكسبير ومن استباحته سرقة الصيد. وهي لاريب كانت قوية الاثر في روایاته. فأنت ترى فيها من التجذيف ومن الغواية، مصبوتين في أجمل قالب وأبهاه، مالا يحتمله عصر غير عصره الذي كان مجاوراً للعصور الوسطى والذي لم يتخلص من خرافتها وإن أباح لنفسه هدم هذه الخرافات. وكما أثر العصر في شكسبير من ناحية حرية تفكيره فقد أثرت فيه هذه الخرافات من إيمان بالسحر وبالجن حتى لزى كثيراً منها في روایاته. ثم إن هذا العصر الطليق المجاور للعصور الوسطى كان عصر اضطرابات ومجازر

وكان القتل أَمْرًا شائعاً فيه حتى لترى الرجل تقطع عنقه لغير سبب
الآن أنه أنكر على الملك سلطانه الديني أو أنه أغضب رجلاً ذات سلطان
بإشارة أو بكلمة . أخفى إلى ذلك ذيوع عادة المبارزة وانتهاها في
أحياناً كثيرة إلى قتل أحد المبارزين . وهذا الاستهتار بالحياة
الإنسانية هو سر مازى في أكثر روايات شكسبير من مجاز رفظي
تهنىء أغلب الأمر إلى موت أشخاص الرواية جمِيعاً . ثم إن التمثيل
على النحو الذي نعرفه اليوم كان في ذلك العصر مازال في دور نشأته
حتى لم يكن معروفاً في كثيرون من البلاد ومن بينها فرنسا . فلم تكن
قد تقررت له قواعد كالتى تقررت بعدها من وحدة الزمن والمكان
والحدث . ولذلك أنت ترى في شكسبير مناظر مختلفة في الفصل
الواحد قد لا يكون بينها أية صلة ، وقد يفصل بين المنظر والمنظر مئات
الآميال . ثم إنك ترى كذلك في هذه الروايات خلطًا عجيباً من
أحط ما تنزل إليه الجماعة في حيواتها العادية التافهة ، ورفعه لاتدانيها
رفعة في سمو الخيال وتصوير فعل الشهوات في النفوس

وهذه الظواهر التي تجدها سائدة في دول أوروبا كلها في ذلك
العصر كانت أَكثُر وضوها في إنجلترا . ومرجع ذلك أنَّ المُلْكَ
الإنكليزي بطبيعته خلق تأثير طموح للحرية يفتديها بالدماء . وكان
ذلك في تلك العصور الماضية أَكثُر مما هو اليوم . ولذلك كانت
إنجلترا أسرع من غيرها إلى الأخذ بالمذهب الديني الجديد . ولذلك
كانت مظاهر القسوة وما تلده من قتل وتعذيب أَكثُر تقشياً بين
هؤلاء السكسونيين . وكان من شأن السحرة عند هم مالاً تعجب بعده
لطيف هممت ولا لساحرات مكبت . ثم كان من استهتار الناس بالحياة

ما ترى آثاره في شعر شكسبير مما يجعل المقشفة والتصوفة أشد على الحياة حرصاً من أهل هذا الزمن . فليس عجياً اذن هذا الذي نرى في شعر شكسبير من مجاز وخرافات وإن خيل لبعضهم بادىء الامر أن فيه شيئاً من العجب يدعو الى عدم تصديقه .

وإذ كان علم شكسبير راجعاً الى ملاحظة الطبيعة أكثر من رجوعه الى دراسة الكتب ، وكانت معلوماته التي استند اليها في تأليف روایاته لا تزيد عن معارف سطحية في التاريخ والفلسفة والاجتماع ، فان كثيراً من روایاته لا تعتمد على أكثر من أساطير سمعها أو قرأها في الكتب التي يتناولها الناس جميعاً وفي مقدمتها تاريخ العظام لبلوتوارك . فرواية هملت تعتمد على أسطورة دانمركية يذكرها أكثر المؤرخين . ورواية روميو وجولييت أحدوة ايطالية يغلب أن يكون شكسبير قد سمعها أثناء سياحته في شمال ايطاليا أو قرأها ولم يستعملها في بعض الكتب . ذلك أن هذه الاحدوثة تنتهي بأن روميو لما بلغه موته حضر الى قبرها وبلغ من ألمه أن طعن نفسه بالخنجر ، ولما كانت جولييت لم تتناول السم قبل تناولت مخدراً فقد استيقظت وروميو مايزال في النزع فبث كل منهما لصاحبه لاعج غرامه . وطعنت الفتاة نفسها بالخنجر الذي زرج به محباً في أعماق قلبه . ولم يشر شكسبير الى هذه الواقعة الجديرة بأن تجري على أوتار ربة شعره بأرق انقام الحب والألم فدل بذلك على أنه لم يعرفها .

هذا التحابيل للمحيطات التي وجد فيها شكسبير قد يفسر طريقه وضعه روایاته وقد يهدى الى أسرار ماترى فيها اليوم مما نعتبره عند عدم وقوفنا على هذه المحيطات خرافه غير لائقة بعقلية فذة

لِعَبْرِيَّةِ شَكْسِيرِ . لِكُنَّهُ مَعَ ذَلِكَ لَا يَدْلِنَا عَلَى شَيْءٍ مِنْ سُرْعَتِهِ
وَلَا يَهْدِنَا إِلَى كَثِيرٍ مِنْ سُرْعَتِهِ . وَالْحَقُّ أَنَّ الْبَيْعَةَ وَالزَّمْنُ وَحْدَهَا
لَا يَفْسَرُانِ نَبْوَغَ النَّابِغَةَ وَلَا عَبْرِيَّةَ الشَّاعِرَ وَإِذْ بَيْنَا مَرَأِيهِ وَكَشْفَا
عَنْ أَغْرِاصِهِ . فَأَمَّا العَبْرِيَّةُ فَلَازِمَةٌ دَاتِيَّةٌ وَهَبَّةٌ . قَدْسِيَّةٌ تَنْفَحُ بِهَا
الْطَّبِيعَةَ شَخْصًا مِنَ النَّاسِ عَلَى حِسَابِ مَوَاهِبِ أُخْرَى . وَعَبْرِيَّةُ
شَكْسِيرٍ كَانَتْ فِي مَلَاحِظَتِهِ وَفِي خَيْالِهِ وَفِي شَاعِرِيَّتِهِ وَكَانَتْ فِي ثَقَوْبِ
نَظَرِهِ ثَقَوْبًا يَسْتَطِيعُ مَعَهُ أَنْ يَرَى دَخِيلَةَ النَّفْسِ الْأَنْسَانِيَّةِ وَأَنْ يَصْفِهَا
وَصَفًا حَسْبَهُ النَّاسُ بَادِئَ الْأَمْرِ غَوَّا يَهُ شَاعِرُ ، ثُمَّ أَثْبَتَ الْعِلْمُ أَنَّهُ
الْحَقِيقَةُ الْعَلَمِيَّةُ الَّتِي لَا تَقْبِلُ نِزَاعًا وَلَا جَدْلًا .

وَكَانَتْ مَظَاهِرُ الطَّبِيعَةِ فِي أَرْقَ صُورِهَا وَأَجْلَمُهَا أَوْلَى مَا يَجْنَبُ
خَيْالَ شَكْسِيرٍ . فَانْتَ لَا تَقْرَأُ لَهُ رُوَايَةً وَلَا مَقْطُوعَةً إِلَّا وَجَدْتَ مِنْ
وَصْفِ هَذِهِ الْمَظَاهِرِ وَصَفَا مُوسِيقِيَّا بِدِلْعِيَا يَدِلْكَ عَلَى مَبْلَغِ تَأْثِيرِهَا
فِي أَعْصَابِ هَذَا الشَّاعِرِ الدَّقِيقِ الْحَسْنِ ثَائِرِيًّا يَجْعَلُهُ يَنْدِفعُ إِلَى الْأَعْجَابِ
بِالْجَمَالِ وَتَقْدِيسِهِ إِلَى أَقْصَى حَدَّودِ الْأَعْجَابِ وَالْتَّقْدِيسِ ، فَيَظْهُرُ أَثْرُ
ذَلِكَ فِي شِعْرِهِ ، وَيَظْهُرُ فِي رِعْشَةِ مُوسِيقِيَّةِ قَوْيَةِ رَقِيقَةِ فِي قَوْتَهَا ،
مُتَجَاوِبَةٌ نَائِرَةٌ فِي تَجَاوِبِهَا ، تَهَزُّ تَفْسِيْكَ هَزَّاً وَتَسْحِرُكَ عَمَّا حَوْلَكَ
وَتَصْلِيْكَ بَكَ حَتَّى تَرَى أَمَامَ خَيْالِكَ مَارِسِهِ خَيْالَ شَكْسِيرٍ مَاثِلًا وَاضْحَىًّا .
وَقَدْ بَلَغَ مِنْ تَأْثِيرِ هَذِهِ الصُّورِ فِي تَفْسِيرِ الشَّاعِرِ الْعَظِيمِ أَنْ حَلَّتْ مِنْهُ
سُلْطَنَ التَّفْكِيرِ حَتَّى فِي شَأْنِ الْحَيَاةِ الْأَنْسَانِيَّةِ . فَالرَّجُلُ الغَاضِبُ كَالْطَّبِيعَةِ
الثَّائِرَةِ . وَمَا يَتَرَبَّعُ عَلَى ثُورَةِ الطَّبِيعَةِ مِنْ آثارِهِ بِعِينِهِ عِنْدَ شَكْسِيرٍ
مَا يَتَرَقَّبُ عَلَى غَضَبِ الْأَنْسَانِ مِنْ آثارِهِ . وَالْطَّبِيعَةُ فِي سِيرَتِهَا الْعَادِيَّةِ

نافحة حتى اذا ملكتها الثورة أبرقت وأرعدت وعصفت وأهلكت
المرث والنسل . كذلك الانسان في سيرته العادية نافحة حتى اذا
ملكته الشهوة أسرف في الحب أو في البعض أو في الايثار أو في
التشفي والانتقام .. والطبيعة خاضعة لظروف لامسلطان لها عليها ،
والانسان خاضع مثلها لظروف لامسلطان له عليها . وكما تسير الغرائز
الطبيعية تسير الغرائز الانسان . فكل صورة للطبيعة لها ممثلها في
الانسان . ولذلك كان أسلوب شكسبير وكان خياله خيالا تصویریا
في وصفه وفي احساسه وفي شهواته وفي تفكيره . اقرأ مكبث
حين يصف آثار جريته وكيف لا تستطيع البحار أن تجده ما خلفت
من دم على يديه . واقرأ هملت في ثورته على أمها وفي سائر هذيناته
الحكيمة . بل اقرأ قيسرو اقرأ في قيسرو خطاب النطوي . اقرأ
ما شئت من شكسبير تر هذا التقديس لصور الطبيعة وهذا التفكير
المصوغ في قلب تلك الصور .

وكما يندفع شكسبير الى تقدير مظاهر الطبيعة ويستخدم صورها
صور تفكيره ، فهو لا يرى في غرائز الحياة غير الاندفاع لا يقوم على
أساس من رؤية ولا تفكير ، وإنما يقوم على الغرائز الانسانية البسيطة
هي التي توجهه وتصرفه . فالحب عنده لا يحتاج الى تحضير ولا سعي
من جانب الرجل لكتسب المرأة بل هو اندفاع من جانب شابين كل
منهما نحو صاحبه . اندفاع رقيق كل الرقة قوى كل القوة . اندفاع
شعري عذب يتغنى فيه كل من المحبين باهازيم الهوى على نغمة
موسيقية حلوة كما كويبدون إذ رمى عن قوسه فأقصد القلب
رمى مع القوس الوتر ، فأخرج هذا الوتر من اعصاب كل من المحبين

نانات وأملاً وأحلاماً لذيفة ويأساً فاجعاً لا يعرف الشعر في كل الامم شيئاً منه مثل ما عرف على لسان شكسبير. استمع إلى أنقام أولفيا في جبها هملت ووجعاتها حين اليأس الذي أدى بها إلى الموت. واسمع هذا التجاوب الحلو بين روميو وجولييت يجعل من الحب جنة نعيم ليس بعدها جنة نعيم. ثم اقرأ ثوران الغيرة وضجيجها والتهابها في نفس أو تللو عملاً مثيل له في أقوى ما تصل إليه موسيقى فاجزء. وخيال شكسبير يصل من ذلك في بعض الأحيين إلى حدود يعجز أقوى خيال تصوّرها

وكما تحرّك الغرائز المحبين تحرّك الناس جميعاً في كل تجارة الحياة. فليس الملك على خلاف الناس جميعاً لأنّه ملك . بل هو يحب أهله وأبناءه ويدللهم مادام بعيداً عن مباشرة شؤون الدولة . وهو في هذه الشؤون يتأثر بغرائز الإنسان وشهوّاته كما يتأثر أيّ إنسان سواه . والرجل السيء الذي خلقه شكسبير في شخص ياجو وفي شخص شيلوك تاجر البنديقية ينقاد للغرائز الإنسانية انقياد الوحش أو تللو والنائم هملت وإن كانت صورة هذه الغرائز تختلف من شخص إلى شخص حسب مزاجه . وهذا الاختلاف هو الذي جعل من أبطال شكسبير أشخاصاً ذوي حياة إنسانية صحيحة تشعر وایها إذ ترى تمثيل الروايات على المسرح في حين إنك إذ ترى روایات دراسين وكورني مثلاً، وها من أكابر كتاب فرنسا في القرن السادس عشر ، تحس المؤلف هو الذي يتكلّم وترى أفكاراً تروح وتجري على المسرح كل وظيفة الممثل أن يقوم بالقاء الالفاظ التي تؤديها من

غير أن تظهر له شخصية حية تنسيك أنه مثل وتنسيك أنه يقوم
بدور تمثيلي .

ولقد أقر النقاد جميعاً لشكسبير بهذه الميزة وإن رأى بعضهم
أنه يسرف في تصوير أشخاصه إسراها يجاوز المعقول ، ناسياً أن
هؤلاء الأشخاص هم من عصر شكسبير وأئمهم من أبناء خياله
الشعري المتوقد . وكما أتّهم بالسراف ظلماً في هذا فقد أتّهم بهمة
أخرى أثبت العلم خطأ اتهامه بها . فقد ذهب بعضهم في وقت من
الأوقات إلى القول بأن شكسبير يخالف الطبيعة والمعقول فيما يقرره
بعض أشخاص من تصرفات . من ذلك مثلاً إنك ترى مكبث
يرتكب جريمة القتل فتتلوث يداه بالدماء ، ثم هو مع ذلك يظهر في
أماكن لا يأمن أن يراه الناس فيها ويصبح بأن مياه البحر لا تعسل
جرينته . وعلى الرغم من الحاح لادي مكبث فإنه يظل يتحدث عن
جرينته ولا يداري شيئاً من آثارها . فهذا في رأي النقاد الذين
أشروا إليهم تصرف غير معقول . أليس أول ما يصنع الجرم أن يعمل
ليداري جرينته ؟ لكن العلم الجنائي أثبت أن شكسبير على حق
وأن الطبيعة الإنسانية تدفع بال مجرم إلى مكان جرينته وتكرهه أكثر
الآخرين على الاعتراف بها .

وليس مثل مكبث إلا واحداً من أمثال كثيرة في ثقوب نظر
شكسبير واستشفافه حقيقة الغريرة الإنسانية .

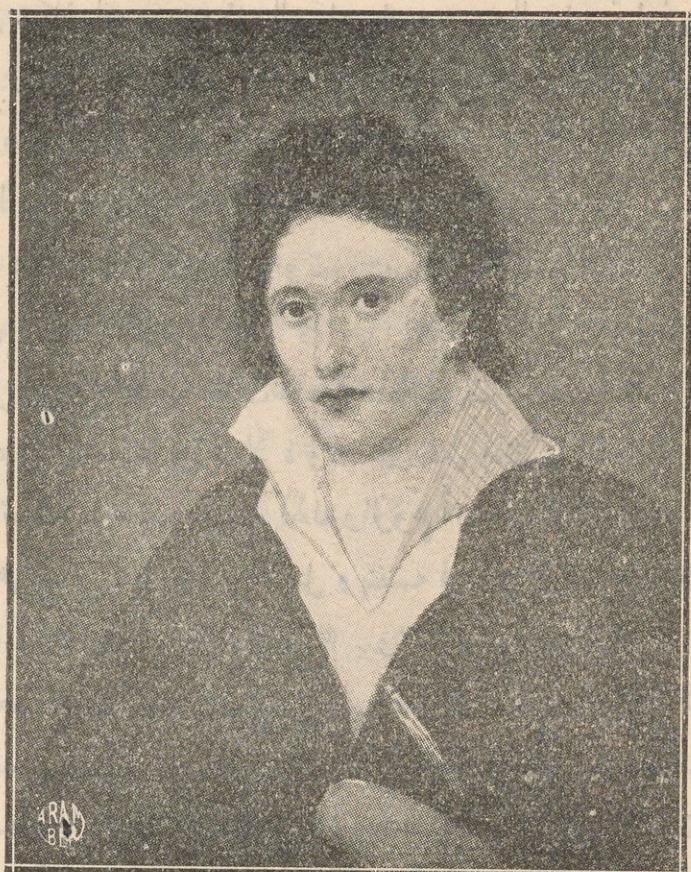
هذا بعض ما تأثر به شكسبير في شعره . وهو قليل من كثير
ليستحق الغنائية به وبمحنة . والآن أخشى أن أكون أطللت في حديث

لم أكن أقصد إلى الاطالة فيه وإن يكن القول في شكسبير قصيراً
وإن طال . فلنختصر بما تقدم . وبأن شكسبير بعد أن أقام في
ستة وعشرين سنة مكتفياً من العيش بطمأنينة ونعمته ، ظل حتى سنة ١٦١٦
ثم مرض فكتب وصيته بما يملك إلى ابنته سوزان غير تلك الزوجة
القليلة . وفي هذه السنة مات ودفن من غير كبير احتفال ، إلى
أن اضطر العالم بعد أجيال ليقيم له من المجد ما يبقى على الأجيال
حتى آخر الزمان .

Wife of Mr. John C. H. Smith
and mother of Mrs. John C. H. Smith
and Mrs. John C. H. Smith
and Mrs. John C. H. Smith

1888

برسی بیش شلی



ظهر السادس عشر من شهر أغسطس سنة ١٨٢٢ ، في صحوجو
جميل ، كان لورد بیرون والشاعر لی هنت والبحار ترلوني وقوفا
فوق رمال الشاطئ الايطالي على مقربة من ليفورنو يحيط بهم عدد
من أهل تلك المنطقة ويقف الى جانبهم جماعة من الضباط والعساكر
الايطاليين ، وكاهم محقق بصصره الى نار تضظرم قد بوركت بالنبيذ
صب عليها وبالملح القى فيها ويفوح منها ريح اللحم الانساني ، وكلهم
واجم مخلوع القلب ذاهب في تيهاء الهمع والذهول . وظل هذا
المنظار المروع أمامهم ثلاثة ساعات تباعاً يهز نفوسهم هزاً فلايزدادون
ازاءه إلا وجوماً وذهولاً ، وتنسى عين بعضهم بالدم ثم تدرفة
أن لا تستطيع حبسه . وبلغ الهمع والروع أثناء ذلك من لورد بیرون
مبلغها فيلقى ملابسه على الرمل وبنفسه في الموج يسبح خلاله حتى
يصل الى زورقه « البولينفار » . ويتحقق ترلوني بالعظام تحرق
وباللحم تذيه النار ، ثم يرى القلب مع ذلك كبيراً كبيراً ، فما يزال
منه قلب كامل لم يذب ولم يحترق ، فيجذب هذه البقية المقدسة
بيده . وتبعد النار بعد ذلك تنجو رويداً رويداً تاركة وراءها حفنة من
تراب هي كل ما بقي من رفات قيثارة الشعر الانكليزى شلى . ويحمل ترلوني
الحفنة الى الارملة البايسة ماري شلى لتتولى ويتولى هو ولها هفت معها
حملها الى مقابر البروتستانت في روما ك تستقر هناك في أرض غريبة عن
تراث الوطن ، ولكن لتسعد مع ذلك باستقرارها الى جانب رفات

عزيزة محبوبة هي رفات وليم شلي ابن الشاعر البكر من زوجة ماري .
ويقع هذا المنظر المروع وتنقل تلك الرفات القدسية الى روما ، ولم يكن شلي قد بلغ الى يوم وفاته في الثامن من أغسطس تمام الثلاثين من عمره ، وان كان قد خلف من شعره على الحياة مالا يزال خضر الشعر الانكليزي عذوبة وموسيقى يأخذان بالنفس ويملاكان على المرء حسه ولبه ويعثران الى كل ما ينشدانه ويترنان به الحياة والخلد ، سواء أكان ما ينشدانه ويتربان به انساناً أم طيراً أم حيواناً أم جاداً أم مجرد خيال لا وجود في الحياة له . ذلك بأن الحياة كانت تسرى في كل ما لامس نفس شلي لتبقى قائمة به قروناً ودهوراً بعد موتها . وكذلك كانت فجيعة الشعر في هذا الشاب الذى خلف الحياة مذ كان على اعتاب الحياة مما يزيد ذكراه قوة وجلاها ، وان كانت هذه الذكرى في غير حاجة الى مزيد من قوة أو جلال . فلقد كتب لكل بيت من شعر برمي بيش شلي منذ ترجمة هو به الخلود وكتب له الجلال .

ولم يكن لورد بیرون لینسی ساعات فراره أمام المنظر المروع
ما كان عليه زميله وصديقه من خلق عظيم وتفاس باعث من السمو
أرق سماواته . فهذا الشاعر الشاب ، الذى ولد في الرابع من أغسطس
سنة ١٧٩٢ وتوفي في الثامن من أغسطس سنة ١٨٢٢ ، قد حلق به
جمال الخلق في سماء الشعر الى ما لم يرتفع اليه معاصر له ، والى ما
لم يسبقه اليه أحد في رأى كثيرين ، وما لم يسبقه اليه غير شكسبير
في رأى آخرين . وكان ارتفاعه هذا ليس قائما على خياله الملتهب
وشعريته الفياضة وكفى ، بل كان قائما فوق ذلك وقبل ذلك ، على

قوة في النفس قل أن يكون لها نظير . قوة بدأت مظاهرها منذ الطفولة وتجلت أثناء الصبا وازدادت وضوحا في صدر الشباب الذي كان ، وهو صدر شباب الشاعر ، خاتمة حياته . وكانت أجيال مظاهر هذه القوة واضحة في إيمان الرجل برأيه وصراحته فيه وإعلانه إياه وسلوكه سبيل الحياة على موجبه وإن أدى لذلك ثمناً فاحشاً أن عده الناس مجنوناً وإن تفرت منه الجمعية الانجليزية أشد النفور حتى اضطرته ليمجرها منذ أول شبابه وليعيش السنواتخمس الأخيرة من حياته تحت سماء إيطاليا الدائمة الصـفـوـ والابتسام والتى تظل من صور الجمال وبدائع الفن ما يزيد على الهمام الشاعر . هذه الشجاعة وهذا الإيمان اللذان اعتبرا جنونا هما أساس شاعرية شلي وها مصدر اهمامه . لكنهما لم يكونا كذلك عند لورد بيرون البقوري المستسلم لسلطان الزهرة الناهل من ورد بناتها جميعاً الحائز بذلك غاية الاعجاب من أهل عصره وأكبر تقديرهم إياه . لذلك كان طبيعياً أن يرى فضائل زميـله وأن يقدرها ، وكان طبيعياً أن يفر من منظر النار تحرق مثوى هذه الفضائل وتذرره زماداً .

وكثيرون من عرفوا شلي من كانت تأخذهم الدهشة لفضائله ، ومن كانت تزيد دهشتهم لشجاعته وصراحته . ذلك أن صورته وتكوينه لم يكونا يمان عن هذه الفضائل فيه ، وإن كانوا يبنـيـانـ بشاعريـتهـ وقوـةـ خـيـالـهـ . فقد كانت في نظرـتهـ وفي تقـاطـيعـ وجهـهـ وفي جـمـالـ شـعـرـ رـأـسـهـ أـنـوـثـةـ عـذـبةـ تـحدـثـ عنـ رـقةـ وـلـينـ لاـعـنـ صـلـابةـ وـشـدـةـ . وكان يضـوـعـ مـنـهـ شـدـاـ المـحبـةـ وـالـعـطـفـ بـمـاـ لـيـلـتـمـ معـ القـوـةـ عـلـىـ النـضـالـ وـالـقـسوـةـ فـيـهـ . وكان جـسـمـهـ الطـوـيلـ النـحـيلـ كـأـنـهـ قـصـبةـ هـذـهـ الـقـيـاثـةـ

التي شدت بأجل الانقام وتفنت بأجل الاهازيج . كذلك لم يكن مولده ولا كانت مكانة أهله في الجماعة مما يزيل دهشة من بلغت الدهشة منهم بشجاعة شلي وصراحته في اعلان ايمانه حتى حكموا عليه بالجنون . فقد ولد في أسرة نبيلة جمعت الى النبل المال . وكانت بطبيعة هذين العاملين محافظة ، لتدخل من طريق محافظتها فاعمة بمالها ونبلها . كان جده السير بيش شلي بارونا وكان غنيا وكان لا يفتئ بيدأب لزيادة ثروته . وكان أبوه تيمودي شلي قاضيا وعضوًا في البرلمان ، وكان قصرهم بفييلد بلليس على مقربة من هورشام احدى أعمال سسكس محاطا بحداائق وأحراس تدعوا إلى المتعة بها والطمأنينة لها . وكان جده السير بيش قد جعله بالوصية وارثه مما يدر عليه ايراداً سنوياً ستة آلاف جنيه في ذلك الزمان ، سبحان من يدرى كم ألوف تعادلها في زماننا اليوم ! وتلك كلها أسباب دعنة وبهنية وليس أسباب نضال صلب وصراع للجمعية وللحياة فيها لا يعرف المهدوء اليه سبيلاً . ولو أن صاحبها أوّي من هبة الشعر ما أوّييه شلي لسكن طبيعياً ان يسلك الطريق التي سلكها يرون من الانكليز وعمر بن أبي ربيعة من العرب . لكن شلي ضرب بمال والجهاد والدعوة عرض الافق وترك بيت أبيه وترك أهله جميعاً ولم يقتض من وصية جده الاعقدار ما يكفيه حاجة العيش ، وأنطلق في الحياة هائماً يجلى بهاء الفضيلة ويؤدي رسالة الجمال ، ولم يكن له من أدائها بد ، في أنقام قدسية من موسيقى السماء . ويؤديها ذاهلاً مما أحاط بحياته من أحزان ومتاعب متوجهها بكله إلى هذا الوجود المحيط به ، مفنيا نفسه فيه كي يفني الوجود كله

في نفسه فترده إلى العالم وحياناً سماوياً يختلط بالنقوس جميعاً ويتنتقل على الأجيال إلى ما شاء الخلد أن تكون للإنسانية أجيال تتعاقب •
وكان جماله ولرقتها أثر بالغ في حياته وفي تصويره وفي شعره .

جعله هذا الجمال المزدان بخواتم شعره وعيونه العميقة الزرقة ولو نه الناصع النظيف ويديه ورجليه الجميلة التكوين وما اتصل بذلك من حسن تحسده عليه كل فتاة في مثل سن الطفولة التي كان فيها يوم ذهب به أبواه إلى مدرسة (سيون هوس) في برتفورد ، بالغاً في رقتها وظرفه وحلو طبعه . ونشأت هذه الصفات إلى جانب جماله عن نفس حية حساسة تألف القسوة وتتنزه عنها وترى في عدم النظام وسوء الاتساق ما يؤذها ويثيرها • على أن هذه الصفات جعلت منه في المدرسة سخرية زملائه وموضع عبشه ولهم ، مما بعث إلى نفسه غضاضة ومفضضاً • فلما انتقل به أهله إلى مدرسة «آيتون» حيث يتعلم أبناء النبلاء وذوى المكانة لم يزدد لنظامها إلا بغضاً ولعاملة زملائه التلاميذ فيها إلا مقتا . فقد كان وما يزال من نظام التربية في هذه المدرسة أن يخدم الصغار فيها من هم أكبر منهم سنا وأقدم في المدرسة عهداً . وكان الصغير الخادم عرضة لكل أنواع الاذى والاهانة من كباره . كان يمسح له أحذيته ويأمر بأمره في كل حاجة يملوه أن يأمره بها ، ثم كان هذا النظام يقتضى مع ذلك ألا يصبر أحد على اهانة زميل له إياه وأن يدفع القوة بالقوة والعدوان بالعدوان . ولذلك كانوا جميعاً يتقنون لعبة (البوكس) ليدفعوا عن أنفسهم وليردوا اعتداء المعتدى عليهم ، لكن هذا كله لم يرق الصبي شلي فلم يذعن له . لم يرض أن يكون خادماً ولم يرض أن يجعل حق القوة أساس خلقه . ليكن هو نظام

المدرسة الذى تابعته و تتبعه منذ أجيال ، فهو لا يؤمن بصلاحه ولا
باتقاده مع الخلق الفاضل والسكرامة الانسانية ، فلا يمكن أن يرضى
عنه وأذ يخضم له : لا يمكن أن يكون خادما ولا أن يخالط أولئك
الذين يقضون سحابة نهار ثم في ملائكة ومصارعة تقوى به اعضائهم
وابداهم على حساب عقولهم وأرواحهم . لذلك اعتزفهم وجاء الى
وحدة لم تزدهم له الا احتقاراً ، ولم تنجه من سخرية لهم وأذاتهم
واطمهم ولهم . لكن رقتهم لم تؤد به الى ضعف إيمانه وأنفشه ولم
تجعل منه ذلك الطفل المستذل الذى يخضم لسلطان الاقوى ويأتمر
بأمره . بل كان يقارضهم سخرية سخرية واحتقاراً باحتقار . وكان
يدفع عدوان أيديهم عليه بعدوان مثله ، وان يك عدواانا متفقا
مع هذه الانوثة في تكوينه . عدوان عض بالأسنان وهبس بالاظافر
بدل الملائكة بقبضته اليه مما كان يتورم له وجهه أحيانا . وهو لذلك
لم يكن يباديه العدوان ولا يتحكك بهم ، بل كان يتركهم في العابهم
ورياضتهم العنيفة ليأخذ هو كنبا محبة اليه مما وضع كتاب الثورة
في فرنسا وأنصارهم في انكلترا وما وضع جماعة اليونان القدمين ،
ثم ينطاق بها بين الاحراش والغياض حتى يصل الى حافة النهر حيث
يجلس فينسى نفسه في المتعاب عما في كتبه وبمشهد هذه الطبيعة الساحرة
حوله و بتأمله ايها والتفكير فيها . ولعل أشد ما تأثر به من قراءاته
كتاب وليم جودوين : (العدل السياسي) . وكان وليم جودوين
من أشد كتاب ذلك العصر تأثيراً بعبادىء الثورة الفرنسية ودعوهها
إلى الحرية المطلقة في التفكير ، وما ترتب على هذه الدعوة من خروج
على طائفة رجال الدين وتعاليمهم ومن المبالغة في ذلك الى انكار الدين

نفسه . على ان جودوين يختلف مع كتاب الثورة الفرنسية ورجالها
أشد الاختلاف فيما يتعلق بوسائل تحقيق الاصلاح الذى يريد ادخاله
على النظم وعلى قواعد الجماعة . فكان يرى العقل والمنطق وحدما
وسيلة الاصلاح ، وكان ينفر أشد التفوف ويطعن من الطعن على
الاتجاء للعنف ولوسائل القوة وضروب القسوة . ودفعه تفكيره
الحر هذا الى انكار أكثر القواعد التي تقوم عليها جمعية عصره .
دفعه الى انكار الملك الخاص الا بقدر حاجة الشخص له والطعن
الذلك على الثروات الواسعة . ودفعه الى انكار الزواج على انه نظام ،
لانه مناط فكراً الملك الخاص . وانتهى من تفكيره الى وجوب
اقامة الجماعة على أساس من العقل وحده ، والى القول بأن هذه
الأسس لو وضعت على صورة صحيحة زال ما يشكوا منه الناس من
بؤس وشقاء وجريدة ، وأصبحت العقوبة وصمة في جبين الإنسانية .
ولذلك كان لا يكتفيه أن يطلب الغاء عقوبة الاعدام ، بل كان يطلب
الغاء العقوبات جميعاً .

في هذه المبادئ التي وضعها جودوين كثير سبقه اليه روسو
وتأثر به أهل فرنسا ورجال الثورة فيها . على أن المبالغة هي التي
ادت بهم لينكرروا حتى الدين الطبيعي الذي دعا روسو اليه ول يجعلوا
الاخاد وسيلتهم الى حرية الفكر . واعمل ان التمسك تقسيراً لهذا
وجدته في تشتيت رجال الدين يومئذ بسلطانهم تشيناً كان يزداد كلما
شعروا بسلطتهم معرضة للنقض ثم الاصح حلال . على ان واحداً من
هؤلاء الذين دفعهم تعصب رجال الدين للمجاهرة بالاخاد لم يلبث
ان حاد الى نوع من الایمان فيه جمال وله جلال ، ودعا اليه عن يقين

وأقتناع لم يكن لرجال الدين حظ منها . ولقد تأثر شلي في الأيام الأولى من شبابه إلى بعد مدى بكتاب جدوين ورأى في نظم الجمعية السياسية والاجتماعية والدينية مالا يتفق مع حكم العقل ، واقتنع بأن مرجع هذا كله إلى تشتيت رجال الدين بأن يخلعوا على كل دقة وجليلة من نظام الجمعية ثوبا من القداسة يحول دون التفكير في معاجلته أو إدخال أي اصلاح عليه . أليس نظام الزواج قد طبع بعيسى الدين ؟ أليس عروش الملوك قد أحبيطت بسياح من القداسة الدينية ؟ أليس التملك والتوارث وكل ما هو من شؤون هذا العالم الدائم التغير والتطور قد سبب في قوالب الدين التي يقولون أنها لا تقبل التغير ولا التطور ؟ . لذلك مال شلي إلى ناحية الانكار على أنه الوسيلة لـ كل اصلاح مادام الانكار هو الوسيلة الوحيدة للحرية في التفكير والشعور والاعلام والآباء .

إلى جانب هذه المطالعات التي كانت تثير سخرية ابناء ايتون من شلي كانت طبيعته الحساسة الفياضة بالشعر وبما يلهم الشعر من اتعلق بما وراء الطبيعة تدفعه إلى دراسات أخرى جعلت زملاه في المدرسة يطلقون عليه لقب (المجنون شلي) . فقد كان يعني بالسحر والسموم ويعتقد في الجن والاطياف ويرى في الهواء والماء شيئاً فشيئاً وألهة كانت تحيا في خياله وتتصبح ذات كيان وجود ، لكثره مطالعاته في أساطير اليونان وتاريخهم . واتجه عقله متاراً بهذه الناحية من نواحي طبيعته يلتمس أسرار العلم ويريد أن يكشف عن مخبوء قوى الكهرباء والضوء . ولذلك كان شديد الولع بأن يكون لديه معمل كيميائي صغير يرضى طلعته العالمية والحرية .

على أنه كان كلاماً أزدادت في هذا الباب بمحونه ثبت لدى زملائه
جنونه ، فلم يستمع له أحد قوله ولم يرض أحد عن نظرياته الجريئة
في الحياة وفي الحب وفي الاصلاح الذي أولم هو به بعد الذي أفاد
من مطالعاته . بل كانت كل محاولة من جانبه لاقناعهم وأيده مشاركة
احتراك بينهم وبينه وسبباً لدكته ولطمته .

وزاده تحديهم إيماناً بضرورة اصلاح الجماعة وتغيير أسس
نظامها ومقومات حياتها . لكنهم لم يكونوا يسمعون لما يريد أن
يقوله لهم في هذا ب رغم أنه لم يفكر في كراهيتهم بسبب ما يصل إليه
من أذىهم وإن كان دائم التفكير في اصلاحهم ، برأساً بالانسانية وعطتها
عليها . فلما لم يجد منهم سبيلاً جعل من أخواته البنات ومن إبناته عممه
هارييت جروف تأميذاته في إجازاته المدرسية يلقى عليهن تعاليه
ويطالعن برسالته . ولقد كن بطبيعة الحال أئين من زملاء المدرسة
عربيكة وأساس قياداً . وكانت اليزابيث كبرى أخواته أشدهن إيماناً
به وتقديساً له وإعجاباً بكل ما يقوله . هو يرى الشرف الملكي والاغنياء
والقسس ، ويري الخير عند البوسائ والفلسفه . إذاً فالخير عند
هؤلاء والشر في أولئك . وهو يرى الزوج نظاماً تعسياً ، وإنما
يجب أن تقوم صلات الرجل والمرأة على أساس من الحب المقدس ،
فالزوج إذاً نظام تعس . وكم كانت شاعريته الوليدة تخليع على صور
الحب التي يقصها أمام الفتاةين من باهر الالوان مايسحرها عن كل
ماسوى الحب مما يقوله ويجعلهما تومنان به من غير بحث فيه .
أليسما يا فتاتين تتقدمان الى الصبا ويبدأ في دمها مسرى وغباءه ؟
والحب عنوان هذه الرغبات وطلائعها . وشلي شاب جميل حل

الحادي عذب النفس ، له من فوازع الصبا ما هما ويظير على أجنحة الحب مطارها . ولئن كانت ابنة عمّه هاريت ترى في حديثه عن الزواج واعتراضه عليه تجديفاً لا تميل اليه نفس الانى الحريصة على أن تجد من الجماعة كل حماية وعناء ، فلعل الحب الوليد الذي ينشأ بينها وبين شلي يكفل من بعده اعتماده ويدفعه ليعدل عن أوهام الاصلاح في نظام الاسرة المقدس على الزمان . وإن هولم يعدل من بعد فهي ماتزال بعيدة عن التفكير في الزواج وفي الارتباط به أو بغيره . يكفيها اليوم أن تخرج معه ومع أخيه وأن تسمع لعذب حديثه وحلو ترمه وأن ترى في نظراته وابتساماته لها ما يسليها عن نظريات يحمل بها أن تعتنقها لتزيده بها تعلقاً ولهابتساماً . وكانت اليزابيث تشعر في بعض الأحيان أن قد طال بها المقام وأن قد سمعت من نظريات أخيها واستسمعت من عطفه بما يكفيها بقية يومها فتقذره وابنته هما وحيدين يتبدلان نحو الموى وحلو حديث الغرام . ثم يعودان متخاصرين يسرى الى جسم كل منهما دفء جسم صاحبه .

وكانت أيام اجازته المدرسية تنقضى في هذه السعادة الكاملة ، فهو يدعوا الى مذهبه فتاين بديعتى التكوين والفتاتان تؤمنان به وتبادلانه حباً خالصاً : حب اخت ترى في أخيها نبوغاً تفخر به ويزيدها حباً له ، وحب فتاة تصبو الى ما يدفع الحب اليه كل فتاة وفتى من تخليص الحياة في أجيال وأجيال ، على أن يكون تخليداً ترضاه الجماعة وترعاه . فإذا انقضت الاجازة عاد الى ايتها مترفعاً

عن الساخرين منه مكتبا على قراءاته وبحوثه العلمية والسيمية متظراً
يوما يعود فيه الى تلميذته يخدمهما من جديد عن مذهب جودين
ويتحدث اليهما عما نكتب به رجال الدين الجماعة من أسس فاسدة.

وأتم دراسته بآيتون وذهب به أبوه في ١٨١٠
فألحقه باكسفورد . وفيها تعرف الى شاب من أمثاله اسمه جفرسون
هو ج دهش بعقله من تعارفها لكثرة مطالعات صاحبه ولعنائه
عنانية خاصة بالعلوم والميكانيكا . وقد زادته هذه العنانية دهشة حين
رأى في غرفة شلي من الانابيب والزجاجات ومولدات الكهرباء
ما جعلها عملاً عجيباً . لكن هذه العنانية لم تكن لتصرفه عن
مراجعة هيوم ولوك وفولتير وهو لباغ وعن مداومة الدراسة
في كتاب جودين . وكان من دواعي عجب هو ج أن يكون
لهؤلاء المتشتككة كل ما كان لهم من سلطان على ذهن صاحبه المتوجه
بطبعه الى ناحية التأملات الروحية . لكن عجيبة هذا لم يمنع اعجابه
بشيء الذي كان يخرج معه كل صباح يجوبان الاحرار فينطلق شلي
مرحاً يجري وينظر ويلاقى بنفسه مقتضها الماء اذا هو صادفته بحيرة
من البحيرات ليعود بعد رياضته هذه الى علمه والى تأملاته ، ويعود
كمذلك الى كتابة القصص والنشرات . فلقد بدأ مع ابنة عممه ومع
أخته قصة زاستروزى . وهذا هو يكتب قصة أخرى يجعل عنوانها
لها (القديسة اوفيني) يروى فيها شيئاً من تفكيراته . ثم هذا هو
كمذلك يضع نشرة يجعل عنوانها (المراجعة الى الامداد) ويوقعها
باسم جروميا ستكلى ويعمل لنشرها في كل مكان لينتهى بسبب ذلك

إلى طرده من أكسفورد وإلى هجره بيت أبيه وإلى ما كان بعد ذلك
من حياته المشردة .

وكان في وسعه أن يتوقع ماترقب على هذه النشرة من تأثير ،
بل لعله توقعها ولم يحصل بها ، أو لعل الدافع الذي أدى به لكتابته
هذه النشرة لم يكن مما يمكن دفعه أو مقاومته . فقد بعث الناشر
ستكديل إلى مستر تودي شلي خطاباً يخبره فيه بأن ابنه بعث له
بقصة القديسة أوفيني وأن فيها من الآراء مالاً يسيغه الجمهور وما
يبيعث الناس على القيامة ضده . فكتب مستر تودي للناشر بأنه غير
مستعد أن يدفع له شيئاً من نفقات الطبع والنشر . وانتظر حضور
ابنه في أجازة عيد الميلاد ، فلما حضر أفى الجو حوله متجمهاً وأفى
الناس من أهل هذه البلاد يتهمون بالحاده وبزورون عنه ويناؤن
بحاجتهم ، وتحدث إليه أبوه ساعياً أن يقنعه من طريق المناقشة فإذا
برمى أقوى منه حجة وأسطع برهاناً ، وإذا لا يقنع آخر الأمر
بأن يقول له في غضب : إنني أؤمن لأنني أؤمن . على أن غضب مستر
تودي وتهامس الناس وانصرافهم عن شلي لم يؤثر في نفسه ولا
دعاه إلى التفكير في أمرهم . لكنما أثر في نفسه وبلغ منها وأثار
حزماً ما كان من أبناء عممه هارييت . فهو لم يكن يشك في عمق
ما بينهما من حب عميقاً وصل إلى شغاف القلب ، فليس يستطيع أمر
من أمور الحياة أن يغير أحددهما على صاحبه أو أن يعدل بهما عمما
تفاهمت نظائرهما عليه من تقاسم الحياة والاشتراك في ورد
ما فيهما من جمال وسعادة . لكنه مالبث بعد عودته أن تحدث
إلى أخته إليزابيث ، التي ظلت وحدها صادقة الود له ، وسألها

عن هاريت وشأنها حتى تولاه الجزع حين سمع منها أنها انصرفت عنه كما انصرف عن غيرها، وأن جبها تطايرت جذوته حين علمت أن أهلاها والمحظيين بها لا يرون زواجها من هذا الذي جنت من قبل به وجن بها. وعيثا ذهب شلي وقابل هاريت وحاول اقناعها ، فقد ألفاها أشد حرصا على المتعاب بنعيم الجمعية من ملبس وحلي ورقص ، منها على الأفكار التي يسبح هو في سماء اهتماموها أنه يسعد العالم باقناعه بها . وألفاها أشد حرصا على علاقتها بأبيها علاقه اطمانت لها منذ ولدتها منها على صلتها بشاب لا تدرى ما عسى أن يكون المستقبل معه .

تولى شلي الجزع ، فكتب باكيًا ثائراً إلى صديقه هو ج خطاباً يذكر له فيه أنها لم تبق له وأنها انقلب تكرهه لأنها متشكك كما كانت هي من قبل متأثرة بتعاليه ، ويعلن ثورته على التعصب ويقسم أنه لن يغفو عنه ، ويعلن أنه ، وإن لم يكن يقر الانتقام فهو يرى الانتقام من التعصب عدلاً بل واجباً ، وأنه سيكترس كل لحظة من حياته لحاربته ، لأن التعصب هو الذي يهدم الجمعية ويشجع العقائد الفاسدة التي تحطم أقدس الصلات وأرقها وأعزها . وله عن ثورته هذه العذر أنه لم يكن يتوقع أن تحطم تعاليم الدين أشرف عاطفة وأسماءها ، وأن تستل من بين الجوانح حبأً قاتماً على التفاصيل وحسن ادراك الحياة والتوجيه إلى ما فيه من جمال العبادة والتسبيح بحمده . وكيف كان له أن يتوقع هذا وقد كان يرى في الحب عاطفة قدسية تسمى بالنفس إلى ما فوق منافع الحياة ومطامعها وتحلق بها في أجواء أثيرية تشهد منها بداعم هذا الخلق جيئاً متجلياً فيما يقع عليه الحسن من صور جماله . والحق

أن الحب عند شلي كان له معنى أعمى بكثير من معناه عند غيره .
هو لم يكن يرى فيه مجرد رابطة تفعية وشركة للتعاون على حمل عبء
الحياة ، بل كان يريده امتزاجا روحيا لاستشفاف ما حولنا من مجال
هو مصدر الحياة ، وشركة في حب هذا المجال في متبادر صوره
و مختلف ألوانه . ولعل أجمل ما يستطيع إنسان أن يعبر به عن هذا
المعنى ما عبر هو به في قصيدة (أيبسيشيديون) حيث يقول ماتر جته :
«لم أصل قط يوما بهذه الطائفة الكبيرة التي يجب مذهبها على الفرد
أن يختار من بين الجماعة كلها رفيقة أو صديقاً وأن يلقى بالباقيين ،
وان يك لهم ماهيم من مجال وحكمة ، في جود النسيان ... فالحب
الصادق مختلف عن الذهب والتراب في أنك كلما شاطرتهما أخذت
منهما وأنقصتهما ، على حين هو يشترك مع الفهم الذي يزداد بريقاً كلما
ازدادت الحقائق التي ينبعث نظره إليها . وهو كالمخيل يستمد فوره
من الأرض والسماء ومن أعماق أهواه الإنسان ومن ألف مرآة
وألف ضلع ، ثم يلاً الوجود بالأشعة الباهرة يقتل بها جرثومة الخطأ
بما يسلط عليها ضياؤه من سهام كأنها أشعة الشمس . وياضيق قلب
ينحصر حبه ، وعقل يقف تفكيره ، وحياة تنتهي غايتها ، وذهن
يقف خلقه عندishi واحد ، وصورة واحدة ، يبني لذلك بها قبر خلده ».

إذا فالدين والعقيدة الاجتماعية والنظام الذي يحصرنا في دائرة
هذا الحب الواحد والتفكير الواحد والغاية الواحدة والخلق الواحد ،
يبني لنا قبر خلدى ، وهو لذلك يفسد أمر الجماعة ويقضى على خير
ما فيه من عواطف وأسمى ما فيه من إلهام . فعلى الدين أو قوا ما أؤتي شلى

من هبة أن يقوموا في وجه هذا الضيق في القلب والعقل والذهن
وأن يصلوها من حربهم فاراً حامية.

وعاد شلي إلى اكسفورد كئيب النفس حزين الفؤاد ثأر القلب
والعقل معتزماً أن يشن الغارة على التعصب وأن يفسح الطريق للتسامح
والحب والمغفرة والجمال . وكان أول ماصنع من هذا أن أذاع نشرته
(الحاجة إلى الاخاء) موقعاً إياها باسم غير اسمه وموزوا لها على كل
من ضيق التعصب دائرة قلبه وعقله . فقد بعث بها إلى رجال الدين
وإلى المعلمين وإلى المشتغلين بالسياسة ، ثم عرضها في مكتبة باكسفورد
لم تثبت أن اعتذر عن عرضها لا ولما احتاج أحد رجال الدين
عليها . وقد افتتح هذه الرسالة بقوله « الحسن أساس كل معرفة » ،
وسار فيها بهجة ملهمة يطعن كل قيود الدين ويحطمها . وأبلغت
الجامعة أن شلي هو ناشرها ، فسألته فأبى أن يجيب فقررت فصله .
واحتاج صديقه هو ج على هذا التصرف من إدارة اكسفورد ، فتقرب
فصله هو أيضاً . وترك الصديقان الجامعة عائدين إلى لندن منتظرتين
فيها تطور الحوادث وتصاريف الزمان ، مكتفين فيها بغرفة اعتبرها
شلي مأواها الآخر .

ولما علم مستر تودي شلي بفصل ابنه من اكسفورد ثار ثأره
وأستشاط غيظاً وبعث له برسالة يخبره فيها أنه لن يمدّه بمعونة أو
مدد إلا إذا هو رجع إلى فيلد بلليس وتقى فيها الدروس على من
يختارهم هو له من الأساتذة . فرد شلي على أبيه يرفض في أدب
شروطه . ولم يقنع الآب بهذا الرفض فذهب إلى لندن وقابل
برسي وصاحبها هو ج وحاول إقناعهما بالحجية ليعدل شلي عما كتب

في رسالته عن الأحاديث . ومع ماسلكه من طرق التلطف والمجاملة فقد لقى في ابنه صخرة لا تزحزح وألفى فيه إباء وقوة عزيمة لم يستطع التغلب عليهما ، فتركه مائداً إلى فيلد بليس من غير أن يعطيه درهماً . ولعله كان يرجو أن تضطر الحاجة الابن إلى ابيه فينتهى إلى الأذعان . أو لعله كان أشد حرصاً على سمعته منه على فتاه . وعلى أي الحالين فقد ظل شلي مصراً على رأيه مرتقاً عن أن ينزل عنه مستخفًا بما يتهده من ضيق ذات اليد، فما كان المال ليوازي عنده يوماً شيئاً إذا هو تعارض مع ايمانه برأيه . وبقي معه هوج أيام في لندن ثم غادرها إطاعة لأبيه الذي ألح عليه بمكتب محام يتعلم الحقوق فيه . وأقام شلي من بعده في العاصمة الانجليزية وحيلاً ليواجه الحياة وزعازعها وليستعد لنضال الجماعة التي اضطرته إلى هزّاته ، مؤمناً بأنه سينتهي إلى الظفر بها والتغلب عليها .

— ٢ —

أقام شلي في العاصمة الانكليزية وهو أقل تمالاً لاختلافه مع أبيه ولمغادرته الجامعة وانقطاعه عن الدراسة المنتظمة منه لتنكر إبنته عمه هارييت جروف له واذرأتها حبه وانفصالها عنه . لذلك كان أكثر تفكيراً في هذا الحب المحموم منه فيما يقيم به أود حياته . وفيم عسى يفكر من شؤون العيش وقد كان قائمًا بما دون الكفاف حتى لتكتفيه بضعة بنسات طعام يومه . فأمامهاته التي عقت الحب وعقدت آراء جدون وعقدت المبادئ السامية جميعاً ، فهي اللغز الذي يجب العناية ، وهي الداء الذي يتطلب للبرء منه علاجاً حاسماً . وأكب يقلب هذه المسألة على مختلف وجهاتها حتى خيل إليه

يوما انه عثر في حجة منطقية على الدواء الناجم لها والخل الصريح
للغزها . هو لم يكن يحب من هاريت جسمها ولا كان يقف اعجابه
عند جمالها . بل لئن أعجب بمحسنهما على انه بعض صور الجمال الذى
فرينت به الطبيعة الوجود ، فاما كان حبه منصبا كله على سمو ذهنها
لا دراك نظراته ونظريات جدون في الحياة ونظمها والتسلامي
وضرورته والحرية وتقديسها والجمال وعبادته . وهذا هو ذهنها
قد فتر عن ادراك ذلك كله وهبط الى مستوى الادهان العامة
وأصبح شيئا آخر غير جدير بأى حب أو تقدير . فاذا بقى بعد
ذلك منها جديرا بالحب أو دافعا للتشبث بها والحرص عليها ؟ أو لو
عشق انسان في فتاة جمالها تراه عاشقا الدود الذى يحول اليه جسمها
بعد انتقالها الى قبرها ! . وقد دفن من هاريت ذلك الذهن الوضاء
المرتفع الى مراقي ذروة التفكير والذى اتصل من قبل بذهن شلي
وروحه ، وقد اندست الى قبره ديدان الاوهام والباطيل . فلينس
شلي هذه العادة اذا وليس كها في سلك البائيات الحقائق بعطفه
ورحمته .. لكن .. ! لكن هذه الحجة القاطعة التى أرضاها عقل
شلي لم تطفيء في قلبه جذوة زادها عقوق البائسة ضراما . ولعل
مرجع السبب في هذا الى غدر هاريت لما كان يرجو في صحبتها من
تعاون على محاربة الاوهام المفسدة المندسة الى نفس الجماعة اكثرا
مما يرجم الى شيء آخر . فالصحيح أنه لم تكن بينه وبينها صلة
حب على نحو ما يفهم هو الحب . ولذلك لم يطل في قلبه لاعج الهم
ولا ظلت جذوته مستعرة الا ريثما وجد في هاريت أخرى ، لا تقل
عن الاولى جمالا ولا ذكاء ، ذلك الاستعداد للسمو معه في سماوات الجمال

واللحاد والتسامح وكل ما دعا كتاب الثورة الفرنسية وتابعهم
جدوين في الدعوة اليه.

ففقد كانت أخواه البنات يتعلمن في مدرسة للبنات بجى
كلابهام ، وكانت رسيدتهن هلن شلى تتناول من آخرها الكبرى
الليزابيث رسائل تبعث فيها بما لديها من تقدى تعطيه هلن برسى
لتعوضه بعض الشيء عن إهمال أبيه إيه . وكان برسى يذهب الى
مدرسة البنات هذه يحمل بعض المهدايا لا أخواته لأنها كان يأبى أن
يستائز بما تبعث بهاليه أخته . وما لبث ان تعرف الى بنات المدرسة
حتى بدأ يفكر في اقناعهن برأيه وحملهن على اعتناق نظرياته ومبادئه .
وكانت هاريت وستبروك من أكثر أولئك الفتيات رقة وأحلاهن
ابتسمة وأغردهن صوتاً، وكان جمالها يضى عمزاناً بشعرها الذهبي
وخدودها المتردة وشياطها الضاحك الى ورود ربيعه ، وكانت ،
على أنها في السادسة عشرة من عمرها ، صغيرة القد طفلاً النظرة
يفيض المرح من وجودها كله ويضوع منها سرور طرب يجعل كل
ما حولها طروباً ضحوكاً . وقد أتقنت القراءة والالقاء فزادت عذوبة
صوتها وتغيريده حياة وروحها . وعنى أبوها مستروليم وستبروك بان
يجعل منها ضريبة لبنات النبلاء ليجزى الحظ بذلك عمما كان هو
مفتوح حياته حين كان يعمل في الفنادق . لذلك كانت شديدة الحرث
على الاتصال بينات النبلاء زميلاتها في المدرسة ، وكانت أشد بأخوات
شلى اتصالاً . فلما رأت الشاب النبيل الجميل برسى يتردد على أخواته
وقد من نفسها وتودت اليه وأظهرت أساها لالحاده وحاولت أن
قصده عنه وأن تقنعه بعشل إيمانها وإيمان الجمعية كلها . لكنه لم بالغت

أن اتصلت به حتى تأثرت بروحه وحتى رأت فيما يدعوه اليه بهاء
وجمالا لا شيء مثلكما أو يقاربها في تعاليم الكنيسة ورجال الدين.
فالمجربة الاثيرية الاجنبية الطائرة في فضاء طلاق تسحب منه في مجال
الوجودناهله ورد كل ما فيه من صور هذا الجمال الذي يحمل اليها
شذى الحب وعيقه فيما يهمها قلب المستمتع بنعيمها من غير ان يشققها
بقيدهن زواج او من تملك أو توارث، ومن غير أن يرهقها بالقوانين أو
التكليف، هذه صورة جذابة ليس لها في حفظها من تعاليم الدين نظير،
الآن يكون ذلك في العالم الآخر وبعد انتقالنا من هذه الحياة التي نحس بها
ونلمسها . ولو أتنا تابعنا شلي لا سقطنا أن ننعم بها في الحياة نعيم
المؤمنين بها بعد الموت . فما لهذا العصفور الجميل هاريته والتفكير
في الموت ، وما لهاوا كراها خيالها على اقتحام صورة الموت المرعبة
إلى ما بعدها لترى ما يخيلون لها من نعيم وهناء وجمال ؟ ما لهذا
العصفور وهذا الاجهاد مادام رسول الجمال والحب شلي يضيع له
الجنة في يديه ، جنة لا تقف حدودها عندما يزين من تعاليم ويصدق
من صور وآراء ، بل تبدو حقيقة ملموسة في مجال صورته ، وفي نبله
وثراته الواسعة وعدوبه نفسه وطيبة قلبه وحبه الإنسانية كلها
حباً جماً ؟ أو ليس خيراً لها أن ترفعها هذه الأيدي الرقيقة المحنون ،
أيدي شلي ، إلى جنات الحب ونعيمه ، من أن ينشب الفناء فيها أظافره
السوداء لينقلها بعد ذلك إلى جنات النعيم ؟ لذلك ما لبست أن آمنت
بكل ما يقول وأن أصبحت مثله تلميذه جدوين ولم أخذ عنهم
جدوين حتى أفلاطون ، وأصبحت لا تجد سعادة في لحظة أكثر
من تلك التي ترى فيها شلي في المدرسة أو التي تذهب له فيها بيته

في شارع بولونيا تحمل اليه ما تعطيها أخته هلن من مال . فقد كانت هلن تبيت بالمدرسة ولا تستطيع الخروج منها في حين كانت هارييت تذهب كل يوم الى بيت أبيها فتجد الفرصة للمرور بصدقها ووليهما وأستاذها ومحبوبها .

وكان هارييت أخت متقدمة في السن الى ما فوق الثلاثين اسمها اليزا ، تقوم منها مقام أمها المتوفاة . وقد سرها ما عرفت من صلة هارييت بشلي ، كما سر بذلك أبوها واعتبره خطوة أولى يرق بها الى مصاف النبلاء . لذلك لم يسوه يوماً صرحت فيه هارييت أن دعت اليزا بشلي الى مخدع نوم أختها وأن جلس عند أقدامها الى ما بعد منتصف الليل . وكان من أثر جلوسها اليها أن برأت من صرضاها وأن عادت اليوم التالي الى صحتها والى تغريدها وأن تزايد من بعد ذلك وجدتها به حتى صار هياماً وتدهماً . لكن شلي لم يكن ينظر اليها نظرتها اليه . بل كان يرى فيها حياة الروح وسمو الذهن الى الاقتناع بأرائه ومبادئه مما يعزيه عن روح ابنة عممه هارييت جروف التي دفنت في قبر الا باطيل ونخر فيها سوس الاوهام . كان يرى فيها ضياءً جديداً غير هذا النور الذي خبا ، وشريكه فيما يسميه هو الـ الحادف حين هو الايمان بالعدل والحق والجمال . واذا هي لم تكون من طائفة النبلاء فلعل في تحررها من قيود هذه الطائفة ما يكفل بقاءها على عقیدتها الجديدة وثباتها في إيمانها الذي أواحاه هو اليها . وما أجمله ايماناً يتخلّى به رأس جميل كله الحياة وكله الحبّة وكله العواطف المتأججة .

واطأنت نفس شلي انى تلميذته والى الحياة وعاوده الرجاء في

صلاح الانسانية كلها ، وان كانت هذه الصلة قد أدت الى فصلها من المدرسة كما فصل هو من اكسفورد من قبل . وزادته طأ نينته هذه شوقا الى أخته اليزابيث أشد من عرف من تلاميذه إيمانا به وحبآ لله . وفيما كان يفكر في الطريقة التي يعود بها الى فيلد بلاس صر خاله الكبتن بلفلد بلندن وتقابل وإياه . وكان الكبتن رجلا كثير التجوال في مختلف أنحاء العالم ، فكان لذلك واسع الصدر متساما لا يطيق أن يفهم كيف يؤدي اختلاف أب وابنه في الرأي الى تعصب الاب وتصميمه على أن يميت ابنه جوعا . فأخذ شلي معه الى دارد بكفلد ليعيد الصلة المقطوعة وليكفل لابن عيشه . وكانت في كفلد صربية هي مس هتشتر رومانية الجمال تتخطى في طأ نينية الى الثلاثين من عمرها وتدين بالمبادئ الحرة ولكنها تؤمن بالله . فأخذ الشاب نفسه بأن يشفيها مما سماه « هذا المرض » وقبلت هي أن تتلمذ له ، مدفوعة أغلب الامر بسحر جماله وعدوته روحه أكثرا من اقتناعها بأ رائه وميادئه . واستعان الكبتن بلفلد الدوق نورذلك على التوفيق بين شلي وأبيه . فلم يحتاج المستر تموذى لا كثرا من كلمة الدوق كي يعود برسى الى أهله وكى يرى أخته اليزابيث . وارتضى الاب أن يرتب لابنه مائتي جنيه سنويلا لا يقيدها شرطولا يؤثر ترتيمها في حرية شلي بأية صورة من الصور .

ولقد فاضت السعادة بشلي أثناء سيره من بيت خاله ليت أبيه لغير شيء الا اطفاء شوقه لا لليزابيث . لكنه لم يلبث الا قليلا بعد ما رآها حتى بدت وعلاه الذهول : هل هذه هي اليزابيث التي يعرفها ؟ لقد كانت تؤمن بآيمانا وتدين بعبادته . وكانت عونه على هاريت

جروف حين تنكرت له وعقدت مبادئه وعادت الى مثل أوهام العامة وعقائدها . فكيف بها هي الاخرى تفعل فعلة هاريت وتثور به ومبادئه وتحعمل كل همها أن تجبر الطرف فيمن حولها من الشبان وأكبر رجائها أن تجد منهم زوجا صالحا ؟ أفترى أولئك الفتيات وبنات جنسهن جميعاً ضعيفات غاية الضياع متى تحركت الامومة في أحشائهم حتى ينزلن خاضعات لسلطانها عن كل شخصياتهن ، ويتجهن بوجودهن كله تلبية لرغبات هذه الغريرة فيهن باحثات في أقرب ما يجاورهن عن مستقبل وادع مطمئن للنساء الذي تحمل أرحامهن ؟ وهل ينسين ساعة بحثهن هذا كل ما يسمونه الحب من معان وما يطمئن الحب اليه راضيا من تضحيات في سبيل تحقيق هذه المعانى ؟ إلا تعسالنظام الجمعية الزائف القائم على الكذب والوهم المدعوم بالقسوة والدماء ! فهو الذي يقضي على أذهان بنات حواء هذا القضاء النهاري .

وعيناً حاول شلي أن يعيد اليزابيث الى حظيرته العليا وأن يردها كى تكسر النفس على صور من السموم لا يطيقها إلا الموهوبون الذين أرسلتهم الأقدار للرق بالانسانية درجات جديدة في سبيل السُّكال، وجعلت من جهادهم في سبيل رسالتهم لذلة عيشهم وسعادة حياتهم . لقد ذاقت الفتاة ماتقدمه الجمعية من صنوف المتعاع وما تقتضى منه إذعان بذاتها للسطاق الذى ترى فيه الخفيظ على كيانها . لقد ذاقت هذا المتعاع المادي القريب الى متناول اليد، وهاهي ترى في الامومة صوراً أخرى من المتعاع لاسبيل لها الى نيلها الاندماج في قطيع الجماعة وتقديس أوهامه وترهاته . أفتتأي

بجانبها عن هذا المتع لتفق من الجماعة موقف أخيها وتنظر إليها العيون
شزرا وليس مع القانون متابعتها عواطف قلبها عهراً؟ كلا! ولئن كان
شلي أخاً صادق الأخوة، فأول واجبه أن يبعث لأخته عن زوج
نبيل غنى جميل تستكمل به كل مافي مادة الحياة من متع و تؤدي به
لامومة واجبها.

ويئس شلي من أخته كما يئس من قبل من ابنة عمها ، فلم تبق له
لذة في مقامه بين أهله . وجاءته دعوة من هوج كي يذهب إليه في
يورك ، وأخرى من فتاتي وستبروك وثالثة من خاله الكبن بنفولد ،
ولكنه تردد في قبولها جميعاً ثم فضل عليها دعوة أحد أقاربه إلى بلاد
الغال على شاطئ البحر ، أملاً أن يجد من مجال طبيعة تلك البلاد ومن
تضالطم الموج والصخر ما يسكن ثورة نفسه وما يبعث إلى قلبه
السلوان عن مصابه في ذهن أخته . وفي مقره الجديد نصب
نفسه رسولاً يدعو إلى الحرية والحق والتسامح ، في رسائل
كانت تستنفذ أكثر وقته يكتبهما إلى هاريت وستبروك وإلى مس
هتشنر وإلى هوج وإلى غير هؤلاء من يائس فيهم ميلاً إلى الرقى
نحو السكمال . ولم يطأ به المقام في عزلته الجميلة حتى تسلم رسالة
من هاريت تذكر له فيها أن أباها يريد أن يعود بها إلى المدرسة
التي فصلت منها ويطلب إليها أن تنكر تعليم شلي كي ترضى ناظرة
المدرسة عن رجوعها ، وأنها اعترضت أن تنتحر كي لا تأتي ما يريدونها
عليه . فرد شلي عليها يسكن من روعها وبعث إلى أبيها يوممه لما
يمحاول من اكراه الفتاة عليه . وغضب أبوها لتصرف هذا الشاب
الذى كان راضياً من قبل عنه مغضياً عن تعاليه حين كان يحسب أنه

سيتزوج ابنته ثم اذا به كغيره من أبناء النبلاء يغرون الجميلات من بنات الطبقات الأخرى ثم ينأون عنهن ازدراء لمنتهن . ولم تطأع هاريت أباها على أن يكون ذلك شأن شلي ، فكتبت اليه من جديد تشكو ، وذكرت له أنها ، متأثرة بخطابه ، عدلات عن فكرة الانتيحرار ، ولكنها تزيد الفرار معه . فترك الغال حين تسلم رسالتها وذهب إلى لندرة كي يحاول اقناع أبيها بأن لا حق له في راه ابنته على غير ماتريد ، أملاً أن تبقى الفتاة في رعاية مستر وستبروك مع بقائهما مؤمنة بالحياة الجديدة التي اختار هو لها سبيلها . فلما رأته الفتاة تعلقت به وألحت عليه كي يفرا معًا ليقيما حيث يشاء . وحاول هو أن يردها عن دأبها فكان جوابها : لكنني أحبك ولا صبر لي على بعدك .

هنا وجہ شلي . وزاده وجوما المہجۃ الصادقة القویة الملمحیة التي اعترفت الفتاة فيها بمحبها إیاہ . لكنه هو لم يحب منها عذوبة صوتها ولا جمال تسکونیتها وإنما أحب منها سمو ذهنها وجمال روحها ! على أنه اهتز مع هذا لاعترافها ، وشعر معه بسموها على ابنة عممه وعلى أخته . إنها تحبه وتريد الفرار معه من درية أوهام الجماعة وعقائدها مستعدة للاشتراك معه في نضالها هدايتها واصلاحها . فلم يستطع في تداول نفسه بين اهتزازها إعجاباً بهذا الاعتراف ، وشعورها بأن ليس يشغلها هذا الحب الذي تزيد الفتاة أن يبادلها مثله ، الا أن يملس على شعرها وأن يسكن من روتها وأن يعدها بصدق اخلاصه لها وأنه سيكون الى جوارها عند أول نداء يصله منها . وكفى الفتاة أن تسمع منه هذه الكلمة ليزول عن وجهها

شحوب جاءته به أيمان أقسامها أبوها بأن شلى ضل بها وأنه لا يحبها،
وليعود إلى لونها تورده والى وجودها شبابه وفرحة .
وكتب شلى يقص على هو ج محدث . فأجابه صديقه ناصحاً
إيه ألا يفر بالفتاة إلا أن يتزوجها . وإذا كان لا يؤمن بالزواج
ويرى فيه نظاماً تعسّاً ، فليس من حقه لذلك أن يشقى فتاة تحبه .
فلن تصيبه هو من هذا الفرار خسارة ولن يناله منه أذى . أما هي
فستكون ان لم تتزوجه منظوراً إليها بعين الازداء حيث سارت ،
مغضوباً عليها من أيها ، محرومة من عطفه ومعونته ، شاعرة لذلك
بالم قد يجني في نفسها الطفلة على حبها إيه . فإذا كان شلى ليتفند
مبادئه وتعاليه ولينفصل حين ذلك عنها ، فماذا يكون أمرها وأيان
يكون مصيرها ؟ أفالاً يكون بهذا مسلماً إليها للتعس والشقاء وتكون
ال تعاليم التي يريد بها سعادة الإنسانية مؤدية بالفتاة إلى البؤس والسقوط
لغير ذنب الأئها أحبتها ؟ . . .

وصدمت شلى قوة حجيج صاحبه فتراجع أمامها وتردد
في وعده الفتاة أن يكون إلى جانبها لأول ما تدعوه إليها .
لكن الفتاة لم تمهله في تردد بل بعثت إليه بعد أسبوع من
تركه إليها تدعوه إليها . ولم تطل في نفسها المعركة بين المبدأ
والواجب . فذهب إليها مذعنًا للواجب معترضاً أن يفر بها وأن
يتزوجها تاركاً بين يدي القدر ما يؤول إليه أمرها من بعد .
وغادرها عاصمة إنكلترا صدرين عاصمة آيقوسيا وقضى في سياحتهما
أياماً شعر شلى خلالها بحياة جديدة تسرى إلى قلبه وعاطفة حلوة
تتحرك بين جوانحه . لقد فر عصيوره معه طائراً عن العش الابوي

جَبَّا لَهُ وَغَرَامًا بِهِ، قَلْمِيكَ حَدِيشَهَا مَعَهُ عَنِ الْحُبِّ هَذَا الْحَدِيثُ الْقَدِيمُ يُسَمُّونَ فِيهِ إِلَى التَّفْكِيرِ فِي الْمَعْانِي الَّتِي يُرِيدُهُ أَنْ يُحِيطَ الْحُبَّ بِهَا،
بَلْ أَصْبَحَ حَدِيثُ غَرَامَهَا هِيَ وَتَدْهُرَهَا، وَأَصْبَحَ حَدِيثًا دَلَالَةً لِالْأَلْفَاظِ
فِيهِ دُونَ دَلَالَةِ النَّظَرَاتِ وَالبَسْمَاتِ وَالْقَبَّلَاتِ . هَاهِي تَسْتِيقَظُ إِلَى
جَابِهِ فَإِذَا عَيُونُهَا إِلَيْهِ مَعْسُولَةً نَدِيَّةَ النَّظَرَةِ كَاهِ الشَّوْقِ وَالْهُوَى،
وَإِذَا أَذْرَعَهَا طَوْقَ عَنْقِهِ وَأَصْبَعَهَا تَعْبَثُ بِشَعْرِهِ وَقَدْهَا الصَّغِيرُ يَجْتَمِعُ
كُلُّ مَا فِيهِ مِنْ حَيَاةٍ صَاعِدًا إِلَى قَلْبِهَا كَمَا يَبْعُثُ بِهَا إِلَى فَهْرَا فَتَطْبِعُهَا
عَلَى فَهْرِهِ قَبْلَةً فِيهَا كُلُّ قَلْبِهَا وَكُلُّ حَيَاةِهَا وَكُلُّ حَبْهَا . وَهَا هِيَ النَّهَارُ
كَاهِ تَشْدُو إِلَيْهِ بِأَغْارِيَدِ حَبْهَا وَهُوَ اهَا، ثُمَّ هَا هِيَ اللَّيلُ طَوْقَ ثَغْرِهَا
ابْتِسَامَةُ السَّعَادَةِ وَيَمْفُو إِلَى أَذْنِهِ تَرْدَادُهَا لَاسِهِ حِينَ أَحْلَامَهَا بِهَنَاءِهَا
وَنَعِيمَهَا . لَذَلِكَ لَمْ يَكُادَا يَصْلَانَ إِلَى أَدْنِيرَجِ وَيَخْتَارَانَ فِيهَا مَسْكَنًا
حَتَّى أَتَمَا زَوْاجَهُمْنَاهَا وَمَلَكَهُ إِيَاهَا . وَكَذَلِكَ قَضَيَا أَيَامًا نَسِيَ فِيهَا
شَلِيَ نَفْسَهُ وَرَسَالَتَهُ وَاسْتَسِلَمَ فِيهَا بِكُلِّهِ إِلَى الْمَتَاعِ بِحُبِّ هَارِيتِ جَبَّا
بَعْثَ إِلَى كُلِّ مَا يَحِيطُ بِهَا مِنْ بَحْرٍ وَشَجَرٍ وَجَبَلٍ وَزَهْرَشَدِيِّ جَعْلَهَا
تَضَوْعَ بَرِيجَ الْحُبِّ هِيَ الْأُخْرَى وَتَزْدَادُ عَلَى جَاهَلَهَا جَمَالًا وَسِحْرًا .

ثُمَّ آتَ لَشْلِيَ أَنْ يَعُودَ إِلَى تَأْمَلَاتِهِ وَتَفْكِيرِهِ، فَإِذَا هَارِيتُ فِي
شَغْلِ عَنْهَا بِحُبِّهَا لَهُ وَعِبَادَتِهِ إِيَاهَا . فَإِنَّهِ شَارِكَتْ فِيهَا كَانَتْ صَدِيقَيِّ
لَهِ يَرِدُ إِلَيْهِ تَأْمَلَاتَهُ هُوَ فِي صَوْتِ عَذْبٍ وَحَدِيثِ حَلْوٍ . لَذَلِكَ وَدَ
شَلِيَ، مَعَ اطْمَئْنَانِهِ لِعَزْلَتِهِمَا وَسَعْادَتِهِ بِحُبِّهِمَا، لَوْ أَنْ صَدِيقَهُ هُوَ جَوْ
كَانَ مَعَهُمَا . وَكَأَنَّمَا كَانَتِ الْأَقْدَارُ فِي هَذَا طَوْعَ رَجَائِهِ . فَلَمْ تَكُنِ الْأَ
أَسَابِعُ بَعْدَ عُودَتِهِ إِلَى التَّأْمَلِ وَالتَّفْكِيرِ حَتَّى جَاءَ هُوَجُ فِي اِجَازَةِ لَهِ

يقضيها عند صديقه . وقد بهرته روعة جمال هارييت الى حد كادمه
يعل حديث شلي وبحوثه ونظرياته . وسر شلي بأن أتاحت له ضيافة
هوج خروج هارييت معه للنزهة وتركه هو لقراءته وتأملاته . فلما
آن هوج أن يعود الى يورك اقترح عليهما أن يذهبا وإياه لها .
وسافر ثلاثة لهم فلم يجد شلي في يورك جمالا يغذى روحه الدائمة
الظماء للجمال . وزاده لها أن لم يصله من أبيه المال الذي اتفق
عليه أن يبعث له به . فسافر الى كنفلا ليري حاله السجين بلقالد وترك
زوجه في حمایة صديقه الى أن يبعث اليها بأختها . ولم يملك هوج
نفسه من أن يذكر هارييت أنه يحبها . فقصدته الفتاة عندها وقاومت
شحومها يوما واحدا ، أن حضرت أختها في اليوم الثاني خالت
بيتها . ولما جاء شلي وأخبرته بخبر هوج لم يزد على أن
لام صديقه على سوء صنيعه ، ثم غادر المنزل مسافراً ومعه زوجه
وأختها اللتان رأتا في صنيع هوج ما لا يمكن معه احتمال مرآه .
وعاد هوج من مكتب المحامي الذي يشتغل في رعايته فألفي المنزل
خلاء وإن لم يخبره بالسفر أحد .

واختار شلي الذهاب الى منطقة البحيرات إذ كان يقطنها
الشاعران الكبيران سوذى وكولدرج . وكان شلي قد بدأ يقرض
الشعر ، فهو يطمع في مثل عظمتهم ويرجو أن يكون من شعراء
منطقةهما . ولما كان دوق نورفالك يتيم كذلك في هذه المنطقة ،
وعلم بمجيء شلي اليها ، فقد كتب يدعوه وزوجته الى قصره .
ووهناك عرف صديقاً لسوذى ذهب به الى بيت الشاعر الذي كان
يحمل من نفس شلي أسمى مكانة وأرفعها . لكن شلي لم يلبث أن

توالته الدهشة حين ألقى زوجة سوذى أبعد ماتكون عن إلهام
الشعر وإن كانت ربة دار مضربا للمثل . وما دار بينه وبين سوذى
الحديث، بہت مما سمع . فسوذى ، هذا الشاعر الفحل ، يقول إنه
متدين وأنه مسيحي ! وهو يحب المال ويطمع في كسبه ! وهو
يعيش كأعيش الناس ويفكر تفكيرهم ! أليس هذا عجباً ؟ ثم ماذا ؟
ثم عثر في مجلة على مقال لسوذى يصف فيه ملك إنكلترا بأنه خير
ملك جلس على عرش . وعلم أن سوذى يقصد من هذا إلى أن يخلص
عليه الملك ألقابه . فإذا فهو رجل يسخر بضميره لمطامعه ولا يرجو
من الحياة إلا ما يطفي ظهار نعيم المادة . فإذا هو لا يستحق احتراما
ولا تقديرأ . ليكن له من ملائكة الشعر ماله ، فلن توحى ملائكة أيا
 تكون باحترام صاحبها إذا نزل بأخلاقه وبعمله في الحياة إلى
 المستوى الوضيع الذي لا يطمع الناس منه إلا في كاذب الجاه وفي
 اكتناف المال .

أما سوذى فعجب لأمر شلي وصلاحته في رأيه وإن لم ير في
 ثورته بالدين إلا مرحلة من مراحل التفكير يمر بها الشباب الذي
 جميعاً لم يعودون إلى نوع من الإيمان له روعته وجلاله . بل لقد
 كان شديد الاقتناع بأن سيكون ذلك شأن شلي ، لأن نفسه نفس
 شاعر ، ونفس الشاعر لا تطبق الأخلاق وما يصور الأخلاق من عدم .
 ولأن نفس الشاعر تخلق فلا تستطيع أن تنكر الخلائق . ولأنها
 جميلة فلا معنى لها عن الإيمان بالجمال . ومن يدرى أى مصير كان
 قد أعده القدر لإيمان شلي لو أن منيته لم تعالجه فامتد به العمر حتى
 رأى من عبث القدار بالناس والحياة أكثر مما رأى !

وكان من حظ شلي الا يرجعه القدر حتى يسرع الى أن يعوض عليه خطيته . فـكما عوضه عن هاريت جروف بهاريت وستبروك، كذلك عوضه عن سودى بمن يؤمن به ألف مرة أكثر من ايمانه بسودى . فــقد عرف إذ ذاك ان ولیم جودوين حى يرزق وانه يقيم بلندن وأنه يستطيع ان يراه . لذلك سارع فكتب الى مؤلف (العدل السياسي) رسالة كلها الا عجب به والرجاء في الاستماع له

على أن شلي كان يومئذ في شغل مشروع كبير لم يدع له الفرصة كــيسرع الى تندن للحاق باستاذة الروحى العظيم . ذلك ان الكاثوليك من أهل ارلند كانوا يعاملون معاملة شادة ، سببها أنهم على غير البروتستانية دين الملكة ودين الغالية . فــكانوا محرومين من مناصب الدولة غير معترف لهم بكثير من الحقوق المدنية المقررة للانسان . وقد رأى شلي في هذا فرصة سانحة ليعلن حربه على الظلم ولــلينادى بالمساواة بين الناس جيئلا لا يفرق الدين بين أحد منهم ولا يجعل له فضلا على غيره ، ولــيشن الغارة على رجال الدين وما يدعون اليه من تعصب ، وعلى الملك وما يحيطون به رجال الدين من رعاية يــردها رجال الدين اليهم بدعوة الناس الى تقديم عروشهم والادعاز لظلمهم واعتباره بعض ما أراد الله خيرهم . وهذه الغاية وضع نداء مطولا لا دعا فيه الى مبادئه ، وفي مقدمتها التسامح ، والى هذه الافكار التي خافتها الثورة الفرنسية وراءها . لكن الثورة كانت قد أخفقت في نظر الناس من أهل ذلك العصر ، لأنها بعد ما قدمت فداء للحرية والمساواة ما قدمت من تصحيات وبعد ما قضت عليه من روؤوس اطاحتها وثروات عصفت بها ، لم تبلغ من غايتها أكثر

من أن قدمت أبناء فرنسا كلهم طعاما لشهوات تابليون الحرية وأن
أجلسته أمبراطورا على عرش الجمهورية. وسر اخفاقة في نظر شلي
وجدوين وكثيرين من كتاب العصر ومفكريه أنها اعتمدت لتحقيق
غایاتهم على القسوة والعنف ، فهبت السبيل لنفور الناس منها وتنفسهم
الصداء لانقضاء عهدها . ولو أنها جعلت الرحمة والتسامح وبر
الإنسان بالإنسان وتقاهم الاخ مع أخيه أساسا لها ، حُقِّقت على
الارض كل غایاتهم وإن احتاجت الى زمن أطول مما كان يقدر رجالها
لنجاحها . وهذه دعى شلي الى مساواة الكاثوليك بسائر الانكليز في
الحقوق والتكاليف ، طالبَا الى الكاثوليك أن يتمسكون بمحقهم في
هذا من غير أن يلتجأوا الى عنف أو دماء . واتخذ مقرًا للدعوه في
دبلن بيته أقام فيه مع هاديت واليزا ، وجعل يوزع على الناس نداءه
الحادي عشر الم��ب لهذه المبادئ السامية . وقد خيل الى بعض أصحابه
أن البوليس لابد أن سيقبض عليه وأن أهل ارلندا سيلتفون
حوله . لكن هؤلاء سخروا من رسول حريةهم الذي لم يبلغ بعد
العشرين من عمره ، ووجدوا فيه وفي زوجه الطفلة الرقيقة موضع
دعاية واعطف مما جمل البوليس لا يرثيم لها ولا يعبأ بهما . والحق
أن شلي كان مخطئا كالذين رأوا معه أن اخفاقة مبادئ الثورة
الفرنسية يرجع الى التجاهما للعنف والقسوة . فالثورة الفرنسية ،
كل ثورة غيرها في العالم ، لم تبدأ لتحقيق المبادئ التي أعلنت اهلها
انهم يريدون تحقيقها . بل هي بدأت أول امرها لا سباب اقتصادية
محضة . وكان الذين سبقوها من أمثال روسو وفولتير وديدر و قد
نادوا بان سعادة الناس تم اذا تحقق المبادئ التي أعلنتها . فلما

دَكَتْ قَوَّاتُمْ عَرْشَ فِرْنَسَا وَأَزْلَجَ كَابُوسَ الْجَمْعِ وَبَدَا الَّذِينَ أَلْقَتْ
إِلَيْهِمْ ظَرُوفَ ذَلِكَ الْمَصْرِ مَقَالِيدَ الْأَمْرِ يَفْكَرُونَ فِي الطَّرِيقَةِ الَّتِي
يُسَعِّدُ النَّاسَ بِهَا تَنَاهُلُوا الْمُبَادِيَءُ الَّتِي كَانَ النَّاسُ مِنْ قَبْلِ يَقْرَأُونَهَا
فَتَلَذَّهُمْ قِرَاءَتُهَا مِنْ غَيْرِ أَنْ يَؤْمِنُوا بِهَا . وَكَانَ كَثِيرًا مِنْ حَكَامِ
الْمَصَادِفَةِ أُولَئِكَ أَقْلَ النَّاسَ إِيمَانًا بِفَوَائِدِ الْمُبَادِيَءِ الَّتِي أَعْلَمُنَا
أَنَّهُمْ يَرِيدُونَ تَطْبِيقَهَا وَيَحْارِبُونَ مَنْ يَقْفَ في سَبِيلِهَا ،
لَكِنَّهُمْ كَانُوا يَفْعَلُونَ مَا يَفْعَلُونَ مِنْ ذَلِكَ اسْتِبْقاءِ الْمُسْلِطَةِ فِي أَيْدِيهِمْ
وَتَخَلَّصَا مِنْ قَدْيَنَازِعِهِمْ إِلَيْهَا . فَهُمْ أَذْنَ مُتَعَصِّبُونَ لِمَصَاحِبِهِمْ كَرْجَالَ
الَّذِينَ مَنْ يَحْارِبُهُمْ شَلَى سَوَاءً بِسُوَاءِ . لِكِنَّهُمْ وَحْدَهُمْ هُمُ الَّذِينَ يَوْصَلُونَ
هَذِهِ الْمُبَادِيَءِ السَّامِيَّةِ إِلَى ذَهْنِ الْجَاهِيرِ ، لَأَنَّ الْجَاهِيرَ لَا تَفْهَمُ إِلَّا
الْلُّغَةِ الدَّمْوِيَّةِ الْوَضِيعَةِ : لُغَةِ الْقَسْوَةِ وَالْأَرْهَابِ وَالْبَطْشِ . وَلَوْ أَنَّ
شَلَى اسْتِطَاعَ أَنْ يَنْزِلَ مِنْ سَمَاءِهِ الْعُلِيَا إِلَى هَذِهِ الْمُرْقَبَةِ لَاَحَاطَ
الْجَهْمُورُ بِهِ وَلَهُتَّفَ لَهُ وَلَتَابَعَهُ وَلَوْلَغَ إِلَيْهِ فِي الدُّمْ وَلَا يَتَهَجَّ لَهُذَا
الْمَنْظَرِ الَّذِي يَحْرُكُ فِيهِ حِيُوانِيَّتَهُ الْأَوَّلِ ثُمَّ ثَبَتَ قَلِيلًا أَوْ كَثِيرًا مِنْ
هَذِهِ الْمُبَادِيَءِ فِي ذَاكَرَتِهِ يَسْتَظْهِرُهَا بَعْدَ رَجُوعِهِ إِلَى وَعِيهِ . أَمَا وَشَلَى
يَخَاطِبُهُ بِلُغَةِ السَّمَاءِ وَيَتَجَدَّدُ لَهُ عَنْ حُبِّ الْإِنْسَانِ لِلْإِنْسَانِ وَتَسَامِحِ
الْإِنْسَانِ مَعَ الْإِنْسَانِ ، فَلَا مَطْمِمَ لَهُ فِي أَثْرِ مِنْ سُخْرِيَّةِ الْجَهْمُورِ بِهِ
سُخْرِيَّةِ شَابِهَا الْعَطْفِ عَلَى شَبِيهِهِ وَعَلَى جَمَالِ زَوْجِهِ .

وَعَبَرَ شَلَى وَصَاحِبَتِهِ الْبَحْرَ مِنْ جَدِيدٍ إِلَى بَلَادِ الْفَالَّ يَائِسًا مِنْ
أُولَئِكَ الْكَاثُولِيكَ الَّذِينَ لَا يَفْهَمُونَ . وَظَلَّ يَتَقَلَّبُ فِي مُخْتَلِفِ بَلَادِ
الشَّوَاطِيْعِ الْبَحْرِيَّةِ زَمَانًا لَمْ يَهْتَدِ فِيهِ إِلَى مَسْكُنٍ يَسِّرُ بِهِ ، فَغَادَرَهَا
مُتَجَوِّلًا فِي نَوَافِحِ مُخْتَلِفَةٍ حَتَّى اهْتَدَى فِي لَهُوَثٍ إِلَى مَنْزِلِ أَعْجَبِهِ فَلَاقَهُ

به: أَعْجَبَهُمَا يُحِيطُ بِهِ مِنْ مَنَاظِرِ شِعْرِيَّةِ جَمِيلَةٍ يُزِيدُهَا عَنْدَهُ جَمَالًا عَزِيزًا
وَقَلَةُ اخْتِلَافِ النَّاسِ إِلَيْهَا. وَفِي هَذَا الْمَنْزِلِ قَبْلَتِ مَسْ هَتَشْنَرْ دُعَوَتِهِ
بِغَاءَتِ لِتَقْيِيمِ مَعْهُ. وَالْحَقُّ أَنَّهُ كَانَ بِحَاجَةٍ إِلَى صَدِيقٍ رُوحِيٍّ يُبَادِلُهُ
الرَّأْيِ وَيُدْرِكُ وَإِيَاهُ صُورَ الْحَيَاةِ. فَلَقِدْ ظَلَّتْ هَارِيتُ طَفْلَةً، وَلَمْ
تَزِدْ عَلَى مَا كَانَ عَلَيْهِ تَلَمِيذَةً. وَكَانَ هُوَ يَوْمَئِذٍ فِي بَدْءِ نَشَاطِهِ الشِّعْرِيِّ
يَضْعُفُ أَوْلَى قَصَائِدِهِ الْكَبِيرِيَّ المُعْرُوفَةِ فِي دِيوَانِهِ (بِالْمَلَكَةِ مَا بِ)
أَوْدُعِهَا مَا وَصَلَ إِلَيْهِ مِنْ فَلَسْفَةٍ. وَكَانَ يَرِيدُ مِنْ يَرِدَ شَعُورَهُ وَيَقْدِرُ
آرَاءَهُ.. فَلَمَّا حَاوَلَ يَرِيدُ أَنْ يَجْبَدَ مِنْ هَارِيتِ ذَلِكَ الشَّخْصِ تَبَدَّى
لَهُ أَنَّهَا لَا تَتَذَوَّقُ الشِّعْرَ وَلَا تَقْهِمُ الْفَلَسْفَةَ. لَذِكْرِ طَارِ سَرَورًا مِنْ
مَجْيِ عَمَسْ هَتَشْنَرْ وَطَلَبَ إِلَيْهَا أَنْ تَزِيدَ فِي تَهْذِيبِ زَوْجَتِهِ. وَلَعِلَّ هَذِهِ
كَانَتْ طَلَائِعُ التَّبَيَّنِ فِيمَا بَيْنَهُمَا تَبَيَّنَ أَنَّهَا يَنْتَهِي إِلَى الْاِفْتَرَاقِ وَإِلَى الْاتِّحَارِ
هَارِيتُ غَرْقاً وَيَدِسُ إِلَى حَيَاةِ شَلِّي هَمَا نَاصِبَا يَظْهِرُ أَثْرُهُ مِنْ بَعْدِ فِي
كَثِيرٍ مِنْ شِعْرِهِ.

أَقَامَ شَلِّي بِالْمَنْزِلِ الَّذِي اخْتَارَهُ فِي لَمْوُثِ وَمَعْهُ زَوْجُهُ هَارِيتُ
وَسَبَّرُوكُ وَأَخْتُهَا إِلِيزَا وَمَسْ هَتَشْنَرْ حَتَّى أَوَّلَ خَرِيفٍ سَنَةِ ١٨١٢.٠
وَمِنْ لَمْوُثِ وَجْهُ شَلِّي إِلَى الْقَاضِي لَوْردُ الْمَنْبِرَا خَطَابًا كَانَ أَعْظَمُ أَثْرًا
وَأَشَدُ وَقْعَامَنْ كُلَّ مَا حَاوَلَهُ فِي أَرْلِنْدَا، وَكَانَ وَمَا يَزَالَ يَنْبَيِّعُ عَنْ قُوَّةِ
شَلِّي فِي النَّثْرِ بِمَا لَا يَقُولُ عَنْ قُوَّتِهِ فِي الشِّعْرِ. فَقَدْ حَكِمَ هَذَا الْقَاضِي
عَلَى مَسْتَرِ إِيَتَونَ بِالسِّجْنِ وَالْتَّعْذِيبِ، لَا إِنَّهُ نَشَرَ كِتَابًا يَطْعَنُ عَلَى
الْمَسِيحِيَّةِ وَيَنْكِرُ فِيهِ الْمَعْجزَاتِ وَالْبَعْثَ، وَيَرِى فِي التَّشْلِيثِ نَظَرِيَّةً
لَا يَقْبِلُهَا الْعَقْلُ. وَلَمْ يَدْرِ بِخَلْدٍ أَحَدٌ أَنْ يَجْعَلُ مِنْ هَذَا الْحَكْمِ مَوْضِعًا

طعن ان كانت للاحكام في كل أمة قداستها . على ان كتاباً في فرنسا وفي غير فرنسا من يعجب بهم شلي لم يرددوا حين رأوا في حكم ظلماً عن ان يكرسو الكثيرون من جهودهم لرفع الظلم بالعمل لاعادة النظر في الدعوى . وهذا فولتير جعل من قضية كala الذي حكم عليه بالاعدام و بتجرید ابنائه من ثروتهم موضعاً لحملة انتهت باعادة النظر في الحكم وباعادة شرف كالا اليه بعد اعدامه وإزالة ماترتب على الحكم الاول من نتائج بالنسبة لأبنائه ووارثيه . والحكم على مستر ايتون اجل في نظر شلي خطراً ، فهو لا يقتصر على إدانة انسان من الناس بل يدين حرية الفكر والتعبير عنه ، ويقييد العقل بقيود تضطر حر الرأى الى النفاق للجماعة مخافة ما يتزل به من عقاب ، وتحول بين الجماعة والاستفادة من تفكير ذوى الموهاب الذين تبعهم الا قدار ليداوموا السير بالانسانية الى ناحية الكمال . لذلك وجه الى اللورد اللنبي خطابه القوى مفتتحاً إياه بقوله : « مولاي — أما وللمركز الذى دعتك بلادك ل تقوم فيه ما له من أهمية ، فالتبعة المترتبة عليه هي لذلك أعظم خطراً . ويجب لذلك عليك مداومة النظر فى انك لم تحكم خطأ بالعقاب على فاضل أو بالكافأة لناقص ... وصحيح ان القوانين القائمة تحميك من محاسبة أية سلطة دستورية إياك بسبب الحكم الذى أصدرته على مستر ايتون . لكن ليس ثمة أى قانون يستطيع حمايتك من سخط الامة عليك وعدم موافقتها على حكمك ، وليس ثمة قانون يحول بينك وبين حكم الاعقاب عليك اذا كان للاعقاب أن تعنى بذكر شأنك » . ثم ينطلق شلي مندفعاً : — « لكن بأى حق

العقاب مستر ايتون ! ليس هناك الا سوابق عتيقة من أيام تحكم الكهنوت وظلمهم هي التي يمكن الادراج بها لاهانة الإنسانية والعدالة هذه الاهانة المزرية . فأى رجل آخر به مستر ايتون ؟ وأى جريمة ارتكب ؟ ولم لا يسير حيث يشاء كما يفعل سائر الناس ، ثم لم لا يعيش كما اعتاد أن يعيش ؟ وأية غاية ترجى من حبس هذا الرجل الذى أتهم بأنه لم يرتكب ما يشن شرف انسان ؟ » ويسوق شلى الحجج بعد ذلك يأخذ بعضها برقاب بعض يدلل بها على أن التسامح ملاك سعادة العالم وإخاء الإنسان للإنسان والوسيلة الوحيدة لاستعلاء الحق والفضل ، وأن التغصّب والاضطهاد لم يجرأ على الإنسانية إلا ويلات كانت أداتها أمثل لورد المنبر . ويسوق هذه الحجج في هجّة قوية تظهر في مثل قوله :

« ان نظام الاضطهاد لا يضارع عجزه ولؤمه إلا اضطراب المنطق فيه . فالمطابع مثقلة بما يسمى (تم كافياً أظن) الادلة المثبتة للمسيحية ، وهي كتب حافلة بالمطاعن وزلاكاذيب على منكريها ، وقوامها أن كل من يرفض المسيحية مجرد من الارراك والشعور ، وسبيلها أن تقرر ما لا دليل عليه ، وأن تتخذ من الباطل الشائعه المنفرة ، مبادئ أوليه صحيحة ، ومن النتائج المستخاصة من هذه المقدمات المفترضة ، بني شاهقة المنطق . ولكن اذا كان الاساس واهياً فما الحاجة الى مهندس يذهبنا بتداعى البناء ؟ وإذا كانت حقيقة المسيحية لا نزاع فيها فلماذا توضع هذه الكتب ؟ وإذا كان الموجود من الكتب كافياً لاثباتها فما وجه الحاجة الى جدل جديد ؟ وإذا كان الله قد تكلم فلماذا لم يقتنع العالم ؟ وإذا كانت المسيحية ينقصها علم

أعمق وبحث أشق لاثبات حقيقتها فقيم المجوء الى القهر فيما لا يسع
 سوى العقل الانساني أن يؤديه على وجه يرضيه؟ »
 وهو يعود بمثل هذه المهمجة، ناعيًا على التعصب داعيًا الى التسامح،
 محاولاً التدليل على أن الاضطهاد لن يختفت صوت الحق ولن يكون من أمره
 إلا دفع الجماعة لتقديس ذكرى من حل الاضطهاد به، على نحو تقديس
 المسيحيين لعيسى لغير شئ إلا تعذيب اليهود إياه، وذلك حين يقول:
 « من الحقائق التي لا سبيل الى نقضها أنه لوم يكن اليهود همجاً
 متعصبين ، أولوأن عزيمة بوتنياس بيميلت كانت كصراحتة، لما استطاع
 الدين المسيحي أن يستفيض ، بل لما أمكن أن يوجد. فيما من أعز آرائه
 عليه رهن بمثل هذا الخيط الضعيف ، وأعلق عواطفه بقلبه مصدرها
 يعتوره الشك ! تعلم على الأقل التواضع ، واعترف بأن من الجائز أن
 تكون تربتك وظروفك قد سولت لك التسليم بقو اعدلا ينهض عليهم دليل.
 ولم تثبت صحتها على وجه مقنع مرض ، واعترف كذلك على الأقل
 بأن فساد رأي أخيك ليس بالسبب الكاف الذي يجعله أهلا لكرهك.
 فمن أجل أن إنساناً مثلك ينكر أن عقيدتك معقوله ، يكون حقيقة
 بعثاب التعذيب والسجن ؟ وإذا سلمنا بجواز الاضطهاد الديني فما
 أوسم الباب الذي يفتح ويقتحم منه المتعصبون من كل لون على
 سلم المجتمع وسلامه ! وأى وحشية وفظيعة دموية لا تنقلب مباحة ؟
 ولكنى أسأل :ليس ذلك الرجل الذي ينكر صحة عقيدة شائعة
 أحق بتعظيم المجتمع منه بسخطه وغضبه ؟ لانه اما أن يثبت زيفها
 وعقمها (وبذلك يقضى على ما هو زائف ولا طائل تحته) واما أن
 يتبع لانصارها الفرصة لاثبات صدقها وجواهراً . وهذا — على

التحقيق — لا يمكن أن يكون جريمة . فإن من يهب وقته للبحث
الحر والتحقيق الجرىء في كبرى المسائل التي ترجم في مرد أمرها
إلى طبيعتنا الأخلاقية ، يكون أجدل بتشجيع المشترين المتنورين
منه بأن يحique به انتقامهم . وأحب أن تعلم يا سيدى الورداً أن أغلال
الحديد لا تقييد ولا تحضن روح الفضيلة . وإنها تسمى فوق وحشية
المحابس وقسواتها ، وترتفع حرجة جريمة إلى حيث لا تقدر روحك أن
تلحق وراءها من مقعدك الفخم في القضاء . واستأدعوك لتجذر أن
تنسيك مسيحيتك أنك إنسان ، ولكنني أعظمك أن تستعجل ذلك العصر
الذى يقبل علينا مسرعاً في ظل نظام الظاهر الحاضر ، والذى تكون فيه
مجالس القضاء حقيقة مأجورة ، و تكون السجون منازل ليكل ما هو
شريف وصادق » .

ويصل إلى القمة من حججه حين يستشهد التاريخ على أن الظلم لم
يختفت صوت الحق بل قضى على الظالمين ، وذلك في عبارة بالغة غاية
الابداع ، حين يقول :

« سقى سocrates السم لأنه اجترأ أن يكافح الخرافات التي كان
مواطنه يلقنونها وينشأون عليها ، ثم ماعتمت أثينا بعد موته بقليل
أن تبين لها ماق حكمها عليه من الظلم فانتصافت له من متممه « ملية تاس »
ورفعت سocrates إلى قريب من مراتب الآلهات .

« وصلب المسيح لأنه حاول أن يهذب طقوس موسى ويستبدل
بها ما هو أدنى إلى الإنسانية وأشبه بالخنزير . ولقد أعلن قاضيه على
الملاً اعترافه ببراءة ساحتته ، لكن الشعب الجاهل المتعصب أبي إلى
الفعلة الشنعاء ، فسرح برباس القاتل الخائن وقدم المسيح الوديع

المصلح قربانا لاله اليهود الدموي . ثم مضى الزمن وتبدل الاحوال
وغيرت معها آراء الناس وراح الغوغاء على عادتهم من التطرف - يرون
في صلب المسيح خارقة . ولم تعوزهم شواهد العجزات وأياتها - وما
أكثراها في عصور الجهلة - ليثبتوا بها أنه كان من الله ، ودارت
هذه العقيدة في النفوس مع العصور والتقت بأحلام افلاطون ومنطق
ارسططاليس ، وأكتسبت القوة والسرعة والامتداد حتى تقررت
لوهية المسيح وصارت المنازعه فيها مجلبة للموت ، والشك في
محبتها جريمة ومارأ .

« والمسيحية الان هي الديانة المقررة ، فمن أراد أن ينازع في
ذلك فعليه أن يوطن نفسه على أن يرى السفا كين والخوته يتقدمونه
في اعتبار الرأى العام . الا اذا كانت عبقريته كفاء شيجاعته وأزره
من ظروف الاحوال ما يكفل له أن ترفعه الاجيال المقبلة الى مصاف
الآلهة وأن تضطهد انسان باسمه وفي سبيله كما اضطهد هو باسم من
كانوا أسبق منه الى الفوز بعبادة العالم »
ثم يختتم خطابه بقوله :

« ان الزمن ليقترب مسرعا حين يعيش المسلم واليهودي والمسيحي
وامؤمن والملحد معا في جمعية واحدة يتقاسمون متساوين ما ينشأ
عن اجتماعهم من فوائد ويتخدون من تبطين بروابط الاحسان
والحب الاخوى . وأرجو لولاي اللورد أن يرى ذلك اليوم ».
ولما أتى شلي خطابه هذا حاول العود لاما قصيده « الملائكة
ماب ». لكن حياة لمن بدأ تنقله وتدفع الملال الى نفسه ،
ذلك أن الغيرة دبت الى نفس زوجته من مس هتشتر فرأت

فيها منافساً لها دس لهم إلى حياطها . وربما وجد شلن الوسيلة إلى الدفاع عن ضيفه لو أنه وجد منها ما كان يرجو من مشاركته في تقكريه وإلهامه ، بما يزيده تحليقاً في سماء الشعر ينهل فيها كل ما يريد من صور ومعان وألوان . وزاد في همه أن رأى هارييت لاتتابعه في جولات خياله وذهنه بـما يزيده قوة على قوه وسمواً على سموه ، بل وفقت تخلفت إلى ماحولها تبتغى من متاع الحياة مثل ما بتبتغ من قبلها أخته وابنة عمها . حينذاك أيقن شلى أن لا سبيل للبقاء في وحدة الريف واعتزم العود إلى لندن عليه يجد في الجماعة مسلية عن هذه العواطف الوضيعة التي بدأ الحبيطون به يشغلون بها ذهنه ، وفي مقابلة جدوين منشطاً لروحه في توثبها للعمل على سعادة بنى الإنسان أخوه . واختار في العاصمة فندقاً صغيراً أقام وصحبه فيه . ثم ذهب مع زوجته في يوم من أكتوبر يزور أستاذة في موعد حددده . وكان جدوين يقيم بمنزل صغير يتصل بمكتبة يطبع هو فيها كتبآ للأطفال ويبيعها . ذلك أن مكانته التي بلغها بعد نشره كتاب (العدل السياسي) والتي دعا فيها إلى هدم نظم الزواج والأسرة والتزوع إلى صورة مخففة من الشيوعية كانت قد ضعفت بقدر عظيم . فلقد كان يوم كتب هذا الكتاب قسيساً خرج على زمرته وأطلق العنان لنفسه . لكنه لما لبث بعد ذلك أن تزوج من ماري واستنكرافت التي ماتت تاركة له ابنة دعتها باسمها ماري وابنة أخرى من زواجهما الأول هي فاني إسلامي . ولم يمض على موتها حين حتى تزوج مرة أخرى من جارة له كانت تبدي اعجابها به ، وكانت ذات ابنة من زواج أول هي جين كيلر مون . وقد اجتمعت الأسرة في انتظار

زيارة شلي وزوجته لم يتخلل منها الامارى، التي تزوجها شلي من بعد ، لأنها كانت على سفر في ايقوسيا . وقد ربطت هذه المقابلة الأولى بين شلي وزوجته وجدوين وأسرته بأقوى الروابط . على أن فاني وجين ، وكانتا فتاين ذواتي جمال وعلم ، مالبنتا أن زأانا شلي واستمعتا اليه حتى أظهرتا غاية الاعجاب بجمال نفسه وسمو ذهنه ومتقد خياله ، وحتى شعرت كل واحدة منها في أعماق نفسها بميل نحوه دفعها إلى التقرب منه والعمل لاجتذابه . وشعر هو من ناحيته بأنهما أكثر من هاريت معرفة وأقدر على تتبع البحوث الفلسفية وتذوق جمال الشعر

ومن طريق امرأة جدوين تعرف إلى أسرة نيوتن . وكانت أميرة متأثرة بتعاليم الثورة الفرنسية وبالثقافة الفرنسية إلى حد ملك لب شلي . وكيف لا تملك له ولم تقف عند التهذيب تأخذ منه بأعظم نصيب ، بل ذهبت إلى أبعد من ذلك فظبقت في كثير من نظم حياتها مبادئ الإنسانية التي أعلنتها الثورة . لم يكن أحد من أفرادها يأكُل اللحم وكانوا جميعاً يميلون إلى ناحية الحياة الطبيعية التي دعا رسو إليها بقدر ما تسمح به ظروف الحياة . ومن ذلك أن كانوا يتذرون أطفالهم عراة ماداموا في الدار . وقد قارضوا شلي اعجاباً باعجاب وتقديرًا ينقدِّر . وشاركتهم في ذلك اخت مل Suzuki نيوتن تدعى مدام دبوانغيل تربت هي وابنتها في فرنسا ونشأت على تعاليمها . وكذلك استطاع أن يجد في المدينة منجاة من تلك الوحدة التي أثقلت كاهله في لموت والتي اضطرره إلى هجر تلك البقاع الجميلة المحبوبة التي ألمحته خطابه إلى لورد النبرا والتي كان يتمنى لو أتم فيها قصيده (الملاسكة ماب).

وزاده أنساً إلى المدينة وحياتها أن استطاعت زوجته، وأختها
اليزا على وجه أصح، أن تجعل عيش مسر هتشنر معهم حالاً حتى لطلب
هي مغادرتهم شاكية ما أصحابها بسبب دعوة شلي إليها من انقطاعها
عن المدرسة التي كانت تعمل فيها ومن سوء سمعة زعمت انها علقت بها
لاتصالها برجل هو من الجمعية موضع الريبة. ولقد اقطع لها شلي من
أربعمائة الجنيه التي كان يعيش عليها مائة كاملة ورتبها لها لتعيش منها
برأً بها وتقديرًا لتبعته في دعوتها. وعلى أثر سفرها عاد إلى جو الأسرة
طلي نينته وعاودت هاريت ابتسامتها وعادت هي إلى تفريدها. ومع ما
كانت تلمع إليه بعض فتيات جدوين من ميلها إلى التجميل بما لا يتفق مع
بساطة الحياة الطبيعية، ومع ما كان يتمامسون به مشفقات على شلي من أنه
لم يتزوج الشابة التي تسعده وتلهمه، فقد ابتهج هو بعودها إليه وفتح لها
من جديد كل قلبه. ثم زاده بها شغفاً أنها حملت، فودأن يستعيد وإياها
ألوان متابعتها السابق. لذلك هجر العاصمة ومعهم اليزا وسافرا إلى أرلندة
والى الغال لا يلتغيان من رحلتها هداية أحد ولا الدعوة إلى جديد،
وانما يرجوان أن تخدمها أماكن شهدت غرامهما بأهازم هذا الغرام
لتزيد في انقامه الشائرة من حنابها جوانحهما ما يزيدها صباة وهوى.
وكانا سعيدين طوال رحيلهما مطمئنين إلى حبهم. على أن مادعا في الحقيقة
إلى هذه السفرة ثورة قامت بنفس شلي جعلته يحس في اعمق نفسه
من غير أن يستظهر أمام بصيرته أن شيئاً قد أندس بينه وبين هاريت
يوشك أن يفصل بين قلبيهما وأن يبتعد صلة حبهم. وكان رجاؤه أن
يعود إلى ملك عصفوره إذا أزال من نفس عصفوره الوهم أن أحداً
ينازعه فيه. وكان رجاء هاريت أن تعود إلى ملك صاحبها وأن

تنزل به الى مستوى الناس الذين يعرفون للحياة المادية قيمتها ويعملون على الاستمتاع بكل مظاهرها على نحو ما يستمتع غيرهم بها .

وتقديم بهاريت الحمل ، فلم يك بد من عودهم الى العاصمة مرة أخرى . ووضعت بنتاً أسموها (يانت) جعلت أمها أشد حرصاً على صلامتها بالجمعية وعلى محاكاتها ايها . وفيما كان زواجهما من حفيده البارون شلي صاحب الثروة الضخمة والضياع الواسعة اذا كانت لاتطمع في حياة ضريباتها النبيلات ، بل في حياة العامة من الناس ؟ ولعلها كانت لا تغلو في هذا الميل لو أن أختها اليزا لم تكن دائبة التحدث لها عنه والعود بها الى أن ذاك كان كل رجاءها ورجاء أبيها من صلتهاها بشلي . واضطرر هو آخر الامر الى الادعاء لمشيئتها ، فاقتني لها عربة ولم يرفض أن يصحبها مرة الى بائع الحراير وأخرى الى صانعة القبعات . ثم أخذت عليه ، وعاوتها اليزا في المحاجه ، أن يعمل على استعادة صلته بأبيه . واضطربت له يرجو زوال ما بينهما من قطيعة . لكن هذا السعي أخفق أن أصر مستر موذى على أن يعلن ابنه النزول عن آراءه والعود الى جمی الجمعية ونظامها . وأحفظ رفض شلي شروط أبيه قلب اليزا وقلب هاريت وزاد فيما بين الرجل وزوجه من شقة خلف كان لا يزيدها تعاقب الأيام الا انفراجا . وكان من أمر ذلك أن جعل شلي يجد المسرة في مقامه بين أسرتي جدوين ونيوتن وفي السفر وحده الى حيث تقيم مدام دبو انفليل مع ابنتهما كورنيليا ترزر يقضى في ضيافتهما أياما وأسابيع . بل لقد أقام عندهما في احدى الضيافات شهرين متتابعين تاركا هاريت وأختها ينعمان بما تشاء فهو اوهما

التي هوت الى مستوى أهواء الجماعة الإنسانية . وكان اعجابه بكورنيليا يزداد يوما فيوما حتى انقلب حباً وحتى فكر في اختيارها رفيقة حياته .

لكن أسرة نيوتون كانت ، برغم حريتها في التفكير وتطبيقاتها صور تفكيرها في طعامها وفي حدود المنزل ، أسرة ارستقراطية النزعات في علاقتها المدنية ، فلم يرقها هذا التفكير من جانب شلى في مخالطة كورنيليا . وأدرك هو هذا فاكتفى بسعادة بين أولئك السيدات الرشيقات البالغات من عذوبة النفس وسيو الادراك مالم يكن يجده الا في جماعة جدوين . على أنه أدرك وجوب الانقطاع ولو الى حد عن تكرار زيارته لهؤلاء وأولئك وأكب حتى فرغ من (الملائكة ماب) وقد أودعها كل مدار في نفسه عن الحياة من خواطر وما وقع عليه أثناء مطالعاته من معارف وأفكار وجعلها كأنها كتاب الرسالة التي ظن أن القدر القى عليه بإبلاغها للناس . وكم كان غضبها لتدبره عقلية الجماعة شديداً حين قابلوا الملائكة ماب بفتور لم تخلص من أثره بعد أن علا في الشعر نجم شلى . بل لقد ظلت حتى اليوم منظوراً اليها على أنها دون ما أبدع بعد ذلك من معجزات الشعر بكثير .

ولقد كان واجداً عن فتور الجمهور بازاء قصيده عزاء لو أنه وجد في هارييت أو في غيرها عطفاً عليه يقوى عزمه ويشد قلبه . لكن هارييت كانت على العكس من ذلك قد أمعنت في اهاله حتى لم تأب الظهور في الجمعية مستندة الى ذراع الضابط رايان الذي جعل يتردد عليها بحجة أن له بأختها إليزا معرفة قديمة . وقد حاول شلى

أن يسترد قلبها وأن يحول بينها وبين الانحدار إلى أعمق مما انحدرت
إليه ، لكنه ألى هذا القلب تحيير فلم تعد هزه بازائه عاطفة
ولا يحركه نحوه ذكر لماضي ولا رجاء في المستقبل.

وانه لفي يأسه من هذه الناحية اذ أقبل عليه جدون يستعينيه
في متاعب مالية أعانه شلي من قبل في مثلها . وطار شلي الى داره
راجياً أن يجد في صحبة جين وفاني بعض السلوى عن حقوق هارييت
ووجودها قداسة حبهم . ولم يخنمه القدر ولا نبا به حظه هذه
المرة . فقد طالما تحدث اليه جدون عن ابنته ماري وذكائهما
ونشاطها وحبها المعرفة ومثابرتهما على التعلم من موارد العلم ، ولو طالما
وصفتها له جين وفاني على أن ذكاءها يعدل جمالها . وما كانت أشد
حاجة شلي ليجد الملائكة الذى يجمع الى الجمال الذكاء والى عنديه
الروح سمو النفس والى طهارة الضمير عظمة القلب ، والذى يرضى
جمال وجهه بما في الوجود من قوى الفضل والخير الكمينة مبعثرة
في ثناياه . ما كان أشد حاجته الى أن يهب كل ما في قلبه من حب
للوجود تلك الجميلة التى يرضى وجهها بكل جمال الوجود . وألى
مارى ساعة وصل الى بيت أبيها قد عادت من ايقوسيا وجلست
بين جين وفاني اللتين قدمتاها اليها وذكرياتاً محدثة عنها كما ذكرتا
له انها حدثتنا أخترها عنه . ولم تك الا سوية تحدثت ماري اليه فيها
حتى سحرته عن نفسه ، فجعلته يرى في جمالها وشبابها ورقها تلك
الشاشة النسوية مجتمعة الى النشاط والطلعه الذهنية التي تميز
الشبان ، اجتماعاً كان يراه دائماً صورة الكمال الانساني في خير
ما يستطيع الفن اذ يكون . والحق ان ماري كانت ذكية

الجمال تبسط قسمات وجهها الرقيقة غاية الرقة يماثل طوى عليه جوانحها
من أفقها، وتنعيم عيونها الكستنائية اللون عن شيء من الألم لم يعرف
شلي مصدره إلا بعد ماعلم أنها تزور كل يوم قبر أمها تقرأ عنده
كتابها وتستودعه همها وشيجتها، وقد أجاب طلبته أن يصحبها
كل يوم إلى هذا القدس تتنطوي صفائحه على أقدس حب امتلا
قلبهما به منذ طفولتها . وأمام هذا القدس ارتبط القلبان اللذان
جعلاه كل يوم دأبهما الصلاة له : ارتبطا وتعاهدا على أن يكون كل
منهما لصاحبه حتى آخر الدهر .

و لما علم جدونين عاين ابنته و شلي حال بينهما ومنعه عن بيتها ،
فأجج بذلك نيران قلبه و جعله يعتزم اصطحابها والقرار وإياها ،
وأيقن أن لن يؤنبه ضميره من ناحية هاريت بعد ما ظهر منها أنها
لا تعنى بغير ماله . فدعا بها من الريف إلى الندرة و أخبرها بعزمه
وبأنه جعل لها راقباً يكفيها عيشها . لكن العصفور رقيق التكوين
فلم يتحمل الصدمة فرض ، ثم حاول أن يسترد صاحبه إليه فلم يفلح
أن كان قلب صاحبه قد أصبح في ملك غيره .

— ٤ —

كانت أبواب أوروبا قد فتحت أمام الأنجلترا بعد ذهاب نابليون
إلى إيطاليا ، فلما ابليت هاريت من مرضاها اتفق شلي وماري وصحبتها
جين أن كانت تشعر بميل نحو شلي فسافروا إلى سويسرا واجسوا خلاها
حتى لوسرن . على أن مقامهم بين جبالها وعلى شواطئ بحيرات الماء يطل أكثراً
من ستةأسابيع عادوا بعدها إلى بيته صغير على شواطئ المتس أقام
ثلاثتهم فيه . ولقد أدى هذا القرار ومعاشرة شلي ماري من غير

زواج ينهم ما لمقاطعة جدوين اياه وتحريميه بيته عليه وعلى اللتين فرما
معه ، وذلك رغم ما كان لشلي على جدوين من فضل امداده بالمال
في ظروف كان هو وزوجه هاريت في أشد الحاجة اليه . بل لعل
هذا الاسراف من جانب شلي كان أثيم ماغير قلب عصفوريه عليه
ودفعها الى الحرص على أن تعم من الحياة بما يمتع به غيرها من
مشيلاتها ما كان يراه زوجها سخفاً غير لائق بالنفوس السامية . ولم
يكن جدوين وحده هو الذي قاطعه ، بل قاطعته كذلك أسرة نيونتن
ومدام دبو اتفيل ، وانقطع عليه كل سبيل لرؤيه كورنيلياترز . ولم
يبق له من أصدقاء يزورونه غير صديقه القديم هو ج وصديق
استحدثه في الزمن الاخير يدعى بيكوك .

على أن عزلة شلي مع خليلته وجين لم تخل دون التهاب قلبيه
بحبه التهاباً دفعها الى ما يشبه الجنون . فقد شعرت زوجته
هاريت وستبروك من يوم أعلن اليها عزمها على الاتصال بماري
جدوين أن ضرام الحب الذي كان قد خبأ في قلبها ، حتى صارت
لاترى عليها من بأس في التحبيب الى أمثال الضابط رايـان ، تلهـيـه
الغيرة من جديد . وأى شيء أفقـك بقلب امرأة من روئيتها امرأة
أخرى تسـلـبـها رـجـلـهـا وتسـلـبـها مـعـهـا هـنـاءـها وـمـجـدـها ؟ إنـها لـتـرى حـقاـ
ـها ان تعذـبـ من تحـبـ وـانـ تـصـدـعـ عنـهـ وـانـ تـلاـطـفـ غـيرـهـ . ولـتـرى
ـواـجـبـاـ علىـ مـحـبـهاـ أـنـ يـرـىـ فيـ صـدـهاـ منـ عـلـائـمـ الدـلـالـ ماـيـقـضـيـهـ
ـمـضـاعـفةـ التـوـدـدـ هـاـ وـالـاذـعـانـ لـكـلـ أـمـرـهـاـ وـالـتـامـاسـ الصـفـحـ عـمـاـ دـعـاـ
ـإـلـىـ هـجـرـهـاـ ، وـانـ لـمـ يـكـ شـيـءـ قدـ حدـثـ يـوـجـبـ التـامـاسـ الصـفـحـ عـنـهـ .
ـبـلـ لـتـرىـ وـاجـبـاـ كـذـلـكـ عـلـيـهـ إـلـاـ يـقـضـيـهـ إـسـعـادـهـ أوـ تـهـويـنـ الـحـيـاةـ

عليه . فان فعل فهو أثر لاقب له والأنانية ملء نفسه . أما إن رأى في امرأة أخرى ملاك سعادته فأحبها فتلقى الجريمة والطامة الكبرى ، وتلك المرأة العادرة هي أحاط من جملت أرض أو أظللت سماء . وكذلك كانت ماري في رأى هاريت . وقد ازدادت لها بغضاً و عن شلى إعراضًا حين بعث إليها يستضيفها عنده في بيت ماري . أَفْ هُنَّا مِنْ مُنَافِقِيْنَ ! . وأَفْ هُنَّهُنَّ الْمُعْيَنَةُ مَارِيَ الَّتِي لَا تَرَاهَا هَارِيَتْ تَعْدِهَا رِشَاقَةً وَلَا جَالَا وَلَا عَذُوبَه صَوْتٌ وَلَا حَلاوةَ رُوحٍ ، بَلْ الَّتِي لَمْ تَؤْتَ أَيْ حَظًّا مِنَ الْجَمَالِ ، بَلْ الَّتِي تَسْتَحِقُ أَنْ تَسْحِقَ وَأَنْ تَعْضَ بِالْأَسْنَانِ وَتَقْطَعَ بِالْأَظَافِرِ . ولِمَنْ كَانَ شَلِيْ قَدْ ضَعَفَ أَمَامَهَا كُلُّ هَذَا الْضَعْفِ فَلَتَنْتَقْمِنَ مِنْهُ هَارِيَتْ شَرَّ انتقامِ .

كان ذلك شأن هاريت . أما فاني املاي فقد جعلت تحس في بيت جدوين وحدة عضة مؤذية ، وتشعر بنفسها غريبة ليس لها في البيت أم ولا أب ولا صديق ، ويلذ بها قلبها بذكر ما كان يفيض به ازاء شلي من حب واحلاص . فها هو شلي قد اختار ماري عليهم . وهذه حين قد وجدت في نفسها الجرأة لتصحبهما . أما هي فلم يبق لها في الحياة إلا أن تنظر إلى أشباح اليأس تحيط بها ، وأن تتمتنى لشلي في نفس الوقت المنهاء والسعادة . وكيف تراها تحمل له أى ضغف ولم يكن تفضيله ماري جدوين عليها إلا حلقة من سلسلة سوء الحظ الذي أحاط بها منذ مولدها حتى يجعلها تؤمن ب أنها ولدت تحت طالع من النحس لا سبيل لمقابلته . ألم يمت أبوها فتزوجت أمها ماري جدوين ثم ماتت هي الأخرى فاركت إياها يتيمة الأبوين لامعين هافى الحياة إلا بـ هذا الرجل الذي استبقاها عنده رأفة بها وشفاعة عليها ؟

فإذا فضل عليها شلي اخترها لا منها فاليس ذلك أقسى ما أصابها به
القدر . وبحسبها أن تظل على اخلاصها له ورثاءها لما وصل اليه
من فقر اضطرره ليعيش وامرأتين معه عيش كفاف ودون الكفاف .
بل لقد أثقلته الديون حتى اضطر دائرته الى أن يلتجأوا للقضاء بجعل
وجاهه يتعقبون شلي يريدون إلقاء القبض عليه كي يفي بديونه أو
يسجن . ولو لا يقتظة فاني وإن خطارها شلي بالامر وفراره من متعقيبه
لذهبوا به الى السجن ، ثم لما تحرك قلب أبيه لاستخلاصه بعد الذي كان
بيده من قطيعة وجفاء

وناء شلي بهذه الوحدة وثقل عليه حملها وأنهكه الى جانبها هذا
العيش الضنك الذي لم يعود في نعومة أظفاره ، فانه دلت قوله واندنس
المرض الى صدره وأظلمت الدنيا في عينيه ورأى شبح
الموت مقبلاً يبتلعه . كم كان من قبل سعيداً مع هاريت ! وكم
كان سعيداً بحديث صديقاته والمعجبات بنبله وجوهه وذكائه
وسمو روحه ! ثم كم كانت السعادة تقipض عنه منبعثة اليه من قلب
الرفيقه الجميلة العطوف ماري ! وهذا هو يرى نفسه معها منفرداً
يتناشأ الناس ويفرون منه فراراً ثم لا يكون له عنهم من بديل
الامر ضاق قل . ياليماس ! أيتها الالة ، آلةه الخير والنسمة والسعادة !
أحق أنك جيئاً قد تخليت عن هذا الرجل لغير شيء الا أنه صديق
الفضيلة الخاص ونصير الحرية الصادق ! أو حق أنك حسكت عليه
بالموت لأن جمعية النفاق والوهم والباطل قد ابتعدت عنه ، خشية
أن يفضح نوره ما في ظلمات من رجس وشقاء وجريمة ؟ ليكن .

فَهَذِهِ مَارِيٌّ مَا تَرَالْ تَحْنُو عَلَيْهِ وَتَبْعُثُ إِلَيْهِ مِنْ دَفَعٍ قَبْلَهَا الْمَلْوَعُ
حِبَّاً مَا يَسْتَبِقُ خَيْطَ الرَّجَاءِ مَعْلَقاً فَوْقَ هَاوِيَةِ الْيَأْسِ .
لَكِنَّ خَيْطَ الرَّجَاءِ هَذَا لَمْ يَنْعُهُ مِنْ أَنْ يَرَى الْهَاوِيَةَ وَكُلَّ مَاحْوَتِهِ،
بَلْ لَمْ يَنْعُهُ مِنْ أَنْ يَحْدُقَ فِيهَا بِبَصَرِهِ وَيَسْتَمِدَ مِنْ مَنَاظِرِهَا الْمُؤْسِيَةِ
إِلَهَاماً سَامِيَاً وَحِيَ إِلَيْهِ أَوْلَى قَصَائِدِ الْوَجْدَانِيَّةِ الْكَبْرِيِّ: «الْأَسْتُورُ
أَوْ رُوحُ الْوَحْيَةِ» . وَبَطَلَ هَذِهِ الْقَصِيْدَةُ شَاعِرٌ شَابٌ طَوَّفَ فِي
الْأَفَاقِ وَجَابَ أَقْطَارَ الْعَالَمِ أَنْ رَأَى الْوَسْطَ النَّذِي يَعِيشُ فِيهِ وَالْجَوَّ
الْمُحِيطُ بِهِ لَا مَهْبِطٌ فِيهِ لَوْحِيُ الْمَهْدِيِّ وَلَا مَبْعَثٌ لِسَمْوِ الْأَهَامِ .
«وَأَدَتْ بِهِ خَطَاطَهُ طَائِمَةً مَسْبِحَ أَفْكَارِهِ السَّامِيَّةِ إِلَى زِيَارَةِ مَا خَلَفَتِ
الْأَيَّامُ الْخَالِيَّةُ مِنْ خَرَائِبِ الْأَثَارِ . فَزَارَ أَئْيَنَا وَقَبِيرَ وَبَعْلَبَكَ وَالْبَطِيحَ
الَّذِي كَانَ مَقَاماً لِبَيْتِ الْمَقْدِسِ وَأَبْرَاجَ بَابِ الْمَهْدَمَةِ وَالْأَهْرَامَ الْخَالِدَةِ
وَمَنْفِيَسِ وَطَيْبَةِ وَكُلِّ مَا تَحْقِيَهُ تَلَالُ الْحَبِشَةِ السَّوْدَاءِ الصَّحْرَاءِ وَيَوْمَهُ
عِجَابِ النَّقْوَشِ عَلَى الْمَسَلَاتِ وَالْمَقَابِرِ وَآبَاءِ الْهُولِ الْمَحْطَمَةِ . وَهُنَّاكَ
خَلَالُ الْمَعَابِدِ الْأَخْرَيَّةِ حِيثُ تَقْوَمُ الْعَمَدُ وَالصُّورُ الْعَجِيْبَةُ لِمَا هُوَ أَعْظَمُ
مِنْ إِلَانْسَانٍ ، وَحِيثُ تَرْقُبُ شَيَاطِينُ الرَّخَامِ أَسْرَارَ نَيْرَانِ الزَّوَالِ ،
وَسَيِّئَتْ يَعْلَقُ الْأَسْلَافُ أَفْكَارَهُمُ الصَّامِتَةُ عَلَى صَمَتِ الْجَدْرَانِ الْمُشَتَّمَلَةِ إِيَّاهُ
— هُنَّاكَ ، أَمْهَلَ الْخَطَا مُسْتَذَكِّرًا الْعَالَمَ فِي صَبَاهِ مُحَدِّقًا طَوَالَ النَّهَارِ
الْمُحْرَقُ بِهِذِهِ الصُّورِ الصَّامِتَةِ . وَمَا كَانَ الْقَمَرُ إِذْ يَعْلَأُ الصَّالَاتِ الْعَجِيْبَةِ
بِظَلَالِهِ الْتَّمَوِيْجَةِ لِيَقْفَهُ دُونَ مَتَابِعَةٍ اسْتَذَكَارَهُ . بَلْ ظَلَ يَحْدُقُ وَيَحْدُقُ
حَتَّى أَضَاءَ خَلَاءَ عَقْلِهِ نُورًا كَانُوا هُوَ الْأَهَامُ الْقَوَى جَعَلَهُ يَرَى مِنْ خَفَايَا
الْزَّمِنِ يَوْمَ وَلَدَ مَا يَهْزِ النَّفْسَ » . وَهُنَّاكَ جَاءَتْ لَهُ صَبَيْهَ مِنْ بَنَاتِ
الْعَربِ بِطَعَامِهِ فَبَكَلَهَا غَرَاماً . لَكِنَّهُ مَا لَبِثَ أَنْ عَادَ تَسْيَارَهُ خَلَالَ

بلاد العرب والعجم والهند ، جواباً ربوع الأرض وأقطارها باحثاً عن الحقيقة، حتى اذا كان يوماً مستقيماً خلال غابة تظله رأى أنفاسونمه «صبيةة مبرقة تجلس الى جانبه وتحدث في ألغام فهو به خفيضة بصوت كانه صوت روحه حين يستمع اليه في هدأة تفكيره .. وكانت المعرفة والحق والفضيلة مدار حديثها. كذلك كانت الـ آمال الكبـرى في الحرية المقدسة وما إلى هذه الـ آمال من أفكارـى أعزـى الـ أفـكارـ عليه . ثم كانـ الشـعرـ لأنـ كانـ هوـ شـاعـرـاً ». وتجلت الصـبيةـةـ لهـ فيـ خـلالـ هـذـهـ الـآمـالـ وـ الـأـفـكارـ والمـنـىـ فإذاـ جـالـ شـخـصـهاـ عـدـلـ جـالـ تـقـسـهاـ . وـ اـنـدـفـعـ مـحاـواـلاـ ضـمـهاـ

إـلـيـهـ وـ الـامـسـاكـ بـهـاـ ،ـ لـكـنـهـاـ تـرـاجـعـتـ ثـمـ اـبـلـغـتـهـاـ ظـلـمـ النـوـمـ .ـ وـ لمـ تـجـدـهـ

مـحـاوـلـتـهـ إـلـاـ أـنـ أـيـقـظـتـهـ الـهـزـةـ فـإـذـاـ الـقـمـرـ يـنـحدـرـ إـلـىـ الـمـغـيـبـ

وـ تـبـاشـيرـ الـضـيـاءـ تـرـقـمـ خـالـلـ سـجـوـفـ الـلـيـلـ .ـ «ـ إـذـنـ ضـنـاعـتـ هـذـهـ

الـصـورـةـ الـجـمـيـلـةـ ،ـ وـ ضـنـاعـتـ إـلـىـ الـأـبـدـ فـتـلـكـ الـصـحـرـاءـ الـوـاسـعـةـ لـاـ

طـرـقـ فـيـهـاـ ،ـ صـحـرـاءـ النـوـمـ السـكـاحـ !ـ أـفـيـؤـدـىـ بـابـ الـمـوـتـ الـأـسـوـدـ إـلـىـ

جـنـتـكـ الـعـجـيـبـةـ أـيـمـاـ النـوـمـ ؟ـ »ـ وـ يـنـطـلـقـ الشـاعـرـ مـفـكـرـاًـ أـنـنـاءـ قـطـوـافـهـ

مـسـتـذـكـراًـ صـورـةـ النـوـمـ الـجـمـيـلـةـ مـلـقـيـاًـ جـاهـلـاـ فـكـلـ ماـ تـخلـعـ الطـبـيـعـةـ عـلـىـ

الـوـجـوـدـ مـنـ جـمـالـ .ـ وـ فـيـاـ كـانـ عـنـدـ الـيـوـنـانـ بـصـرـ بـزـورـقـ لـاـمـالـكـ لـهـ

ذـالـقـيـ بـنـفـسـهـ فـيـهـ وـ دـفـعـهـ إـلـىـ لـجـ المـوـجـ يـتـقـاذـفـهـ رـجـاءـ أـنـ يـجـدـ إـلـىـ الـمـوـتـ

سـبـيلـهـ .ـ وـ تـدـافـعـ الـمـوـجـ وـ الـزـورـقـ حـتـىـ دـفـعـ بـهـ إـلـىـ جـبـالـ القـوـقـازـ

فـنـهـرـ تـحـيطـ بـهـ أـحـرـاشـ وـ غـابـاتـ ،ـ وـ هـوـ خـالـلـ ذـلـكـ كـلـهـ مـاـ يـكـادـ يـنـجـوـ

مـنـ خـطـرـ حـتـىـ يـفـجـوـهـ خـطـرـ جـدـيدـ يـقـرـبـ لـهـ الـأـمـلـ فـيـ النـجـاةـ بـالـمـوـتـ

وـ الـعـودـ إـلـىـ صـورـتـهـ الـجـمـيـلـةـ التـيـ أـرـاهـ النـوـمـ إـيـاـهـاـ .ـ وـ فـيـ هـذـهـ السـبـاحـةـ

يـشـدـوـ شـلـيـ مـتـغـنـيـاًـ يـهـاءـ الطـبـيـعـةـ وـ حـلـوـ حـدـيـهـاـ العـذـبـ إـلـىـ تـقـسـ بـطـلـةـ

الشاعر المشوق للموت حتى يصل بيطله الى غايته . وفي سياحة الزورق هذه بين موج البحر وفوق جنة النهر يصف شلي في النهر الذى أبدعه خياله ما نقل بصره الى حسه من آثار حين عوده من سويسرا راكباً نهر الميز ونهر الرين وما على شواطئها من بدائع الجمال ، ويصف منابع التمس التى زارها بعد عوده الى انكلترا وحين هذه المرض ، ويصف تلك المناظر الساحرة الى تهز القلب والفؤاد — مناظر شواطئ التمس كانت وما تزال مثال جمال قل في الجمال نظيره.

قال شلي مقدماً قصيده هذه لقرائه : « والصورة ليست خالية من العظة لا بناء الحياة الحقيقين . ذلك أن الشاعر في عزلته والمحصار خواطره في نفسه ، تذلل منه شياطين عاطفة قاهرة ما تزال تطارده وتخب به لتبلغ وإياه الى الدمار السريع . على أن الذين لا يخدعهم خطأ سخى ولا يدفعهم ظلمًا قدسي الى شك المعرفة ، ولا تضلهم خرافة باهرة ، ولا يحبون شيئاً على هذه الأرض ولا يتلقون بأمل وراءها ، ويتغدون بمنأى عن التعاطف مع أبناء جنسهم ، لا يسرورن بافراح الآنسان ولا يأسون لآحزانه — هؤلاء وأمثالهم يبوعون باعنة عادلة : يذوون لأنهم مامن أحد ، يشاطرهم الاحساس بطبيعتهم ، فهم أموات الأحياء لا هم أصدقاء ولا عشاق ولا آباء ولا هم من أبناء الدنيا ولا الحسينين الى بلادهم — وأخلق بالذين لا يحبون بني جنسهم أن تكون حياتهم عقيمة وأن يهيموا لارواحهم في كهولتهم قبراً موحساً » .

وانك لترى كل تلك المعانى التي أورتها المقدمة مجملية في ابهى صورها وأعظمها جلالاً وروعة في هذه القصيدة التي لا تزيد

على سبعين وعشرين بيتاً، والتي تمثل حياة النفس لعباد الوحدة وعشاق الطبيعة، مصورة في الحان سماوية الموسيقى إلى حد يحملك معه على موج ألغامها حتى لينسيك فيها جمال الانغام بدمع الصور، وللينسيك ابداع الصور روائع التفكير، وللينسيك روعة الفكرة جمال النغم. ثم تزأوج الانغام والصور والأفكار فيله تزواجها صورة الشاعر الشاب شلي في وحدته المنقطعة وأمله المتمدد في الحياة ومواجهته الموت في رعدة تتغلب عليها قوة نفسه، وانتصاره بعد ذلك على الألم وعلى المرض وعلى الوحدة وعلى الموت بهذه القطعة الخالدة من موسيقى شعر الألهة.

وفيما كان شلي في هذه الحال توفي جده السير بيش وأآل إليه بالوصية ايراد سنوي يبلغ ستة آلاف من الجنيهات. ولو انه لم يكن في شغل بتفكيره وبشعره، ولم يكن ينظر الى مزيد المال على أنه جريمة تدفع الى النقص وتزرى بالفضيلة، لذا صاب أباء الخصومة حتى يصل الى كل ما أوصى به جده. لكنه لم يرد الانقطاع لعرض الدنيا اذا وجد ما يسد حاجته ويكتفي شر دائناته. لذلك قبل أن يرتب له أبوه من ذلك الميراث كله الف جنيه في السنة تكتفيه وتكتفى ماري، وتكتفى من يلوذون به من صحبه. ورددت اليه هذه الطمأنينة المادية شيئاً من سكينة النفس كان في أشد الحاجة اليه ليتغلب على مرضه. وتغلب بالفعل عليه. وبدأ في سماء المجديات ان له نجم ان لم يكن ساطعاً سطواً بحجم بيرون فقد كان موضع التقدير من بيرون نفسه. على أن القدر لم تكتب لنفسه طول سكينة يوماً من الأيام. فقد بدأت ماري على جمال حكمتها ورجاحة عقلها

تحسن الغيرة لوجود جين معهما في البيت . وزاد هبيب هذه الغيرة ضر اما حين حملت فلم تستطع ملازمة شلي بما جعل جين تصحبه في جولاته وتعود وإياه متوردة الخد فياضة القلب بما يبعثه شلي الى كل ما يتصل به ومن يتصل به من مجال الوجود . وما عسى أن يصنع شلي بازاء غيرة ماري الا أن يطأطى علا رادتها ويخضع لمشيئتها ، وبخاصة أن جعلها الحمل في حال عصبية تثير معها كل مناقشة إياها لمشيئه تعلنه دموعا تذرى وأنات ألم تقطع النياط الحساسة لقلب محبهما الصادق الاخلاص ، والذى لا يرى مع ذلك في الحب معنى الاية الذى يذكر الغيرة ، بل معنى التسامح التام والاسترالكم كل من في الوجود في الاحساس والعاطفة . واضطررت جين لمغادرة المنزل وفي نفسها من الحب لشلي ما بغض ماري اليها ودفعها للتفكير في الانتقام لانفتها الجريحة . ولم يعوزها طول بحث لتدارير الانتقام . فإذا كانت ماري تعزز بخليلها شلي وماله من نبيل ومجده ومال فلتتخد هي خليلا لها أعرق من شلي نبلًا وأعظم بجدًا وأكثر مالا . ولتكن هذا الخليل لورد يرون نفسه . ولم تلق في تحقيق غاييتها اعنتا . فلم يكن يرون ينظر للحب نظرة شلي ولا كان يعبأ بالعفة ولا بظهور القلب . على ان ماري استراحت حين علمت بنجاح صاحبها ولم يبق بعد عندها موضع للغيرة منها .

وطلت ماري في سكينةها حتى وضعت طفلا لثانية أشهر من الحمل فلم تقدر له الحياة . ولم يطل بها الحزن عليه أن حملت صرقة أخرى وإن وضعت غلاما أسمته باسم آيتها وليم . لكنها برغم سعادتها بهذا الطفل الثاني ورغم شعورها بكل ما في الامومة من مزيد في

الحياة ، جعلت تحس وحدهما وسط الجمعية الانكليزية تزداد وطأتها
تقلا عليها وعلى برسى . وأكثر من الشعور بالوحدة كان شعور
آخر يهيج غيرتها بقدار ما يهيج آلام زوجها ويبعث إلى نفسه
نوعا من لذع الضمير طالما حاول أخفات صوته ، ثم ظل مع ذلك
دائماً على تعذيبه . فقد أصبح هجره هاريت موضع حديث الناس
وموضع لغو أصدقائه . وكان اجماعهم منعقداً على أن البائسة
لم تأت أثماً ولم تجنب ذنبًا ، وإنما الذنب والاشم على شلى الذي هجرها
وتبدل بها غيرها وظن أن لم تبق له جريمة عندها ما دام قد ضمن
لها ولا بنائهما منه رزقها . وأنه بالرغم من هذا الشعور فانتهيا إلى استحالة
المقام بإنكلترا وضرورة هجرها إلى حيث لا يعلم قصتها أحد .
واذاً كانت هواجس ماري قد هدأت من ناحية حين وكانت هذه
وحدها هي شريكة حبها وصلتها من ذئب شاهما ، فقد سمعا إليها حين
اقترحت عليها السفر إلى سويسرا للمقام عند صفاق الميمان على مقربة
من جنيف . وزاد ماري اطمئنانها إلى اقتراح صاحبة سرها أن علمت
إنما جملها عليه اعتزام بيرون ان يسافر إلى تلك الناحية فرارا من
اتهام الجمعية الانكليزية اياب بعشرة اخته او جستا . فلن تعود بين
حين وشلى اذاً أية صلة ما دام بيرون سسيقوم منها مقام شلى من
ماري . واذاً فليسافر ثلاثة إلى ضاحية جنيف ولينتظروا هناك
مقدم النبيل العظيم .

ووصل الجوار ثم وصلت الصدقة ما بين بيرون وشلى ، وزاد
الصلة بينهما أن خللت حين مقيمة عند شلى متعددة آناء الميل وأطراف
النهار على بيرون . على أن أمنن ما قوى صلتها كان الوسط الذي

يعيشان فيه ، وسط سويسرا الشعري البديع الذى يوحى الى النفس والقلب والنفود ما يملؤها شعرأً ويزيدتها للجمال قدرأً . وكان هذا الوسط، أول تعارفهما، في أجل فصوله . فقد نزلا جنيف إبان بشائر الربيع في مختتم ابريل ومفتوح ما يو حين تبدأ حياة الطبيعة يقظتها من سنة الشتاء ، وحين تبدو أوراق الشجر في زهو خضرتها الجديدة ما يزال لها كل صباحا وكل ما للصبا من بهاء وروعة ، وحين الثلوج ما تزال تعطى قم الجمال وتكسو عوالى سفوحها كساء يتباين ضياؤه أثناء النهار ويكسوه شفق المغيب كما يكسوه مطلع الشمس ، من الاحمر القاني الى الاحمر المتورد ، بما يلاء خيال الشاعر بأجل الصور ، وحين تتعكس سفوح الجبال وقمها الرفيعة على سطح مياه البحيرات حين يكون هذا السطح هادئاً ، فإذا دفعت الريح الموج متلاطما فوقه رأيت السفوح وأشجارها والقمم وثوّجها توج متلاطمة هى الاخرى . قوى هذا الوسط صلة الشاعرين أن وجدوا فيه خير مسرح لخيالهما المتقد وأن شعرا في شغاف قلبيهما بحب له يزداد استعاراً كلما زداد من هذا الجمال الساحر نهلا . وذلك فرق ما بين حب الطبيعة وحب المرأة ، بل هو فرق ما بين حب المرأة وحب كل جمال غيرها في العالم . حب المرأة انما اثر غايتها الحمایة والملك والمنزلة والاسترقاء . فكل شركة فيه تنتهي الى الجريمة عهراً كانت الجريمة او غيره تنتهي الى القتل وما هو شر منه . اما حب الجمال في غير المرأة فهو الحب الذى يفهمه شلى وينادى به ويدعو الى الشركة فيه . هو تقديرس الجمال في كل مظاهره والاستراك فى هذا التقدير ليس ليزداد بالاستراك سمواً وجلاً . وكم كان جمال سويسرا واستراليا شلى وبيرون في

تقديسه من أثر في شعرها . على أنه مع ذلك لم يقرب بين روحهما ،
لأن كل واحد منها كان مختلف عن الآخر في نظرته إلى الحياة
عام الاختلاف : فقد كان عقل شلي وقلبه وشخصه وكل وجوده
شعرًا خالصا . كان لا يعرف شهوات الإنسانية ، ولا يخالط بنفسه
وضيع عواطفها ، وكان لذلك يرى جمال الكمال ملهموساً محسوساً ،
وكان يصور كل ما يقع عليه حسه وكل ما يحيط بقلبه في أنقام من
الشهر والنشر لا أثر لغير روح الجمال وعبادته فيها . وإنك لتعجب
حين رجوعك إلى ديوان شعره وانى رسائله وكتبه ، اذ ترى كل
ساختة من السوانح وكل منظر من المناظر وكل ما اتصل بشلي في
يقطنه وفي نومه ، قد اكتسى ثوب الجمال ، وادت ترى هذا الجمال
مصوراً أنفاماً قدسية يختلط عليك حين تقرؤها أشعاره أم وسيقى
أم رسم وتصوير . أما بيرون فكان شاعرًا ، ولكنكه كان إنسان له
كل شهوات الإنسان قوية غالبة عليه متحكمة فيه ، وكان يرى الجمال
من خلال هذه الشهوات فيشدو به في شعره ساميماً بهذه الشهوات
نفسها إلى سماء الشعر ملبساً أيها شفوف الجمال . وكان بيرون مشغولاً
بالجهد تتسلط عليه شهوته إلى حد اشتق معه عليه شلي كأشفق عليه لضعف
روحه ونزوله إلى مراتب الإنسانية الوضيعة رغم ما انعمت به آلة الشعر
عليه من جمال في النفس وسمو في الفكر . وكم حاول أن ينزع به إلى غير
ماتدفعه إليه شهواته ، وأن يجد به إلى ناحيته ، فناسياً أن ليس في
مقدور إنسان تحويل طبيعة . ولم يتغير عليه بعد ما افترقا ، بل جعل
يرأسه طمعاً في إنقاذه من براثن شهواته التي كانت في نفس الوقت
مصدر كل وحيه وأهاته .

وبرغم مامتلاً به قلب شلى من جمال سويسرا فقد كان دائم
الحنين الى بلده . وكان حنينه قوياً منذ أول مغادرته شواطئها وان
كانت هي التي أجهزه الى هجرها والقرار منها . قال في خطاب بعث
به الى صديقه ييكوك يعبر عن تحنانه : « إنكم لتعيشون على شواطئ
نهر مطمئن بين تلال خفيفة تغطي الغابات سفوحها . ثم إنكم
تعيشون في بلد حر لا يحول بينكم وبين ما تعلمون قهر ، وتطمئنون فيه
إلى ما يقع في ملككم . وما بقيت هناك ممالك وما بقيت اعتبارات
الايرة التي تنتهي فكررة المملكة عليها ، فانا واثق من أن انكلترا أكثر
الممالك حرية وتماديها . ولذلك كنت حكماً في اختيار طريق
حياتك . على أى ان عدت واحتذيت مثالك فلن آسف على مارأيت
من ممالك أخرى . فلدينا لاريب كثير من الخبرة والطيب ، وكثير
يزدرى وكثير يمكن السمو به نحو الكمال . لكن ذلك كله لا يعرفه
ولا يحس به من لم يبرح حدود وطنه . ومadam الانسان على ما هو
عليه فان التجربة التي جربها لن تدعوه لاحتقار الامة التي ولد فيها .
بل على العكس من ذلك ، هو لن يقدر ما يربطه بوطنه من حب حتى
يجعله الغياب عنه أشد شعوراً بحاله . فشعراؤنا و فلاسفتنا و جبالنا
وبحيراتنا ، وقرانا و مزارعنا التي لا شبيه لها عند غيرنا — كل هذه
روابط لن تبت ولن تتحطم أو أصبح ولا دراك عندي
ولا جس لي »

وبعما فات شلى أنى يذكر شيئاً آخر يربطه بإنكلترا ولا يقل عن
كل ما ذكر قوة . ذلك عصفوره هاريته وابنته يانت وابن هاريته
المنسوب اليه وإن أنسك هو أبوته . فلقد كان كثير التفكير أثناء

وجوده على شواطئ ليمان في هاته التي ترك وان كان يعلم أنها في طمائنة مادية بما أجراه عليها من رزق وما يجريه أبوها عليها من رزق منه . وكان يعلم من أخبارها أنها ساء سلوكها وأنحدرت الى مستوى يقرب من الدعارة ، فكان يمس على نفسه في ذلك بعض التبعة ، ويحاول اقناع نفسه بما يزحزح التبعة عنه . ولئن كانت هاريت قد أساءت اليه أفلست يانت ابنته ويجرى في عروقها الدم الذي يجرى في عروقه . لكنه لم يكن يستطيع الاسراع الى مغادرة سويسرا ومارى متعلقة بها جريحة القلب من سوء صنيع مواطنها بصاحبها وبها . لذلك اقتني بالاشترالك مع بیرون زورقا جعلا من رياضتها عليه فوق لج اليمان مستوحى لاهامها . وكثيراً ما كانت تصاحبها ماري وجين ، فتتغنى هذه الاخيره بصوتها الحلو الرقيق توقع أنفاسه على موجات هواء الجبال العذب الصافى ما يزيد الهواء والبحيرة والجبال جمالاً وما يزيد اهتم الشاعرين روعة وقوه .

على أن جين كانت قد حملت من بیرون منذ كانا في انكلترا وأن لها وهم في سويسرا أن تضع طفلة دعتها كلارا اللجر . من يومئذ بغضت الى نفس بیرون . وازداد لها بغضاً حين تحدث اليه شلى فيما يريد أن يصنع بالطفلة وبأمها . وكان بیرون في هذا الظرف غليظ القلب مغالياً في النجاح باحتقار خليلته واحتقار النساء جميعاً واعتبارهن متاعاً لشهوة الرجال الى حد لم تطقه الذكية الانوف ماري ولم تطق معه البقاء على مقربة من هذا الذي يدعوه الناس نديلاً فإذا نبله قحة ، ويحسبوه شاعر الحب فإذا جبه شهوة وإذا شعره غلظة كبد حتى على ابنته . واقترب هذا الشعور عندها بعاطفة

البر بآيتها ، وذكرت تعاليه السامية وأراءه في المودة والتسامح والحب ، وشاركت شلي في فكرة العود الى الوطن ، فكتب الى ييكوك يطلب اليه أن يستأجر له داراً (فيلاً) على شواطئ النهر وبين الاحراش والغياض .

عادوا الى لندن وفي عزم شلي أن يستقر بوطنه طول حياته ، غيرذا كرأن لاسلطان لاحد من الناس على مصيره ، جاهلا ما خبأته القدر له من فواجع تقض مضجعه وتضطره الى المقام بقية أيامه بعيداً عن انكلترا . فقد كانت فاني املاى تراسهم حين كانوا بسويسرا ، وكانت رسائلهم لها تبعث الى حيائنا البائسة خطياً من نور الامل في رؤيتهم يوماً من الايام . فلما عادوا الى لندن وعاشوا فيها عيش يسار استمتعت به جين ، مع وجود أمها في بيت جودوين ترهق فاني وتعذبها في حين كانت فاني أحق بهذا اليسار الى جانب أخيتها ماري ، ولما كانت لاتستطيع الالتجاء الى بيت شلي لتعلق قلبها به تعلقاً يجعلها لاتطيق المقام الى جنب ماري ، بعثت اليهم صباح يوم من سنة ١٨١٧ بخطاب من برسنول تقول فيه : « انى ذاهبة الى مكان أرجو ألا أعود منه أبداً » . فسارع شلي بالسفر الى برسنول ومنها عرف الى أين سافرت الفتاة ، وذهب الى الفندق الذي نزلت به فانفها انتحرت بالسم وتركت خطاباً تذكر فيه أن بوسها كان سبب اخترالها أيامها وقضاءها على حيائنا .

وهز هذا الحادث قلب شلي وأعصابه . وزاده اهتزازاً ما ذكرته مسز جدوين من أن فاني انتحر لفطر حبها إياه حباً ضاع كل أمل

في أن يجد ما يحييه . وعن هزة قلبه يعبر في أبيات ستة يقول فيها :
« اصابت الرعشة صوتها ساعة رحلنا وما كنت أدرى ان القلب
الكسير مبعثها ، فرحلت ولم أعن بما القت من كلمات . إيه أيها
البؤس ! ان هذه الدنيا الفسيحة كلها ميدانك » على أن قلبه بلغ غاية
الاضطراب لحدث آخر ليس دون هذا الحادث شناعة ولا قسوة .
ذلك لأن هاريت بلغ من الخراطها في اللهو أن جملت من أحد عشاقها
وأن تقدم بها الحمل وأن شعرت إذ ذاك بما يتهددها من عار يسقطها
أمام شلي ، ويرفع ماري في نظر الجمـهـور عليهما ، ويوقع على رأسهما ما كانت
ترزعم أنها تدبره من أسباب الانتقام . فذهبت إلى نهر ألتـقـتـ بـنـفـسـهاـ
فيـهـ ، فـاتـتـ منـتـحـرـةـ هـيـ الـآخـرـ . وـلمـ يـكـنـ بـينـ اـنـتـحـارـهـ وـانـتـحـارـ
فـانـيـ الـآـيـامـ . وـذـكـرـتـ التـيمـسـ خـبـرـ اـنـتـحـارـهـ وـسـبـبـهـ مـنـ غـيرـ أـنـ تـذـكـرـ
اسـمـهـ . وـكـانـ هـذـاـ اـخـبـرـ أـقـسـىـ مـاـ يـسـتـطـعـ شـلـيـ اـنـ يـطـيقـ : دـعـارـةـ خـفـلـ
فـاـنـتـحـارـ . يـالـلـعـارـ ! وـيـاـبـؤـسـ اـبـنـائـهـ بـأـمـ تـلـكـ خـاتـمـهاـ ! وـيـاـبـؤـسـهـ هـوـ بـحـيـاـةـ
تـسـيرـ مـسـرـعـةـ الـذـبـولـ إـلـىـ أـوـرـاقـ الـرـبـيعـ مـنـهـاـ فـتـهـجـرـهـ اـبـنـةـ عـمـهـ هـارـيتـ
جـرـوفـ وـتـعـقـهـ أـخـتـهـ الـيـزـاـبـثـ وـيـغـبـطـ لـلـتـخـاصـ مـنـ مـسـ هـتـشـنـرـ وـتـجـافـاهـ
كـرـنـيلـياـتـرـنـ وـتـنـتـحـرـ بـسـبـبـهـ فـانـيـ اـمـلـاـيـ وـهـارـيتـ وـسـتـبـروـكـ . تـرىـ
أـلـمـ يـأـنـ هـذـاـ بـؤـسـ أـنـ يـنـتـهـىـ وـلـلـقـدـرـ أـنـ تـهـدـأـ عـلـيـهـ ؟ـأـنـتـهـ ؟ـ

لـكـنـ لاـ ! فـقـدـ طـلـبـ حـضـانـةـ أـبـنـائـهـ مـنـ هـارـيتـ خـالـفـهـ فـيـ ذـلـكـ
أـبـوـهـ وـتـقـاضـيـاـ فـأـنـصـفـ الـقـضـاءـ الـجـدـ ، بـحـيـجـةـ أـنـ عـقـيـدـةـ شـلـيـ فـاسـدـةـ
وـيـخـشـيـ أـنـ يـنـشـيـءـ اـبـنـائـهـ عـلـيـهـ . وـاـنـماـ خـفـفـ مـنـ هـذـاـ الـحـكـمـ أـنـ عـهـدـ
الـقـضـاءـ بـالـحـضـانـةـ إـلـىـ مـنـ اـخـتـارـهـ شـلـيـ مـطـمـئـنـاـ عـلـىـ اـقـامـتـهـ فـيـ تـرـبـيـةـ اـبـنـائـهـ .
وـأـنـاحـ لـهـ اـنـتـحـارـ هـارـيتـ أـنـ يـعـقـدـ عـلـىـ مـارـىـ وـأـنـ تـعـودـ لـذـلـكـ

حصلته بجماعة جدوين . وكان العوز قد ألحَّ تؤلف (العدل السياسي) حتى
صار علة على شلي هو أيضاً وحتى جعله يعود إلى الاستدانة من
جديد . ولم يكن جدوين وزوجه وحدهما هما المداناً كفل شلي في
ذلك الظرف ، بل أغان صديقه لي هنت وكان له خمسة أولاد من زوجه
مناريان ، وأغان صديقه بيكونك كي يتتابع كتابة روایات رأى شلي في
كتابتها خيراً وأصلاحاً للجماعة . مع ذلك كله ، مع الاضطراب المالي
ومع انتشار نفاني وهاريت في أيام ، ومع منازعة وستبروك إيه في
حضانة ابنائه ، فقد تحسن شلي بارادته الصلب . وحاول أن يظهر كل
هذه الآلام ويتباهي على كل المتاعب . وشلي ، على رقتها وإياها وعبادتها
الجمالية وتعلقة باللغام الشعري ، كان ذا عزيمة لا تعرف المستحيل ولا تقف
في سبيلها عقبة من العقبات . تحسن بهذه الارادة وحاول أن يظهر أمام
الجمعية وكانت لم تتجه فاجعة ولم تغير الحوادث التي مرت من نفسه .
غابتاع ييتاً ظريفاً في مارلو أقام فيه معماري وابنه وابنته منها ومع جين
وابنته من بيرون . على أن الارادة الصلب والعزيمة القوية تستطيعان
مغالبة الوجود وقهر المستحيل مادامت الروح التي تحركهما وتصدران
عنها مطمئنة قوية لم يندس إليها ما يضعفها ويزعزع ركناها . فأمانا
أن ضعفت الروح واهتزت قوتها المعنوية فقل على الارادة وعلى
العزيمة وعلى كل قوة من قوى النفس السلام . وقد هدت الحوادث
التي مرت بشلي من روحه فتضعضعت وضفت . وشعر بهذا
الضعف فانطلق ملتمساً الوحدة كي يخفى عن الناس ضعفه . والأنوف
المعتز بقوتها نفسه لا يشعر بجرح ينال منه مبلغ شعوره بأن يراه
الناس ضعيفاً مثلهم خاضعاً لتصارييف التقدير خضوعهم . في هذه

الساعات التي ينسى المرض فيها من جسم ذلك الانوف أو تناول الحوادث من نفسه، يود لو ان الانسانية كلها ولو أن أقرب الناس إليه من ذويه وأهله لم يكن حوله منهم أحد ليطام على ضعفه أو يشاهد هبوط نفسه. وجعل شلي يذهب الى جزر التمس المنقطعة يقضى فيها نهاره وشطرًا من ليته يشاهد الطيور الساجدة في الماء والملحقة في الجو، ويحاول استعادة سكينته بالتحليل في عالم الشعر واستمداد القوة الروحية من وحيه. ولم يكن في استمداده هذه القوة يرجو غير ما كان يطمع فيه أول صياغة من تحقيق سعادته بني الانسان.

فقد زادته حوادث التي كرت عليه ايامناً بأن نظام الجماعة الفاسد هو الذي دفع الى هذه الكوارث المتواترة وتلك المأسى الفاجعة التي تذهب باللب وتصدع القلب. وكانت قصيدة الكبرى الثانية — ثورة الاسلام — والتي كان يصدق فيها من قبل أن تقجأ الحوادث تبعاً، قد فرغ منها أو كاد. فوضع قصيدة أخرى أسمها «لاون وستنا» ضمنها مسارح أفكاره في ذلك الظرف العصيب من حياته. وضعاها أثناء تلك الجولات في أحضان الوحدة مقتضايا نفسه أن يكون فيها مثال سمو فوق المرض والالم وكل أسباب الضعف الانساني الذي لا يليق بأمثاله من يؤمنون بهم يقبضون بيدهم على ناصية الوجود

ولم تكن جولاته ولا كان شعره ليزد اليه طائفة نفسيه أوليدفع عنه غائلة همومها. بل لقد جنت هذه المهموم على صحته ورددت اليه صرخ صدره وجعلته يفكرا جاداً في وسيلة البرء من علته. كتب الى جودين في ٧ ديسمبر خطاباً يصف له فيه حاله جاء فيه:

« وكانت صحتي أسوأ بالفعل . فان مشاعرى لتهبط أحياناً الى حد الذهول والموت ، ويبلغ بها التوتر أحياناً أخرى الى حد غير طبيعي من التهيج . ولا تقتصر على مثل مما يعذبني خاصاً بى بصرى . فان اوراق الحشيش وغضون الاشجار البعيدة لتبدو انتظارى بدقة مكر سكوبية . فإذا اقبل المساعغرقت في بخار من الهبوط وضعف الحياة وبقيت مستلقياً - في كثير من الاحيان - ساعات على المضجع وانا بين النوم واليقظة فريسة تهيج ذهني مؤلم أشد الالم . ذلك أمرى الا في قليل . أما الساعات التي خصصت للبحث فقد اخترتها بعناية من دين الساعات التي استطاع المقاومة فيها . على أن ذلك كله ليس هو سبب تفكيرى في السفر الى ايطاليا ؛ طمعاً في ان تقذنى منه . كلا ! بل لقد عاودتني نوبة صدرية . ولئن كانت قد انتهت الاَن غير قاركه وراءها اثراً لوجودها الاَن هذا العرض دلائل على حقيقة المرض الذى يؤويه صدرى . ومن مصلحتى أن يكون هذا المرض بطبيعته بطبيعاً وان الانسان اذا عني بتتبع تقدمه استطاع التغلب عليه والبرء منه في جو دافئ . فاذعاد هذا المرض على صورة واضحة أصبح واجباً على أن أسارع بالذهاب الى ايطاليا . على أننا نسافر حين يصبح السفر واجباً محظوماً ، تمخالية هذا السفر مقاصدنا أنا ومارى متأثرين بعواطفنا نحوك . وأحسبني في غنى عن أن أذكرك ، فضلاً عن آلام الذين يعيشون بعد موت عزيز عليهم ، بسلسلة الفتاح السعيدة التي تترقب على موتي . وانا يحملى على هذه الصراحة القاسية ما بدا لي من أنك لم تدرك حقيقة مقصدى . فليست الصحة واما هي الحياة التي أبحث عنها في

ايطاليا. ولست أبحث عنها من أجلِي ؛ فَأَنَا أُشْعِرُ بِالْقَدْرَةِ عَلَى نَفْسِي
أَزْأَعْمَلُ هَذَا الْضَّعْفَ، وَأَنَا أَبْحَثُ عَنْهَا مِنْ أَجْلِ أُولَئِكَ الَّذِينَ تَفَيَّضُونَ
عَلَيْهِمْ حَيَاةً سَعَادَةً وَمَنْفَعَةً وَأَمْنًا وَكَرَامَةً ، وَمَنْ بَيْنَهُمْ مَنْ يَنْقُلُبُ
عَلَيْهِ أَمْرُ هَذَا كَلَهُ إِلَى النَّفَيْضِ إِذَا أَتَاهُ مَتْ».»

وَمَا يُشِيرُ إِلَيْهِ شَلِيْ شَلِيْ مِنْ سَوْءِ فَهْمِ جَدُوْيِنْ إِيَاهُ هُوَ تَأْوِيلُ
جَدُوْيِنْ سَفَرِ صَهْرِهِ إِلَى اِيطَالِيَا بِانْهِ الْفَرَارِ مِنْ مَعْوِنَتِهِ الْمَالِيَّةِ . عَلَى
أَنْ مَارِيَ لَمْ تَبْرُحْ اِنْكَلَاتِرَا حَتَّى كَفَلَتْ لَأُبِيهَا عَنْ طَرِيقِ شَلِيْ رِزْقَا
يَقِيهِ فِي شِيشِخُوتِهِ ، كَمَا كَانَتْ طَوَالِ إِقَامَتِهِمْ فِي اِيطَالِيَا لَا تَنْفَكُ
تَعِينَهُ بِتَخْصِيصِ مَا يَقْعُمُ لَهُ ثُنَانًا لِلْرَّوَابِلَاتِ الَّتِي تَكْتَبُهَا مَعْوِنَتِهِ ،
وَبَدْفَعُ شَلِيْ لِيَزِيدُ فِي هَذِهِ الْمَعْوِنَةِ جَهَدَهُ . وَلَعِلَّ اِحْسَاسَهَا بِحَاجَةِ
شَلِيْ إِلَى السَّفَرِ كَانَتْ أَشَدَّ مِنْ اِحْسَاسِهِ هُوَ . فَقَدْ أَثْقَلَتْهَا حِينَ
وَابْنَتِهَا وَطَمَعَتْ حِينَ وَجُودَهَا عَلَى مَقْرَبَةِ مِنْ بَيْرُونَ إِذَا يَضْمِنُهَا
إِلَيْهِ . عَلَى أَنَّهُمْ ظَلُوا يَنْظَمُونَ شُؤُونَهُمْ وَيَبْدِيُونَ دَارَهُمْ فِي مَارِلُو
وَيَقْتَضُونَ النَّاسَ فِيهَا مَا يَسْتَطِيُونَ اِقْتِضَاءَهُ مِنْهُمْ حَتَّى أَسْتَطَاعُوْ
أَعْدَادَ أَهْبَتِهِمْ لِلْسَّفَرِ ، وَسَافَرُوا فِي مِنْتَصَفِ مَارِسِ سَنَةِ ١٨١٨
قَاصِدِينَ مِيَلَانُو لِيَذْهَبُوا بَعْدَ مَنْهُمَا إِلَى الْبَحْرِيَّاتِ الإِيطَالِيَّةِ آمِلِينَ
أَنْ يَجِدُ شَلِيْ فِي شَمْسِهَا وَهَوَاءِ الجَبَالِ عِنْدَهَا وَرْقَةَ الطَّبِيعَةِ الْمُحِيطَةِ
بِهَا مَا يَشْفِي صَدْرَهُ وَيَرِدُ إِلَيْهِ سَكِينَةَ نَفْسِهِ .

غَادَرَ شَلِيْ اِنْكَلَاتِرَا قَاصِدًا اِيطَالِيَا فِي مَارِسِ سَنَةِ ١٨١٨ . غَادَرُهَا
مَسْتَصْحِبًا زَوْجَهُ مَارِيَ وَابْنَهُمَا وَلِيمُ وَكَلَارَا ، وَمَسْتَصْحِبًا كَذَلِكَ
جِينَ كَلِيرِمُونَ الَّتِي كَانَتْ تَطْمَعُ فِي أَنْ تَرَى اِبْنَتَهَا مِنْ بَيْرُونَ فَتَرَوْيِ

غلاة قلبها الظماء شوقا لها . وصرروا بليون فجیال الألپ حتى
نزلوا میلانو . ومن هنالک قصدوا البحیرات الايطالية التي كانت
منذ القدم مغني الشعرا وملهمة الموسيقيين والمصورين ورجال الفن
جميعاً . وأعجب شاعرنا بهذه البحیرات و (بکومو) منها بنوع
خاص ، حتى لرأى أن ليس يعدھا أو يزيد عليها جمالا غير بحیرات
کلارنی الارلنديه . على أئمہ لم يجدوا في منطقة البحیرات الدار
التي تعجبهم فعادوا الى میلانو حيث وجد شلى في كنيستها ملحاً
طمئن له روحه التي كانت ثائرة من قبل على كل كنيسة وعلى كل
دين . وكنيسة میلانو جديرة بأن تطمئن النفس بجمال ظاهرها وهيبة
داخلها هيبة تبعث الى النفس طائنية الاسلام للحياة ولما بعد
الحياة . لكن أمر شلى لم يقف عند حد الاعجاب بجمال كنيسة
میلانو وهيبتها ، بل إن نفسه التي كانت جوحاً ثائرة على كل شيء
قد وجدت في آلام الحياة وصدماتها المتواتية ماهد من ثورتها
وما أراها ضعف الانسان وعجزه التام أمام الوجود ، فعاد الى نوع
من الايام بعظامه الوجود مثلاً في الكنائس والبيع وبيوت الله
جميعاً ، وجعل يرى فيه ملحاً يختفي به الانسان من ضعفه ، بل
يستريح فيه الى هذا الضعف ويطمئن له .

ومن میلانو كتب شلى الى بيرون في شأن اللجراء منبئاً إياه
بوجود أمها معهم . ورد عليه بيرون معلناً في صراحة وقحة ، أنه
لن يرى لجين وجهها ولن يسمح أن تعرف اليه طريقها . ورأى شلى أن
لا وسيلة للتخفيف ولو بعض الشيء من حدة صاحبه الا أن يذهب
اليه في البندقية . وغادر ماري وابنیهما وذهب مستصححاً حين التي

أَلْتُ فِي السُّفُرِ رِجَاءً أَنْ تَرِي ابْنَهُمَا وَلَوْ خَلْسَةً وَمَنْ غَيْرَ أَنْ يَعْلَمْ
يَبْرُونَ بِوْجُودِهِا . وَتَقَابِلُ الشَّاعِرَانِ وَتَحَادُثُ فِي الْأَمْرِ حَدِيثًا أَتَهُمْ
يَبْرُونَ مَعَهُ إِلَى السَّمَاحِ بِأَنْ تَقْيِيمُ الطَّفْلَةِ مَعَ أُمَّهَا وَشَلَّى فِي
دارِ لَهُ بِنَاحِيَةٍ «إِسْت» شَهْرِيْنِ كَامِلَيْنِ عَلَى أَلَا يَكُونُ لَجِينَ
بَعْدَهُمَا مَطْلَبٌ عَنْهُمَا أَوْ رِجَاءٌ فِيهِ . وَأَعْجَبَ شَلَّى بِالْمَدِينَةِ
السَّابِحَةِ غَرْقًا فِي لَجَةِ الْأَذْرِيَّاتِكَ وَبِجَزِيرَاهَا وَكَنَائِسِهَا
وَبِهِوَامِهَا الْعَطْرَ بِأَرْبِيجِ الْحُبِّ الْمُتَغَنِّيِّ وَاهْلَهَا فَتَرَاتُ مِنَ الْلَّيْلِ
بِأَنَّا شِيدَهُ ، الْدَّاهِبُ فِي الْمَتَاعِ بِهِ إِلَى حَدُودِ الْاسْتِغْفَارِ عَنْهُ بِاقْتَامَةِ
الْكَنَائِسِ الْكَثِيرَةِ عَلَيْهَا تَسْعُ ذُنُوبَ أَهْلِ الْمَدِينَةِ جَمِيعًا وَعَلِيِّ إِحْدَاهَا
تَكُونُ أَقْرَبَ مِنَ الْأُخْرَى إِلَى دُعَاءِ مُسْتَجَابٍ .

وَرَأَى بَعْدَ الذِّي عَرَضَهُ يَبْرُونَ وَبَعْدَ ذَهَابِهِ وَجِينَ وَابْنَتِهِ
إِلَى إِسْتِ أَنَّ الْمَسَكَاتِيَّةَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ مَارِيَ أَصْبَحَتْ لَا تَكْفِي فَدَعَاهَا
لِتَقْيِيمِهِمَا . وَمِنْ هَنَاكَ عَرَفَتْ مَارِيَ الْبَنْدِيقِيَّةَ وَتَعْلَقَتْ بِهَا وَبِرِمَالِ
الْمَيِّدُو وَمَصِيفِهَا . عَلَى أَنَّهَا ازْدَادَتْ مِنْ بَعْدِ بَهْنَهُ الرِّمَالَ تَعْلِقاً أَنْ
خَلَقَتْ فِيهَا ذَكْرِيَ فَاجْعَلَهُ أَلَّا يَلِي فِي حَيَاتِهِ . فَانْشَهَرَتِي «إِسْت»
مَا كَادَ يَقَارِبَ بَانِ التَّامِ لِيَعُودَ شَلَّى وَرَهْطَهُ إِلَى مِيلَانُو حَتَّى كَانَتْ
ابْنَتِهِ كَلَارَا قَدْ مَرَضَتْ . وَبِرَغْمِ مَا بَذَلَتْ أُمَّهَا مِنْ عَنَائِيَّةِ بَهْنَهَا ظَلَّ
الْمَرْضُ مَتَابِعًا سَيِّرَهُ حَتَّى رَأَوْا ضَرُورَةَ النَّهَابِ إِلَى الْبَنْدِيقِيَّةِ لِاستِشَارَةِ
طَبِيبٍ وَجَوَا إِنْ يَكُونُ أَكْثَرُ مِنْ طَبِيبٍ «إِسْت» حَدِيقَا وَمَهَارَةً .
لَكِنَّهُمْ مَا لَبَثُوا إِنْ وَصَلُوا هَنَاكَ حَتَّى كَانَتِ الْفَتَاهُ فِي آخِرِ لَحَظَاهُمْ
وَحَتَّى أَسْلَمَتْ رُوحَهَا الْبَرِيَّةَ الطَّفْلَةَ قَبْلَ إِنْ يَحَاوِلَ طَبِيبَهَا الْحِيلَوَةَ
بَيْنَهَا وَبَيْنَ بَارِئَهَا . وَذَهَبَ شَلَّى وَذَهَبَتْ مَارِيَ يَحْمَلَانِ الْجَسِيمَ الصَّغِيرَ

إلى الميدو فدفناه في رماله المختلطة صفرتها البهيجية بزرقة الموج
المحيطة بها والدائمة الصفو برغم ما تحوى من أجداد ورموز
يخلع عليها جلالها جالا.

وجرحت أمومة ماري جرحاها الأول وعرف الحزن إلى قلبها
السبيل. لكنها سرعان ما نزعـت وظهرت بمظاهر القوى الذي لا يترى عزـعـ
حين تمرـبه أعاـصـيرـ الـقـدرـ . وكان مـظـهرـهاـ هـذـاـ بـعـضـ تـعـالـيمـ آـيـهـاـ .
فنحن في الحياة نؤدي للحياة واجبـاـ بالـبرـ بالـأـنـسـانـ والعـطـفـ عليهـ ،
وبـتـخلـيـدـ النـوـعـ وـالـقـيـامـ عـلـىـ تـرـيـتـهـ ، وـبـنـشـرـ العـرـفـانـ وـالـنـورـ وـالـعـمـلـ
لتـقـتـلـيـءـ بـهـاـ القـلـوبـ جـمـيعـاـ ، وـبـالـجـهـادـ فـيـ سـبـيلـ الـحـرـيـةـ كـيـ تـتـمـتعـ بـهـاـ
الـبـشـرـيـةـ كـلـهـاـ . وـمـاـ أـحـسـنـاـ أـدـاءـ هـذـاـ الـوـاجـبـ فـنـ حـقـنـاـ أـنـ نـكـونـ
سعـداـءـ أـيـاـ كـانـتـ الـمـتـيـجـةـ التـيـ يـسـفـرـعـنـهـاـعـمـلـنـاـ . وـكـلـ شـرـ لـاسـلـطـانـ لـنـاـ
عـلـيـهـ وـلـاـ قـوـةـ لـنـاـ فـيـ دـفـعـهـ لـاـ مـوـضـعـ لـلـأـسـىـ مـنـ أـجـلـهـ . وـثـكـلـ الـوـالـدـ
وـلـدـ بـعـضـ مـاـلـاـ سـلـطـانـ لـنـاـ عـلـيـهـ مـنـ أـعـاصـيرـ الـقـدرـ ، فـلـيـكـنـ مـوـقـفـنـاـ مـنـهـ
مـوـقـفـ إـيـاءـ وـكـرـامـةـ لـاـ مـوـقـفـ ضـعـفـ وـحـزـنـ . لـيـكـنـ مـوـقـفـنـاـ مـنـهـ
مـوـقـفـنـاـ مـنـ خـصـمـ يـنـاوـئـنـاـ لـيـبـتـرـ مـائـنـاـ ، أـفـتـرـانـاـ إـذـاـ اـبـتـزـهـ فـأـتـلـفـهـ خـاضـعـينـ
لـهـ مـتـخـاذـلـينـ أـمـامـهـ ؟ أـمـأـنـاعـلـيـعـكـسـ مـنـ ذـلـكـ زـدـادـ أـمـامـهـ كـبـراـ وـأـنـفـهـ ؟
كـذـلـكـ ظـهـرـتـ مـارـيـ أـنـوـفـالـمـ يـعـرـفـ الـهـمـ وـلـاـ عـرـفـ الدـمـوعـ إـلـىـ عـيـنـهـاـ وـلـاـ
إـلـىـ قـلـبـهـاـ سـبـيلـاـ . وـلـعـلـ هـذـهـ التـعـالـيمـ لـمـ تـكـنـ وـحدـهـ مـصـدـرـ شـجـاعـهـاـ
وـمـبـعـثـ قـوـهـاـ . فـهـذـاـ وـلـدـهـ وـلـيمـ مـاـيـزـالـ فـيـ أـحـضـارـهـ فـلـهـ فـيـهـ عـزـاءـ.
وـهـاـ هـىـ مـاتـزالـ ، كـمـاـ لـيـزـالـ شـلـىـ ، فـيـ مـقـبـلـ الـعـمـرـ وـقـوـةـ الشـيـابـ ، فـمـاـ
يـزـالـ لـهـمـ فـيـ الـمـسـتـقـبـلـ وـأـبـنـائـهـ وـبـنـائـهـ وـسـعـادـهـ رـجـاءـ . وـكـلـارـاـ التـىـ

وارواحه والـكواكب وأفلاكها والوقت والنسيابه، و(بروموتيه)
باز اعذلك كله يجاهده وينتصر عليه . وهو هنا يخالف الاسطورة
القديمة التي تجعل هذا البطل وقد كبلته الاَلهة وألزمه قيده بسبب
محاولته مناجزتها والتغلب عليها بالعقل والحيلة . وإن كثيرين من
النقاد ليذهبون إلى تفضيل هذه القصيدة من قصائد شلي على كل
ما سواها ويعتبرونها الدرة من شعره . فاما آخرون فيذهبون إلى
تفضيل رواية (سنسي) اذير تقعون بها إلى مقام روایات شكسپير .
على أن (بروموتيه) قد نسبت على غير طراز (سنسي) . فيينا هذه
الاخيرة، على ماسترى، تعبير عن حب آثم يقع في الحمامة بين أب وابنته
اذا بتلك تتحذى من الكائنات كلها ومن الوجود وما فيه بعض
مسرحيها . وهي في هذا قد سارت على طراز قصيدة ملتوىن (الفردوس
المفقود) وان اختلافت عنها قوة بآن ارتفعت عليها في بعض المواقف
ولم تصل الى رفعتها في مواضع أخرى .

ولم يطل بشهى المقام فنابولى . وكانت يد القدر التى قست
بـه حين مقامه على أرض وطنه بـفعلته لا يطيل المكث فوقها الا يعود
إلى الارتحال عنها محلا هموماً وألاماً ماتزال لم يهدأ ثائرها عليه
برغم ما كان يبدع في الشعر من آيات ليست القصائد الكبرى الا
بعضها . فلقد صرخ ولده ولم يثنء كانوا في طريقهم عائدين إلى
روما . وخيل إلى ماري أن الأمر ليسير وأن القدر لن يفجعها
فيجيئين متوايتين ولن يسلبها هناء الأمة و هي ، بعد حب
الصبا ، كل ما للمرأة في الحياة من عزاء . وعاد الطبيب الطفل فنصح
اليهم أن ينتقلوا به شمالا . لكنهم لم يكادوا يتهيأون للرحيل حتى

أصابت الطفل فوبية من الدوسنطاريا ألمتهم المكث إلى جانبه .
وبقي شلي ستين ساعة مسماً بيد طفله خائفاً أن يفر الطفل منه إلى
غيابات الابد . ذلك بأنه كان طفلاً ذكيًا عطوفاً رقيقاً ، وكان جميل
الصورة إلى حد سحر النسوة الإيطاليات بزرقة العينين زرقة جذابة
وبشعره الذهبي المتموج تموج الحرير الناعم نعومته . ثم انه كان قد
أصبح وحيد ماري بعد موته أخته كلارا ، فالقجيعة فيه تحفي من
قلبها القجيعة الأولى وتسدل على وجهها الضحولة وعلى ثغرها العذب
الابتسم سحابة كآبة وهي تصيب شلي منها حظ غير قليل . وكان لشلي
في القراء رجاء التصرف بحكمته أداء طفل لم يقترف ذنبًا يجزى من
أجله بالموت به المرض والآلامه وتباريجه . لكن المرض والموت
وكل ما يصيبنا في هذا العالم من خير وشر ليس في نظر القراء
جزاء عمل من أعمالنا ، ولكن لوح كتابنا لا يفرق لنا من الأذعان له
والسير في خطواته . لذلك لم يعبأ بما كان مرجواً عند شلي ومات
الطفل ودفن في مقابر الانكليز بروما ، هذه المقابر التي أعجب بها شلي
وتنى لو يدفن فيها ، ولم يكن يومئذ يعلم أن ما بقي من رفاته سيمر قد
هناك إلى جانب جثمان طفله .

مات وليم فانهارت عند ماري كل تعاليم أبيها وأسلحت للألم
نفسها ولم تطق للوجود جلاداً . سكب الهم ظلمته في قلبها والتشح
الوجود كله بالسوداد أمام بصرها ورسم الحزن على ثغرها وفي نظرتها
صورة اليأس والبؤس وشرد لها إلى قفار الانتحار ، وصورت
نفسها خاتمة اختهافي إملائي . وعيثنا حاول شلي تعزيتها بالترويج
عنها بأن انتقل بها إلى الريف من روما وأسكنها قصرًا جميلاً يحيط به الـ

والشجر . وما بحجة الزهر و خضر الشجر أمام قلب كسير وبصر حزين ؟! إنها كلها تنقلب سواداً وتزيده على همـهـ هـاـ وأميـ . بل تصبح ضحـكاتـ الزـهـرـ بـعـضـ سـخـرـيـةـ الـقـدـرـ ، وابتسامةـ الـخـضـرـةـ شـمـاـتـهـ بـنـاـ فيـ مـصـابـنـاـ . وـعـبـثـاـ حـاـولـ أـبـوـهـاـ لـمـاـ عـلـمـ عـمـقـ حـزـنـهـ أـنـ يـرـدـهـاـ إـلـىـ صـوـابـهـاـ وـإـلـىـ تـعـالـيمـهـ . فالصـوـابـ وـالـتـعـالـيمـ وـالـمـنـطـقـ وـالـعـقـلـ أوـهـامـ وـصـورـ ماـ قـلـبـتـ أـنـ تـطـيرـ وـتـتـلاـشـيـ إـذـاـ هـىـ اـرـتـطـمـتـ بـقـسـوـةـ الـوـاقـعـ . وـأـىـ وـاقـعـ أـشـدـ قـسـوـةـ مـنـ الـمـوـتـ ، بـلـ مـنـ الشـكـلـ ، ثـكـلـ الـاـمـ لـوـحـيدـهـاـ وـلـأـمـوـمـهـاـ؟ـ وـشـلـىـ وـجـبـهـ وـحـنـانـهـ أـصـبـحـهـ الـأـخـرـ مـلـوـلـاـ ، شـمـنـسـىـ كـاـ نـسـىـ غـيـرـهـ أـنـ لـمـ يـبـقـ مـنـ الـوـجـودـ أـمـاـمـارـىـ الـأـحـزـنـهـ مجـسـماـ فـذـلـكـ الـقـبـرـ الـذـىـ أـوـتـ إـلـيـهـ رـفـاتـ وـلـيمـ . فـاـذـاـ نـادـاـهـاـشـلـىـ قـائـلـاـ : «ـأـينـ ذـهـبـتـ يـاعـزـيـزـيـ الـعـزـيـزـ مـارـىـ تـارـكـهـ إـيـاـيـ وـحـيـداـ؟ـ فـيـ هـذـاـ الـعـالـمـ الـقـفـرـ؟ـ اـنـ صـورـتـكـ السـاحـرـةـ مـاـ تـزـالـ هـنـاـ إـلـىـ جـانـبـيـ ، لـكـنـكـ أـنـتـ قـدـ فـرـرـتـ عنـ طـرـيقـ الـوـحـدـةـ الـمـؤـدـىـ إـلـىـ صـوـامـعـ الـحـزـنـ الـمـظـلـمـ .ـ»ـ إـذـاـ نـادـاـهـاـشـلـىـ هـذـاـ النـداءـ لـمـ تـزـدـعـلـىـ أـنـ تـمـعـنـ فـيـ التـمـاسـ صـوـامـعـ الـحـزـنـ تـارـكـهـ إـيـاهـ يـبـحـثـ عـنـ عـزـائـهـ فـيـ خـيـرـ دـوـاءـ لـكـلـ أـلـمـ وـخـيـرـ بـاسـمـ لـاـ بـلـغـ جـرـحـ :ـ فـيـ الـعـمـلـ الـمـتـصـلـ لـأـدـاءـ مـاـ أـلـقـتـ عـلـيـهـ الـاـقـدارـ رسـالـتـهـ كـيـ يـشـدـوـ بـهـاـ إـلـىـ الـعـالـمـ أـنـغـاماـ سـمـاـرـيـةـ .ـ وـأـعـانـتـهـ سـمـاءـ اـيـطـالـياـ الصـفـوـ عـلـىـ مـتـابـعـةـ تـفـكـيرـاـتـهـ وـشـدـوـهـ .ـ عـلـىـ أـنـ الـقـدـرـ الـذـىـ قـسـاـكـلـ هـذـهـ الـفـسـوـةـ بـعـارـىـ لـمـ يـلـبـثـ أـنـ دـسـ إـلـيـهـاـ مـنـ عـنـدـهـ بـلـسـمـ عـزـاءـ .ـ فـقـدـ جـمـلتـ وـأـحـسـتـ فـيـ أـحـشـائـهـ رـوـحـ الـأـمـوـمـةـ مـنـ جـديـدـهـ ،ـ لـكـنـهـاـ كـانـتـ فـيـ خـشـيـةـ مـنـ مـعـابـشـةـ الـقـدـرـ فـظـلتـ عـلـىـ عـبـوسـهـاـ وـانـ زـالـتـ سـحـابـةـ الـهـمـ الـتـىـ كـانـتـ تـظـلـهـاـ مـاـ جـعـلـهـاـ تـنـظـرـ لـلـحـيـاةـ مـرـةـ أـخـرىـ نـظـرـةـ رـجـاءـ .ـ وـلـمـ اـقـرـبـ

موعده وضعها ارتاحل بها شلى الى فلورنسا لتكون في رعاية طبيب صالح ، ثم ان في جوفلورنسا الجميل ما يضاعف الرجاء لمن لديه ولو قبس من وجاء ، فيها أجمل مافي إيطاليا من الآثار ، ويضوع ريمها باسماء دانتي ، وسافانا نارولو ، وجيو توندو ، ودوناتلو . بذلك كانت للزوجين خــير موئــل . فيها وجدشــلــ خــير ما يــلــهم شــاعــرــيــته التــواــقة لــالــجمــالــ تــلــتــمــســهــ فيــ كــلــ مــظــاهــرــ الفــنــ وــالــطــبــيــعــةــ ، وــفــيــهــاــ وــجــدــتــ هــارــىــ مــزــيــداــ فيــ رــجــاءــ . حتى اذا وــضــعــتــ وــأــلــفــتــ تــفــســهــاــ أــمــأــمــ منــ جــدــيدــ فيــ ذــرــاعــيــهــ طــفــلــ حــمــلــهــ أــحــشــأــهــ عــادــتــ ثــغــرــهــاــ أــوــلــ اــبــســامــةــ مــنــ يــوــمــ هــاــتــ وــلــيمــ ، وــدــعــتــ الــوــلــيــدــ بــرــســيــ فــلــوــرــنــســ شــلــ ، اــعــتــرــ فــاــ بــفــضــلــ زــوــجــهــ فــيــ تــقــويــتــهــ عــلــيــ اــجــتــيــازــ مــخــنــتــهــ ، وــبــفــضــلــ فــلــوــرــنــســاــ التــىــ عــادــتــ إــلــيــهــ فــيــهــ أــمــوــمــهــ وــحــيــاــهــ وــرــجــأــهــ .

ولما جاء الشتاء وقرس البرد في المدينة « الجميلة » نصح الطبيب إلى شلى بالسفر إلى بيزا ، فذهب بأهله إليها وأقاموا بها . وهنا تألفت حول شلى جماعة يعيش كل منهم عيش العزلة ، فلما وجدوا هذا الدام الترحال استقر بينهم أحاطوه ، وانضم إليهم قسيس لقبه أهل البلد بشيطان بيزا واسمه الاستاذ المبجل باكشيانى . وكان قسيساً قليلاً الدين واستاذ لا يعلم الناس شيئاً وزير نساء ومحبها خدمة معارفه . وكل من يمر ببيزا كان يصبح من معارفه . وقد قص هذا الشيطان على شلى قصة استدعت كل التفاصيل . ذلك أن للكونت ففيانى ، أحد كبار أغوان بيزا ، فتلقى من زواج أول ، وأنه مات زوج ثانية بعد وفاة زوجه الأولى ذهب بفتاتيه إلى الدير ، وأن كانت زوجة شديدة الغيرة منها لفروط جمالها . وكان جمال كبراهما (إميليا) رائعة

جمآل الملائكة ، كما كان ذكاؤها حاداً وخياطها متقدماً بما يبعث إلى كل نفس أشد الاعجاب بها والاشفاق عليها . وكأن قصد أيمها من الذهاب بها وبأختها الديرة أن يقيما فيه حتى يتزوجها من شاء من غير أن يمهره إلا بعندهما شيئاً . فلما سمع شلي بالقصة حاجت في نفسه كل عواطفه القديمة . أليس هو يريد الكمال بحسبها في اثني لها مجال المرأة وعقل الرجل ؟ وهذا هو قد ضل تقديره الكمال في هاريت جروف وهاريت وستبروك . وها هي ماري جيلدوبن وان كانت ماتزال من خير النساء اللواتي عرف إلا أنها أصبحت أمامة جسماً محسوساً ذات حدود وأبعاد وذكاء متجلياً له كل ما فيه من حكمة وشعر ، فلم يبق إذن فيها المجهول الذي يبحث هو دائماً في الحكشاف عنه والوصول إليه ! فائز إذن ما عسى أن تكون إميليا فيفيانى هذه من صور الكمال وما عسى أن قلبه من رائع الشعر والحكمة .

ولمح القسيس الشيطان هذه النوازع في نفس شلي فعرض عليه أن يصحبه إلى الديرة . وما لبست الفتاة أن دخلت عليهمما المنظرة حتى سحر شلي وذهب به : قوام رخص في لدونة واعتلال ، تخلع عليه ثياب الديرة البسيط زينة وانسجاماً وتزيد بهاء ما فيه من جمال في كل اثناء وتنوء . ومشية هي للعين ألغام موج في النفس والخيال فهزها وتبهرها . وشعر فاحم السواد ملقى على اكتافها ليزيد وجهها البديع القسمات وضوحاً بحراً . وعيون دعجاء تقىض نظراتها حباً شهرياً فيه قوة تلتهم من تقع عليه التهاما . وجبين مصقول ، وأنف أدقى ، وثغر عذب وشفاه تحدى عن فيض الرغبة . وإلى هذه الانوثة القوية الجذابة بريق ذكاء يبدو بصيغته من حدق عيونها السوداء قويًا ملتهباً .

وألفت الفتاة ساعة دخولها المنظرة عصفوراً في قفص، فتوجهت إليه بهذه الكلمات : « أيهـا الصغير المسكين ! . إنك لست اكتئاباً ! فـا أشد إشفاقـي عليك ! . ألا كـم تـتألم حين تـسمع أسراب أمـثالك تـناديـك ثم تـطيرـهـم الـرياحـ منـ غـيرـكـ إـلـىـ بلـادـ مـجـهـولةـ ! أـنتـ مـثـلـيـ مـحـتـومـ عـلـيـكـ أـنـ تـقـضـيـ هـنـاـ فـيـ سـوـادـ حـظـكـ . أـوـادـ ! لوـكـنـتـ أـسـتـطـعـ اـنـقـاذـكـ ! ». وـانـطـلـقـتـ مـرـجـلةـ مـشـلـ هـذـهـ العـبـارـاتـ بـصـوـتـ عـذـبـ سـاحـرـ تـزـيـدـهـ الـلـغـةـ الـإـيطـالـيـةـ بـجـوـسـيـقاـهـ سـحـراـ وـعـذـوبـةـ . وـزـادـتـ أـنـشـودـتـهـ لـلـطـائـرـ الـحـيـسـ بـهـ شـلـيـ فـأـسـتـأـذـنـهـ أـنـ يـعـودـ إـلـيـهـ وـأـنـ يـسـتـصـحـبـ زـوـجـتـهـ وـاخـتـهـ، فـرـضـيـتـ طـيـبـةـ النـفـسـ .

وـتـزـاـوـرـواـ وـتـكـاتـبـواـ وـأـبـدـتـ مـارـىـ اـعـجـابـهـ بـجـمـالـ إـمـلـيـاـ وـقـدـيرـ شـلـيـ إـيـاهـ عـلـىـ اـنـهـ الجـمـالـ الـاسـمـيـ . أـمـاـ شـلـيـ فـانـطـاقـ مـنـ فـوـرـهـ يـصـعـ قـصـيـدـتـهـ (ابـيسـشـديـونـ) يـصـفـ فـيـهـاـ الجـمـالـ وـالـحـبـ وـيـدـعـوـ فـيـهـاـ إـمـلـيـ لـتـذـهـبـ وـإـيـاهـ إـلـىـ قـصـرـ قـدـيمـ فـيـ جـزـيرـةـ أـبـدـعـهـاـ خـيـالـهـ بـيـنـ جـزـرـ الـأـدـرـيـاتـيـكـ لـيـعـيـشـاـ هـنـاكـ وـلـيـسـبـحـاـ بـيـنـ جـمـالـ تـلـكـ الـجـزـيرـةـ وـأـشـجارـهـاـ وـأـنـهـارـهـافـ عـزـلـةـ لـاـ يـنـفـصـمـهـ عـلـيـهـمـ أـحـدـ مـنـ الـأـنـسـ . وـانـكـ لـتـقـرـأـ القـصـيـدـةـ وـتـبـلـغـ أـبـيـاتـهـ أـرـبـعـةـ وـسـهـائـةـ بـيـتـ فـلـاتـرـىـ فـيـهـاـ أـكـثـرـ مـنـ هـذـاـ الذـىـ ذـكـرـنـاـ . لـكـنـكـ تـرـاهـ إـثـيرـيـاـ يـطـيرـ بـكـ فـيـ عـالـمـ الجـمـالـ وـيـنـسـيـكـ نـفـسـكـ بـجـوـسـيـقاـهـ وـحـلـاوـةـ صـورـهـ وـبـدـيـعـ خـيـالـهـ وـيـنـسـابـ إـلـىـ رـوـحـكـ عـذـبـاـ سـلـاسـبـيلـاـ فـلـاـ تـزـدـادـ إـلـاـ تـعـلـقـاـ بـهـ وـتـقـدـيرـاـ إـيـاهـ . وـفـيـ خـتـامـ القـصـيـدـةـ يـقـولـ : « اـذـهـيـ أـيـهـاـ الـأـيـاتـ الـضـعـيفـةـ فـاـسـجـدـيـ عـنـ قـدـمـيـ سـيـدـتـكـ وـقـوـلـيـ : إـنـيـ سـيـدـةـ عـبـدـكـ فـرـيـ أـمـرـكـ فـيـنـاـ وـفـيـهـ . ثـمـ تـنـادـيـنـ مـعـ أـخـوـاتـكـ مـنـ سـائـرـ شـعـرـيـ وـاسـجـعـنـ مـتـغـنيـاتـ :

« عذب في الحب حتى ألم . ولكن لحزناء في هذا العالم قدسي لأنه إن لم يتنا في الحياة تبعنا إلى ماوراء قبرنا » . وأنت لا زلست تحبين في حين أكون أنا قد أويت إلى هناك . فاسرعى فوق قلوب العياد حتى تقابل ماريتا وفانا وبريتوس وسائر صواحبك ، ثم أهيب بمن أن يحب بعضهن بعضاً وأن يبارك بعضهن بعضاً ، ودعني فيها وراءك قطيع المخاطئين الطاعنين على غيرهم بخطاياهم وتعالي فكوني ضيفي — فاغما أنا ضيف ، الحب . »

و قبل أن يتم قصيده ، تزوجت أميليا من غنى اسمه بيوندي قبل أن يعقد عليها من غير أن يمها أبوها . فلما علم الشاعر بأمرها أسقط في يده ولم يطق اتمام قصيده . فهاهى رمز الحب في طهارته قد فملت فملة ابنة عممه هاريت جروف و فملة النساء جميعاً من عرف . ها هي سقطت إلى مستوى القطيم تاركة إياه بعض البنان ندماً على خطئه في أمرها ويصب عليها اللعنة أن أضاعت عليه وحيه وإهامه . وفيما كان شلي في هيامه بأمياليا كان بيرون يتخطى خليلة إلى خليلة حتى انتهى إلى أجـل نسوة البندقية وتدعى جيوتشولا : وكانت من عائلة نبيلة ومتزوجة رجلاً نبيلاً . لكن صلة المرأة بخليل لم تكن في البندقية يومئذ أثراً إداً ، حتى في نظر زوجها . على أن هذه السيدة اضطررت للسفر مما هذا الزوج إلى رافنا ومن هناك دعت بيرون ليترك البندقية ويقيم عندها . فلما تلسكا بعثت إليه تخبره بأنها أمريةضة فطار إليها وأقام إلى جانبها . و كما انتقل هو من البندقية فقد نقل ابنته المجرأ إلى بولونيا . فلما

حُلِّمَتْ جين كلينتون بأمر ابنتها بعثت إلى بيروت تستطعفه أن يبعث
بها إليها . فرد عليها رداً غليظاً يقول لها فيه: إن التربية في بيته شملت
على أساس التبادلية في الحياة المادية والآخاد في الحياة الروحية مما
لا تطمئن له نفسه ، ورفض أن يسلم البنت لها . حين جنونها
وبعثت إليه بخطابات قاسية اعتذر له عنها شلى في خطاب بعث به
إليه يقول فيه : إن جين أم ، وإنه وإن لم يطلع على ما تكتب لوالد
ابنتها إلا أنه يرجوه أن ينظر إليها بعين الرحمة والمغفرة . لكن
بيروت رأى في هذا كله ما أغضبه ، فأراد أن ينتقم لنفسه من شلى .
وكان قد وصله خطاب من قنصل انكلترا في البندقية ، يقول له فيه:
إن الناس يتهمون شلى بمعاشرة جين ، وإن مربية كانت في خدمة
شلى تذيع أن جين حملت منه فأجهضها في نابولي حين كانت
زوجه في روما . وتنفيذاً لاتفاقه بعث بيروت يستدعي شلى إلى
رافنا « لأمور خطيرة ». فلما كان عنده أطلعه على خطاب القنصل
 بما هاج ثائرة شلى وجعله يكتب إلى زوجه يطلب إليها أن تكذب
ما تذيع خادمهن الأخرون . وأظهر بيروت اقتناعه بما كتب ماري
وان لم يقم بأى مجهود لدى القنصل في البندقية يبدد به ما علق
بذهنه من أكاذيب .

وزار شلى اللجزير في الدير الذي بعث بها إليه أبوها ، في بانيوكافالو ،
فاللهاها كبيرة ولكن النحول بدا عليها . ومع نحوها بدت وسط
الأطفال قريناً لها في جمال جذاب يدل على أنها أرق منهن وأرق
منبتاً . غير أن حياة الدير كانت بمحبت تعرض صحتها بل تعرض
حياتها للخطر .

و كانت خليلة بيرون معززة السفر الى سويسرا . فطلب بيرون
 الى صديقه أن يكتب اليها ، ولم تسبق له بها معرفة ، ليقنعها
 بالعدول عن فكرتها والذهاب الى فلورنسا أو الى يازا ، وفاضت
 السعادة بشلي حين علم أنها قبلت الذهاب الى يازا المقام على مقربة
 منهم . ولم يجد بيرون اعتراضاً أن كانت جين قد تركت تلك المدينة
 الى فلورنسا حيث قامت بأمر التعليم في إحدى مدارسها . ولم يلبث
 اللورد أن نزل المدينة الصغيرة التي يقيم فيها شلي حتى أبدت جمعيتها
 كل الاعجاب به ، فصار قصره مقصد المتألقين في حين بقي شلي الرسول
 الروحي لأهل المدينة جميعاً . وكانت حياة بيرون حياة ترف
 لم يطمه شلي . فقد كان يسرر الليل كله ثم ينام في الصباح الى ما بعد
 الظهر ويذهب من بعد ذلك للصيد ويعود الى سهره ثم الى مكتبه
 ليبدع قصائده التي استوقفت أنظار إنكلترا كلها فكانت تلهمها
 التهاماً . وكان حقاً على شلي أن يتحمل هذه الحياة زمناً كان يعتبر
 صاحبه فيه ضيفاً عليه في يازا . لكنه مالبث أن رأى ماري تريد
 الانحراف في سلك هذه الجماعة المترفة حتى صدف عنها وعاد الى
 حياته البسيطة الأولى . و وجد في أسرة انكلزية مقيمة ببيزا
 مايسر له الابتعاد عن بيرون و مجتمعه . تلك أسرة ولها زوج
 وزوجة جين . وكانت جين ولها وشيقه رقيقة هادئة . النسخ
 موسيقية الصوت يريح وجودها أعضاء من يتصل بها . وكان
 صوتها حلو الغناء مما اتاح لشلي أن يذهب وهو معها في أحلامه
 الشعرية . وكانت يسيراً وسط حديقة غناء . وزاده إعجاباً بجين

وليم ملأ بذات عليه مارى من الشكوى من أنها لا تجد من أسباب
المسرة في الخليفة ما يجده غيرها .

وكان لا مرة وليمز صديق بخاد من الاشقياء يدعى ترلوى .
وقد دعوه إلى بيزا ، فاشترط أن يكونوا سبب تعارف بينه وبين
شلى ، وبينه وبين بيزون بنوع خاص . فوعده وليمز بهذا ولم يكن
عليه عسيراً . وجاء ترلوى فانضم إلى عصبتهم . ولما ربطت المعرفة
بينه وبين شلى برباط وثيق طلب إليه ان يبني له ولو لم يختار شتر كان
فيه ، واختار لنفسه ولو لم يبيت على الشاطئ قريبا من بيزا فأقام فيه
ومعه ما مارى وجين ، وجعل شلى من يختنه من كبار ياضته وخيالاته
واحلامه ، وشعر بالسعادة تقىض عنه وبآلة الشعر توافقه بالهامها
من كل جانب .

والحق أن آلة الشعر لم تضن على شلى بأهامها يوما من الأيام .
لكنها كانت في هذه الفترة وخلال الأربع السنوات والنصف التي
اقامها في إيطاليا أشد بأهامها فيضا ، حتى ليدهش الإنسان حين يرجع
إلى ديوانه متى استطاع أن يكتب هذا الشعر الملائكي كله ، ثم
ليزداد دهشة إذا رجع إلى رسائله وإلى شره فرأها لا تقل عن إهامها
الشعري غزاره فيض ولا قوة عبارة ولا ملوك العالم الجمال وكل ماحوى .
ولو أنك أردت أن تحصي ما كتب من شعر في هذه الآونة ووحدتها
لبلغ عشرات الآلوف من الأبيات بل مئات الآلوف ! وليس يقف
ما كتب من هذا عند قصائد السكري كقصيدة (بروموتيف)
و (سنسي) و (ساحرة الأطلس) و (ايبيشيديون) و (قناع
الغرضي) و (أدونايس) و (هلاس) وغيرها وغيرها . بل إن

له مقطوعات يقر مترجموه جمِيعاً بأنها أباق الشعر الإنساني كلها على
الذهب . وهذه المقطوعات التي يتحدث بها صرفة إلى قبرة ، وأخرى
عن سجابة ، وغيرها عن شجرة حساسة ، وأخرى إلى النيل وعشرات
ومئات غيرها ، هي لاريب خير ماتغنى به شلي معبراً به عن صلته
بملائكة الجمال في الوجود . ولقد تغنى في هذه المقطوعات كما تغنى
في مواضع كثيرة من قصائد الكبري ، ف glam على كل ما تغنى به حياة
لم نكن لتجسمها له ، فإذا بك وقد قرأت شلي محسساً بها لامساً إليها
معترفاً بأنك أنت الذي كنت عاجزاً عن رؤيتها بمحرك واكتناها
بقلبك . وليس شعره وحده هو الخالق حياة جديدة في الوجود .
بل أن لنثره من هذه القوة ما شعره ، وإن كانت موسيقى شعر شلي
عما يزيد في قوة خلقه حياة وقوة .

ولشعر شلي جوانب شتى لمح القارئ ، بعضها فيما قدمنا له من
ترجمته . فثم جانب حياته هو وتغنيه بما كان يرتجوه فيها . و(روح
الوحدة) و (أبيسنديون) وكثير من مقطوعاته تعبر عن هذا الجانب
خير تعبير . تترنم القصيدة الأولى بياس الشاعر والأم وركوبه زورق
الحياة على لجة الوجود ملتمساً في العدم راحة من آلامه ، واجداً
في خيالات الحب هذه الاعرابية التي صرت به ثم تبعه طيفها عزاء
نفسه عن بعض هذه الآلام حتى تسكن إلى الموت سكونها الأخير .
وقصيدته الثانية هي قصيدة الجمال والحب مجسدين في إملائيا ففيما
أما الكثير من مقطوعاته فيتضوّع بشذا الحب والجمال ويترنم بموسيقاهما
على صورة لم تعرف في شعر غير شعر شلي . فلقد كان من عباد جمال
المرأة والذين يجدون فيه عثال ، البكلال الإنساني مجسماً . و كانوا كلهم

جسمه يصبو الى هذه الاجسام التي تتمثل فيها الروح الانسانية بكل
 فوازعها معنى الجمال الانساني . لكنه كان يسبح من عبادته
 هذا الجمال في خيال قسر تهالقه فضيلته وألزمته اياد آراءه ومبادئه .
 لذلك لم يكن يدع لصبوة جسمه أن تنزلق مع تيار الغريزة باحثة
 عن الاتصال بمن صبا اليه ، بل كان يدع هذا الاتصال لعقله وخياله
 ولشعره يصوغ من الاتصال آى الحكمة وأهاريج الجمال . وهو
 هنا مختلف عن بيرون وعن كثيرين من الشعراء الذين يجدون
 في صبوة الجسم الى الجسم شفاء لغريزة تحليد النوع كل ما يسعى
 اليه الحب بل كل ما يحرك في النفس هذه العاطفة . وهذا المعنى
 الذي تراه صريحا جليا في شعر شلي هو الذي كان ينتهي باليأس
 الى تقوس كل من أحبيته من النسوة ، وبما يشبه اليأس الى نفس
 ماري أكثيرهن ذكاء وأسماهن حكمة . فالمرأة التي ترى في فضيلة
 شلي معنى من معانى الواقعية والزهد في الحياة والرغبة عنها تشعر
 بنقص في الحياة على حين خلقها الطبيعة اتزيد فيها وتستزيد منها
 على أن جمال المرأة وان زان كل جمال في الوجود وتوجه
 فليس ما في الوجود سواه من جمال أقل إلهاما لنفس
 الشاعر وتحدى الى قلبه . بل إن كثيراً من جمال الوجود ليخلع على
 المرأة جالا وزينة بمقدار ماتزینه هي وتحمله . ولئن كنت ترى هذين
 اللوين من الجمال مقتريين أكثير الاخرين في نفس أكثير الشعراء ،
 إلا أن جمال الوجود مكانة خاصة من نفس شلي تقاد تجعل الجمال
 لذاته آية ايمانه في الحياة . وهو في هذا أصدق من كثيرين غيره
 نظرة وأدق حسا . وهو لهذا كان يريد أن يفصل بين المرأة كمثال

للجمال والمرأة كخلدة للنوع وكان يبحث فيها عن الجمال في مثله الأعلى ،
 وكان لذلك لا يرى جمال الجسد قيمة مالم يصبح روح جميل هو الآخر .
 وفيما سوى هذا الجانب من جوانب شعر شلي كانت المدينة
 الفاضلة غاية قصده من أكثر قصائده . المدينة الفاضلة بما فيها من
 أخاء وسامح وحرية وتبادل محبة . المدينة الفاضلة المزدهرة عن دنيا
 الشهوات ، السامية إلى مكانة هي وحدها الجديرة بالانسانية المذهبة .
 و (الملائكة ماب) و (بر وموتيه) و (سنسي) نفسها اندفاعات صادقة
 في الدعوة إلى هذه الغاية العليا وحرب شعواء على الجمود وعلى التعصب
 وعلى ما يؤدي إليه الجمود والتعصب من تحكم الشهوات الدنيا في الروح
 الإنسانية تيمكا ينهى بها إلى فسادها وذلها . ولعل هذه الصورة التي
 صورها الشاعر من آثار الجمود والتحكم أشد ما تكون وضوحا
 في (سنسي) منها في آية قصيدة أو رواية أخرى . فقصيدة هذه
 الرواية التي وضعها الكثيرون من النقاد والكتاب في صفح روايات
 شكسبير ، أن الكوانت سنسي بلغ من كراهيته ابنته وأبنته من زوجته
 متوفاة ، أن حدثته نفسه بالفتى بعفاف ابنته بيتريس . وشعرت
 الفتاة بالكره التي يريد لها أبوها عليها فدببت مع أخيها وزوج
 أمها مؤامرة للتخلص من حياة ظالمهم جميعاً . وإنما جاءوا إلى
 الائتمار بحياته بعد أن جاءوا إلى إنبايا وإلى كبراء روما فلم يجدوا
 منهم منصفاً . وكشف الآباء المؤامرة فشكلاهم إلى قداسة البابا فأمر
 بإعدامهم وفقاً لارادة الكوانت الذي اشتري من القدسية العليا
 العفو عن كثير من جرائمهم بثمن زاد على مائة ألف من الجنيهات .
 ولو أن العدل أخذ مجراه في هذه المؤامرة لكان (سنسي) هـ

لخلائق بأأن يجزى أشد الجزاء . لكن في اعدامه اعداما للاموال
البطائة التي كان ينفقها على الخزانة البابوية ! فليعدم الفقراء ، وان
كانوا أنصار الفضيلة ، ولتبق الجماعة على حياة الرذيلة ما دامت تقييد
منها . ثم لتشر الفضيلة على لسان شلى في أشعار هذه الرواية الخالدة
ثورة تدك عرش الظلم وتهز قوام الظالمين .

وهو هذا الدفاع عن الحرية وعن الفضيلة ومحاولة الارتفاع
بجميل المرأة ليكون مثالا لها هو الذي كان يفرق بين شلى وبيرون
ويجعل من كل واحد ند صاحبه . وطبعي أن كان اقبال الجمهور
يومئذ على شعر بيرون . فالجمهور أسير الشهوات يلتمسها في واقع
الحياة . ولئن صح أن كانت السنة أخلق أقلام الحق فلبيرون أن
يزهى على صاحبه وان ينظر اليه مشفقا عليه . لكنه كان في الخيال كما
كان في الواقع يستشعر الغيرة منه ، وكأنما كان يجري به خياله الى
لحج المستقبل يلتمسها فيتبين خلاها ما أعدد له شلى من عظمة وخلد
يناسان خلده وعظمته ويدعو الكثرين لتفضيله عليه .

وكان حب شلى للجميل ودفاعه عن الحرية أثرا من آثار طيبة
قلبه وحبه الناس وبره باصدقائه . وقد عرف أنباء مقامه بكازاماني
بالقرب من بيزا أن صديقه لي هنت في عوز فدعاه الى ايطاليا ،
وانتفق ولو زد بيرون أن يعمد هنت جريدة في ايطاليا يكون لها
امتياز السبق الى نشر قصائد بيرون . وفيما كان هنت في طريقه الى بلاد
الشمس والضياء ، كان شلى سعيداً بيتها سعيداً بزورق صغير صنع
له كى ينقله وصاحبها وليمز من اليخت الى بيته أن كانت مياه البحر
لاتسمح برسو اليخت على الشاطئ . وكان كثيراً ما يستلقى أنباء

دخلاته على الماء تاركا السفين يلعب به الموج ذاتياً هو في تيهاء
تأملاته وأحلامه . فذا عاد إلى داره التمس في مجاوراته مكاناً منعزلاً
بين الغياض والشجر وقضى نهاره يقرض من شعره أبوسيف الساحر
ما يهبه للحياة والحرية تارة وزوجه ماري طوراً ولجين ول Miz التي
أصبحت ربة شعره في هذه الفترة الأخيرة أكثر الأحاسين . وكثيراً ما
كان ينقضي النهار وهو في عمله عند جذع شجرة الخدشة وسط
الغابة مكتباً ، ناسيماً أثنا عذلك طعامه وشرابه ، مكتباً على خياله
وشعره ، حتى لسان زوجه وستان صاحبه ترلوبي يذهبان إليه
ينتشلأنه من عالمه الجميل السعيد ويردانه إلى الحياة التي يعيش فيها
على طريقته من التقشف والزهد .

ووصل لي هفت ، فذهب شلي وقابله في ليفورنو ، ومن
هناك ذهب به إلى بيرون في ييزا يتموا الاتصال في شأن
الجريدة التي تحدث شلي لصاحبه الشاعر الكبير عنها . ومع
ما بعث به فقرهنت وسوء حال أولاده من التقوز إلى نفس بيرون ،
فقد ظل به شلي حتى انتهى بالزمامه أن يقوم بعمل من أعمال البر لرجل
أخلص للأدب والشعر حياته . فلما آتى له ان يرتحل عائداً إلى
يلته فوق سفينته عصفت ريح جعلت السفارة مخوفة ، حتى لقد تردد
ترلوبي الذي قضى فوق لج البحر حياته في أن ينصح لها بالسفر . لكن شلي
كان إذا اعتبر فعل . فاصطحب صديقه ول Miz وغلاماً معهما وأقلعوا
يوم الاثنين الثامن من أغسطس سنة ١٨٢٢ وانتظرهما زوجاهما في
ذلك اليوم الذي انقضى من غير أن تلقا همما على خبر . وانقضى الثلاثاء
والاربعاء بعده فجن جنونهما وطاش صوابهما وذهبتا إلى ليفورنو

باختيئن عنّما، وعلم ترلوبي بحال الروجتين فـأـيـقـنـ أـنـ صـاحـبـيهـ هـلـكـافـ
زورـقـهـماـ،ـ وأـخـذـ نـفـسـهـ بـالـبـحـثـ عـلـىـ شـاطـيـءـ الـبـحـرـ ماـ يـمـ لـيـفـورـ فـوـ
وكـازـامـانـيـ حتـىـ اذاـ كانـ الـرـابـعـ عـشـرـ مـنـ أغـسـطـسـ عـشـرـ الغـائـصـونـ
بـجـيـةـ عـبـثـ الـأـمـاكـ بـوجـهـهاـ وـاـنـ لـمـ تـخـفـ مـعـالـمـهـ .ـ وـأـنـيـ تـرـلوـيـ فـيـ
جيـبـ الجـاـكتـةـ كـتـابـ اـسـكـيلـوسـ فـلـمـ تـبـقـ لـدـيـهـ دـيـبةـ فـيـ أـنـهاـ جـيـةـ
شـلـيـ .ـ شـمـ لـمـ يـطـلـ بـالـغـائـصـينـ الـبـحـثـ حتـىـ عـثـرـواـ بـجـيـةـ وـلـيـزـ .ـ وـدـفـهـمـاـ
ترـلوـيـ فـيـ الرـمـلـ شـمـ ذـهـبـ مـكـتـبـاـ حـزـيـناـ إـلـىـ كـازـامـانـيـ .ـ وـحاـولـ أـنـ
يـدـخـلـ خـاتـمـهـ قـوـاهـ بـخـعـلـ يـدـورـحـولـ المـنـزـلـ حتـىـ لـحـتـهـ خـادـمـ ،ـ أـخـبـرـتـ
سـيـدـتـيـهـاـ بـالـأـمـرـ .ـ فـاـلـبـتـتـاـ أـنـ رـأـتـاهـ حتـىـ تـبـدـدـ كـلـ وـهـمـ مـنـ رـجـاءـ بـقـيـ
عـنـدـهـاـ وـحتـىـ اـنـهـدـتـاـ إـلـىـ الـأـرـضـ صـعـقـتـيـنـ قـضـىـ عـلـيـهـمـ التـرـمـلـ وـالـهـمـ .ـ
وـلـمـ أـفـاقـتـاـ ذـكـرـتـ مـارـىـ مـاـكـانـ يـرـجـوـ زـوـجـهـاـ أـنـ يـدـفـنـ فـيـ
مقـابـرـ الـأـنـكـلـيـزـ بـرـوـمـاـ .ـ لـكـنـ تـقـلـ الجـيـةـ مـنـ بـيـزاـ إـلـىـ رـوـمـاـ غـيـرـ جـائـزـ
بـحـكـمـ قـانـونـ الـبـلـادـ إـلـىـ تـحـرـقـ الجـيـةـ وـتـقـلـ بـقـيـةـ التـرـابـ مـنـهـاـ .ـ
فـيـ ظـهـرـ السـادـسـ عـشـرـ مـنـ شـهـرـ أغـسـطـسـ سـنـةـ ١٨٢٢ـ ،ـ وـقـفـ
لـورـدـ بـيـرـوـنـ وـالـشـاعـرـ لـيـ هـنـتـ وـالـبـحـارـ تـرـلوـيـ فـوـقـ رـمـالـ الشـاطـيـءـ
الـأـيـطـالـيـ عـلـىـ مـقـرـبـةـ مـنـ لـيـفـورـ فـوـرـ يـحـيـطـ بـهـمـ عـدـدـ مـنـ أـهـلـ تـلـكـ
الـمـنـطـقـةـ وـيـقـفـ إـلـىـ جـانـبـهـمـ جـمـاعـةـ مـنـ الضـبـاطـ وـالـعـسـاـكـرـ الـأـيـطـالـيـمـ ،ـ
وـكـلـهـمـ مـحـدـقـ بـيـصـرـهـ إـلـىـ نـادـ تـضـطـرـمـ قـدـ بـوـرـكـ بـالـبـيـنـدـ صـبـ عـلـيـهـاـ وـبـالـمـلـحـ
أـلـقـيـ فـيـهـاـ وـيـفـوحـ مـهـارـيـحـ الـلـحـمـ الـأـنـسـانـيـ ،ـ وـكـلـهـمـ وـاجـمـ مـخـلـوـعـ الـقـلـبـ
ذـاهـبـ فـيـ تـيـهـاءـ الـأـهـلـاءـ وـالـدـهـوـلـ .ـ وـظـلـ هـذـاـ الـمـنـظـرـ الـمـرـوـعـ أـمـاـهـمـ ثـلـاثـ
سـاعـاتـ تـبـاعـاـ يـهـزـ نـفـوـسـهـمـ هـزـأـ فـلـاـ يـزـادـوـنـ إـلـاـ وـجـوـمـاـ وـذـهـوـلـ ،ـ
وـتـنـدـيـ عـيـنـ بـعـضـهـمـ بـالـدـمـعـ شـمـ تـذـرـفـهـ أـنـ لـاـسـتـبـطـيـعـ حـبـسـهـ .ـ وـيـحـدـقـ

تلوني بالعظام تحرق وباللحم تذيه النار ، ثم قبدأ النار بعد ذلك .
تخبو رويداً رويداً تاركة وراءها حفنة من تراب هي كل ما باقى من
رفات قيشاره الشعر الانكليزى شلى . ويحمل تلوني الحفنة الى
الارملة البايسة ماري شلى لتنولى ويتولى هو ولها هنت معها حملها الى مقابر
البروستانت فى روما كى تستقر هنا فى ارض غريبة عن ثرى الوطن ولكن
لتسعد مع ذلك باستقرارها الى جانب رفات عزيزة محبوها هى رفات
ابنه وليم . ويقع هذا المنظر المروع وتنقل تلك الرفات القدسية الى
روما ، ولم يكن شلى قد بلغ الى يوم وفاته فى الثامن من أغسطس
تمام الثلاثين من عمره وان كان قد خاف من شعره على الحياة
مالايز الـ نفر الشعر الانجليزى عدوة وموسيقى قاخدان
بالنفس وتمكناه على المرء حسه وليله وتبعثان الى كل ما تشنداه
وتترمان به الحياة والخلد ، سواء كان ما تشنداه وتترمان به
الإنساناً أو طيراً أو حيواناً أو جاداً أو مجرد خيال لا وجود في الحياة
له ، ذلك بأن الحياة كانت تسرى في كل ما لامس نفس شلى لتبقى
قائمة به قروناً ودهوراً بعد موته باعثراً .

كان الفراغ من طبع هذا الكتاب في ٢٠ ديسمبر سنة ١٩٢٩

فهرس

١٨٢
١٧٧
٧٦٧
٧٧٣
٧٧٤
٦٣٣
٦٣٣

الكتاب الأول: ترجم مصرية

٣١ مقدمة

صفحة

٧

كليوباطره

٣٣

اسحاعيل باشا

٥٣

توفيق باشا

٧٩

محمد قدرى باشا

١٠٩

بطرس باشا غالى

١١٩

مصطفى كامل باشا

٩٣٩

قاسم بك امين

١٦٣

اسحاعيل باشا صبرى

١٨١

محمود باشا سليمان

١٩٧

عبد الخالق ثوت باشا

٢٠٥

الكتاب الثاني: ترجم غربية

٢٣٩ تهوفن

٢٦٥ تين

صفحة

شکسپیر	٢٩٣
شلی	٣١١
١ - نشانه الاولی	٣١٢
٢ - هاریت وستبروک	٣٢٧
٣ - بعض ترہ و شعرہ	٣٤٣
٤ - ماری جدون	٣٥٥
٥ - سخنی حیاتہ الاخیرۃ بايطالیا	٣٧٤

- ٦٧٧ ملکہ کنگز
 ٦٨٥ ایک دلیل
 ٦٩٣ ایک دلیل
 ٦٩٩ ایک دلیل
 ٧٠٦ ایک دلیل
 ٧١٢ ایک دلیل
 ٧٢٢ ایک دلیل
 ٧٣٧ ایک دلیل
 ٧٤٧ ایک دلیل
 ٧٥٦ ایک دلیل

للمؤلف تحت الطبع

خلال أوربا

ذكريات

رسائل مختارة

جان حاك روسو — الجزء الثالث وهو الاخير

رسائل فلسفية : مؤلفة و مترجمة

11875577

B12152711

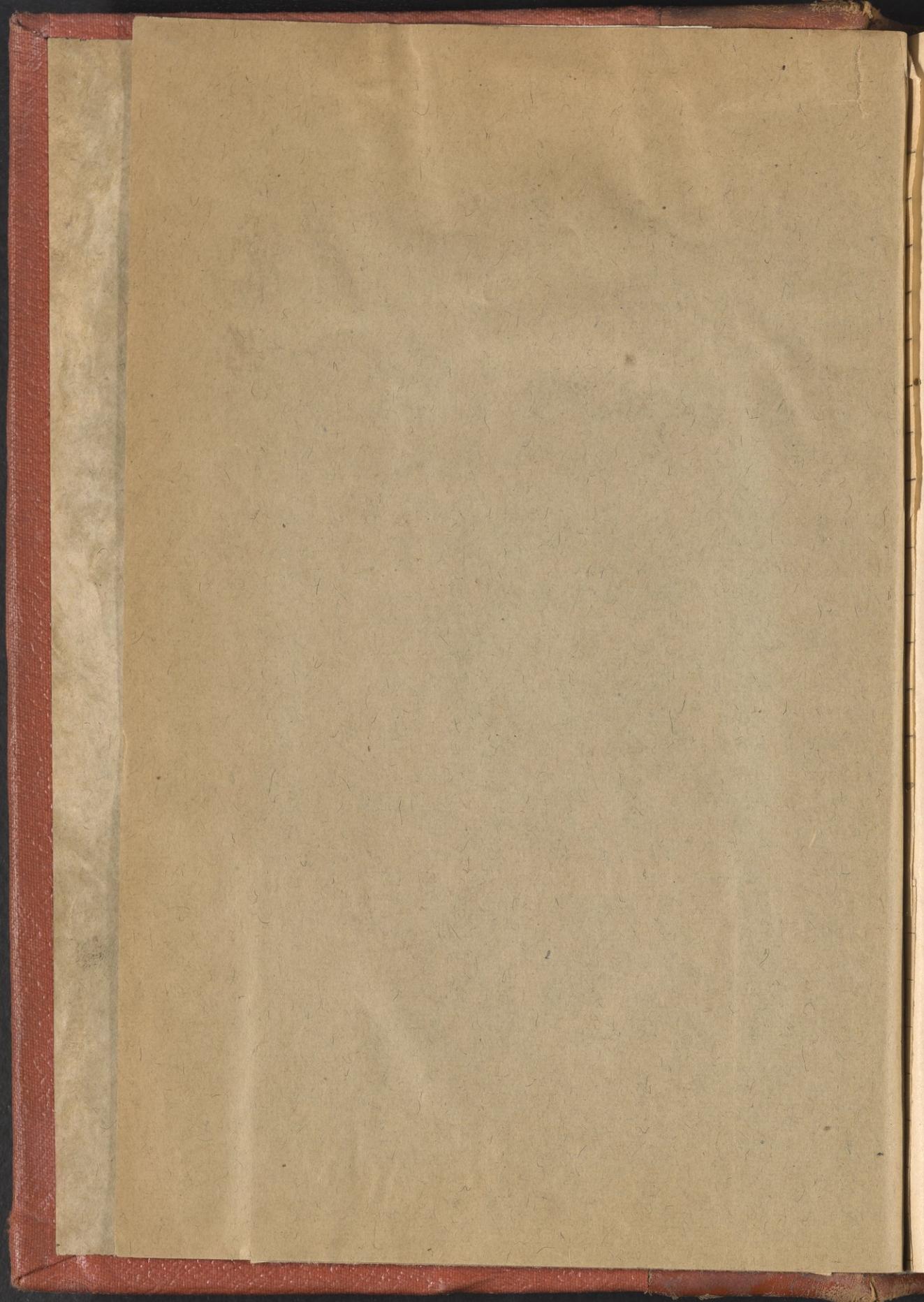
allied

insects

and fungi

Kansas - High Country

and plants





1 0 0 0 0 0 8 1 2 5 7

SEP '71

DT
107.2
A2
H3
1929
c.1

C. LIPPARI

